مارك ليفي



مارك ليفي

الليلة الأولى

ترجمة: جوزف كالوستيان



للطباعة والنشر والتوزيع

La Premiere Nuit

الليلة الأولى

تأليف: مارك ليفي

ترجمة: جوزف كالوستيان

دار الخيال للطباعة والنشر والتوزيع
بناية يعقوبيان بلوك ب طابق 3 – شارع الكويت
المنارة – بيروت – 2036 6308
لبنان – تلفاكس: 009611-740110
E-mail: alkhayal@inco.com.lb

التنفيذ الفني دار الخيال للطباعة والنشر والتوزيع
الطبعة الأولى 2012

إهداء

إلى بولين ولويس ورفاييل

***

«في قرارة كل واحد منا شيء من طبيعة روبنسون وسط عالم جديد لا بد من اكتشافه ويوم جمعة يتعين لقاؤه».

إليونور وول فيلد

***

«هذه القصة حقيقية لأني أنا اخترعتها»

بوريس فيان

إسمي والتر غلينكورس، وأنا وكيل إدارة الأكاديمية الملكية للعلوم في لندن. التقيت أدريان قبل أقل من عام عندما جرى ترحيله على عجل إلى وطنه انكلترا من موقع أطاكاما الفلكي في التشيلي، حيث كان يرصد السماء بحثاً عن النجم الأصلي. أدريان عالم فيزياء فلكية ذو موهبة خارقة، أصبحنا، على مر الشهور، صديقين حقيقيين.

وإذا كان لا يحلم في حياته إلا بتحقيق هدف وحيد، هو مواصلة أعماله حول أصل الكون، ولما كنت أجدني في وضع مهني محيّر جراء إدارتي المالية المفجعة، أقنعته بالمثول أمام أعضاء مؤسسة علمية كانت قد نظمت مباراة في لندن، خصصت لها مكافأة مالية سخية.

لقد راجعنا معاً عرض مشروعه طوال أسابيع، فانعقدت بيننا خلالها أواصر صداقة خالصة، ولكن سبق لي القول إننا كنا صديقين، أليس كذلك؟

لم نفز بتلك المباراة، إنما منحت الجائزة لعالمة آثار شابة حادة الطبع بقدر ما هي ثابتة العزم، كانت تقوم بحملة تنقيب في«وادي أومو» في أثيوبيا، حين دمرت عاصفة رملية مخيمها وأرغمتها على العودة إلى فرنسا.

في ذلك المساء الذي شهد بداية كل شيء، كانت هي أيضاً تقيم في لندن يحدوها الأمل بالفوز بالهبة المرصودة

والعودة مجدداً إلى إفريقيا لمتابعة أبحاثها حول أصل البشرية.

إن مصادفات الحياة غريبة، وقد سبق أن التقى أدريان كيرا، عالمة الآثار الشابة هذه، وعاشا معاً حكاية حب امتدت سحابة فصل صيف، إلا أنهما لم يتلاقيا منذ ذلك الحين.

كان أحدهما يحتفل بانتصاره، والآخر بخيبته. أمضيا الليل سوياً، وفي الصباح انطلقت كيرا تاركة لأدريان ذكرى حب قديم بريء وقلادة غريبة حملتها من إفريقيا. القلادة عبارة عن حجر عَثر عليه في فوهة بركان صبي أثيوبي، يدعى هاري، كانت كيرا آوته وتعلقت به تعلقاً شديداً.

عقب رحيل كيرا، اكتشف أدريان، في ليلة عاصفة، خصائص مدهشة لهذه القلادة، فكانت حين يخترقها مصدر نور ساطع كالصاعقة مثلاً، تقذف ملايين من النقاط الضوئية الصغيرة.

ما لبث أدريان أن أدرك سبب ذلك. كانت تلك النقاط، تبدو غريبة جداً ومثيرة للدهشة، إذ أنها تطابق خريطة لقبّة السماء، لا أية خريطة وإنما جزء من السماء، أو صورة للنجوم كما كانت ماثلة فوق الأرض قبل أربعمائة مليون سنة.

ما إن أتيح لأدريان التثبت من هذا الاكتشاف الرائع، حتى خرج للقاء كيرا في وادي أومو.

ولكن، للأسف، لم يكن أدريان وكيرا وحدهما يبديان الأهمية بهذه القلادة الغريبة. فقد تعرّفت كيرا إلى أستاذ عجوز في علم الأجناس البشرية، كان يدعى إيفوري خلال إقامة لها بباريس حيث كانت في زيارة أختها. اتصل هذا الرجل بي وتمكن أخيراً من إقناعي بأشد الطرق نذالة ـــ وإني لأعترف بذلك ـــ بضرورة تشجيع أدريان على مواصلة أبحاثه.

قدّم لي، لقاء خدماتي، مبلغاً زهيداً من المال زهيداً ووعدني بأنه سوف يتبرّع بسخاء للأكاديمية فيما لو كُتب لأدريان وكيرا النجاح في أعمالهما. وافقت على هذه الصفقة، وأنا أجهل حينذاك أن مؤسسة سرية تتعقب أدريان وكيرا، وأنها، خلافاً لإيفوري، لم تكن تريد، مهما بلغ الثمن، أن يصلا إلى غايتهما ويكتشفا قطعاً أخرى.

سرعان ما علم أدريان وكيرا، بعدما أوضح لهما هذا الأستاذ العجوز المسألة، أن الأداة التي عُثر عليها في البركان القديم ليست فريدة في نوعها، بل ثمة أربع أو خمس قطع مشابهة لها في مكان ما على الكرة الأرضية. لذا عقدا العزم على إيجادها.

قادهما هذا البحث من إفريقيا إلى ألمانيا، ومن ألمانيا إلى إنكلترا، ومن إنكلترا إلى حدود التيبت، ثم، بتحليقهما سراً فوق «برمانيا» حتى إلى «شبه جزيرة اندامان»، حيث أخرجت كيرا من التراب في جزيرة «ناركوندام» حجراً ثانياً شبيهاً بقلادتها.

ما إن تم توحيد القطعتين حتى حدثت ظاهرة غريبة، فتجاذبتا كأنهما قطعتا مغناطيس، واتخذتا لوناً أزرق لا مثيل له وبدأتا تشرقطان بآلاف الومضات. وهكذا توجه أدريان وكيرا، وقد زادهما هذا الاكتشاف حماساً وتحفيزاً، توجها إلى الصين، على الرغم من التحذيرات والتهديدات التي وجهتها إليهما المؤسسة السرية. كان من بين أعضائها، الذين تتم مخاطبة كل واحد منهم باسم مدينة كبيرة، لورد إنكليزي، هو سير آشتون، يتصرف بمعزل عن الآخرين، وهو مصمم، مهما كلف الثمن، على وضع حد لرحلة كيرا وأدريان.

ماذا فعلتُ وأنا أحثهما على المثابرة في سعيهما؟ لماذا لم أفهم مغزى الرسالة لما شاهدتُ مصرع كاهن تحت أنظارنا؟ لماذا لم أقدر خطورة الوضع، ولماذا لم أقل حينئذ للأستاذ إيفوري أن يتدبر الأمور بمعزل عني؟ كيف لم أخطر أدريان بأن هذا العجوز يستغله... وبأنني كذلك

أستغله، أنا الذي أدّعي صداقته؟

بينما كان أدريان وكيرا يهمّان بمغادرة الصين، وقعا ضحية مؤامرة رهيبة. إذ قامت سيارة منطلقة على طريق جبلية بإسقاط مركبتهما الرباعية الدفع في وهدة عميقة، فغرقت في مياه النهر الأصفر، واستطاع رهبان كانوا على ضفة النهر أثناء وقوع الحادث، إنقاذ أدريان من الغرق، أما جثة كيرا فلم يتم العثور عليها.

عاد أدريان بعد فترة نقاهته من الصين إلى وطنه، رافضاً استئناف عمله في لندن. ومضى، وقد آلمه اختفاء كيرا، يبحث عن ملاذ له في بيت طفولته القائم فوق جزيرة هيدرا اليونانية الصغيرة. وُلد أدريان من أب إنكليزي وأم يونانية.

انقضت ثلاثة أشهر، قاسى أدريان خلالها ألوان العذاب لغياب حبيبته، بينما كنت أنا أحاول، تحت وطأة الشعور بالذنبِ، كظم غضبي، عندما تسلمت في الأكاديمية طرداً مرسلاً إليه من الصين، من قبل مجهول، يحوي بداخله الأمتعة التي تركها هو وكيرا في الدير، ومجموعة من الصور تعرفت فيها فوراً إلى كيرا. كانت تحمل على جبينها ندبة غريبة، ندبة لم أكن لحظتها البتة حتى ذلك الحين. فأعلمتُ إيفوري بذلك، فانتهى به الأمر إلى إقناعي بأن

ذلك ربما انطوى على دليل بأن كيرا ما زالت على قيد الحياة.

أردت مراراً أن ألزم الصمت وأترك أدريان وشأنه، ولكن كيف السبيل إلى حجب أمر كهذا عن علمه؟

وعليه توجهت إلى هيدرا، فيما طار أدريان مجدداً وبسببي أنا إلى بكين، وقلبه دافق بالأمل.

لئن أهمّ الآن بكتابة هذه السطور، فذلك بقصد تسليمها ذات يوم إلى أدريان والإعراب له تالياً عن شعوري بالذنب. وإني لأرفع الدعاء كل مساء علّه يتمكن من قراءتها ويغفر لي كل الإساءة التي اقترفتها في حقه.

أثينا، 25 أيلول

والتر غلين كورس

وكيل إدارة الأكاديمية الملكية للعلوم

دفتر أدريان

الغرفة رقم 307. في المرة الأولى التي نمت فيها هنا، لم أُعر المشهد أي انتباه، لأني كنت حينها سعيداً، والسعادة تجعل المرء شارد الذهن. جلست أمام هذا المكتب الصغير قبالة النافذة، تمتد بكين أمامي وما أحسست يوماً بأني تائه إلى هذا الحد طوال حياتي. إن مجرد فكرة إمالة رأسي صوب السرير كان أمراً لا يحتمل. فغيابك عني تغلغل في باطني كأنه موت بطيء ما انفك يشق طَريقه. إنه أشبه بحيوان الخلد في جوفي. حاولت مراراً أن أخدره من خلال غمر وجبة فطوري بوفرة بالـ «بايجيو» ، ولكن حتى الكحول المستخرج من الأرز لم يؤثر فيه.

استغرق الطيران عشر ساعات دون أن يطبق لي جفن، لا بد مع ذلك أن أنام قبل مواصلة طريقي. كل ما أنشده هو بضع لحظات من اللاشعور، هنيهة إهمال لن أرى خلالها ما عشناه هنا يتوالى أمام ناظري.

«هل أنتَ هنا؟».

كنت طرحت عليّ هذا السؤال عبر باب غرفة الحمام، لبضعةَ أشهر خلت. أما اليوم فما عدتُ أسمع إلا طبطبة

قطرات الماء التي تتسرب من حنفية عتيقة وتطقطق على خزف مغسلة بهتت نضارتها.

دفعتُ الكرسي، لبست معطفاً مغادراً الفندق. أوصلتني سيارة تاكسي إلى منتزه جنكسهان. جزتُ حديقة الورود وسلكت الجسر الحجري الذي يعلو حوض الماء.

«إنني سعيدة لوجودي هنا».

وأنا كنتُ كذلك. ولكن لو عرفتُ فقط نحو أي مصير كنا نتدحرج، عن غير دراية منا، متلهفين إلى تحقيق اكتشافات. «لو كان في وسعي تجميد الزمان لأوقفته عند هذه اللحظة المحددة. ولو كان في الإمكان أن أرجع القهقرى لعدت إلى هنا...».

رجعتُ إلى المكان الذي صغت فيه هذه الأمنية، أمام غرسة الوردة البيضاء تلك، في أحد ممرات منتزه جنكسهان، غير أن الزمان لم يوقف مجراه. ثم دخلتُ المدينة المحرمة من بابها الشمالي، متجهاً عبر ممراتها ولا دليل يهديني سوى بعض الذكريات المتعلقة بك.

فتشّت عن مقعد حجري قرب شجرة ضخمة، أو عن رصيف صخري غريب حيث كان زوجان صينيان طاعنان في السن يجلسان قبل وقت ليس ببعيد، لعلي إن وجدتُهما

ثانية أشعر بشيء من الطمأنينة، وقد ظننت أني اقرأ في ابتسامتهما الوعد بمستقبل زاهر لنا كلينا، أو لعلهما كانا يضحكان بكل بساطة من المصير الذي يتربص بنا.

وفّقت أخيراً في العثور على ذلك المقعد الشاغر، فتمددت عليه، بينما كانت أغصان صفصاف تتأرجح في الريح، فيهدهدني رقصها المتراخي. أغمضت عيني، فتراءى لي محياك سليماً لا عيب فيه واستسلمت للرقاد.

أيقظني رجل أمن راجياً إياي بمغادرة المكان، فقد هبط الليل ولم يعد الزوّار مرحبّاً بهم.

لدى عودتي إلى الفندق، اهتديت من جديد إلى غرفتي. كانت أنوار المدينة تدحر الظلمة. فانتزعت غطاء السرير، بسطته على الأرض وتلبّدت فيه. أخذت مصابيح السيارات ترسم أشكالاً غريبة على سقف الغرفة. ولكن ما الجدوى من إضاعة مزيد من الوقت، فأنا لن أعرف إلى النوم سبيلاً.

تناولت أمتعتي، بعد تسديد حسابي في مكتب الاستقبال واستعدت مركبتي من موقف السيارات.

دلّني جهاز الـ «جي بي أس» على وجهة كسي آن، فيما كان الليل يتلاشى كلما دنوت من المدن الصناعية

ليعاود الظهور وسط سواد الريف الحالك.

توقفتُ في «شيجياز هوانغ» لملء خزان السيارة بالوقود، ولكن من دون ابتياع طعام. إنك كنت ستنعتينني بالجبان، ولعلك لن تكوني مخطئة، غير أني لَست جائعاً، فلماذا تجريب الشيطان إذاً؟

بعد مائة كيلومتر، وجدتُ القرية الصغيرة المهجورة فوق قمة رابية، فسلكت الطريق المحدبة، وأنا عاقد العزم على بلوغها لمشاهدة الشمس تشرق على الوادي. يقال إن الأماكن تحتفظ بذكرى اللحظات التي عاشها المحبون، قد تبدو هذه الفكرة غريبة، إلا أني شعرت بالحاجة إلى تصديقها في ذلك الصباح.

ثم جلت في الأزقة الخالية، متجاوزاً مسقى الساحة الرئيسية. لقد اختفت الكأس التي كنت عثرت عليها بين أنقاض المعبد الكونفوشيوسي. لا بد أَن أحدهم، كما سبق وتوقعتِ، قد حملها معه وفعل بها ما حلا له.

جلستُ فوق صخرة على حافة جرف ورحت أترقّب طلوع النهار اللامحدود ثم استأنفت المسير.

إن عبور «لنفن» ما زال يثير فيّ الغثيان كما كانت الحال أثناء الرحلة الأولى، وسحابة تلوّث حاد أهاجت

حلقي. فتناولتُ من جيبي قطعة القماش التي منها ارتجلت كمامتين واقيتين. لقد وجدتها بين الأمتعة التي أعادوا إرسالها إلي من اليونان. لا أثر فيها لعطرك، لكني حين وضعتُها على فمي، بدأت أرى من جديد كل حركة من حركاتك. كنتِ، ونحن نعبر لنفن، قلتِ شاكية:

«إنها لجهنمية هذه الرائحة...». كل شيء كان بالنسبة إليك ذريعة للتذمر. والآن ما زلت أود سماع معاتباتك.

وبينما كنا نمرّ من هنا شككت أصبعك وأنت تفتشين في أمتعتك، واكتشفت مذياعاً صغيراً مخبوءاً داخل حقيبتك. كان علي، في ذلك المساء، أن أتخذ القرار بالعودة أدراجي فنحن لم نكن على استعداد لمواجهة ما يتربص بنا، لأننا لم نكن مغامرين، وإنما مجرد عالمين يتصرفان على شاكلة صبيين طائشين.

الرؤية هنا رديئة على الدوام، ولا بد أن أطرد عني الأفكار السيئة هذه لأتمكن من التركيز على الطريق. أذكر أني، لدى خروجي من لنفن، كنتُ قد اصطففت في الممر الجانبي على حافة الطريق، واكتفيت بالتخلص من المذياع الصغير دون اكتراث للخطر الذي يمثله، وذلك لانشغالي وحسب بهذا التطفل في خصوصياتنا. في تلك اللحظة كنت قد بحتُ لك بأني متشوق إليك، وبأني رفضت، بدافع الحياء

أكثر منه بدافع اللهو، الإعلان عن كل ما يرغّبني فيك.

واقتربت من مكان وقوع الحادث، حيث دفعنا مجرمون إلى وهدة عميقة وبدأت يداي ترتجفان:

«ينبغي أن تدعه يتجاوزنا».

العرق يقطر من جبيني.

«خفّف السرعة، أدريان، أرجوك».

عيناي تلذعانني.

«مستحيل، إنهم يطاردوننا. هل أنتِ مثبتة بالحزام؟»

وكان ردك بالإيجاب على هذا السؤال الذي طرح عليك في شكل إيعَاز. وكانت الصدمة الأولى قد قذفت بنا، إلى الأمام. فتراءت لي أصابعك تشد العلاّقة بقوة حتى شحبت سلامياتك. كم ضربة تلقينا على ماصّ الصدمات قبل أن تصدم العجلات الجدار الواقي وننزلق في الهاوية؟

عانقتك بينما كانت مياه النهر تغمرنا، وغصتُ بعيني في عينيك فيما كنا آخذين في الغرق، ومكثت معك حتى اللحظة الأخيرة، يا حبي.

ثم توالت المنعرجات، فحاولت عند كل منعطف ضبط

حركات بالغة التوتر، والعودة بالسيارة إلى الطريق السوي. هل تجاوزت تشعب طريق، حيث يؤدي درب صغير إلى الدير؟ منذ رحيلي إلى الصين يحتل هذا المكان ساحة تفكيري. والراهب البوذي الذي استقبلنا فيه هو الشخص الوحيد من بين معارفي في هذه البقاع الغريبة. مَن غيره سيكون بإمكانه أن يزودني بأثر يقودني مجدداً إلى العثور عليك، أو أن يؤمّن لي معلومة تعزز بصيص الأمل بأنك ما زلت على قيد الحياة؟ إن صورة لك تبدين فيها بندبة على جبينك ليست بشيء يُذكر، إنها قطعة ورقية أخرجها من جيبي مئات المرات في اليوم. أتعرّف إلى يميني على مدخل الدرب، لكني تأخرتُ جداً في الفرملة، فانزلقت السيارة واضطررت للعودة إلى الوراء.

غاصت عجلات المركبة الرباعية الدفع في الوحل الخريفي، في أعقاب أمطار هطلت طوال الليل. فاصطففتُ عند فسحة معشوشبة تحت الشجر وأكملت طريقي سيراً على قدمي. ولئن كانت ذكرياتي سليمة، فسوف أجتاز مخاض ساقية وأتسلق منحدر رابية ثانية، لألمح عندئذ فوق قمتها سطح الدير.

لقد استغرق وصولي إليه مسيرة ساعة تقريباً. كانت الساقية، خلال هذا الفصل، أعلى مستوى ولم يكن اجتيازها

بالأمر اليسير. كانت بعض الحجارة المستديرة الضخمة تكاد تجاوز مستوى المياه الصاخبة، كما كان سطحها زلقاً. لو رأيتني في هذا الوضع القليل اللياقة حفاظاً على التوازن، لأدركتُ أنك كنت تهزئين بي. هذه الفكرة حثتني على متابعة السير، فانتابني إحساس بالتراجع أشد من إحساسي بالتقدم.

إن الأرض اللزجة تلتصق تحت خطواتي، لذا لا بد من بذل جهود دؤوبة لبلوغ القمة. لا شك أن مظهري، بعد تعرضي للبلل والوحل أشبه بمظهر إنسان مشرّد، وإني لأتساءل حول الاستقبال الذي سيُعدّه لي الرهبان الثلاثة الذين أقبلوا لملاقاتي.

إنهم ألزموني، من دون أن ينبسوا بكلمة، باقتفاء أثرهم. وصلنا أمام باب الدير، فقادني ذاك الذي لم يكفّ أثناء السير عن التثبت من أني ما كنت لأتركهم دون استئذان، إلى قاعة صغيرة، تشبه تلك التي نمنا فيها. ودعاني إلى الجلوس، فملأ قصعة ماء صاف، جثا قبالتي وأخذ يغسل يديّ ورجليّ ووجهي. ثم ناولني بنطالاً كتاناً وقميصاً نظيفاً وغادر الغرفة، فما عدتُ أراه طيلة فترة بعد الظهر.

بعد قليل، جاءني راهب آخر حاملاً لي ما أسترد به

قواي. ففرش على الأرض حصيراً، فهمت آنذاك أن هذا المكان سيصبح غرفتي الليلة أيضاً.

جنحت الشمس إلى الغروب، وعندما تلاشى بريقها الأخير وراء الأفق، حضر أخيراً ذاك الذي أتيت للقائه.

ــ لا أدري ما الذي يدفعك إلى المجيء هنا. ولكن ما لم تعلن لي عن نيتك بالاختلاء بنفسك للرياضة، سأكون لك ممتناً إن عدتَ أدراجك اعتباراً من الغد. فقد تعرّضنا للعديد من المضايقات المماثلة بسببك أنت.

قلتُ قلق البال: هل لديك أخبار عن كيرا، المرأة الشابة التي كانت ترافقني؟ هل رأيتها مجدداً؟

ــ آسف لما حدث لكليكما، ولكن إذا كان أحدهم قد أفهمك أن صديقتك بقيت على قيد الحياة بعد ذلك الحادث الرهيب، فهذا مجرد كذبة. أنا لا أدّعي أني مطلع على كل ما يجري في المنطقة، غير أن هذا، صدقني، كنت سأعرفه.

ــ لم يكن حادثاً! وقد شرحتَ لنا سابقاً أن ديانتك تحظّر عليك الكذب، لذا أعاود طرح سؤالي عليك: هل أنت على يقين من أن كيرا ماتت؟

ــ من غير المجدي رفع الصوت عالياً في هذه الأمكنة،

فهذا لن يكون له أي أثر فيّ وفي مريدينا كذلك. لا أملك يقيناً، بل كيف لي ذلك؟ والنهر لم يردّ جثة صديقتك، هذا كل ما أعلمه، وليس في الأمر ما يثير العجب، نظراً إلى سرعة التيار وعمق النهر. المعذرة إن كنت ألّح على مثل هذا النوع من التفاصيل، إني أتصور أنها تشقّ على السمع، ولكن أنت طرحت السؤال علي.

ــ والسيارة، هل عثروا عليها؟

ــ إذا كانت الإجابة موضع اهتمامك حقاً، فإنه سؤال يجب طرحه على السلطات حتى ولو كنت أنصحك بشدة بعدم محاولة القيام بذلك.

ــ لماذا؟

ــ سبق وقلت لك إننا تعرضنا لمضايقات، ولكن لا يبدو أن هذا يسترعي اهتمامك أكثر من ذلك.

ــ أي نوع من المضايقات؟

ــ أوَ تظن أن الحادث الذي تعرضتما له بقي من دون ذيول؟ قوى الأمن قامت بتحقيقها، لأن اختفاء امرأة من رعايا دولة أجنبية في أرض الصين لا يعتبر حدثاً تافهاً. وبما أن السلطات لا تحب أبداً أديرتنا، فقد كان لنا الحق في تلقّي زيارات من نوع مزعج على الأرجح. وتمّ بالتالي

استجواب رهباننا بطريقة فظّة، واعترفنا بأننا آويناك، إذ يحظر علينا قول الكذب. من هنا سيتبين لك أن مريدينا لا ينظرون بعين الرضى إلى عودتك بيننا.

ــ كيرا على قيد الحياة، يجب أن تصدقني وتساعدني كذلك.

ــ إنه قلبك هو الذي يحدثك، وأنا أتفهم ضرورة تشبثك بهذا الأمل، لكنك برفضك مواجهة الواقع، تغذي ألماً يتآكلك من الداخل. لو بقيت صديقتك تنعم بالحياة، لعادت إلى الظهور في مكان ما وعلمنا تالياً بالنبأ. لا شيء في هذه الجبال يخفى على أحد. أخشى، واحسرتاه، أن يكون النهر قد احتجزها، لذا فأنا متأسف كل الأسف وأشاركك غمك وأساك. الآن أفهم لماذا قمت بهذه الرحلة وإني لخجل أن أكون ذاك الذي يتوجب عليه أن يردك إلى دنيا الصواب. من الصعب أن يعلن المرء الحداد من دون جثة تُوارى الثرى، ومن غير قبر يجتمع حوله أهل الفقيد، بيد أن روح صديقتك هي بقربك على الدوام وستظل قريبة منك ما دمت وفياً لحبها.

ــ آه، أرجوك، وفّر على نفسي مثل هذه التفاهات! فأنا لست مؤمَناً، ولا مكان خير من هنا.

ــ إنه حقك، ولكن بالنسبة إلى رجل فاقد النور مثلك،

ها أنت على الأغلب في حرم دير.

ــ لو كان إلهك موجوداً لما وقع شيء من كل ما وقع.

ــ لو أصغيتَ إلي حين نصحتك بعدم الإقدام على هذه الرحلة إلى جبل «سوا سهان»، كنت تداركت المأساة التي أصابتك اليوم. وبما أنك لم تأت للاختلاء بنفسك للرياضة الروحية، فمن العبث أن تطيل الإَقامة هنا. أخلد إلى الراحة هذه الليلة وارحل. أنا لا أطردك، إذ ليس هذا من حقي، لكن سأكون ممتناً لك فيما لو كففت عن استغلال ضيافتنا.

ــ أين يمكنها أن تكون، لو كُتب لها البقاء على قيد الحياة؟

ــ عد إلى بيتك!

وانكفأ الراهب إلى صومعته.

أمضيت الليل برمته أحاول، وعيناي جاحظتان، البحث عن حلّ. هذه الصورة الفوتوغرافية لا يمكنها أن تكذب. وأنا، خلال ساعات الطيران العشر من أثينا إلى بكين، ما توقفت لحظة عن النظر إليها وما زلت أفعل في ضوء شمعة. هذه الندبة على جبينك هي حجة أريدها أن تكون دامغة. ولما تعذّر عليّ النوم، نهضت دون أن أثير أي ضجيج، وأزلقت لوحة أوراق الأرز التي تقوم مقام الباب.

ضوء خافت هدى خطاي فتقدمت في ممشى باتجاه قاعة ينام فيها ستة رهبان. أحسّ أحدهم بحضوري، لأنه تقلّب في فراشه وتنشق بعمق، لكنه لحسن الحظ لم يستفق. تابعتُ طريقي، فاشخاً بخطى خافتة على الأجساد المتمددة على الأرض بغية الوصول إلى فناء الدير. القمر هذا المساء مكتمل ثلثاه، وفي وسط الفناء بئر جلست على حافتها.

ضجة جعلتني أنتفض، ويد استقرت فوق فمي كابتة كل رغبة في الكلام، فتعرفتُ إلى الـ لاما (الراهب البوذي) وقد أشار عليّ باتباعه. فغادرنا الدير وسرنا عبر الريف حتى شجرة الصفصاف الكبيرة، حيث استدار أخيراً ووقف قبالتي.

قدمتُ له صورة كيرا.

ــ متىٍ سوف تعي أنك تُعرضنا جميعاً للخطر، وتعرّض نفسك أولاً؟ ينبغي أن تعود أدراجك، لقد تسببت هكذا في وقوع الكثير من الأضرار.

ــ أية أضرار؟

ــ ألم تقل لي إن الحادث الذي وقع لك لم يكن واحداً منها؟ لماذا تفكر أني أجرّك بعيداً عن الدير؟ ما عدتُ أثق

بأحد. وأولئك الذين ينحون باللوم عليك لن يخطئوا في توجيه ضربتهم إليك مرة ثانية إذا ما هيأتَ لهم الفرصة. أنت لست شديد الحذر وأخشى أن يكون حضورك إلى المنطقة قد اكتُشف أمره الآن، فيما يعتبر نقيض ذلك بمثابة أعجوبة، شرط أن يستمر طيلة فترة بلوغك بكين وركوبك الطائرة.

ــ لن أذهب إلى مكان قبل أن أعثر على كيرا.

ــ كان ينبغي أن تحميها من قبل، أما الآن فقد فات الأوان. ولا أدري ما اكتشفته أنت وصديقتك، ولا أريد أن أعرف ذلك، لكني أناشدك مرة أخرى، إرحل من هنا!

ــ أعطني قرينة، مهما كانت ضئيلة، أو أثراً أقتفيه وأنا أعدك بالرحيل مع بزوغ النهار.

حدّق الراهب فيّ ملياً وسكت، دار على عقبيه منطلقاً ناحية المعبد، فتبعته. ولدى العودة إلى الفناء، رافقني في صمت إلى غرفتي.

ها قد ارتفع النهار كثيراً، وتغيير نظام التوقيت وعناء السفر قد تغلّبا علي. لعل الوقت قارب الظهيرة عندما دخل الراهب البوذي الغرفة حاملاً معه قصعة أرز ومرقة موضوعتين فوق لوحة خشبية صغيرة.

قال، مبتسماً: لو فاجأوني وأنا أقدم لك فطورك على السرير، لاتهموني بالرغبة في تحويل مكان الصلاة هذا إلى غرفة للضيوف. إليك ما تتغذى به قبل متابعة طريقك. فأنت ستسلك اليوم طريق العودة، أليس كذلك؟

أومأت برأسي موافقاً. إذ لا جدوى من الإصرار على العناد، لأني لن أنال منه شيئاً على الإطلاق.

حينئذ قال الراهب قبل أن ينصرف: إذاً، عودة موفقة.

اكتشفتُ، وأنا أرفع قصعة المرقة، ورقة مطوية أربع طيات. فأزلفتها بشكل تلقائي في راحة يدي ودسستها بحذر في جيبي. وما إن فرغت من التهام وجبتي حتى ارتديت ملابسي، وتحرّقت شوقاً إلى قراءة ما كتبه لي الراهب البوذي، لكن مريدين اثنين كانا في انتظاري أمام الباب وتوجها بي ثانية إلى طرف الغابة.

عندما حان أوان الفراق، قاما بتسليمي طرداً مغلفاً في ورق لدن ومربوطاً بخيط قنب. انتظرت، فور جلوسي وراء المقود، أن يبتعد الرهبان كي أبسط الورقة وأطلّع على مضمون النص المخصص لي:

«لئن رفضت العمل بتوصياتي، فاعلم أني سمعتُ أن راهباً شاباً دخل دير «غارتهر» عقب وقوع الحادث لك

بأسابيع قليلة. الأرجح ألا يكون لذلك أي علاقة ببحثك أنت، ولكن من النادر جداً أن يستقبل المعبد مريدين جدداً. لقد تناهى إلى مسمعي أن هذا المريد لم يكن راضياً عن خلوته الروحية. ليس في مقدور أحد أن يخبرني من يكون. أما أنت إن قررت التشبث بعنادك واستئناف تحقيقك اللامعقول هذا، فانطلق بسيارتك ناحية شنكدو. وأوصيك، ما إن تصل إلى هناك، بأن تتخلى عن مركبتك. فالمنطقة التي سوف تتوجه إليها لاحقاً فقيرة جداً، وسيارتك الرباعية الدفع ستلفت الانتباه فيما أنت تفضّل الاستغناء عن لفت الأنظار. البسْ في شنكدو الثياب التي عملت على تسليمك إياها، إذ ستساعدك على الاندماج بلا عناء مع سكان الوادي. واركبْ حافلة متوجهة ناحية «جبل يالا». ثم لا أعلم بماذا أوصيك، إذ يتعذر على رجل أجنبي دخول دير غارتهر، لكن من يدري، لعل الحظ يبتسم لك.

كن حذراً، فأنت لست وحيداً، وبالأخص قم بحرق هذه الورقة».

ثمانمائة كيلومتر تفصلني عن شنكدو، وتلزمني تسع ساعات للوصول إليها. لم تبقِ لي رسالة الراهب البوذي فسحة كبيرة من الأمل، إنه وُفّق في تبديج هذه الأسطر بقصد إبعادي فحسب، لكني لا أعتقد أنه قادر على ارتكاب

مثل هذه القسوة. كم مرة سأطرح على نفسي السؤال وأنا في الطريق إلى شنكدو...

عن يساري، تنشر سلسلة الجبال ظلالها المخيفة على الوادي الرمادي الأغبر، وتخترق الطريق السهل من الشرق إلى الغرب. وأمامي تنتصب، وسط المشهد، مداخن فرنين عاليين للصهر.

«ليوزهزهن»: مقالع مكشوفة، سماء قاتمة فوق رقع حقول، حقول لاستخراج معادن، مشاهد ذات كآبة لا متناهية، آثار مصانع قديمة مهجورة.

أمطرت السماء ولم تتوقف عن الهطول، ومسّاحتا الزجاج تكدّان لصرف المياه التي تسيل، والطريق زلقة. حين تجاوزت سيارة شحن، نظر إلي السائقون بغرابة. ليس ثمة كثير من السياح يرتادون هذه المنطقة.

جزتُ مائتي كيلومتر، وما زالت أمامي ست ساعات من الطريق. أود لو أنادي والتر، أسأله اللحاق بي فالوحدة ترهقني، وأنا ما عدت أحتملها. فقدتُ عنفوان شبابي في مياه النهر الأصفر الكدرة. ألقيت نظرة على المرآة العاكسة، بدا وجهي متغيراً. قد يقول لي والتر إنه التعب، لكني أعرف أني قطعت مرحلة دقيقة، ولا مجال للرجوع إلى الوراء. كم تمنيت لو تعرّفت إلى كيرا قبل ذلك، ولم

أهدر كل هذه الأعوام متوهماً أن السعادة كامنة في ما أنجزه من أعمال. السعادة أشد تواضعاً، إنها في الآخر.

في طرف السهل، انتصب أمامي حاجز من الجبال. وهناك لافتة تشير بحروف غريبة أن شنكدو ما زالت تبعد ستمائة وستين كيلومتراً. والآن يطالعني نفق، لأن طريق السيارات تدخل في الصخر، ويستحيل بالتالي سماع المذياع، ولكن لا بأس، فألحان موسيقى البوب الآسيوية لا تحتمل. سأتوقف في محطة خدمة في غوانكيان.

القهوة لذيذة. وضعتُ علبة بسكويت بجانبي وتابعت طريقي.

كل مرة أغوص في واد ضيق، أكتشف دساكر صغيرة. الساعة تجاوزت الثامنة مساء عندما بلغت «ميانيانغ». في هذه المدينة المتطورة بالعلوم والتقنيات العليا وصلت الحداثة إلى مستويات أخاذة. على ضفة نهر، تقوم أبراج شاهقة من زجاج وفولاذ. هبط الظلام وأثقل عليّ الإرهاق. عليّ أن أتوقف طلباً للنوم ورغبة في استعادة قواي. أدرس الخريطة، فور بلوغي شنكدو، سيستغرق التحاقي بدير غارتهر ساعات عدة بالحافلة. لن أصلها هذا المساء، ولو بذلت كل ما أوتيت من إرادة طيبة.

أخيراً، وجدتُ فندقاً، تركت سيارتي فيه وأخذت أمشي

والمتنّزه المكسو بالإسمنت المحاذي للنهر. لقد توقف المطر عن الهطول. كانت بعض المطاعم تقدم العشاء على شرفات مبللة تدفئها مصابيح الغاز.

الوجبة دسمة بعض الشيء بحسب ذوقي. في البعيد، أقلعت طائرة وسط هدير مصمّ، وارتفعت فوق المدينة منعطفة ناحية الجنوب. إنها رحلة المساء الأخيرة على الأرجح. أين يتوجه ركابها الجالسون وراء تلك الكوى المضيئة؟ لندن وهيدرا بعيدتان جداً. فجأة اسودت الدنيا في عيني. إن كانت كيرا على قيد الحياة، فلماذا هذا الصمت؟ لماذا لبثت كل هذه المدة وأخبارها منقطعة كلياً؟ ماذا جرى لها فبرر اختفاءها على هذا النحو؟ لعل ذلك الراهب على حق من أنني معتوه حتى أتشبث بمثل هذا الوهم؟ إن الأرق يزيد الأفكار السوداوية حدة وسواد الليل يدركني. يداي رطبتان، وهذه الرطوبة تتغلغل في جسمي بأكمله. فأرتعش وأشعر بالحر وبالبرد. يدنو النادل مني، أحس بأنه يسألني إذا كان كل شيء على ما يرام. أود لو أجيبه، لكني أعجزعن التفوه بكلمة ما. وأستمر في مسح قفا عنقي بفوطة المائدة ويسيل ظهري عرقاً ويخيل إليّ صوت هذا النادل آتياً من بعيد بعيد، ويصبح نور الشرفة شفافاً، كل شيء يدور حولي ثم يحلّ العدم.

تبدّد الكسوف، ومرة جديدة وُلد النهار شيئاً فشيئاً، هل أسمع صوتاً فاثنين فثلاثة؟ إنهم يتحدثون إلي بلغة لا أفهمها. برودة لطيفة حطّت على وجهي، لا بد أن أفتح عيني.

أرى ملامح امرأة عجوز تداعب خدي وتفهمني أن الأسوأ قد مضى. إنها تبلل شفتي وتغمغم كلمات تتراءى لي مفعمة بالطمأنينة.

أشعر بوخز يجتاحني وبالدم يسري ثانية في عروقي. لقد تعرضت لوعكة. إنه التعب أو مرض كامن في أو شيء ما لم يكن يجدر بي أن آكله، أنا الآن واهن القوى يتعذر عليّ التبصر في الأمور. لقد مددوني على أريكة مصنوعة من فرو الخلد في القاعة الخلفية من المطعم. وانضم إلى السيدة العجوز، التي تُعنى بي، رجل هو زوجها. وقد أخذ بدوره يبتسم لي، إلا أن وجهه كان أكثر امتلاء بالتجاعيد.

حاولت التحدث إليهما لأزجي الشكر لهما، فقرّب العجوز كوباً من فمي واضطرني إلى شربه. الشراب مرّ، لكن للطب الصيني خصائص لا يمكن الشك في نجاعتها، إذ ذاك أذعنت له.

هذان الزوجان الصينيان شديدا الشبه بذينك الزوجين اللذين التقيناهما ذات يوم في حديقة جنكسهان العامة،

يظنهما المرء توأمين، وهذا الانطباع ملأني طمأنينة. شعرت عندئذ بأجفاني تغمض وبالنعاس يغلبني.

أن أنام وأنتظر استعادة قواي، هو خير ما يحسن بي أن أفعله، لذا فأنا أنتظر.

باريس

كان إيفوري يذرع غرفة استقباله جيئة وذهاباً. لم تكن لعبة الشطرنج تميل لمصلحته، وفاكيرز قد حرك فارسه معرضاً ملكته للخطر. اقترب من النافذة، أزاح الستار ونظر إلى المركب ــ النزهة الذي ينحدر في مياه السين.

سأل فاكيرز: أتريد أن نتحدث عنه؟

أجاب إيفوري: عن ماذا؟

ــ عما يشغل بالك إلى هذا الحد.

ــ أو يبدو لك أني فريسة الهم؟

ــ إن طريقة لعبك توحي بذلك، إلا إذا كنتَ تتمنى أن تجعل الفوز من نصيبي، وفي هذه الحال، فإن تظاهرك بمنحي هذا الفوز يكاد يعود عليّ بالمهانة، أود لو بحتَ لي بما يشغل بالك.

ــ لا شيء، نمت قليلاً الليلة الماضية، مع إني كنت أستطيع من قبل أن أبقى يومين بلا نوم. أترى هل أخطأنا بحق الله لنستحق عقاباً ظالماً مثل عقاب الشيخوخة، ولماذا يعاقب به الكثير من الصالحين؟

ـ أرى ـ دون أن تكون لي الرغبة في التباهي بأنفسنا ـ أن الله أظهر على الأرجح جانب الرأفة في ما يتعلق بنا!

ـ لا تحقد علي، قد يكون من الأحقّ أن نضع حداً لهذه السهرة. في كل حال، كان بإمكانك أن تغلبني في أربع نقلات.

ـ بل بثلاث! إنك ما زلت أشد انغماساً في الهم مما كنت أتصوره، لكني لا أريد أن أُكرهك على البوح بشيء. ما زلتُ صديقك، وسوف تحدثني عما يقلقك متى سيحلو لك.

نهض فاكيرز، متوجهاً صوب مدخل البيت. ارتدى معطفه المضاد للمطر والتفت وراءه. كان إيفوري لا ينفك ينظر من خلال النافذة.

ـ أسافر غداً إلى أمستردام، تعال لقضاء بضعة أيام في ربوعها، لعل برودة الترع ستساعدك على استعادة قدرتك على النوم. ستكون ضيفاً علي.

ـ كنت أظن من الأفضل ألا يلمحنا الناس سوياً.

ـ لقد أقفل الملف. ولم يعد هناك داعٍ للّعب بهذه الألعاب المعقدة. ثم كفَّ عن الشعور بالذنّب على هذا

النحو، فأنت لست مسؤولاً، بل كان ينبغي أن نتوقع أن سير آشتون سيستبق غيره. إني لمتأسف مثلك للطريقة التي آلت إليها هذه القضية، ولكن ليس في مقدورك بعد الآن عمل شيء.

ــ كان الجميع يساورهم الشك بأن سير آشتون سوف يتدخل عاجلاً أم آجلاً وهذا النفاق يوافق الجميع، وأنت تعلم ذلك مثلما أعلمه أنا كذلك.

ــ أعدك، إيفوري، أني لو اشتبهت بطرقه السريعة لقمت بما في وسعي لردعه عن ذلك.

ــ وماذا كان في استطاعتك القيام به؟

ــ أحدَّ فاكيرز النظر إلى إيفوري، ثم خفض عينيه.

ــ إن دعوتي إلى أمستردام ما زالت قائمة، تعال متى ترغب في المجيء. كلمة أخيرة: أفضل ألا تسجل مباراتنا التي جرت هذا المساء على لوحة النتائج العائدة إلينا. أسعدتَ مساء، إيفوري.

لم يجبه إيفوري. أغلق فاكيرز باب الشقة، دخل المصعد وضغط على زر الطابق الأرضي. تردد وقع خطواته على بلاط قاعة الاستقبال، وسحب باتجاهه باب المدخل الرئيسي مجتازاً الشارع.

كان الليل رقيقاً. مشى فاكيرز ورصيف أورليان ثم استدار ناحية واجهة المبنى إلى الطابق الخامس، حيث كانت أنوار قاعة استقبال إيفوري قد انطفأت للتو. رفع كتفيه وتابع نزهته. عندما دار عند زاوية شارع «له روغراتيه»، هداه نداءان من مصباحين سريعين نحو سيارة سيتروان مركونة على طول الرصيف. فتح فاكيرز الباب وجلس داخل السيارة. وضع السائق يده على مفتاح الإشعال، إلا أن فاكيرز حال دون إتمام حركته.

ــ لننتظر لحظات قليلة، إن شئت.

ظل الرجلان صامتين. تناول الذي كان وراء المقود علبة للسجائر من جيبه ونقل واحدة منها إلى شفتيه ثم أشعل عود ثقاب.ما الذي يثير اهتمامك إلى هذه الدرجة حتى نبقى هنا؟

ــ غرفة الهاتف تلك، القائمة في مواجهتنا بالضبط.

ــ ماذا تقول؟ ليس ثمة غرفة للهاتف فوق هذه الأرصفة.

ــ من فضلك، أطفئ السيكارة.

ــ هل يزعجك الدخان الآن؟

ــ لكن الطرف المتوهج، نعم.

كان رجل يتقدم على امتداد الرصيف، اتكأ بمرفقه على حاجز الطريق.

سأل سائق فاكيرز: هل هو إيفوري؟

ــ لا، إنه البابا!

ــ يتكلم وحده؟

ــ بل بهاتف.

ــ من؟

ــ هل تتعمد التظاهر بالغباء إلى هذا الحد؟ إن كان يخرج من منزله في قلب الليل ليجري مكالمة من على الأرصفة، فذلك يعني على الأرجح ألا يعرف أحد مع من يتكلم.

ــ إذاً، ما الفائدة من بقائنا مختبئين، ما دمنا عاجزين عن سماع حديثه؟

ــ للتحقق من حسٍّ باطني راودني.

ــ وهل يمكننا الذهاب الآن وقد تحققتُ من حسك الباطني؟

ـ كلا، ما سوف يحدث بعد ذلك يهمني أيضاً.

ـ ألديك فكرة عما سيحدث لاحقاً؟

ـ كم أنت ثرثار، يا لورنزو! ما إن يقفل الهاتف حتى يقذف بقرص هاتفه الخلوي في نهر السين.

ـ وهل تنوي الغوص في النهر لاستعادته؟

ـ إنك لغبي حقاً، يا صديقي المسكين.

ـ لو قمت بدلاً من توجيه الشتيمة إلي، بشرح ما ننتظره؟

ـ ستكتشفه بنفسك خلال لحظات قليلة.

لندن

رنّ جرس الهاتف في شقة صغيرة مطلة علىٍ شارع أولد برومتون. نهض والتر من سريره، لبس مفضلاً ودخل غرفة الاستقبال. ثم صاح وهو يقترب من الطاولة المستديرة حيث جهاز الهاتف: ها أنذا، قد أتيت!

تعرَّف في الحال إلى صوت محدثه.

ــ أما من جديد، كالعادة؟

ــ لا، يا سيدي. لقد عدتُ من أثينا، في نهاية بعد الظهر. أربعة أيام مضت على وجوده هنالك، آمل أن تتوافر لدينا أخبار طيبة عما قريب.

ــ أتمنى ذلك أيضاً، ولكن لا يسعني أن أتمالك نفسي عن القلق، فقد قضيت الليل بطوله دون أن يغمض لي جفن. إني أشعر بالعجز، وهذا يثير اشمئزازي.

ــ بكلمة مختصرة، أنا بدوري، سيدي، لم أنم كثيراً هذه الأيام الأخيرة.

ــ أو تعتقد أنه في خطر؟

ــ قيل لي العكس، ولا بد من التحلي بالصبر، ولكن

يشق على المرء أن يراه في هذه الحالة ــ إن التشخيص متحفظ، كان على وشك أن يفارقنا.

ــ أريد أن أعرف إن كان أحدهم حرّض على تدبير هذه المكيدة، إني عاكف على القضية. متى ستعود إلى أثينا؟

ــ مساء غد أو بعد غد على أبعد تقدير إذا لم أوفّق في إنهاء كل ما ينبغي أن أقوم به في الأكاديمية.

ــ إتصل بي فور وصولك وحاول أن تخلد إلى الراحة أثناء ذلك.

ــ وأنت كذلك، سيدي، إلى اللقاء غداً. آمل ذلك.

باريس

تخلّص إيفوري من قرص هاتفه الخلوي وعاد أدراجه، فيما كان فاكيرز وسائقه متلاصقين غريزياً في مقعديهما، ولكن كان من المستبعد أن يتمكن من يقومان بمراقبته أن يراهما من تلك المسافة. ثم توارى، عند زاوية الشارع، خيال إيفوري عن الأنظار.

سأل لورنزو: كفى الآن، هل بإمكاننا أن نذهب؟ لقد أمضيت الأمسية هنا غارقاً في الاهتراء وإني أشعر بجوع.

ــ لا، ليس بعد.

سمع فاكيرز خرخرة محرك انطلق لتوه، فكنس مصباحان بأضوائهما الرصيف، وتوقفت سيارة حيث كان إيفوري يقيم قبل لحظات. خرج منها رجل وتقدم حتى حاجز الرصيف، وانحنى ليراقب الضفة في الأسفل، هز كتفيه وصعد ثانية إلى السيارة، ثم أزّت العجلات مبتعدة.

سأل لورنزو: كيف عرفتَ؟

ــ شعور مسبق قذر. والآن، وقد رأيت لوحة المركبة، تفاقم الوضع سوءاً.

ـ ما بها هذه اللوحة؟

ـ هل تتعمد السؤال أم أنك تجهد نفسك لترّفه عني؟ هذه المركبة تخص الهيئة الدبلوماسية الإنكليزية. هل تحتاج أن أرسمها لك؟

ـ سير آشتون يحضّ أناساً على تعقب إيفوري؟

ـ أظن أني شاهدت وسمعت ما يكفي هذا المساء، هل تلطّفت بمرافقتي مجدداً إلى الفندق؟

ـ حسناً، فاكيرز، كفى، أنا لست سائقك. لقد طلبت مني أن أختبئ في هذه السيارة مبيناً لي أن الأمر يتعلق بمهمة ذات شأن، فتجمدت مكاني خلال ساعتين، في وقت كنت أنت تحتسي الكونياك وسط جو دافئ، وكل ما استطعت أن ألاحظه هو أن صديقك توجه، أجهل لأي سبب، ليرمي قرص هاتف خلوي في نهر السين، وأن سيارة للمخابرات القنصلية العائدة لصاحبة الجلالة راقبته وهو يُقدم على هذا العمل الذي ما زال مغزاه يغيب عن بالي. إذاً، أنت إما تعود سيراً على قدميك، وإما تشرح لي ما يجري.

ـ نظراً للظلمة التي يبدو أنك غائص فيها، عزيزي «روما» ، فسأحاول أن أضيء مصباحك! إذا كان إيفوري

يجهد نفسه للخروج عند انتصاف الليل ليهاتف من خارج بيته، فهذا يعني أنه يتخذ بعض الاحتياطات. وإذا كان الإنكليز يحتمون تحت بنايته، فهذا يشير إلى أن القضية التي استأثرت باهتمامنا أثناء الأشهر الأخيرة لم تعتبر منتهية كما كنا جميعاً نتوقع. هل أصغيت إلي حتى هنا؟

قال لورنزو، منطلقاً بالسيارة: لا تظنّني أكثر غباء مما أنا عليه.

سلكت السيارة أرصفة النهر واجتازت جسر «ماري» .

أردف فاكيرز، إذا كان إيفوري حذراً إلى هذه الدرجة، فذلك لأنه متقدم علينا بجولة واحدة. مع أني كنت أعتقد أني فزت في اللعب هذا المساء، إنه لم يكف أبداً عن مفاجأتي.

ــ وماذا تنوي عمله؟

ــ لا شيء في الوقت الراهن، والزم الصمت في شأن ما سمعته مني هذا المساء. فالوقت ما زال باكراً جداً. ونحن إن أطلعنا الآخرين فسيدبر كل واحد دسيسة من جانبه، ولن يعود أي منا يثق بالآخر كما حدث في السابق تماماً. أعرف أنه يسعني الاعتماد على مدريد. وأنت، يا روما، إلى جانب من ستنحاز؟

ـ يبدو لي أني أرى نفسي حالياً إلى يسارك، وهذا قد يجيب بشكل مجتزأ عن سؤالك، أليس كذلك؟

ـ يجب أن نحدد بأسرع ما يمكن موقع عالم الفيزياء الفلكية هذا. إني أراهن أنه لم يعد يقيم في اليونان.

ـ إصعد واسأل صديقك، لعلك إن قمت بالتضييق عليه قد يعترف لك بالحقيقة.

ـ أشك أنه أوسع اطلاعاً منا، لا بد أنه فقد أثره. كان شارد الذهن. كما أعرف منذ زمن بعيد جداً أنه مغفل، حاك شيئاً في الخفاء. أما زال بإمكانك القيام باتصالات مع الصين؟ أفي وسعك أن تناشدهم؟

ـ كل شيء منوط بما ننتظره منهم وبما نحن مستعدون أن نقدمه لهم في المقابل.

ـ حاول أن تعرف إن كان أدريان هبط مؤخراً في بكين، واستأجر مركبة وإذا ما استخدم، لحسن الحظ، بطاقة اعتماده لسحب المال، أو لتسديد حساب فندق أو لأي شيء عدا ذلك.

لم يتبادلا كلمة واحدة. كانت باريس مقفرة من الناس وأوصل لورنزو فاكيرز بعد عشر دقائق أمام فندق مونتالمبير.

قال، وهو يركن السيارة: سأبذل ما في وسعي مع الصينيين، ولكن شرط المعاملة بالمثل.

ــ لننتظر ونرَ النتائج قبل أن تقدّم لي الحساب، عزيزي روما إلى اللقاء قريباً، وشكراً على النزهة.

ترجّل فاكيرز من السيتروان ودخل الفندق. طلب المفتاح من موظف الاستقبال، فانحنى هذا الأخير وراء منضدته وسلّمه مغلّفاً أيضاً.

ــ لقد أودعت هذه الرسالة لك، سيدي.

سأل فاكيرز مذهولاً: منذ متى تم ذلك؟

ــ سائق تاكسي سلّمني إياها منذ بضع دقائق تقريباً.

ابتعد فاكيرز، منشغل البال، باتجاه المصعد، وانتظر أن يصل إلى جناحه في الطابق الرابع ليفض الرسالة.

«صديقي العزيز

أخشى، للأسف، ألا أتمكن من الاستجابة لدعوتك الكريمة للالتحاق بك في أمستردام. فليس التوق لزيارتها هو الذي يعوزني، ولا الرغبة كذلك في التعويض عن تصرفي هذا المساء وأنا ألعب الشطرنج، ولكن بعض الأمور، كما كنت تثير الظنون حولها، تضطرني للبقاء في

باريس.

آمل، مع ذلك، أن أراك ثانية في وقت قريب جداً. وإني، على كل حال متأكد من ذلك».

صديقك المخلص

إيفوري

ملاحظة: بخصوص نزهتي الليلية القصيرة، كنت قد عودتني على مزيد من الرصانة. من كان يدخن إلى جانبك في تلك السيتروان الجميلة السوداء، أو لعلها كحلية اللون؟ إن نظري يضعف من يوم إلى يوم...

طوى فاكيرز الرسالة ولم يتمالك نفسه عن كبح ابتسامة. كانت رتابة أيامه ثقيلة الوطأة عليه. كان يعلم أن هذه العملية قد تكون الأخيرة في سنوات مهنته، وفكرة أن يكون إيفوري قد وجد وسيلة، أياً كانت، لإعادة إطلاق الآلة، لم تكن لتثير استياءه، وإنما العكس تماماً. جلس فاكيرز أمام مكتب جناحه الصغير، رفع السماعة واتصل برقم في إسبانيا، واعتذر لإيزابيل لإزعاجها في تلك الساعة المتأخرة من الليل، غير أنه كان له من الأسباب ما يحمله على التفكير أن قضية جديدة برزت إلى حيز الوجود وإن ما ينبغي قوله لا يمكن تأجيله إلى الغد.

ميان يانغ، الصين

استيقظت مع أول تباشير الصباح. المرأة العجوز التي بقيت معي طوال الليل ها هي غافية في متكأ كبير. أزحت عني الحرام الذي غطتني به واستويت جالساً. فتحت عينيها موجهة إلي نظرة عطف، ووضعت إصبعاً فوق شفتيها كأنها تطالبني بألا أسبب أي ضجيج. ثم نهضت وأتت بإبريق شاي كان موضوعاً فوق مدفأة من الحديد الصلب. حاجز قابل للطي يفصل الغرفة التي نتواجد بداخلها في المطعم. اكتشفتُ حولي أفراد عائلتها النائمين في فرش مبسوطة على الأرض. ثمة رجلان في حدود الثلاثين من العمر على مقربة من النافذة الوحيدة. تعرّفت إلى ذاك الذي قدّم لي وجبة العشاء مساء البارحة، وإلى أخيه الذي يعمل في المطبخ. في حين ما زالت أختهما الصغرى، وهي تناهز العشرين عاماً، تنام بالقرب من مدفأة الفحم. أما زوج مؤجرة الغرفة ــ المفروشة لي بصورة مؤقتة ــ فهو ممدد فوق طاولة، وتحت رأسه مخدة، وعليه غطاء يبلغ كتفيه. إنه يلبس كنزة وسترة من صوف سميك. أما أنا فرقدت على أريكة السرير التي يبسطها الزوجان كل مساء للنوم عليها. وكل مساء، تردّ هذه الأسرة بعض طاولات المطعم لتحوّل مؤخر القاعة إلى

مهجع. أشعر بحرج عظيم لفرض نفسي في عمق خصوصياتهم، إذا صح الكلام على خصوصيات تهم من كان، في الحي الذي أقطنه بلندن، سيضحي بسريره متخلياً عنه لشخص غريب؟

قدّمت إلي المرأة العجوز شاياً ساخناً، لكننا لم نستطع أن نتواصل إلا من خلال إشارات. تناولتُ كوبي ودلفت صوب القاعة، فيما ردت هي الحاجز الفاصل من خلفي.

النزهة مقفرة. تقدَّمت حتى الجدار المحاذي للنهر ونظرت إلى مجرى الماء المنساب ناحية الغرب. النهر يغشاه ضباب صباحي، وزورق صغير بسرعة مركب شراعي ينزلق فوق الماء ببطء. بحّار على الجسر يوجه إلي إشارة فأردها إليه في الحال.

أشعر بالبرد، أدسّ يدي في جيبيّ وأحس بصورة كيرا تحت أصابعي.

لماذا تطوف ببالي في هذه اللحظة المحددة ذكرى أمسيتنا في نبرا؟ أتذكر تلك الليلة التي أمضيتُها بصحبتك، وكانت ليلة مضطربة بالطبع، لكنها قرّبت بيننا كثيراً.

سأتوجه عما قريب إلى دير غارتهر، ولست أدري كم من الوقت سيلزمني لبلوغه، ولا كيف سأدخله، ولكن لا

بأس، إنه الأثر الوحيد للعثور عليك... لو كنتِ لا تزالين على قيد الحياة.

لماذا أحسّني ضعيفاً إلى هذه الدرجة؟

هنالك غرفة للهاتف على طريق النزهة، على بعد خطوات مني. تساورني الرغبة في سماع صوت والتر. لغرفة الهاتف إطلالة جديرة بأعوام السبعينات. يتقبل الجهاز بطاقات الاعتماد، وما أن أكوّن أرقاماً على ملامسه حتى أسمع إشارة خط مشغول، يبدو من المستحيل الاتصال ببلد أجنبي انطلاقاً من هذا المكان. بعد القيام بمحاولتين جديدتين، عدلت عن الفكرة.

لقد حان الوقت لأن أشكر مضيفيَّ، وأسدد حساب البارحة وأواصل طريقي. إنهم لا يريدون أن أسدد لهم الحساب، فأتوجه بالشكر إليهم مراراً وأفارقهم.

في نهاية الصباح، وصلت أخيراً إلى شنكدو. العاصمة الإقليمية ملوثة، مضطربة وعدوانية. مع ذلك، فإن بيوتاً صغيرة تداعت تخشيباتها ظلت صامدة بين الأبراج والمجمعات السكنية الكبيرة. مضيتُ أبحث عن طريق المحطة البرية.

شارع «جنلي» صائد للسياح، ربما يحالفني الحظ في

لقاء مواطنين لي سيزودونني بالمعلومات الضرورية.

أدخل حديقة نانجياو، جميلة هي النباتات، ومراكب طالعة من ثنايا عصر ولّى، تنساب بهدوء فوق سطح بحيرة، في حمى أشجار صفصاف حزينة.

اكتشفت زوجين شابين يتبين لي من مشيتهما أنهما أميركيان. وقد شرح لي هذان الطالبان أنهما قدما لإكمال تدريبهما في شنكدو ضمن نطاق تبادل جامعي.

لقد أوضحا لي، وقد سرّهما سماع أحدهم يتحدث بلغتهما، أن المحطة تقع في الجهة المقابلة من المدينة. تناولت المرأة الشابة إضمامة ورق من حقيبة ظهرها وسجلت ملاحظة قدمتها لي. إنها تتقن كتابة اللغة الصينية اتقاناً تاماً. فانتهزت الفرصة وطلبت منها أن تدوّن أيضاً اسم دير غارتهر.

كنت تركت سيارتي في موقف مكشوف. وجدت فيها الألبسة التي أعطاها لي الراهب البوذي، فغيرت ملابسي داخل المركبة، ودسست في كيس معطفاً مع بعض الأمتعة. وفضلت أن أترك سيارة الدفع الرباعي في مكانها لأستقل سيارة تاكسي.

قرأ السائق الملاحظة التي أريتها له وأنزلني بعد نصف

ساعة في محطة هوغي كياو للنقل البري. تقدمتُ من شباك تذاكر مزوداً بالبطاقة الثمينة المكتوبة باللغة الصينية، فسلّمني المأمور تذكرة مقابل عشرين يوان ودلّني على الرصيف رقم 12، ثم لوّح بيده مهيباً بي أن أسرع كي لا أفوّت انطلاق الحافلة.

لم تكن الحافلة جديدة جداً، وأنا آخر من صعد إليها، دون أن أجد مكاناً لي إلا في مؤخرها محشوراً بين امرأة ذات بنية جسيمة وقفص من خيزران تشغله ثلاث بطات كبيرة ستدهن هذه الطيور المسكينة على الأرجح بصلصة خاصة لدى وصولها إلى غايتها المقصودة، ولكن كيف السبيل إلى تجنيبها المصير الحزين الذي يتربص بها؟

عبرنا جسراً يعلو نهر فونان وانطلقنا في طريق سريعة تواكبها طقطقات علبة السرعة.

توقفت الحافلة في «يا آن»، فترجل منها راكب. لم تكن لدي أي فكرة عن المدة التي يستغرقها السفر، فبدا لي طويل الأمد. وعرضتُ على جارتي مذكرتي الصغيرة المكتوبة بخط جميل مشيراً إلى ساعتي. فأشارت على مينائها برفق علامة الساعات الست. سأصل إذاً آخر النهار تقريباً. أين سأنام هذا المساء؟ لا أدري شيئاً.

تتلوى الطريق باتجاه الكتل الجبلية الضخمة. وإذا كانت

غارتهر تقع على علو شاهق فسيكون الليل فيها قارساً جداً. ولن أجد بدّاً من العثور على مكان للإيواء بأسرع ما يمكن.

كلما أصبح المشهد قاحلاً، أحسست بأني فريسة الشكوك. ما الذي قد يكون دفع كيرا فعلاً إلى الاختفاء في هذه الأماكن المنقطعة عن العالم؟ فقط البحث عن أحفورة كان بإمكانها أن تجرها حتى أقاصي العالم، وإني لا أرى تفسيراً آخر.

بعد عشرين كيلومتراً، توقفت الحافلة ثابتة حيال جسر خشبي، معلق بخطّي فولاذ في حالة سيئة للغاية. أمر السائق جميع الركاب بالنزول، إذ لا بد من تخفيف حمولة آليته بغية الحد من الخطر. نظرت عبر زجاج النافذة إلى الوهدة التي يتوجب تخطيها مثنياً على فطنة سائقنا.

وإذ كنتُ جالساً في المقعد الخلفي، سأكون آخر من يخرج. نهضت والحافلة شبه خاوية. دفعتُ برجلي قضيب الخيزران الذي يثبت باب القفص، حيث تهتاج الطيور المتروكة لمصيرها. إن حريتها كامنة في نهاية الممر الجانبي إلى اليمين، وفي استطاعتها أيضاً أن تختار سلوك طريق مختصر من تحت المقاعد، الأمر يعود إليها. تتّبع البطات الثلاث خطواتي بمرح. كل واحدة تختار دربها،

واحدة تجتاز الممر، وأخرى صف المقاعد يمنة، وثالثة تميل يسرة، شرط أن تسمح لي بالخروج قبلها، وإلا سيتهموني بالتواطؤ في فرارها! ثم ماذا يهم، إن صاحبتها هي الآن فوق الجسر، تتمسك بـ «الدرابزين» وتتقدم، وعيناها نصف مغمضتين، لتقاوم الدوار.

إن طريقة اجتيازي ليست بأشد بسالة من طريقتها.

ما إن عبر الركاب الجسر، حتى رأوا من واجبهم أن يرشدوا بمزيد من الصيحات والإشارات، سائقهم الشجاع الذي يجري ببطء على الألواح الخشبية المترنحة. حينها سمعت طقطقات مقلقة، صرّت الحبال المعدنية، وتأرجحت منصة الجسر لكنها ظلت صامدة، وبعد ربع ساعة تمكن جميع الركاب من الالتحاق بأماكنهم ما عداي أنا، فقد اغتنمت المناسبة لأشغل المقعد الشاغر في الصف الثاني. عاودت الحافلة انطلاقها، تغيبت بطتان عن الحضور، أما الثالثة فظهرت، للأسف، وسط الممر وذهبت بغباء لترتمي بين ساقي صاحبة مزرعتها.

لم أتمكن، عند مرورنا بـ «دسهن كن»، أن أتمالك نفسي عن التبسم، فيما كانت جارتي القديمة تصعد ثانية إلى الممر الجانبي وهي تدب على أربع، باحثة في غير طائل عن الطيرين المتبخرين. لقد غادرتنا في

«دووغونغ»، ومزاجها بالغ السوء، من الصعب إلقاء اللوم عليها بسبب ذلك.

«سهاباكون»، «تيانكم»، مدن وقرى تتوالى وسط خمول السفر، أما نحن فنتابع مجرى نهر بينما تستمر الحافلة في التصعيد نحو مرتفعات مدوّخة. لا يبدو أني تعافيت تماماً، إذ ما زالت تنتابني القشعريرة. أوفَّق أحياناً أن أغفو، على وقع هدير المحرك، إلى أن تهم هزة بانتشالي من غفوتي.

عن يسارنا، يناطح جبل هايلوغو الجليدي السحاب. نقترب من معبر زهيدو الشهير، ذروة خط المرور. على علو أربعة آلاف وثلاثماية متر تقريباً، أحس بقلبي يخفق عند صدغي وتعاودني الشقيقة. أفكر في أطاكاما، ماذا عسى حلّ بصديقي أروان؟ منذ وقت طويل، لم أتلقَّ أخباره. لو لم أتعرض لتلك الوعكة الصحية في التشيلي قبل أشهر، ولو لم أخالف تعليمات الأمان التي وزعت علينا، لو أصخت لنصيحة أروان، لما كنت الآن هنا ولما اختفت كيرا في مياه النهر الأصفر الضحلة.

أذكر أن أمي قالت لي في هيدرا، وهي تواسيني في غمي: «فقْد شخص عزيز علينا أمر رهيب، ولكن الأسوء ألا نكون قد التقيناه». إنها كانت آنذاك تفكر في أبي، غير

أن المسألة تتخذ معنى آخر عندما يشعر المرء بأنه مسؤول عن موت تلك التي يحبها.

كانت «بحيرة موغوكو» تعكس على صفحة مياهها الهادئة القمم المكسوة بالثلوج. استعدنا بعضاً من السرعة ونحن نغوص مجدداً في اتجاه وادي «كسيندوكياد». هنا، بخلاف صحراء أطاكاما، كل شيء نبات ماتع. قطعان من القطاس (أبقار طويلة الشعر) ترعى وسط الأعشاب الدسمة. أشجار دردار وبتوله تتآلف في هذا المرج الفسيح المحصور وسط الجبال. عدنا إلى الهبوط دون الأربعة آلاف متر ووجع الشقيقة أراحني قليلاً. ثم توقفت الحافلة فجأة. فاستدار السائق نحوي، لقد حان وقت النزول. لا أرى خارج الطريق إلا درباً كثير الحصباء ينطلق ناحية «جبل غونغاسهان». لوّح السائق بذراعيه متمتماً بضع كلمات. فاستنتجت أنه يرجوني أن أذهب لمتابعة تأملاتي في الجانب الآخر من الباب الذي فتحه لتوه، مفسحاً للهواء القارس مجال الدخول.

رحتُ، وكيسي عند قدمي، وخداي مصابان بالبرد، أنظر مرتجفاً إلى حافلتي تبتعد إلى أن اختفت في البعيد عند منعطف طريق.

وجدتني وحيداً في هذا السهل الفسيح حيث تتسلق

الريح التلال. إنها مشاهد من خارج الزمان، اتخذت أراضيها لون الشعير المقشّر والرمل... لكني لا أرى فيها أي أثر للدير الذي أبحث عنه. سيتعذر عليّ أن أرقد في العراء وإلا أموت مجمّداً من الصقيع. يجب أن أمشي، ولكن إلى أين؟ لا أعرف شيئاً، غير أن لا خلاص إلا بالمضي قدماً لمقاومة الخدر الناتج عن البرد.

وعلى أمل أخرق بالهرب من أمام الليل، ركضت بخطوات صغيرة متوجهاً من منحدر إلى منحدر صوب الشمس الغاربة. في البعيد، لمحتُ القماش الأسود لخيمة للبدو، كانت بمثابة عناية إلهية.

وسط هذا السهل الهائل، أقبلت نحوي طفلة تيبيتية، لعلها في الثالثة أو ربما في الرابعة من عمرها، قطعة صغيرة من لا شيء إطلاقاً بوجنتيها الحمراوين كتفاحتين وعينيها البراقتين. أنا هذا الإنسان الغريب لا أفزعها، ولا يبدو أن أحداً يخاف عليها من أي مكروه، إنها حرة في الذهاب حيث يحلو لها. وقد انفجرت ضاحكة هازئة لاختلافي عنها، وملأت ضحكتها الوادي. ثم أخذت تركض باتجاهي فاتحة ذراعيها واسعتين، وتوقفت على بعد أمتار مني وعادت أدراجها نحو ذويها. وللحال خرج رجل من الخيمة وتقدّم للقائي. مددتُ له يدي، فضم يديه وانحنى

داعياً إياي إلى متابعته.

أجزاء كبيرة من قماش أسود تسندها رزّات خشبية تشكّل خيمة في الداخل. المسكن واسع، وفوق موقد حجري، تطقطق فيه حزمات حطب يابس، تُعدّ امرأة نوعاً من اليخنة، فتغشى الرائحة المكان كله. أشار عليّ الرجل بالجلوس، وقدم لي كوباً من كحول الأرز وشاركني الشرب.

لقد شاطرت هذه العائلة البدوية وجبة طعامها. ولم يكن يعكّر الصمت سوى قهقهات الطفلة ذات الوجنتين الحمراوين كتفاحتين، وانتهى الأمر بها إلى النوم محتمية بأمها.

عند هبوط الليل، قادني البدوي خارج الخيمة. وجلس على حجر مقدماً لي سيكارة لفّها بين أصابعه. معاً رحنا ننظر إلى السماء، فقد مضى وقت طويل ما كنت تأملتها على هذا النحو. واكتشفت واحدة من أجمل الكوكبات التي يعرضها على أبصارنا فصل الخريف إلى شرق نجمة «أندروميد». وأشرت بإصبعي إلى النجوم وذكرتها بأسمائها لمضيفي. فقلت بصوت عال: «فرساوس»، وتبع الرجل نظري مكرراً «فرساوس»، وضحك بمثل قهقهات ابنته، قهقهات حية متلألئة كتلك التي تنير قبة السماء فوق

رأسينا.

نمت تحت خيمتهم في مأمن من البرد والرياح. وفي الصباح الباكر، عرضتُ ورقتي على مضيفي، لكنه كان يجهل القراءة ولا يعيرها أي اهتمام. طلع النهار وكان عليه القيام بالعديد من المهمات.

ثم غامرتُ، وأنا أساعده في جمع صغار الحطب، في لفظ كلمة «غارتهر»، وكنت في كل مرة أغير لفظها لعلّي أعثر على اللفظة التي تجعله يستجيب لها، ولكن دون جدوى، حافظ الرجل على عدم تأثره.

بعد جمع الحطب، سخّرنا لحمل الماء، فناولني البدوي قربة فارغة، وأمرّ هو واحدة فوق كتفه وأراني كيف أُحكم وضعها، ثم سلكنا درباً ينطلق ناحية الجنوب.

سرنا خلال ساعتين كاملتين. واكتشفت من أعلى التلة ساقية تنساب وسط أعشاب عالية. سبقني البدوي إليها. عندما لحقت به، كان قد بدأ يستحم. فخلعت قميصي وغصت بدوري. كانت حرارة الماء متدنية، لا بد أن هذه الساقية تنبع من أحد جبال الجليد الذي يُلمح في البعيد.

احتفظ البدوي بقربته تحت الماء، فقلّدت حركاته، وإذا بالخرجين قد انفتحا، وجدتُ صعوبة في حمل قربتي حتى

ضفة الساقية.

لدى عودته إلى اليابسة، اقتلع باقة من الأعشاب العالية فرك بها بقوة جسمه. وما إنٍ شعر بالجفاف، حتى لبس ثيابه ثانية وجلس ليستريح قليلاً. «فرساوس»، قال البدوي رافعاً إصبعه نحو السماء. ثم دلتني يده على خليج للساقية صغير، على بعدٍ مئات الأمتار أسفل منا. كان حوالي عشرين رجلاً يستحمون هناك، ونحو أربعين آخرين يحرثون الأرض، وكل واحد منهم يدفع بسكة المحراث راسماً أثلاماً طويلة مستقيمة تماماً. وكلهم يرتدون بزات تبينتها في الحال.

ـ غارتهر! همس رفيق دربي.

شكرته واندفعت مسرعاً ناحية الرهبان، لكن البدوي وقف وأمسكني بذراعي. تجهمت قسماته، وأمرني بإيماءة من رأسه، بعدم الذهاب هنالك. ثم جذبني من كمي وأراني طريق العودة. لقد استطعتُ أن أقرأ الخوف على محياه، عندها امتثلت له وصعدت المنحدر وأنا أتتبّع خطاه. في أعلى التلة، استدرت نحو الرهبان، كان أولئك الذين يستحمون قبل قليل في الساقية، قد لبسوا جلابيبهم واستأنفوا عملهم، راسمين أثلاماً غريبة، مهتزة كأنها انحناءات مخطط بياني جبار لعمل القلب. توارى الرهبان

عن ناظري بينما كنا نهبط المنحدر الآخر من التلة، سأترك مضيفي دون استئذان حالما سيتاح لي ذلك، لأعود ثانية إلى هذا الوادي.

لئن لقيتُ الترحيب عند هذه العائلة من البدو، فينبغي بحسب تقاليدهم أن أستوجب حصتي اليومية من الطعام.

غادرت المرأة خُيمتها وقادتني حتى قطيع البقر الذي يرعى في حقل. لم أُعر أي انتباه للإناء الذي كانت تحمله معها وهي تدندن، إلى أن ركعت أمام أحد هذه الحيوانات الغريبة ذوات الأربع وشرعت تحلبه. بعد لحظات، أخلت مكانها لي ظناً منها أن الأمثولة استغرقت وقتاً كافياً. فتركتني هناك وأفهمتني من خلال النظرة التي وجهتها إلى الدلو وهي ذاهبة، أنه يجب ألا أعود إلا وقد امتلأ هذا الأخير تماماً.

لا شيء سيجري ببساطة كلية كما توقعت ذلك. فبسبب انعدام الثقة لدي أو بسبب طبع هذه البقرة الآسيوية السيئ، التي لا نية لها بكل تأكيد أن تسمح لأول عابر غريب بلمس حلمات ضرعها، ففي كل مرة تتقدم يدي نحو ضروعها، تتقدم الدابة خطوة أو تتراجع خطوة... أستعمل جميع الحيل، من محاولة الإغراء والخطاب الآمر والتوسل والغضب، والحرد، ولكن عبثاً أحاول.

أما التي قدمت لنجدتي فلم يكن لها من العمر سوى أربعة أعوام. وأنا لا أعدّ ذلك مدعاة فخر لي، بل على العكس، ولكن هذا ما جرى.

فجأة ظهرت الطفلة ذات الوجنتين المستديرتين الحمراوين كتفاحتين وسط الحقول، وأعتقد أنها هناك منذ أمد طويل تبتهج بالمشهد وأنها تمالكت نفسها إلى حدّ ما قبل أن تطلق العنان لقهقهة جميلة نمّت عن حضورها. ودنت مني كأنما تود الاعتذار لسخريتها مني، ووبختني بضربة خفيفة من كتفها، ثم أمسكت بحركة سريعة ضرع البقرة ضاحكة بطيبة خاطر مرة جديدة، وإذا بالحليب بدأ ينضح في الدلو. إذاً، كان الأمر بمثل هذه السهولة، وعليّ أن اقبل التحدي الذي وجهته لي وهي تدفعني نحو خاصرة البقرة. فركعت بينما راحت تنظر إلي وأنا أعمل وصفقت لما نجحت أخيراً في إسالة بضع قطرات من الحليب. وتمددت فوق العشب مكتوفة اليدين وظلت على هذه الحال تراقبني. وبالرغم من سنها الصغيرة جداً، كان لحضورها أثر مطمئن. فهذا العصر أوان راحة وبهجة. وبعد قليل، نزلنا كلانا باتجاه المخيم.

خيمتان أخريان نصبتا بجوار تلك التي نمت فيها الليلة الفائتة، واجتمعت ثلاث عائلات من الآن وصاعداً حول نار

مستعرة. وفيما حاولتُ الالتحاق بالمخيم في صحبة زائرتي الصغيرة، أتى الرجال لملاقاتنا، وقد أشار علي مضيفي بمواصلة مسيرتي، النساء في انتظاري، أما هم فتوجهوا لمعاودة جمع القطيع. شعرت بالامتعاض لإبعادي عن مهمة تعتبر أليق بالرجال من تلك التي عهدوا بها إلي.

ولّى النهار، أنظر إلى الشمس، سيخيم الظلام في أثناء ساعة على أبعد تقدير. تراودني فكرة وحيدة وهي أن أترك أصدقائي البدو دون استئذان كي أتجسس على ما يدور في أسفل الوادي. أريد أن أقتفي آثار هؤلاء الرهبان الذين سيرجعون إلى ديرهم. لكن الرجل الذي استضافني عاد في اللحظة نفسها التي كانت هذه الأفكار تحتل تفكيري. قبّل زوجته، رفع ابنته وضمها بين ذراعيه قبل دخول الخيمة. ثم خرج بعد لحظة وقد تهندم وتزين، وفاجأني بينما كنت مقيماً على انفراد أحدّق في خط الأفق. جاء ليجلس بجانبي وقدّم لي واحدة من سكائره. رفضت شاكراً إياه. أما هو فأشعل سيكارته ونظر بدوره إلى قمة التلة صامتاً.

لست أدري لماذا ساورتني الرغبة في عرض وجهك عليه. من المحتمل لأني مشتاق إليك لدرجة الانفجار، ولأنَ ذلك ذريعة حسنة لمشاهدة صورتك هذه مرة جديدة. إنها أثمن ما أمتلكه وتمكنني مشاطرته.أخرجتُ الصورة من

جيبي وأريته إياها. أعادها لي وهو يبتسم. ثم نفث نفثة طويلة وسحق عقبها بين أصابعه وغادرني.

عند حلول الليل، تشاطرنا وجبة يخنة مع أفراد العائلتين الأخريين الذين انضموا إلينا. جلست الطفلة بجواري، وما بدا أن أباها ولا أمها منزعجان من «تواطئنا»، بل على العكس، داعبت أمها شعر طفلتها وذكرت لي اسمها. إنها تدعى رهيتار. وعلمتُ في ما بعد أن الولد يدعى بهذا الاسم إذ مات أخوها البكر، وذلك تداركاً لسوء الطالع. ألإزالة غم مأساة جرت أحداثها قبل ولادتها، تضحك رهيتار بمثل هذا الصفاء، أذلك لتذكير والديها أنها حملت البهجة إلى بيتهما؟ لقد غفت رهيتار على ركبتي أمها، ويبدو أنها، حتى في نومها العميق جداً، لا تكّف عن الابتسام.

بعد الفراغ من الطعام، ارتدى الرجال سراويل واسعة، وحلّت النساء أكمام جلابيبهن اليمنى، وتركنها تتأرجح في الريح. وكل واحد يمسك بيده ليشكل حلقة، الرجال من جهة والنساء من الجهة الأخرى. الجميع يغنون، النساء يحركن أكمامهن، وعندما يتوقف الغناء، يطلق الراقصون معاً صرخة مدوية. حينئذ ينتقل الرقص الحلقي في الاتجاه الآخر، ويتسارع الإيقاع، فيركض الجميع، ويقفزون،

ويصرخون ويغنون حتى درجة الإعياء. لقد دعيتُ إلى هذا الرقص التعبيري المبهج واستسلمت لنشوة كحول الأرز وللرقص الحلقي التيبيتي.

يد هزت كتفي، فتحت عيني وتبينت في غبش العتمة وجه صديقي البدوي. طلب مني، في صمت، أن أتبعه إلى خارج الخيمة. كان السهل المترامي الأرجاء، غارقاً في ضوء رمادي لليلة أوشكت على الانتهاء. استعاد مضيفي صرة أمتعتي وحملها على كتفه. لم أعرف شيئاً عن نياته، ولكن شعرت أنه يذهب بي إلى حيث سيفترق طريقانا. فقد عدنا نمشي في الدرب الذي سلكناه البارحة. لم ينبس بكلمة عن السفر. سرنا ساعة كاملة، ولما بلغنا قمة أعلى التلال، اتجه ناحية اليمين. فعبرنا أرضاً معشوشبة تظلّلها أشجار الدردار والبندق، بدا أنه يعرف كل ممر فيها وكل منحدر. وعندما خرجنا منها، لم يكن شحوب النهار قد لاح بعد. تمدّد دليلي على الأرض وأمرني أن أحاكيه، ثم غطاني بأوراق يابسة وتراب وأراني كيف أتموه. وبقينا على هذه الحال صامتين، كأننا مراقبان، ولكن لم يكن لدي فكرة عما نرصده. خُيّل إلي أنه جاء بي للصيد بغير إذن، وإني لأتساءل أي حيوان يمكننا أن نطارده، ونحن لا نملك سلاحاً. لعله قصد إلى هنا ليرفع الأفخاخ.

إني بعيد عن استيعاب ما يجري، ولكن ما زال يتوجب علي أن أصبر ساعة أخرى قبل أن أفهم لماذا جرّني حتى هنا.

أخيراً طلع النهار، فارتسم أمام أنظارنا سور دير هائل، كأنه مدينة حصينة.

ـ غارتهر، تمتم شريكي لافظاً هذه الكلمة مرة ثانية.

كنتُ، في إحدى الليالي، عرضت عليه اسم نجمة معلقة في السماء التي تشرف على سهله. وذات صباح، عاملني البدوي التيبيتي بالمثل مسمياً لي هذا المكان الذي كنت آمل أن أكتشفه أكثر من أي كوكب آخر في لا نهائية الكون.

أشار علي رفيق دربي ألا أتحرك خصوصاً، فهو يبدو مرتاعاً أن يُكتشف أمرنا. أما أنا فلا أرى أي سبب لاضطراب البال، فالمعبد على بعد أكثر من مائة متر. غير أني أستطيع الآن، وقد تكيفت عيناي مع غبش العتمة، أن أتبين فوق أسوار الدير أشباح رجال لابسين الجلابيب، يمشون على امتداد طريق الدورة.

أي خطر يمكنهم أن يترصدوه؟ هل يسعون إلى حماية أنفسهم من زمرة صينية قد تأتي لاضطهادهم حتى هذه

الأماكن المحصّنة؟ أنا لستُ عدوهم. لو كان الأمر لا يتعلق إلا بي، لقمتُ على الفور وركضت نحوهم. لكن دليلي وضع ذراعه فوق ذراعي واستبقاني بحزم وثبات.

انفتحت أبواب الدير للتو، واتخذ رتل من الرهبان العمال طريق المنحدر نحو بساتين الفاكهة ناحية الشرق. ثم انغلقت الأبواب الثقيلة ثانية من ورائهم.

قام البدوي فجأة وانكفأ باتجاه الأرض المكسوة عشباً. وفي مكان آمن تحت أشجار الدردار الكبيرة، أعاد إلي صرّة أمتعتي فعلمت أنه يودّعني. فأمسكت بيديه وضممتهما بين يدي. بادرة العطف هذه جعلته يبتسم، فحدّق فيّ لحظة، ثم استدار وانصرف.

لم أعرف قط عزلة أشد وحشة إلا في هذه الهضاب العالية، عندما نزلت من حافلة شنكدو، وأخذت أمشي هارباً من وجه الليل، هارباً من الصقيع. أحياناً تكفي نظرة، حضور، إشارة، كي تنشأ الصداقة، فيما وراء الفوارق التي تحتجزنا وتخيفنا، تكفي يد ممدودة كي تنطبع ذكرى محيّا لن يقوى الزمن على محوها. أريد، في لحظات حياتي الأخيرة، أن أرى ثانية وجه هذا البدوي التيبيتي سالماً ووجه ابنته ذات الوجنتين الحمراوين كتفاحتين زهريتين.

تابعت من مسافة بعيدة، وأنا أتقدم في طرف الغابة،

موكب الرهبان العمّال المتجه نحو بطن الوادي. ومن هناك حيث أقيم، أستطيع بسهولة أن أراقبهم، أعدّ منهم ما يناهز الستين. إنهم، كما في البارحة، بدأوا يخلعون ثيابهم ويستحمون في المياه الصافية قبل الشروع في العمل.

انقضى الصباح، وبينما كانت الشمس لا تزال مرتفعة، شعرت بالبرد يتملكني وهذه الرطوبة الرهيبة تنزّ في ظهري. أخذ جسمي ينتفض من الارتعاش. فتشت في صرّة أمتعتي، فوجدت كيس لحمٍ مجفف، هدية من صديقي البدوي. أكلت نصفه محتفظاً بالباقي لطعامي في المساء. حين عاد الرهبان أدراجهم، ركضت أروي غليلي من الساقية. في غضون ذلك، توجّب علي أن أرضى بالعطش الذي هاجه الملح المتوافر في اللحم.

لماذا يضاعف هذا السفر أحاسيسي ــ من جوعٍ وبرد وحر وإعياء شديد؟ إني أعتبر الارتفاعٍ مسؤولاً عن هذه الأوجاع. وأمضيت بقية العصر محاولاً العثور على وسيلة للولوج إلى حرم الدير. تسلّطت علي الأفكار الأشد غرابة، فهل أنا موشك على فقدان عقلي؟

في الساعة السادسة، توقف الرهبان عن العمل وسلكوا طريق العودة. وما أن تواروا خلف قمة المنحدر حتى تركت مخبئي وركضت عبر الحقول. ثم غصت في الساقية

وشربت حتى أرويت غليلي.

لدى عودتي إلى الضفة، فكرت ملياً في الموضع الذي أقضي فيه الليل. فالنوم على الأرض المعشوشبة بين الأشجار لا يغريني. والرجوع ثانية إلى السهل وعند أصدقائي البدو سيكون بمثابة اعتراف بالفشل، وأسوأ من ذلك أيضاً سيعدّ إفراطاً في استغلال كرمهم. إذ أن توفير الطعام لي خلال أمسيتين متتاليتين لا بد أنه كلفهم غالياً.

اكتشفتُ أخيراً تجوفاً في جانب المنحدر، حيث سأحفر لي جحراً، وأتمكن لابداً جيداً تحت الأرض ومتغطياً بصرّة أمتعتي من البقاء حياً بعد الليل. وفي انتظار أن يجتاح السواد الحالك السماء، فرغت من أكل بقية اللحم المجفف ورحت أترّقب ظهور النجمة الأولى، كما يترقب المرء قدوم صديقة ستساعده على طرد الأفكار السيئة.

هبط الليل، فنمت بعد أن سرت في جسمي القشعريرة مراراً.

كم من الوقت مر قبل أن توقظني خشخشات خفيفة؟ شيء ما اقترب مني. لا بد من مقاومة الخوف، وماذا لو أن حيواناً متوحشاً يصطاد في الجوار؟ من غير المجدي أن أغدو فريسة له، قد يواتيني الحظ أكثر في النجاة منه، فيما لو بقيت مختبئاً في جحري على أن أترنح يمنة ويسرة في

الظلام. إنها لأفكار حكيمة، ولكن يصعب تطبيقها عندما تتسارع خفقات القلب. أي هذه الحيوانات المفترسة هو المقصود؟ وماذا أفعل أنا هنا جالساً القرفصاء في هذا الجحر الترابي على بعد آلاف الكيلومترات من بيتي؟ ماذا أفعل هنا، ورأسي قذر، وأصابعي مجمدة، وأنفي يسيل؟ ماذا أفعل هنا في هذه البلاد الغريبة راكضاً وراء شبح امرأة أنا مغرم بها، بينما لم يكن لها شأن في حياتي لستة أشهر خلت؟ أريد أن ألقى أروان ثانية وهضبة أطاكاما، عذوبة داري وشوارع لندن، أريد أن أكون في مكان آخر، ولا أدع ذئباً قذراً يمزق أحشائي إرباً إرباً. لن أتحرك، لن أرتجف، لن أتنفّس بعد، سأغمض أجفاني اجتناباً لانعكاس ضوء القمر الساطع في بياض عينيّ. أفكار حكيمة، ولكن يصعب تطبيقها حين يمسك الخوف بخناقك ويهزّك هزاً عميقاً. يخيل إلي أني في الثانية عشرة من عمري، وإنيٍ فقدت كل قدراتي الدفاعية، كل رباطة جأشي. ألمح مشعلاً، لعله لص يريد أن يستولي على أمتعتي الهزيلة. ما الذي يمنعني من الدفاع عن نفسي؟

لا بد من الخروج من هذا الجحر، مغادرة الظلام ومواجهة الخطر. فأنا لم أقطع كل هذا الطريق لكي أسمح لسارق أن ينهبني أو أن يقطّعني كطريدة مبتذلة.

فتحت عيني. تقدم المشعل باتجاه الساقية وعرف تماماً الذي يحمله بيده الممدودة إلى أين يتوجه، فخطواته الثابتة لم تكن تخشى أي شرك ولا أية حفرة. لقد غرز المشعل في تراب منحدر خصب. وللحال ظهر في ضوئه ظلان. يكاد أحدهما يكون أدق من الآخر، جسدان يذكّر قوامهما بمراهقين. توقف أحدهما، فيما بلغ الآخر الضفة، خلع جلبابه ودخل في الماء البارد. وحلّ محل الخوف الأمل. هذان الراهبان لعلهما تحديا المحظور ليستحما تحت جنح الظلام، وقد يتمكن هذان السارقان، سارقا الزمان، من مساعدتي على التوغل داخل سور المدينة المحصنة. زحفتُ بين الأعشاب مقترباً من الساقية وحابساً للتو أنفاسي.

لا شكل من أشكال هذا الجسد النحيل غريب علي. صورة الساقين، استدارة الآليتين، انحناءة الظهر، البطن، الكتفان، قفا العنق، هذه الهيئة المهيبة للرأس.

أنت هنا تستحمين عارية في نهر شبيه بذلك الذي رأيتك فيه تفارقين الحياة. إن جسمك في ضوء القمر أشبه بتجلي طيف، كنتُ سأتعرف إليك من بين آلاف الفتيات الأخريات. أنت هنا على بعد بضعة أمتار وحسب، ولكن ما العمل للاقتراب منك؟ كيف أتقدّم منك في مثل هذه الحال

دون أن أخيفك، دون أن تصرخي منذرة بالخطر؟ النهر يغمرك حتى خاصرتيك، ويداك تغرفان الماء لتجعلاه ينزلق على محياك. تقدمتُ أنا بدوري صوب النهر وغسلت خدي بالماء الجاري لأزيل عنهما التراب.

إن الراهب الذي يرافقك أتاح لي هذه المتعة لأنه كان يدير ظهره لك. فهو واقف على مسافة بعيدة منك، ربما مخافة أن ينعم النظر في عريك. أما أنا فما زلت أقترب، بينما كان صدري يخفق وبصري يغشى. لقد عدت ناحية الرملة متجهة نحوي على خط مستقيم. عندما التقتَ عيناك ناظريّ، توقفت عن المسير، مال رأسك جانباً، تمعّنت في، مررتِ من أمامي متابعة طريقك، كما لو أني غير موجود.

كان نظرك ساهياً، والأسوأ من ذلك أنه لم يكن نظرك الذي رأيته في عينيك. وعدت أدراجك إلى ذاك الذي رافقك حتى هنا. تناول رفيق دربك المشعل ثانية ورحتما تصعدان الدرب مجدداً. لقد تبعتكما من دون أن ترتابا في حضوري، ولكن، ربما لمرة واحدة، استدار الراهب عند دحرجة حصاة تحت قدمي، ثم واصلتما مسيركما. لدى وصولكما أمام الدير، حاذيتما السور، تجاوزتما البوابتين، وشاهدت طيفيكما يختفيان داخل حفرة. كان اللهب يضطرب، ثم ما لبث أن انطفأ. وانتظرت ما وسعني الانتظار وقد جمدت من

البرد. أخيراً، اندفعت بسرعة نحو تقوية السور، حيث تواريتما عن الأنظار، آملاً أن أجد ممراً، لكني لم أجد غير باب خشبي صغير، مغلق بإحكام. فجلست القرفصاء، علني أستعيد وعيي، وقفلت راجعاً إلى مخبئي عند طرف الغابة مثل حيوان.

في الليل في ما بعد، ندّ عن الخدر الذي غرقتُ فيه شعور بالاختناق. كانت أعضائي متراخية، لقد هبطت الحرارة هبوطاً قاسياً. من المستحيل تحريك أصابعي لحلّ العقدة التي تشد كيسي وتناول ما من شأنه أن يغطيني. فالإرهاق بطّأ حركاتي. وخطرت ببالي حكايات متسلقي الجبال الذين يهدهدهم الجبل ببطء قبل أن ينوّمهم إلى الأبد. نحن على علو أربعة آلاف متر، بأي لامبالاة ظننت أن بوسعي البقاء على قيد الحياة بعد هذه الليلة؟ سوف أموت في غابة صغيرة من غابات البندق والدردار، في الجهة السيئة من سور، على بعد أمتار منك. يُروى أن المرء عندما يشرف على الموت ينفتح أمامه نفق مظلم يشعّ في نهايته نور. أنا لا أرى شيئاً من هذا القبيل، انبهاري الوحيد سيكون أني لمحتك وأنت تستحمين في مياه النهر.

أحسست في انتفاضة أخيرة لوعيي، بأيدٍ تمسك بي

وترفعني من جحري. أخذوا يجروني، وأنا عاجز عن أن أستوي منتصباً، أن أرفع رأسي لأرى أولئك الذين ينطلقون بي. إنهم يسندوني من ذراعيّ فنتقدم على درب، وأشعر فعلاً أني أفقد وعيي غالباً. والصورة الأخيرة التي أتذكرها هي صورة سور وبوابة انفتحت أمامنا. ربما تكونين قد مت وأخيراً يمكنني أن ألحق بك.

أثينا

لو لم تكن مضطرب الخاطر إلى هذا الحد، لما كنتُ خاطرت بالمجيء حتى هنا. ولا تقل لي إنك دعوتني للعشاء لأنك كنت تخشى أن تمضي السهرة وحيداً. أنا على يقين أن الخدمة داخل الغرفة في الـ «كينغ جورج» أفضل كثيراً من هذا المطعم الصيني. من جهة أخرى، أجد من الفظاظة بمكان اختيار هذه المائدة مع أخذ الظروف بعين الاعتبار.

أطال إيفوري النظر إلى والتر، تناول قرص زنجبيل مسكَّر، وقدّم قرصاً آخر إلى ضيفه.

سأل والتر: هل تعرف نعم أو لا إن كان آشتون وراء كل ذلك؟

ــ لا أملك أي يقين. ولا يمكنني أن أتصور أنه تمادى إلى هذا الحد. كان ينبغي أن يكتفي باختفاء كيرا، إلا إذا كان على علم بسفر أدريان واختار استباق الأمور. إنها لأعجوبة ألا يبلغ هدفه.

تمتم والتر: كان على وشك أن يحقق أمنيته. أو تعتقد أن الراهب البوذي أخطر آشتون بصدد كيرا؟ ولكن لماذا

يكون أقدم على هذا العمل؟ لو لم تكن نيته مساعدة أدريان في العثور عليها، لماذا إذاً أعاد إليه أمتعتها؟

ــ لا شيء يثبت بطريقة أكيدة أن الراهب البوذي هو مباشرة في أساس هذه الهدية الصغيرة. لقد استطاع أحد المحيطين به وبطريقة موفقة اختلاس آلة التصوير والتقاط صورة لصديقتنا عالمة الآثار بينما كانت تستحم في النهر، ووضع الأمور في أماكنها، من دون أن ينتبه أحد لشيء ما.

ــ مَن من الجائز أن يكون هذا الرسول ولماذا قد يتحمل مثل هذه المخاطر؟

ــ يكفي أن يكون أحد رهبان الجماعة شاهداً على استحمامها ويرفض خيانة المبادئ التي أقسم على التزامها.

ــ أية مبادئ؟

ــ ألا يكذب أبداً هو واحد منها، ولكن يمكن أن يكون راهبنا البوذي، وقد أُكره على حفظ السر، حضّ أحد مريديه على لعب دور الرسول.

ــ هنا، يتعذر علي مجاراتك.

ـ عليك أن تتعلم الشطرنج، والتر، فلا يكفي أن يكون لك السبق في البداية حتى تكسب اللعب، بل ينبغي أن تضمن ثلاث أو أربع نقلات، أن تستبق الأمور هو شرط الانتصار. والآن لنعد إلى راهبنا البوذي، إنه قد يكون منجذباً في آن معاً إلى وصيتين لا يسعه في وضع خاص التوفيق بينهما. ألا يكذب وألا يفعل شيئاً من شأنه إلحاق الأذى بحياة إنسان. لنتصور أن بقاء كيرا في الحياة كان منوطاً بواقع أن يعتبرها الناس ميتة، هذا سيوقع حكيمنا في حرج كبير. إن قال الحقيقة عرّض حياته للخطر وناقض بذلك ما ينطوي على أقدس شيء في معتقده. ومن ناحية ثانية، إذا كذب بحمل الناس على الاعتقاد أنها ميتة بينما لا تزال حية، فإنه يكون قد خالف وصية أخرى. أمر مؤسف، أليس كذلك؟ في لعبة الشطرنج، يدعى هذا «الشوط النهائي» (وهو الشوط الذي لا يجد اللاعب فيه حجارة يلعب بها سوى الملك وعندئذ يخسر الشوط). إن صديقي فاكيرز يكره ذلك.

سأل والتر ممسكاً بدوره بقرص زنجبيل من البوتقة الصغيرة: كيف تصرّف والداك لينجبا عقلاً ملتوياً إلى هذا الحد كعقلك؟

ـ أخشى ألا يكون لوالدايّ يد في القضية إني لوددت

في الحقيقة أن أمنحهما هذا الفضل، لكني لم أعرفهما. وإذا كان ذلك لا يسبب لك إزعاجاً، فسوف أروي لك عن طفولتي ذات يوم، إذ إن الأمر لا يتصل بي حالياً.

ــ ألعلك تفترض أن راهبنا البوذي حضّ أحد مريديه، عندما اعترضه مأزق كهذا، على كشف الحقيقة، بينما كان هو يحمي بالتزامه الصمت حياة كيرا؟

ــ ما يهمنا في تحكيم العقل هذا ليس الراهب البوذي. آمل ألا يكونٍ ذلك قد غاب عن بالك. مطّ والتر شفتيه مما لم يدع مجالاً للشك في الإجابة عن هذا السؤال. لقد فاتته كلياً حجة إيفوري.

أردف الأستاذ العجوز: إنك محزن، يا عزيزي.

ــ ربما أنا محزن، لكني أنا من لاحظ خصوصية الصورة الفوتوغرافية اللافتة للنظر فوق كومة الصور، أنا من قارنها بغيرها واستخلص النتائج التي نعرفها.

ــ أُسلّم لك بذلك، ولكن كما قلت لتوك، كانت فوق كومة الصور!

ــ كان الأجدر بي أن ألزم الصمت كراهبك البوذي. وما كنا هنا لرصد أخبار أدريان راجين أن يتمكن بعد من تزويدنا بها.

ـ بالرغم من مجازفتي بتكرار قولي، كانت هذه الصورة فوق الكومة! أيصعب الظن أنها مجرد مصادفة، إنها بكل تأكيد رسالة مقصودة. بقي أن نعرف إذا كان آشتون نجح في أخذ علم بذلك في الوقت نفسه الذي أطلعنا عليه.

ـ أو أنها رسالة كنا نريد أن نراها مهما كلّف الثمن! كنا سنعثر عليها في تفل القهوة الذي أوليناه أهمية بالغة. إنك كنت أقمت كيرا من بين الأموات لحمل أدريان على مواصلة أعمالك...

واستأنف إيفوري الكلام، رافعاً بدوره صوته: آه، أرجوك، لا تكن فظاً! أكنت فضلتَ أن تراه يبدد مواهبه مالاًّ الانتظار فوق جزيرته في الحالة المزرية التي عهدناها لديه؟ أم تظنني في غاية القسوة لأنني أرسلته للبحث عن صديقته إن كنت لا أفكر بصدق أنها على قيد الحياة؟ أم تعتبرني شخصاً في منتهى الوحشية؟

ردّ عليه والتر بالحدة ذاتها: ليس هذا ما أردت قوله.

كانت مشادتهم القصيرة استرعت انتباه الزبائن الذين يتعشون على مائدة مجاورة. واصل والتر حديثه خافضاً صوته:

ــ لقد قلت إن الراهب البوذي ليس هو الذي يثير اهتمامنا، إذاً من غيره إن لم يكن هو بالذات؟

ــ إنه ذاك الذي عرّض حياة أدريان للخطر، ذاك الذي كان يخشى أن يجد كيرا ثانية، ذاك الذي قد يكون مستعداً لفعل أي شيء، في مثل هذه الحالة. هل يدفعك هذا إلى التفكير في شخص ما؟

ــ لستَ في حاجة لأن تكون متغطرساً، فأنا لستُ مرؤوسك.

ــ إن ترميم سقف الأكاديمية يكلف ثروة طائلة وأرى أن المحسن الكريم الذي يعيد التوازن بصورة عجيبة إلى ميزانيتك، متجنباً كشف وضاعة إدارتك لمستخدميك يستحق بعض مظاهر المراعاة، أليس كذلك؟

ــ حسناً، لقد فهمتُ الرسالة. أنت تتهم إذاً سير آشتون!

ــ هل يعرف أن كيرا حية؟ ممكن. وهل رفض تعريض نفسه لأدنى خطر؟ من المرجح، يجب أن أبوح لك لو أن هذا التفكير خطر ببالي في وقت مبكر، لما كنتُ أرسلت أدريان هكذا إلى الخط الأمامي. والآن أنا لا أقلق على كيرا وحدها، وإنما عليه هو بوجه خاص.

سدّد إيفوري الحساب وغادر المائدة، فيما استعاد والتر معطفيهما من المشجب ولحق به إلى الشارع.

ــ خذ معطفك المضاد للمطر، كدت تنساه.

قال إيفوري ملوحاً بيده لسيارة تاكسي: سأمرّ غداً.

ــ هل من الحكمة القيام بذلك؟

ــ لقد سبق أن جئت حتى هنا، ثم أشعر بأني مسؤول، ولا بد أن أراه. متى سنحصل على تقارير تحاليله القادمة؟

ــ إنه يأتي إلى هنا كل صباح. النتائج تتحسن، والأسوأ أصبح وراءنا، لكنّ الانتكاس المرَضي ممكن دائماً.

ــ اتصل بي في فندقي إذا حان الوقت، وعلى الأخص ليس بهاتفك الخلوي، بل من غرفة الهاتف العمومي.

ــ هل تعتقد أن خطي تحت المراقبة؟

ــ لا فكرة لدي عن ذلك، عزيزي والتر، طابت ليلتك.

صعد إيفوري في سيارة التاكسي، أما والتر فقرر العودة إلى بيته سيراً على قدميه. كان هواء أثينا لا يزال لطيفاً في نهاية الخريف، فهو رخي وكان يسري في المدينة، وقليل من الطراوة سيساعده على إعادة الأمور

إلى نصابها.

طلب إيفوري من الخادم، لدى وصوله إلى الفندق، أن يحمل إلى غرفته لعبة الشطرنج الموجودة في الحانة، إذ كان يشك أن يستعملها زبون آخر في هذه الساعة المتأخرة من الليل.

بعد مضي ساعة، غادر إيفوري، الجالس في غرفة الاستقبال الصغيرة داخل جناحه، «الدق» الذي كان يلعبه ضد نفسه وتوجه لينام. تمدد في سريره، وذراعاه مشبوكتان وراء عنقه، وراح يستعرض كل الاتصالات التي أجراها في الصين خلال حياته المهنية فيها. كانت القائمة طويلة، لكن ما اغاظه في هذه الجردة من نوع خاص، أن لا أحد من الذين تذكرهم كان لا يزال على قيد الحياة. أشعل العجوز الضوء ثانية وأزاح عنه الغطاء الذي كان يزيد حرارة جسمه. جلس على حافة السرير ولبس مشايته وتأمل نفسه في مرآة باب خزانة ثيابه.

«آه، فاكيرز، لماذا لا يسعني الاعتماد عليك عندما أكون في حاجة ماسة إلى مساعدتك؟ لأنك لا تستطيع الاعتماد على أحد، أيها العجوز المعتوه، لأنك عاجز عن الثقة بأيٍّ كان. أنظر إلى أين تقودك هذه العجرفة الفذة. أنت وحيد وما زلت تحلم بمباشرة العمل».

نهض وشرع يذرع الغرفة جيئة وذهاباً.

«إن كان في الأمر تسمم، فإنك ستدفع الثمن غالياً، يا آشتون».

ومضى مدحرجاً رقعة الشطرنج.

إن استسلامه لثورة الغضب للمرة الثانية أثناء الامسية جعله يطيل التفكير. نظر إيفوري إلى القطع المبعثرة على «الموكيت»، كان الفيل الأسود والفيل الأبيض الواحد إلى جنب الآخر. قرر أن يخالف قاعدة كان قد اختطها لنفسه، فرفع الهاتف وكوّن رقماً لأمستردام. عندما رفع فاكيرز السماعة، سمع صديقه يطرح عليه سؤالاً بلا ريب فريداً. هل في استطاعة سم أن يسبّب عوارض التهاب رئوي حاد؟

لم يكن فاكيرز يعلم شيئاً، غير أنه وعد بأن يستعلم في أقرب مهلة. ألباقة هي أم دليل صداقة، لم يطلب من إيفوري تفسيراً ما.

رجلان أسنداني بينما أخذ ثالث يفرك جذعي. لقد استعدت، وأنا جالس على كرسي، ورجلاي مغمورتان في طشت ماء فاتر، بعضاً من قواي وكدت أنجح في الوقوف على قدمي. لقد نزعوا عني ثيابي المبللة والقذرة وألبسوني نوعاً من مئزر طويل. استردّ جسمي حرارته شبه العادية، حتى ولو أني ما زلت أرتجف. دخل راهب الغرفة ووضع على الأرض طاسة حساء وطاسة أخرى من الأرز. عندما حملت السائل إلى شفتي، أدركت إلى أي حدّ أنا ضعيف. وما إن ابتلعت هذه الوجبة حتى تمددت على حصيرة وغرقت في النوم.

في الصباح الباكر، قدم راهب آخر يبحث عني ورجاني أن أتبعه. فصعدنا إلى رواق تعلوه قناطر. وكل عشرة أمتار، تنفذ أبواب إلى قاعات كبيرة حيث يتّبع مريدون تعاليم مرشديهم. يخيل إلي أني في مدرسة دينية في وطني انكلترا القديمة. ثمة جناح آخر لهذا البناء الرباعي الاضلاع، هو عبارة عن رواق ضخم، في نهايته غرفة خالية من الأثاث أُدخلتُ إليها.

مكثت هنا وحدي منقطعاً عن العالم خلال فترة طويلة

من الصباح. فرأيت مشهداً غريباً عبر نافذة مطلّة على ساحة الدير الداخلية. قرع صنج كبير الظهر، فقدم حوالي مائة راهب في رتل طويل وجلسوا على مسافة متساوية الواحد من الآخر مستغرقين في التأمل. ما استطعت أن أتمالك نفسي عن تخيّل كيرا مستترة في أحد تلك الجلابيب. وإذ كانت ذكرى ما اختبرته ليلة البارحة حقيقة واقعة، فإنها لا بد أن تكون مختبئة في هذا المعبد، أو لربما في مكان ما من هذه الباحة، بين هؤلاء الرهبان التيبتيين المجتمعين في صلواتهم. لأي سبب يحتفظون بها؟ لا أفكر إلا في العثور عليها واصطحابها إلى مكان بعيد من هنا.

شعاع من نور كنس الأرض، فاستدرتُ وإذا براهب واقف على عتبة الباب، مرّ مريد أمامه وتقدم مني، ورأسه مستتر تحت قلنسوة فرفعها، فلم أصدّق عينيّ.

إنك تحملين ندبة طويلة على جبينك، لكنها لا تنتزع شيئاً من سحرك. أود لو أحتضنك بين ذراعي، غير أنك تخطين خطوة إلى الوراء. شعرك قصير وسحنتك أشد شحوباً من المعتاد. أن أنظر إليك من دون القدرة على ملامستك هو أقسى أنواع العقوبات، أن أحس إنك قريبة جداً مني ولا أتمكن من ضمّك إلى صدري هو حرمان عنيف لا يُحتمل. أنك تحدّقين إلي من غير أن تتركيني

أقترب منك، كما لو أن زمن المعانقات قد ولّى، وسلكت حياتك طريقاً لم أعد أنا مرحبّاً فيها. وإذا كان لي أن أرتاب في ذلك، فإن كلماتك ما زالت أشد إيلاماً من المسافة التي تفرضينها علي.

ثم تمتمتِ بصوت لا تشوبه نبرة: ينبغي أن ترحل.

ــ لقد أتيت أبحث عنكِ.

ــ لم أطلب منك شيئاً، عليك أن تعود أدراجك وتتركني في سلام.

ــ حفرياتك، القطع... باستطاعتك أن ترفضيني، ولكن أن ترفضي هذه الأمور!

ــ لم يعد لها من أهمية، إن قلادتي هي التي قادتني إلى هنا، وقد وجدتُ فيه أكثر مما كنت أبحث عنه في مكان آخر.

ــ لا أصدقكِ، ليست حياتك داخل هذا الدير الضائع في نهاية العالم.

ــ مسألة فيها نظر، العالم مستدير، وأنت تعرف ذلك خيراً من أي إنسان آخر. أما حياتي فكدتُ أضيّعها بسببك أنتَ. كنا فاقدي الوعي، ولن تكون هناك فرصة ثانية. هيا،

ارحل، أدريان!

ــ ليس قبل أن أفي بالوعد الذي قطعته لك. لقد أقسمتُ أن أعيدكِ إلى واديك في أومو.

ــ لن أعود إليه ثانية! إرجعْ إلى لندن أو إلى مكان آخر، ولكن ابتعد من هنا.

وضعتِ قلنسوتك مجدداً، وخفضت رأسك منطلقة بخطوات َوئيدة. في اللحظة الأخيرة، حانت منك التفاتة نحوي، ووجهك ممتقع.

وجِّهت كلامك إليّ بنظرة إلى الكيس الذي وضعه الراهب: أمتعتك نظيفة، يمكنك أن تقضي الليلة هنا، لكنك سترحل صباح الغد.

ــ وهاري، هل تتخلين عنه أيضاً؟

رأيت دمعة تتألق على خدك وأدركت النداء الصامت الذي كنت توجهينه إلي.

وسألتك: هذا الباب الصغير الذي يفضي ٍإلى الحفر، الباب الذي تستعملينه لكي تذهبي إلى النهر ليلاً، أين هو؟

ــ في الطابق ما تحت الأرض، تحتنا بالضبط، ولكن لا تقصده، أرجوك.

ــ في أي ساعة يُفتح؟

أجبتِ قبل رحيلك: في الساعة الحادية عشرة ليلاً.

قضيت بقية النهار محتجزاً في هذه الغرفة التي شاهدتك فيها كي أضيعك في الحال. قضيت بقية النهار وأنا أراوح مكاني كأني مختَل العقل.

في المساء، أقبل راهب يبحث عني وقادني إلى الباحة، وسُمح لي بأن أخطو بضع خطوات في الهواء الطلق بعدما انتهى المريدون من صلاتهم الأخيرة. الطقس بارد الآن كفاية وأفهم أن الليل سيكون الحارس الحقيقي لهذا السجن. من المستحيل عبور السهل دون الهلاك من البرد. لقد اختبرت ذلك بنفسي، ولكن لا بد أن أجد حلاً، أياً كان الخطر.

اغتنمت النزهة الممنوحة لي لأكتشف الأماكن. يقوم الدير على مستويين، بل على ثلاثة إذا ما أخذنا في الحسبان الطوابق تحت الأرض التي حدثتني كيرا عنها، فيما تطل خمس وعشرون نافذة على الباحة، وتحف قناطر عالية بأروقة الطابق الأرضي. وهناك في كل زاوية سلّم حجري حلزوني. أعدّ خطواتي ثانية، أحتاج إلى خمس أو ست دقائق على الأكثر لأبلغ أحد السلالم انطلاقاً من حجرتي، بشرط ألا أصادف أحداً في الطريق.

بعد تناول العشاء، رقدتُ على حصيرتي متظاهراً بالنوم. ما لبث حارسي أن أخذ في الشخير. لم يكن الباب مغلقاً بالمفتاح، وما كان أحد ليفكر في مغادرة هذا المكان وسط الليل.

الرواق مقفر، والرهبان الذين يتنزهون فوق الأسطح على امتداد طريق الدورة لا يستطيعون رؤيتي، فالجو قاتم جداً لكي يلمحوني تحت القناطر، لذا فأنا أحاذي الجدران.

الساعة العاشرة وخمسون دقيقة ليلاً بحسب ساعتي. إذا كانت كيرا قد حددت لي موعداً دقيقاً، وإذا كنتُ قد أوّلت رسالتها تأويلاً سليماً، تبقى لي عشر دقائق لأجد الوسيلة الكفيلة لبلوغ الطابق ما تحت الأرض وأعثر على ذلك الباب الصغير الذي لمحته من الغابة حيث كنت أختبئ البارحة.

الساعة العاشرة وخمس وخمسون دقيقة، بلغتُ أخيراً السلّم. ثمة باب يحول دون الدخول، باب مغلق بإحكام بواسطة مشبك حديدي. لا بد من التوصل إلى رفعه من غير ضجيج، إذ إن قرابة عشرين راهباً ينامون في غرفة قريبة من المكان. صُرّ الباب على مفاصله، ففتحته قليلاً وانسللت.

متلمساً طريقي في الظلام الحالك، نزلت الدرج، ذا

الحجارة المتآكلة الزلقة. ليس سهلاً الحفاظ على التوازن، كما لا فكرة لدي عن المسافة التي ما انفكت تفصلني عن بواطن الدير.

كانت عقارب ساعتي الفوسفورية تكاد تشير إلى الحادية عشرة ليلاً. أخيراً أحسست بالأرض الخوّارة تحت قدميّ؛ كان شمعدان معلق على الحائط يضيء ممراً بنور واه. على مسافة أبعد قليلاً، لمحت واحداً آخر، فاستأنفت طريقي. وفجأة سمعت وراء ظهري حفيفاً، فما كدت أستدير حتى دار بسرعة سرب من الوطاويط حولي. مرات عدة مستني أجنحتها مساً خفيفاً بينما كانت ظلالها ترتعش في صدى الشمعدان النيّر. لا بد من المضي قدماً، فالساعة تشير الآن إلى الحادية عشرة وخمس دقائق. لقد تأخرتُ ولا أرى الباب الصغير أبداً. هل سلكت طريقاً خاطئاً؟

قالت كيرا: «لن تكون هناك فرصة ثانية». لا يمكن أن أكون قد ضللت الطريق، ليس وقته الآن. وإذ بيد أمسكت بكتفي وجذبتني جانباً إلى دعامة حائط. وأخذتني كيرا، وهي مختبئة تحت فرجة داخل جدار، بين ذراعي وعانقتني.

وتمتمتِ: يا الله، كم أنا مشتاقة إليك.

لم أجبكِ، إنما أحطت وجهك بيدي وتعانقنا. لهذه القبلة

الطويلة مذاق التراب والغبار، رائحة ملح وعرق. ثم أسندت رأسك إلى كتفي، فداعبت شعرك وبكيتِ أنت.

ـــ عليك أن ترحل، أدريان، لا بد أن تذهب، إنك تعرّض كلينا للخطر. كان شرط بقائك في الحياة أن يعتقدني الناس ميتة؛ فلو علموا أنك هنا، وأننا تلاقينا، فسوف يقتلونك.

ـــ الرهبان؟

قلت وأنت تحت وطأة الفواق: لا، إنهم حلفاؤنا، خلّصونَي منَ النهر الأصفر، اعتنوا بي وخبؤوني هنا. أتحدث عن أولئك الذين أرادوا اغتيالنا، أدريان إنهم لن يعدلوا عن قتلنا. لا أدري ماذا فعلنا، ولا لماذا يطاردوننا، إنهم لن يتراجعوا أمام أي صعوبة ليمنعونا من مواصلة أبحاثنا. لئن علموا أننا متحدان فسيعثرون علينا ثانية. ذلك الراهب البوذي الذي التقيناه، ذلك الذي سخر منا بينما كنا نبحث عن الهرم الأبيض، هو الذي أنقذنا من المأزق... وأنا قطعتُ عليه وعداً.

أثينا

انتفض إيفوري عندما رنّ جرس بابه، حيث سلّمه خادم البناية نسخة فاكس عاجلة، وكان أحدهم اتصل بغرفة الاستقبال لتسلَّم إليه فوراً. تناول إيفوري المغلّف شاكراً الشاب، وانتظر أن يبتعد ليفضّ الظرف.

كان روما يطلب منه أن يتصل به في أقرب وقت من خلال خط آمن. ارتدى إيفوري ثيابه على عجل ونزل إلى الشارع. اشترى بطاقة هاتف من الكشك المواجه للفندق ليتصل بـ لورنزو من غرفة هاتف قريبة:

ــ عندي أخبار غريبة.

حبس إيفوري أنفاسه وأصغى إلى محدثه باهتمام.

ــ لقد عثر أصدقائي في الصين على أثر عالمتك للآثار.

ــ على قيد الحياة؟

ــ نعم، غير أنها ليست مع ذلك على استعداد للعودة إلى أوروبا.

ــ ما سبب ذلك؟

ــ سيشقّ عليك ابتلاع الكذبة، فقد اعتُقلت وسُجنت.

ــ هذا منافٍ للعقل! ولأي سبب؟

أكمل لورنزو، المعروف بروما، لغزاً كان إيفوري يجهد في حله. ما زالت قطع عدة تنقص إيفوري. كان رهبان جبل «هوا سهان» على ضفة النهر الأصفر حين سقطت سيارة أدريان وكيرا ذات الدفع الرباعي، كان ثلاثة منهم قد غاصوا لانتشالهما من المياه المدوّمة. كان أدريان أول من أُخرج من السيارة واقتاده عمال كانوا يمرون في شاحنة إلى المستشفى على جناح السرعة. كان إيفوري على علم بذيول الحادثة وأتى إلى الصين للاعتناء به وإجراء اللازم لنقله إلى الوطن. أما بالنسبة إلى كيرا، فإن الأمور جرت بشكل مغاير. كان على الرهبان أن يحاولوا ثلاث مرات قبل تخليصها من هيكل السيارة، الذي غيّر اتجاهه. ولما أعادوها إلى اليابسة، كانت الشاحنة قد مضت، فنقلوها إلى الدير فاقدة الوعي. وسرعان ما علم الراهب البوذي أن الشركاء الممولين لمحاولة الاغتيال هذه كانوا محسوبين على ثلاثة رؤوس مدبرة في المنطقة، تمتد فروعهم حتى بكين. فأخفى كيرا وعانى سوء المعاملة الذي فرضه عليه الأشخاص الذين قدموا للزيارة بعد أيام عدة. وأقسم أن مريديه لو أحسنوا الغوص في سعيهم لإنقاذ هذين الغريبين

من الغرق، لما استطاعوا أن يفعلوا شيئاً للمرأة الشابة التي كانت قد هلكت. وخضع الرهبان الثلاثة الذين ساعدوها للتحقيق نفسه، إلا أن أحداً لم يتكلم. بقيت كيرا عشرة أيام في حالة غيبوبة، وأخرّ التهاب أصابها شفاءها، لكن الرهبان نجحوا في القضاء على مرضها.

عندما تماثلت للشفاء وأمست قادرة على السفر، أرسلها الراهب البوذي بعيداً من ديره، حيث كان خطر البحث عنها ما زال قائماً. وكان قد ارتأى أن يلبسها زي راهب ريثما تهدأ الأحوال.

سأل إيفوري: وما الذي جرى في ما بعد؟

أجاب لورنزو: هنا، أظنك لن تصدّق ما حدث، إذ إن خطة الراهب البوذي لم تجرِ، للأسف، مثلما كان قد توّقع.

استمرت المكالمة عشر دقائق أيضاً. عندما علّق إيفوري السماعة، كانت بطاقة الهاتف نفد مفعولها. فاندفع بسرعة نحو فندقه، أقفل على أمتعته واستقل سيارة تاكسي وثباً، ثم اتصل، عبر هاتفه الخلوي، بوالتر في طريقه إلى إبلاغه أنه على وشك الالتحاق به.

وصل إيفوري بعد نصف ساعة أمام المبنى الكبير الرابض فوق تلة أثينا. أخذ المصعد إلى الطابق الثالث

واندفع في الممشى بحثاً عن الغرفة 307. قرع الباب ودخل. استمع والتر، فاغر الفم، إلى ما أخبره به إيفوري.

ــ الآن، عزيزي والتر، أنت تعرف كل شيء أو تقريباً كل شيء.

ــ ثمانية عشر شهراً؟ إنه لأمر مروّع! هل لديك فكرة عن طريقة لإنقاذها؟

ــ كلا، ليس لدي أدنى فكرة، ولكن لنرَ الجانب الإيجابي من الأمور، نحن الآن على يقين من أنها على قيد الحياة.

إني لأتساءل كيف سيستقبل أدريان هذا النبأ، أخشى ألا ينال هذا منه بصورة أقوى.

أجاب إيفوري، متنهداً: قد أشعر بالراحة إلى حد كبير إذا ما استطاع تحمّل النبأ. ما هي الأخبار في شأنه؟

ــ ما من خبر للأسف، إلا أن الناس أجمعين متفائلون. قيل لي إن الأمر بات مسألة يوم، أو حتى بضع ساعات، قبل التمكن من الحديث إليه.

ــ لنتمنَّ أن يكون هذا التفاؤل له ما يبرره. أعود اليوم إلى باريس وينبغي أن أجد الوسيلة الكفيلة بإخراج كيرا

من هذا الوضع. اهتم بأمر أدريان إذا سمح الحظ لك بالتكلم معه، ولا تقل له شيئاً بعد.

ــ لا يسعني أن أبقي مصير كيرا سراً، ذلك مستحيل، قد يضيق عليّ الخناق ما دمت حياً.

ــ لم أكن أفكر في ذلك. لا تجعله يشاطرنا شكوكنا، ما زال الأوان باكراً، ولي أسبابي الخاصة. إلى اللقاء قريباً، والتر، سأعاود الاتصال بك.

غارتهر

ــ أي وعد قطعتِ لهذا الراهب البوذي؟

إنك تنظرين إلي متأسفة وتهزين كتفيك، وأنت تعلمين أن الذين حاولوا اغتيالنا، سيعاودون مطاردتنا حتَى في ما وراء الحدود، في ما لو عرفوا أنك بقيت على قيد الحياة. وإذا عجزوا عن إلقاء القبض عليك، فسأكون أنا أول من يتولّون أمره. إن الراهب البوذي طلب منك، لقاء جميع الخدمات التي أداها لنا، أن تمنحيه سنتينَ من عمرك، سنتين من الخلوة تستطيعين الاستفادة منها للتفكير وتقرير الغاية التي تودين تنفيذها من وجودك. قال لك: سنتان لتبيِّن الوضع حول حياة أوشكت أن تضيع، لا تُعتبران صفقة سيئة، لن تكون هناك فرصة ثانية. وحينما يهدأ الوضع سيجد الراهب البوذي الوسيلة الناجحة ليجعلك تجتازين الحدود من جديد.

ــ سنتان لإنقاذ حياتنا، هذا كل ما طلبه مني، وقبلت الاتفاق. وقد صمدتُ لأنك كنتَ بمنأى عن الخطر. لو كنتَ تدري كم مرة أثناء هذه الخلوة تخيلتُ أيامك وزرت مجدداً الأماكن التي قمنا بالتنزه فيها. لو كنت تدري كم من الأوقات أمضيتها في منزلك بلندن... لقد ملأتُ أيامي بكل

لحظة من تلك اللحظات الخيالية.

ــ أعدكِ بأن...

قلت لي واضعة يدك على فمي: «في ما بعد، غداً سترحلَ، وتبقى لي ثمانية عشر شهراً أعتصم خلالها بالصبر والتجلد. لا تقلق علي، فالحياة هنا ليست قاسية كما تبدو، أنا أعيش في الهواء الطلق، ولدي الكثير من الوقت. لا تنظر إلي على أني قديسة أو مستنيرة. ولا تظنَّ نفسك أهم مما أنت عليه. لا أفعل هذا من أجلك، بل من أجلي أنا».

ــ من أجلك؟ وماذا تكسبين من ذلك؟

ــ ألا أضيعك مرة ثانية. لو لم أبلّغ الرهبان بحضورك لكنتَ هلكت في الغابة ليلة البارحة.

ــ أأنتِ التي أعلمتهم بالأمر؟

ــ ما كنتُ لأتركك تموت من البرد!

ــ وعْدٌ للراهب البوذي أو عدمه، إننا سنرحل من هنا، وسأذهب بك، طوعاً أو كرهاً، حتى ولو اضطررت إلى صرعك.

للمرة الأولى، أرى مجدداً منذ زمن بعيد ابتسامتك،

ابتسامة حقيقية. لقد وضعتِ يدك على خدي وداعبته.

ـ موافقة، لننصرف، في كل حال، لن أصمد إذا ما رأيتك ترحل، وسأكرهك لأنك تركتني هنا.

ـ كم من الوقت لدينا قبل أن يلاحظ سجّانوك أنك لم تعودي إلى زنزانتك؟

ـ لكنهم ليسوا سجانين، فأنا حرة في أن أتنقّل حيثما يحلو لي.

ـ وذلك الراهب الذي كان يرافقك إلى النهر، ألم يكن لمراقبتك؟

ـ ليحرسني في حال تعرضتُ لمكروه ما في الطريق. إني المرأة الوحيدة في هذا الدير، لذا أتوجه كل ليلة إلى النهر لأغتسل وأتزين. هذا، وقد واظبت على ذلك طوال الصيف ومنذ مطلع الخريف، أما مساء البارحة فكان خروجي الأخير.

فتحتُ صرة ثيابي، أخرجت كنزة صوف وبنطالاً وناولتك إياهما.

ـ ماذا تفعل؟

ـ إرتدي هذه الألبسة، إننا ننطلق في الحال.

ــ ألم تكفكَ إذاً تجربة البارحة؟ لا بد أن تكون درجة الحرارة صفراً في الخارج، وسيهبط إلى ناقص عشر درجات في غضون ساعة، ولا تتيح لنا أية فرصة لاجتياز هذا السهل ليلاً.

ــ كما لن نتمكن من اجتيازه نهاراً من غير أن يكتشفوا أمرنا! مسيرة ساعة، أوَ تعتقدين أنه بإمكاننا البقاء على قيد الحياة؟

ــ القرية الأولى تقع على بعد ساعة... بالسيارة! ونحن لا نملك سيارة.

ــ لا أتحدث عن قرية بل عن مخيم البدو.

ــ إذا كان مخيمك بدوياً، يمكنه ولا ريب أن يكون قد غيّر موضعه.

ــ إنه سيكون هناك، والذين يشغلونه سوف يساعدوننا.

قلت وأنت ترتدين الكنزة الصوفية والبنطال: لن نتشاجرَ، إذهب إلى مخيمك الخاص بالبدو! وسألتك: أين هذا الباب اللعين للخروج من هنا؟

ــ إنه أمامك بالضبط... لكننا لسنا على وشك الوصول إليه!

حالما أصبحنا في الخارج، جذبتك باتجاه الغابة، أما أنت فسحبتني من ذراعي وقدتني إلى الطريق المؤدي إلىَ النهر.

ـ لا داعي لضياعنا وسط هذه الأشجار، أمامنا القليل من الوقت قبل أن يدركنا البرد.

أنت تعرفين المنطقة خيراً مني، فأذعنت لك وتركت لك قيادة اَلمسيرة. عند النهر سأتعرف إلى الدرب الذي يتسلق نحو التلة. نحتاج إلى عشر دقائق للوصول إلى هناك، فضلاً عن ثلاثة أرباع الساعة لاجتياز الممر وبلوغ الوادي الكبير حيث يقوم المخيم. خمس وخمسون دقيقة ونكون قد تخلصنا من المأزق.

كان الليل قارس البرد أكثر مما توقعتُ. بدأت أرتعد والنهر ما زال متوارياً عن ناظري. إنك لا تكلميني لأنك مركزة كل انتباهك على الطريق الواجب سلوكه. وأنا لا أستطيع أن ألومك على هذا الصمت، فلعلك على حق في الحفاظ على قواك، بينما أحس قواي تنفد في كل خطوة أخطوها.

لما وصلنا إلى طرف السهل الذي يتعهده الرهبان بالزراعة أثناء النهار، قلقتُ على جرك إلى هذا الوضع. فها أنذا أكافح الخدر منذ دقائق عدة، وَقلتِ لي لاهثة: لن

أُوفّق أبداً.

كان ستار ضارب إلى البياض ينبعث من فمك عند كل كلمة تتفوهين بها. فعانقتك ودلكت ظهرك. وكنت أودّ تقبيلك لكن شفتي كانتا مجمدتين... بينما كنت تنبهينني إلى النظام.

ــ لم تعد أمامنا دقيقة واحدة نضيعها، لا ينبغي أن نظل بلا حراك، قُدْنا بأسرع ما يمكن إلى مخيمك أو نموت مجمدين.

أشعر ببرد قارس جداً حتى أن جسمي بأكمله يرتجف.

بدا سفح التلة آخذاً في الامتداد كلما استمرينا في الصعود. لا بد من الصمود وبذل بعض الجهود. عشر دقائق على الأكثر ونبلغ القمة؛ من هناك سنرى بكل تأكيد، في هذه الليلة الصافية، الخيام المتناثرة في مكان بعيد. ومجرد التفكير بأن الحرارة تعمها سيجدد قوتنا وشجاعتنا. وأعلم أن الهبوط إلى بطن الوادي سيقتضينا ربع ساعة على أبعد تقدير، وحتى لو استنزف الإرهاق كل طاقاتنا، فحسبي أن أطلب النجدة. بقليل من الحظ، سوف يسمع أصدقائي البدو صرخاتي في الليل.

ثلاثاً سقطتِ، وثلاثاً أعنتكِ على النهوض، وفي المرة

الرابعة كان وجهك شاحباً شحوباً مخيفاً، وازرقت شفتاك كما عندما كنت تغرقين أمامي في مياه النهر الأصفرَ. رفعتك حاملاً إياَك وطوّقت إبطك بذراعي.

في الطريق، زعقتُ في وجهك أن تصبري ومنعتك من إغماض عينيك.

نُحت قائلة: كفّ عن الصراخ في وجهي، فالأمر بات شاقاً جَداً على هذا النحو. لقد قلتُ لك إنه ما كان ينبغي القيام بذلك، لكنك لم تشأ الإصغاء إلي.

مائة متر. بقيت أمامنا مائة متر قبل بلوغ القمة، فأسرعت الخطى وشعرت أنك أصبحت أكثر خفة، وأنك استعدت بعضاً من قواك.

قلت لي: النفَس الأخير، الانتفاضة الأخيرة قبل الموت. هيا أسَرع بدلاً من النظر إلي بسحنتك الخائبة هذه. ألم أعد أضحكك؟

أما أنت فتباهيت، ولو أن شفتيك وجدتا صعوبة في النطق بوضَوح. مع ذلك، نهضتِ فدفعتني وتابعت السير وحدك، متقدّمة علي.

ــ أنت تجرجر نفسك، أدريان، تجرجر نفسك!

خمسون متراً! لقد سبقتني وعبثاً أحاول دفع ساقيّ، ما عدت قادراً على اللحاق بك؛ إنك ستصلين إلى الأعلى قبلي بوقت طويل.

ــ هل أنت آتٍ نعم أم لا؟ هيا، أسرع.

ثلاثون متراً! لم يعد الممر الجبلي بعيداً جداً، أنت على وشك الوصول. ينبغي أن أبلغه قبلك، وأريد أن أرَى أولاً المخيم الذي سينقذ حياتنا.

ــ إنك لن تصل إذا جرجرت نفسك، وأنا لا أستطيع العودة للبحث عنك، أسرع، أدريان، هيا عجّل!

عشرة أمتار! لقد بلغت أعلى القمة ووقفت مستقيمة كقضيب مركوز، ويداك على خاصرتيك. رأيتك من الخلف تتأملين الوادي من دون أن تنبسي ببنث شفة، خمسة أمتار! رئتاي على وشك الانفجار. أربعة أمتار! لم تعد ارتعاشات بل تشنجات هي التي تهزني هزاً بأكملي. فارقتني قواي فأرخيت قبضتي وسقطت. لم تعيريني أي اهتمام. عليّ أن أنهض، إذ لم يبق إلا متران أو ثلاثة، لكن الأرض ناعمة جداً، والسماء جميلة جداً تحت ضوء القمر وهو بدر تام. أحسست بالنسيم يداعب خدي ويهدهدني.

ثم ملتِ إلي، غير أن نوبة سعال شديدة اقتلعت صدري.

أما الليل فكان أبيض، كثير البياض بحيث كنا نرى كل شيء كما لو الوقت نهار. لا بد أنه البرد، إني لمفتون حقاً، ويكاد سطوع الضوء لا يحتمل.

وقلت مشيرة إلى الوادي: أنظرْ، كنت قد قلته لك، إن أصدقاءَك رحلوا. ولا يحسن بنا أن نضمر الحقد لهم، أدريان، فهم بدو، سواء أكانوا أصدقاء أم لا، إنهم لا يمكثون أبداً في المكان نفسه لوقت طويل.

فتحتُ عيني بصعوبة، لمحت في البعيد، وسط السهل، موضع المخيم الذي كنت آمل رؤيته، لمحت دعامات الدير الساندة. لقد درنا ونحن نراوح مكاننا، وعدنا على أعقابنا. مع ذلك، إنه لمستحيل، فنحن لسنا في الوادي عينه ولا أرى الفسحة المعشوشبة تحت الشجر.

وتمتمت: أنا متأسفة، لا تحقد علي. كنتُ قد وعدت ولا يسعني التَخلص من وعد. وأنت كنت أقسمت بإعادتي إلى أديس أبابا، لو كان في وسعك الوفاء بعهدك. فهل كنت فعلت ذلك، أليس كذلك؟ أنظر كيف تتألم جراء عجزك، إذاً إفهمني. هل تفهمني، أليس كذلك؟

عندها قبلتني على جبيني. كانت شفتاك مجمدتين، فابتسمت وابتعدت.. بدت خطواتك ثابتة جداً، كَأنما البرد لم يعد له َ فجأة أي تأثير عليك. فتقدمت بهدوء في الليل

سائرة باتجاه الدير. ما عدتُ أقوى على استبقائك ولا على اللحاق بك. فأنا أسيّر جسمي الرافض كل حركة، كما لو أن ذراعيّ وساقيّ قد أعاقتها رباطات متينة. كنتُ عاجزاً، كما قلت لي قبل أن تفارقيني. عندما وصلت أمام السور، انفتَحت بوابتا الدير الضخمتان، فاستدرتِ للمرة الأخيرة إلي ودخلته.

إنكِ لبعيدة كل البعد لكي أسمعك، وبالرغم من ذلك فإن رنة صَوتك الصافية تصلني:

ــ كن صبوراً، أدريان. ربما سنتلاقى. ثمانية عشر شهراً ليس بالشيء الرهيب حين يحب أحدهم الآخر. لا تخف شيئاً، ستتخلص من الورطة لأنك تملك القوة في دخيلة نفسك، ثم جاء أحدهم، إنه على وشك الوصول إلى هنا. أحبك، أدريان، أحبك.

وانغلقت بوابتا معبد غارتهر الثقيلتان على قوامك الهزيل.

أصيح اسمك في الليل، أصيح كذئب وقع في الفخ وبدأ يرى الموت مقبلاً عليه. إني أتخبط وأشدّ بكل قواي على الرغم من أعضائي المتخدّرة. أصرخ وأصرخ أيضاً وإذا بي أسمع وسط السهول المقفرة صوتاً يقول لي: «هدّئ من روعك، أدريان». هذا الصوت مألوف لدي، إنه صوت

صديق. وردّد والتر مرة جديدة هذه العبارة التي ليس لها أي معنى:

ــ «تباً لك، أدريان، إهدأ أخيراً. سينتهي بك الأمر إلى جرح نفسك!».

أثينا، مركز المستشفى الجامعي، قسم الالتهابات الرئوية

ــ تباً لك، أدريان، إهدأ أخيراً. سينتهي بك الأمر إلى جرح نفسك!

فتحت عيني وأردت أنٍ أستوي جالساً، لكني كنت مقيداً، فيما كان وجه والتر مائلاً ناحيتي، وهيئته تنمّ عن حيرته التامة:

ــ هل أنت عائد إلينا أم أنك تمر بحادث هذيان جديد؟

تمتمت قائلاً: أين نحن؟

ــ أجب أولاً عن سؤال صغير: إلى من أنت موشك أن توجه كلامك، من أنا؟

ــ أخيراً، هل أصبحتَ، والتر، مخبولاً بالكامل أم ماذا؟

أخذ والتر يصفق، ما عرفتُ سبباً لهياجه، إنما اندفع مسرعاً نحو الباب وصرخ في الممشى: إنه في منتهى اليقظة. وبدا أن هذا الخبر قد أثلج صدره، وظلّ مائل الرأس إلى الخارج واستدار مخيب الأمل كلياً.

ــ لا أدري كيف يمكنك العيش في هذا البلد، قد يقال

إن الحياة تتوقف أوان الغداء. ليس ثمة حتى ممرضة واحدة، يخيل للمرء أنه في حلم. آه، نعم لقد وعدتك بأن أخبرك أين نحن. إننا في الطابق الثَالث من مستشفى أثينا في قسم الالتهابات الرئوية، الغرفة 307. عليك، عندما تتمكن، أن تتأمل المشهد، إنه لجميل جداً. من نافذتك، ترى المرسى الطبيعي، وقد يندر أن يتمتع مستشفى بمشهد مماثل. لقد قلّبت أمك وخالتك الممتعة إيلينا السماء والأرض كي تضعاك في غرفة إفرادية. ولم تعرف المصالح الإدارية لحظة راحة. إن خالتك الممتعة وأمك هما، صدّقني، امرأتان قديستان.

ــ ماذا أفعل هنا؟ ولماذا أنا مقيد؟

ــ ليكن معلوماً لديك أن قرار ربطك بحزام لم يتخذ بطيبة خاطر، لكنك تعرّضت لحالات من الهذيان عنيفة، فارتُئي من الحكمة حمايتك من نفسك. ثم ضاقت الممرضات ذرعاً برؤيتك على الأرض أثناء الليل، فأنت مضطرب في نومك بشكل غريب يكاد لا يصدّق! حسناً، أفترض أنني لا أملك الحق في ذلك، ولكن بما أن الجميع أخلدوا إلى القيلولة، لذا أعتبر نفسي السلطة الوحيدة المؤهلة وسأعمل على تحريرك.

ــ والتر، هل تخبرني لماذا أنا في غرفة مستشفى؟

ــ ألا تتذكر شيئاً؟

ــ لو كنت أتذكر شيئاً ما، لما كنت طرحت عليك السؤال!

توجه والتر صوب النافذة ونظر إلى الخارج، وقال شارداً:

ــ إني متردد. أفضل أن تستردّ قواك أولاً، وسنتكلم في ما بعد. هذا وعد مني لك.

استويت جالساً في سريري، أصيب رأسي بدوار، فأسرع والتر ليحول دون سقوطي.

ــ أترى ما أقوله لك، هيا تمدّد واهدأ. لقد قلقت عليك أمك وخالتك الممتعة قلقاً شديداً، لذا كن لطيفاً ومتيقظاً إن جاءتا تعودانك في نهاية بعد الظهر. لا حاجة لتعب غير مجد. هيا، هذا أمر! في غياب الأطباء والممرضات وأثينا برمتّها التي تنام نومة خفيفة، أنا من يأمر هنا!

كان فمي جافاً، فناولني والتر كوب ماء.

ــ على مهلك، يا عزيزي، منذ وقت طويل أنت تخضع لحقن متواصل، ولا أدري إن كان شرب الماء مسموحاً لك. لا تتصرف كمريض مشاكس، أرجوك!

ـ والتر، أمهلك دقيقة واحدة لتقول لي في أية ظروف جئت إلى هنا أو أنزع كل هذه الأنابيب!

ـ ما كان علي أن أحلّ وثاقك البتة!

ـ خمسون ثانية.

ـ لا يليق بك اللجوء إلى مثل هذا الابتزاز، إنك لتخيّب أملي كثيراً، يا أدريان!

ـ أربعون!

ـ حالما تشاهد أمك!

ـ ثلاثون!

ـ إذاً، ما أن يمّر الأطباء ويؤكدوا لي استرداد عافيتك!

ـ عشرون!

ـ لكنك تشكو من نفاد صبر لا يحتمل. لقد مضت أيام وأيام وأنا أسهر عليك، كان في وسعك، مع ذلك، أن تكلمني بطريقة مختلفة!

ـ عشر ثوان!

زعق والتر: أدريان، إنزع عني هذا الحقن المتواصل! إني أحذرك، قطرة واحدة من الدم على هذه الملاءات

البيضاء، وأعتبر نفسي غير مسؤول عن شيء.

ـ خمس ثوان!

ـ حسناً، لقد غلبتني، سأقول لك كل شيء، ولكن كن على يقين أني سأضمر الحقد لك.

ـ إني أستمع إليك، والتر!

ـ ألا تتذكر شيئاً؟

ـ لا شيء.

ـ عن وصولي إلى هيدرا؟

ـ هذا، نعم أتذكره.

ـ والقهوة التي احتسيناها على شرفة الحانة القريبة من مخزن خالتك الممتعة؟

ـ نعم أيضاً.

ـ وصورة كيرا التي أريتك إياها؟

ـ طبعاً أتذكر.

ـ إنها لعلامة جيدة... وماذا بعد؟

ـ إنه مبهم كفاية، لقد ركبنا السفينة المبحرة من أثينا،

ثم تبادلنا التحيات في المطار، أنت كنت عائداً إلى لندن، وأنا كنت متوجهاً إلى الصين، لكني لا أعرف حتى إن كان ذلك هو الواقع أو كان كابوساً طويلاً.

ــ لا، لا، إني أؤكد لك أن كل شيء كان حقيقة، لقد ركبت الطائرة، حتى لو أنك لم تكمل سفرك، ولكن لنواصل حديثنا انطلاقاً من وصولي إلى هيدرا. آهِ، ثم ما الفائدة من تضييع الوقت، عندي لك خبران:

ــ إبدأ بالسيئ منهما.

ــ مستحيل! إن لم تعرف بدايةً الخبر السار، فلن تفهم شيئاً من الخبر السيئ.

ــ إذاً، ما دمتُ لا أملك الخيار، هيا اروِ لي السار...

ــ كيرا ما زالت على قيد الحياة، وهذا ليس فرضية إنما حقيقة ثابتة!

وقفزت في سريري.

ــ والآن، بعد ما قيل المهم، ما رأيك في توقف قصير، خلال فترة الاستراحة، بانتظار أمك أو الطبيب، أو الاثنين معاً؟

ــ والتر، كفّ عن هذه التمثيليات. ما هو الخبر

السيئ؟

ــ كل شيء في حينه، لقد طلبت مني أن تعرف ما الذي تفعله هنا، دعني إذاً أشرحه لك. وليكن معلوماً لديك أنك، مع ذلك، غيرت وجهة طائرة 747، وليس هذا في متناول جميع الناس. أنت مدين بالحياة لحضور سرعة بديهة المضيفة، إذ ألمّت بك، بعد إقلاع طائرتك، وعكة خطرة. من المرجح أنك، منذ غطستك الكبرى في النهر الأصفر، حملت معك بكتيريا وتعرضت لالتهاب رئوي شديد. ولكن لنعد ثانية إلى تلك الرحلة المتوجهة إلى بكين، بدا أنك كنت نائماً بهدوء وأنت جالس مكانك، لكن المضيفة، موضوع حديثنا، بينما كانت تحمل لك طبق طعام، أثار شحوب ملامحك والعرق المتصبب من جبينك انتباهها، فحاولت أن توقظك، ولكن بلا جدوى. كنت تتنفس بصعوبة وكان نبضك ضعيفاً جداً. إزاء خطورة الموقف، رجع الطيار أدراجه وتم نقلك على عجل إلى هنا. علمت بالخبر غداة وصولي إلى لندن، فعدت من فوري.

ــ ألم أبلغ الصين إطلاقاً؟

ــ في الحقيقة، لا، وإني لمتأسف.

ــ وكيرا، أين هي؟

ـ أنقذها الرهبان الذين استضافوك بالقرب من ذلك الجبل الذي نسيت اسمه.

ـ جبل هوا سهان.

ـ أنت قلت ذلك! لقد اعتنوا بها، ولكن للأسف حالما شفيت، استجوبتها السلطات، وبعد ثمانية أيام من اعتقالها، مثلت أمام محكمة وحوكمت لدخولها وتنقلها في الأراضي الصينية من دون أوراق ثبوتية، أي من غير إذن من الحكومة.

ـ لكنها ما كانت تستطيع أن تحمل معها أوراقاً ثبوتية، لأن هذه الأخيرة كانت داخل السيارة الغارقة في قعر النهر!

ـ نحن متفقان على ذلك تماماً. أخشى، للأسف، ألا يكون المحامي المكلف بالدفاع حكماً عنها توقف قليلاً عند هذا النوع من التفاصيل أثناء مرافعته. لقد حكم على كيرا بالسجن ثمانية عشر شهراً، وهي مسجونة في غارتهر، سجن قديم حوّل إلى سجن إصلاحي، في مقاطعة سيشوان، ليس بعيداً عن التيبت.

ـ ثمانية عشر شهراً.

ـ أجل، وكان ممكناً، بحسب دوائرنا القنصلية التي اتصلت بها، أن يكون أسوأ من ذلك.

ــ أسوأ؟ ثمانية عشر شهراً، والتر! هل تدرك ما يعني قضاء ثمانية عشر شهراً في سجن صيني؟

ــ السجن هو سجن، ولكن أعترف في الأساس أنك على حق.

ــ هناك من يسعى إلى اغتيالنا، وهي التي تجد نفسها وراء القضبان الحديدية.

ــ بالنسبة إلى السلطات الصينية هي مذنبة، لكننا سندافع عن قضيتها لدى السفارات مطالبين بمساعدتها لنا، سنبذل كلٍ ما في وسعنا. وأنا سأساعدك ما استطعت إلى ذلك سبيلاً.

ــ أو تعتقد أن سفارتنا سوف تخاطر بسمعتها وتعرّض مصالحها الاقتصادية للخطر من أجل الإفراج عنها؟

عاد والتر ثانية إلى النافذة.

ــ أخشى ألا تحرك محنتها ولا محنتك مشاعر الكثيرين. وأشك ألا يستلزم الأمر الاعتصام بالصبر والصلاة كي تتحمل على أحسن وجه الحكم الصادر في حقها. إني متأسف بإخلاص، وأنا أعرف، أدريان، كم هذا الوضع مخيف، ولكن... ماذا تفعل بحقتك؟

ـ إني أهرب من هنا. عليّ أن أتوجه إلى سجن غارتهر، لا بد أن أبلغه وأناضل من أجل تحريرها.

اندفع والتر مسرعاً نحوي وأمسك بساعديّ الاثنتين بقوة ما كنت لأتمكن من مقاومته في الحالة التي أنا فيها.

ـ إصغِ إلي جيداً، أدريان. لم يكن عندك لدى وصولك إلى هنا أيَ قوة مناعية، وكان الالتهاب يتقدّم بين ساعة وأخرى، وبصورة مخيفة. لقد هذيت طوال أيام معانياً حالات حمى قادرة على القضاء عليك مراراً. وكان لا بد أن يدخلك الأطباء في غيبوبة اصطناعية لبعض الوقت، بغية حماية دماغك. إني لازمت سريرك متناوباً ساعات الحراسة مع والدتك وخالتك الممتعة إيلينا. لقد تقدمت السن بأمك عشر سنوات خلال عشرة أيام، توقف إذاً عن تصرفاتك الصبيانية وتصرّف كرجل بالغ!

ـ حسناً، والتر، فهمت الدرس، يمكنك أن تتركني.

ـ إني أحذرك إذا رأيتُ يدك تقترب من هذا المحجاج(1) ، سأصفعك على وجهك!

ـ أعدك بألا أتحرك.

ـ إني أفضل هذا، فقد شبعت من حالاتك الهذيانية خلال هذه الأيام الأخيرة.

ـ لا يمكنك أن تتصور غرابة أحلامي.

ـ صدقني، بين الرقابة المستمرة للمنحى البياني لحرارتك والوجبات القذرة في الكافيتريا، اتسع لي الوقت لسماع العديد من حماقاتك. العزاء الوحيد في هذا الجحيم هو قطع الحلوى التي كانت خالتك الممتعة إيلينا تحملها إلي.

ـ أرجو المعذرة، والتر، ما هذا التصرف الجديد مع إيلينا؟

ـ لا أرى عما تتحدث؟

ـ عن خالتي الممتعة؟

ـ يحق لي أن أجد خالتك ممتعة، أليس كذلك؟ فظرفها ممتع وطبعها ممتع وضحتكها ممتعة وحديثها ممتع. لا أرى أين هي المشكلة!

ـ إنها تكبرك بعشرين سنة...

ـ آه، أحسنتَ، عقلية فذة، ما كنت أعرفك ضيق الأفق إلى هذا الحد! أما كيرا فتصغرك بعشرة أعوام، ألا يضايقك ذلك من هذه الناحية؟ متعصب، هذا ما أنت عليه!

ـ لستَ على وشك أن تقول لي إنك وقعت أسير سحر

خالتي؟ والآنسة جنكنز ما دورها في كل هذا؟

ــ مع الآنسة جنكنز، نحن نتباحث دائماً في شأن كل من طبيبينا البيطريين الخاصين، أعلم أن مسألة الشهوانية لا تشكل النيرفانا.

ــ لأن مسألة الشهوانية مع خالتي...؟ بالأخص لا تجبني، لا أريد أن أعرف شيئاً!

ــ وأنت لا تقوّلني ما لم أقله! مع خالتك نتحدث عن أمور كثيرةٍ ونتسلى كثيراً. فأنت لن تلومنا مع ذلك، إن كنا نلهو قليلاً بعد كل المتاعب التي سببتها لنا، لأنها تجاوزت الحد.

ــ إفعل ما يحلو لك، وما يعنيني أنا على كل حال...؟

ــ إني لسعيد أن أسمع منك هذا الكلام.

ــ والتر، لا بد لي من الوفاء بوعد، لأستطيع البقاء من دون عمل شيء. يجب أن أذهب للبحث عن كيرا في الصين. وأعيدها ثانية إلى وادي «أومو»، ما كان عليّ أن أبعدها قط عنه.

ــ تماثل أولاً للشفاء وسنرى في ما بعد. لن يتأخر أطباؤك عن القدوم، لذا أتركك تستريح، فيما ينبغي لي أن

أذهب قليلاً للتسوق.

ــ والتر؟

ــ نعم؟

ــ ماذا كنتُ أردد أثناء هذياني؟

ــ لفظت اسم كيرا ألفاً وسبعمائة وثلاثاً وستين مرة، وهذا الرقم يظل، في نهاية المطاف، تقريبياً، وقد اضطررتُ أن أحذف بعضاً منها؛ وفي المقابل، لم تسمّني سوى ثلاث مرات، إنه أمر منكّد للغاية. وأخيراً كنت تردد بشكل خاص كلاماً غير متماسك. وكان الأمر ينتهي بك، بين نوبتي تشنج، إلى أن تفتح عينيك، ونظرك زائغ في الفراغ، وحالتك تثير الهلع، ثم كنت تغوص مجدداً في الغيبوبة.

دخلتْ غرفتي ممرضة، فأحس والتر بالارتياح.

قالت لي وهي تغير حقني: وأخيراً لقد استفقت.

أقحمت في فمي ميزان حرارة، ولفّت مقياساً للضغط حول ذراعي مدوّنة على ورقة النسبَ الثابتة التي اكتشفتْها. قالت:

ــ عما قليل، سيأتي الأطباء لمعاينتك.

كان وجهها وامتلاء جسمها يذكراني بصورة غامضة بأحد الأشخاص. عندما خرجت من الغرفة مرنّحة حوضها، ظننتُ أنني تعرفت إلى المسافرة في حافلة كانت منطلقة على طريق غارتهر. وكان عامل في قسم الصيانة ينظف الممشى، فمرّ أمام بابي موجهاً إلى والتر وإلي ابتسامة عريضة. كان يرتدي كنزة وسترة صوفية، ويشبه كل الشبه، مثل قطرتي ماء، زوج صاحبة مطعم، التقيتها في فترات هذياني المحموم.

ــ هل جاء أحد يعودني؟

ــ أمك، خالتك وأنا. لماذا هذا السؤال؟

ــ لا لشيء، لقد رأيتك في منامي.

ــ ولكن يا للهول! إني آمرك بألا تبوح بذلك أبداً!

ــ لا تكن أبله. كنت برفقة أستاذ عجوز التقيته في باريس، أحد معارف كيرا، لم أعد اعرف أين يكمن الحد الفاصل بين الحقيقة والحلم.

ــ لا تقلق، ستعود الأمور إلى مجاريها رويداً رويداً، سترى. أما بصدد هذا الأستاذ العجوز، فليس لدي أي توضيح، غير أني لن أقول كلمة لخالتك التي قد تغتاظ إن علمت أنك تراها في أحلامك في هيئة عجوز.

ـ الحمى، على ما أتصور.

ـ إنه كذلك على الأرجح، لكني لستُ متيقناً من أن ذلك سيكفيه... والآن ارتح، فقد أسرفنا في الكلام. سأعود في مستهل السهرة. سأتصل هاتفياً بقنصليتنا ملحاً عليها في قضية كيرا. إني أقوم بذلك كل يوم في ساعة محددة.

ـ والتر؟

ـ ماذا بعد؟

ـ شكراً.

ـ ومني أيضاً.

خرج والتر من الغرفة، فحاولتُ القيام، ترنّحت ركبتاي، ولكن وفِّقت باعتمادي أولاً على مسند الأريكة القريبة من سريري، ثم على الطاولة الدرّاجة، على جهاز التدفئة وأخيراً وفُّقت في الوصول إلى النافذة.

في الحقيقة، إن المشهد لجميل. والمستشفى الرابض فوق التلة يطل على الخليج. في البعيد، كان يمكن مشاهدة الـ «بيريه». كنت قد رأيت مرات عدة منذ أيام طفولتي، هذا المرفأ من دون النظر إليه، إذ إن السعادة تجعل المرء شارد الذهن. أما اليوم فأنا أنظر إليه نظرة مختلفة، من

نافذة الغرفة 307 في مستشفى أثينا.

شاهدت في أسفل الشارع والتر يدخل إلى غرفة هاتف. لا بد أنه سينقل نداءه إلى القنصلية بكل تأكيد.إنه، بالرغم من مظهره غير اللبق، شخص مدهش، وإني لمحظوظ بأن أتخذه صديقاً لي.

باريس، جزيرة سان لويس

نهض إيفوري ورفع الهاتف.

ــ ما هي الأخبار عندك؟

ــ خبر جيد وآخر أشد إزعاجاً.

ــ إذاً، إبدأ بالثاني.

ــ إنه لغريب...

ــ ما الغريب؟

ــ هذا الهوس في اختيار الخبر السيئ أولاً... سأبدأ بالجيد، فلولاه لما كان للآخر أي معنى! تدنّت حرارته هذا الصباح واستعاد وعيه.

ــ إنه في الواقع خبر مدهش، ثلجَ له صدري. أشعر بأني تحررت من عبء ثقيل.

ــ إنه بالأخص إحساس بالارتياح عظيم، فمن دون أدريان كان كل أمل في مواصلة أبحاثك سيتلاشى، أليس كذلك؟

ــ كنت في الحقيقة قلقاً على مصيره. أو تعتقد أني

لولا ذلك كنت قد خاطرت وجئت أعوده؟

ــ لعله لم يكن من الواجب عليك القيام بذلك. أخشى أننا تكلمنا على مقربة كبيرة من سريره، بحيث بدا مدركاً بعض المقاطع من حديثنا.

سأل إيفوري: وهل يتذكّرها؟

ــ بعض ذكريات غير دقيقة لكي يوليها أهمية، لقد أقنعته أنه كان يهذي.

ــ إنه عمل أخرق لا يغتفر، كنت عديم التبصّر.

ــ كنت تريد أن تراه من دون أن يراك أحد، ثم أكّد لنا الأطباء أنه فاقد الوعي.

ــ ما زال الطب علماً تقريبياً. هل أنت متيقن من أنه لا يشك في شيء؟

ــ إطمئن، لديه أمور أخرى في ذهنه.

ــ أكان هذا الخبر المزعج الذي أردت أن تحدثني عنه؟

ــ كلا، ما يشغل بالي هو أنه مصمّم على السفر إلى الصين. فهو، كما قلت لك، لن يبقى أبداً ثمانية عشر شهراً مكتوف اليدين في انتظار كيرا. إنه سوف يفضّل أن

يقضيها تحت نافذة زنزانتها، وما دامت محتبسة، فلن ترغّبه في شيء ما سوى تحريرها. إذاً ما إن يُسمح له بمغادرة المستشفى حتى يطير إلى بكين.

ــ أشك أن يحصل على تأشيرة.

ــ سيذهب إلى غارتهر عابراً منطقة بوتان سيراً على قدميه، إن دعت الحاجة.

ــ لا بد أن يستأنف أبحاثه، إذ لا يسعني أبداً أن أنتظره ثمانية عشر شهراً.

ــ قال لي بالضبط الكلام نفسه في صدد المرأة التي يحبها، أخشى ألا تضطر، شأنه هو، إلى الاعتصام بالصبر.

ــ للثمانية عشر شهراً قيمة مختلفة كلياً بالنسبة إلى سني. فأنا أجهل إن كنت أستطيع أن أتباهى بتوخي مثل هذا الأمل في الحياة.

أضاف والتر: لنرَ، أنت في حالة صحية حسنة. ثم إن الحياة فانية في مائة بالمائة من الأحوال، إذ بالإمكان أن تسحقني سيارة ركاب وأنا خارج من غرفة الهاتف هذه.

ــ استبقيه مهما كلف الأمر، وأقنعه بعدم الإقدام على أي عمل في الأيام القادمة. ولا تدعه بالأخص أن يتصل

بإحدى القنصليات، وبالأخص بالسلطات الصينية.

ـ لماذا هذا كله؟

ـ لأن الدور الواجب أداؤه يتطلب دبلوماسية ولا يمكن القول إنه لامع في هذا الميدان.

ـ هل لي أن أعرف ماذا يجول في رأسك؟

ـ في لعبة الشطرنج يسمى هذا بالـ«تبييت»، أي استبدال مكان الملك بمكان الرّخ، سأبيّن لك المزيد في يوم أو يومين. إلى اللقاء، والتر، كن متنبهاً وأنت تعبر الطريق...

خرج والتر، فور انتهاء المكالمة، من غرفة الهاتف، ومضى يزيل خدر ساقيه.

لندن، ساحة سانت جيمس

توقفت سيارة التاكسي السوداء أمام الواجهة الأنيقة ذات الطراز الفيكتوري لفندق خاص. ترجّل منها إيفوري، سدّد حساب السائق، استعاد متاعه وانتظر ابتعاد السيارة. ثم سحب سلسلة كانت تتدلى في الجانب الأيمن من باب حديدي مشغول، فرنّ جرس، وسمع إيفوري وقع خطوات تتقدم، وفتح له خادم كبير. سلّم إيفوري هذا الأخير بطاقة صقيلة كتب عليها اسمه.

ــ هل تكرمتَ بإبلاغ مستخدمك أني راغب في مقابلته، إن الأمر يتعلق بقضية مستعجلة نسبياً؟

أسف كبير الخدم لعدم وجود سيده في المدينة، وخشي ألا يمكن الاتصال به.

ــ أجهل إن كان سير آشتون في مكان إقامته في «كنت»، حيث مقر صيده، أو عند عشيقاته، وبكلمة مختصرة، أنا لا أبالي بالأمر. ما أعرفه هو أني إذا عدت أدراجي من دون أن أراه، فإن سيدك، كما تدعوه أنت، قد يضمر لك الحقد زمناً طويلاً، لذلك أدعوك إلى الاتصال به، بينما أقوم أنا بجولة حول مجموعة بيوتكم النبيلة، وحين

أعود ثانية وأقرع هذا الباب، ستطلعني على العنوان الذي يرغب أن أجده فيه.

هبط إيفوري بعض درجات المدخل الخارجية متجهاً ناحية الشارع وراح يتنزه، ومتاعه الصغير في يده. وبعد عشر دقائق، بينما كان يتسكع أمام حاجز حي مشبك، ركنت عربة مغلقة باذخة على طول الرصيف. خرج منها سائق وفتح الباب له، كان قد تلقى الأمر بنقله إلى مسافة ساعتين من لندن.

كان الريف الإنكليزي في مثل الجمال الذي احتفظ به إيفوري في ذكرياته القديمة، إنه ليس فسيحاً ومخضوضراً كمراعي مسقط رأسه نيوزلندا، ولكن لا بد من الاعتراف بأن المشهد الذي يتوالى أمامه كان، مع ذلك، ممتعاً.

اغتنم إيفوري، الجالس بارتياح في المؤخرة، مسافة المسيرة ليستريح قليلاً. كان الوقت يكاد يقترب من الظهيرة عندما انتزعه أزيز العجلات على الحصباء من أحلام يقظته. كانت السيارة تصعد في ممر يحف به سياج من أشجار الكينا المشذبة تشذيباً متقناً، ثم توقفت تحت سقيفة ذات أعمدة تغزوها شجيرات الورد المتسلقة. فقاده أحد مستخدمي البيت عبر المسكن إلى القاعة الصغيرة حيث كان مضيفه في انتظاره.

ــ كونياك، بوربون أو جن.

ــ كوب ماء يفي بالغرض، صباح الخير سير آشتون.

ــ عشرون عاماً ونحن لم نلتق.

ــ خمسة وعشرون، ولا تقل لي إني لم أتغير، لننظر إلى الأمور كما هي. لقد تقدمنا كلانا في السن.

ــ ليس هذا مدار البحث الذي أتى بك إلى هنا، على ما أتصور.

ــ تصوّر أنه هو! كم من الوقت تمهلني؟

ــ عليك أنت أن تقوله لي، فأنت الذي دعوت نفسك إلى هنا.

ــ كنت أتحدث عن الزمن المتبقي لنا على هذه الأرض؛ بالنسبة إلينا عشرة أعوام على أبعد تقدير.

ــ ما أدراني بذلك، ثم لا رغبة لي في التفكير بهذا الأمر.

ــ سأهنّئ مهندسي من قبلك. هل هذا هو موضوع زيارتك؟

ــ السأم، مع كل هذه الأملاك، هو أن المرء عاجز عن

حملها معه إلى قبره. تكديس هذه الثروات التي جمعتها لقاء كل الجهود والتضحيات بات أمراً تافهاً ولو في اليوم الأخير. وحتى بركن سيارتك «الجاكوار»الجميلة أمام المقبرة، بيني وبينك، داخلها جلد وتلبيس خشب، يا للعمل الرائع!

ــ لكن هذه الثروات، يا عزيزي، سترثها الأجيال التي ستخلفنا، مثلما نقلها إلينا آباؤنا.

ــ إنه، في الحقيقة، ميراث جميل في ما يتعلق بك.

ــ هذا لا يعني أن صحبتك مزعجة لي، لكنّ جدول أعمالي مثقل جداً، إذاً لو قلت لي إلى أين تريد الوصول.

ــ «أنظر، لقد تغيرت الأزمنة، كنت أفكر في ذلك البارحة وأنا أقرأ الصحف. وزراء المالية وراء القضبان ويهترئون في زنزانات ضيقة إلى نهاية حياتهم. وداعاً أيتها القصور والممتلكات الباذخة، تكفي تسعة أمتار مربعة كحد أقصى، وفي المربع المخصص للشخصيات البارزة. وفي هذه الأثناء، يبدو وارثوهم يحاولون تغيير أسمائهم لغسل العار الذي أورثهم إياه ذووهم. والأدهى من ذلك أن أحداً لم يعد في مأمن، وبات الإفلات من القصاص ترفاً باهظ الثمن، حتى لأكثر الناس ثراء وقوة. الرؤوس تتهاوى واحداً تلو الآخر، حسب «الموضة»، إنك تعلم ذلك

خيراً مني، لم تعد للسياسيين أفكار، وإذا كانت لديهم أفكار، فإنها لم تعد مقبولة. إذاً، أي شيء أفضل لحجب المشاريع الاجتماعية الحقيقية من تأجيج عقاب المجرم باسم الشعب؟ إن ثراء البعض الفاحش مسؤول عن فقر الآخرين، كل إنسان يعرف ذلك في يومنا هذا.

ــ لا أظنك جئت لتزعجني وتطلعني على كلامك الثوري المرسل أو على تعطشك إلى العدالة الاجتماعية؟

ــ كلام ثوري مرسل؟ هنا، يختلط الأمر عليك، فما من إنسان أشد محافظة مني. لنكن منصفين، أنت، في المقابل، تكرّمني.

ــ أدخل في صلب الموضوع، إيفوري، لقد بدأت تزعجني جدياً.

ــ عندي صفقة أريد أن أعرضها عليك، قضية عادلة، بحسب قولك، إني أبادلك مفتاح الزنزانة حيث يمكنك أن تنهي أيامك إذا أرسلت بالبريد إلى الــ «دايلي نيوز» أو إلى الــ «أوبسرفر» الملف الذي أحتفظ به عنك، والمتعلق بحجز حرية عالمة آثار شابة. أرأيت الآن عما أريد أن أتكلم؟

ــ أي ملف؟ وبأي حق تأتي إلى هنا لتهددني؟

ـ استغلال نفوذ، مناصرة الآخرين بصورة غير مشروعة، تمويل خفي في المجلس النيابي، تعارض المصالح في شركاتك المختلفة، سوء استعمال أملاك المجتمع، تهرّب ضريبي، إنك شخص غريب الأطوار، يا عزيزي، لا شيء يقف في وجهك، حتى تمويل اغتيال عالم لا يثير لديك أي مشكلة. أي نوع من السم استخدم قاتلك المأجور للتخلص من أدريان، وكيف أدخله في جسمه؟ أفي شراب تناوله في المطار، في الكوب الذي قدّموه له قبل إقلاع الطائرة؟ أم أن الأمر يتعلق بسم من طريق الملامسة؟ أم أنها وخزة خفيفة أثناء التفتيش عند تجاوز الأمن العام؟ تستطيع الآن أن تقوله لي، فأنا متشوق إلى معرفته!

ـ أنت سخيف، عزيزي العجوز.

ـ انسداد رئوي على متن طائرة للمسافات الطويلة متوجهة إلى الصين. عنوان طويل بعض الشيء لرواية بوليسية، خصوصاً أن الجريمة أبعد من أن تكون متقنة تمام الاتقان!

ـ إن اتهاماتك المجانية وغير القائمة على أساس لا تقدم عندي ولا تؤخر، إنصرف من هنا قبل أن أجعلهم يطردونك.

ـ لم يعد الوقت في أيامنا الحالية يتسع للصحافة كي تتحقق من معلوماتها، فصرامة الصحيفة المعهودة في الماضي تلاشت على مذبح العناوين ذات الطبعة الواسعة الانتشار. لا يمكن لومها، فالمنافسة قاسية في عصر الانترنت. ولورد في مثل وضعك، وهو حديث الناس، عليه أن يشجع كثيراً على البيع! لا تظنّن أنك بسبب طعنك في السن لن تتمكن من رؤية نهاية أعمال لجنة تحقيق. لم تعد السلطة الحقيقية في المحاكم، ولا في اجتماعات المجالس، فالصحف هي التي تغذي الدعاوى، وتقدم الأدلة، وتحث الضحايا على أداء شهاداتها، بحيث لم يعد على القضاة إلا إصدار الحكم. لن تغامر أية سلطة في المجازفة بسمعتها، وبخاصة من أجل أحد أعضائها. الخوف شديد من الإصابة بالغنغرينة. القضاء مستقل الآن، ألا يتمثّل هنا نبل ديمقراطيتنا؟ أنظر إلى رجل المال الأميركي المسؤول عن أكبر عملية احتيال في هذا القرن. لقد حُسم كل شيء منوط به في غضون شهرين أو ثلاثة.

ـ تباً لك، ماذا تريد مني؟

ـ ألست تستمع إذاً؟ لقد قلتُه لك تواً، استخدم نفوذك للإفراج عن عالمة الآثار هذه. وأنا من ناحيتي سأتكرم بكتم الحقيقة عن الآخرين عما دبّرت لها ولصديقها الأبله

المسكين من مؤامرات! ولئن اكتُشف أنك أسهمت في سجنها، وأنت غير راض عن اغتيالها، فستطرد من المجلس ويستعاض عنكً بشخص آخر أكثر جدارة بالاحترام.

ـ إنك مثير للسخرية تماماً وأجهل عما تتحدث.

ـ إذاً، لا يبقى لي إلا أن أجيبك، سير آشتون: هل بإمكاني أن أُفرط في استغلال كرمك؟ ماذا لو كان في وسع سائقك أن يرافقني ثانية، أقله حتى المحطة، وذلك ليس لأني أخاف المشي، ولكن لو اتفق أن تعرضت في الطريق لحادث ما وقد جئت لزيارتك، سيكون لذلك أوخم الأثر.

ـ سيارتي تحت تصرفك، دع السائق يرافقك إلى حيث يحلو لك، ولكن انصرف من هنا!

ـ إنه لكرم منك، وهو ما يحفّزني شخصياً على الاقتداء بك. أدعك تفكر حتى هذا المساء، أنا أقيم في فندق دورشستر فلا تتردد في الاتصال بي. إن الوثائق التي تم إيداعها لدى رسولي هذا الصباح، لن تسلَّم إلى المرسل إليهم قبل الغد، إلا إذا استدعيته طبعاً من جديد حتى ذلك التاريخ. وإني لأؤكد لك أنه عند الاطلاع على ما يمكن كشفه، فإن مطلبي يُعتبر أكثر من معقول.

ــ إذا كنتَ تعتقد أنه بمقدورك أن تبتزني من طريق التهديد، فأنت ترتكب خطأ فادحاً.

ــ من يتحدث عن الابتزاز؟ لا أجني أي فائدة شخصية من هذه الصفقة الصغيرة. يوم جميل، أليس كذلك؟ أتركك تستفيد منه تماماً.

تناول إيفوري متاعه ثانية وعبر وحده مجدداً الممشى المؤدي إلى مدخل البيت. كان السائق يدخن سيكارة قرب حديقة الورد، فاندفع مسرعاً تجاه العربة المغلقة وفتح الباب لراكبه.

قال له إيفوري، محيّياً: انته من التدخين بهدوء، يا صديقي، فأمامي متسع من الوقتَ.

نظر سير آشتون، من نافذة مكتبه، إلى إيفوري يصعد إلى مؤخرة سيارته الجاكوار فثارت ثائرته، بينما كانت تبتعد في الممر. ما لبث أن انفتح باب خفي في المكتبة ودخل الغرفة رجل.

ــ لقد انقطعت أنفاسي، ولا بد أن أعترف لك أني ما كنت لأتوقع ما جرى.

ــ هذا الغبي جاء يتهددني في عقر داري، من يظن نفسه أنه هو؟

لم يحر ضيف سير آشتون جواباً.

ـ ماذا؟ ما بك حتى تغضب هكذا؟

هاج سير آشتون وماج: لن تبدأ أنت أيضاً بإزعاجي! إذا جرؤ هذا العجوز التافه على اتهامي علناً بأي تهمة كانت، فإن كتيبة من المحامين سيسلخون جلده حياً، وأنا ليس لدي بالضبط ما ألوم نفسي عليه. أتصدقني، كما آمل ذلك؟

تناول ضيف سير آشتون دورقاً صغيراً من الكريستال وصبّ لنفسه كوباً كبيراً من الـ «بورتو»، شربه دفعة واحدة.

تملك الغضب سير آشتون: سحقاً لك! هلا قلت شيئاً، نعم أم لا؟

ـ عليّ أن أختار، أفضل أن أردّ عليك بـ «سحقاً لك»، فلا تتأثر صداقتنا على الأقل إلا بضعة أيام أو بضعة أسابيع على الأكثر.

ـ انصرف عني، فاكيرز، أخرج من هنا أنت وغطرستك.

ـ أؤكد لك أنه لم يكن ثمة شيء من ذلك إطلاقاً.

متأسف حقاً على ما جرى لك، لو كنتُ مكانك لما بخستُ بقدر إيفوري. إنه، على ما قلت، مسّ من الجنون وهذا يجعله أكثر مدعاة للخطر.

وانكفأ فاكيرز من غير أن يضيف شيئاً.

لندن، فندق دورشستر، منتصف السهرة

رنّ الهاتف، فتح إيفوري عينيه ونظر إلى الساعة الدقاقة المعلقة فوق المدفأة. كانت المحادثة وجيزة. انتظر بضع دقائق قبل أن يجري بدوره اتصالاً عبر هاتفه الخلوي.

ــ كان بودي أن أشكرك، لقد اتصل بي ومنذ قليل علقتُ السماعة، كانت مساعدتك قيّمة جداً.

ــ لم أقم بشيء يذكر.

ــ بلى، على العكس تماماً. ما رأيك في «لعبة شطرنج؟» في أمستردام، في بيتك يوم الخميس القادم. هل أنت متوجه إلى هنالك؟

ما إن انتهى إيفوري من حديثه مع فاكيرز، حتى قام باتصال أخير. أصغى والتر باهتمام إلى التعليمات التي كان يزوده بها ولم ينسَ أن يهنئه على هذه الضربة البارعة.

ــ لا تنخدع، والتر، فنحن لم نبلغ نهاية أحزاننا. حتى لو نجحنا في إعادة كيرا، فلن تكون، مع ذلك، في مأمن من الخطر. إن سير آشتون لن يتخلى عن مسعاه، وأنا قد زاحمته بعنف، وفي ميدانه بصفة خاصة، ولكن لم يكن

لدي خيار آخر، ثق بخبرتي. إنه سيأخذ بثأره حالما تسنح له الفرصة. وليبق بالأخص سراً بيننا، إذ لا جدوى من إثارة قلق أدريان حالياً، وليجهل كل شيء عما أتى به إلى المستشفى.

ـ أما في ما يتعلق بكيرا، فكيف ينبغي أن أعرض الأمور؟

ـ اخترع، ألّف، قل إن هذا بسببكِ أنتِ.

أثينا في اليوم التالي

كانت إيلينا وأمي أمضتا الضحوة عند سريري، وكانتا، كعادتهما كل يوم منذ دخولي المستشفى، صعدتا على متن السفينة الأولى المبحرة من هيدرا في الساعة السابعة، وفور وصولهما إلى الـ «بيريه» في الثامنة، ركضتا لإدراك سيارة الركاب التي أوصلتهما بعد نصف ساعة أمام المستشفى. وعقب تناولهما الفطور على عجل في الكافيتريا، دخلتا غرفتي محملتين بالمأكولات والأزهار وبتمنيات بشفاء عاجل وجّهها إلي أبناء القرية. وكعادتهما كل يوم، كانتا تعودان أدراجهما نهاية بعد الظهر لتستقلا من جديد سيارتهما وتبحرا إلى الـ «بيريه» على متن السفينة الأخيرة للعودة إلى بيتهما. لم تفتح إيلينا، منذ ابتلائي بالمرض حانوتها، وكانت أمي تمضي وقتها في المطبخ، والأطعمة التي تعدّها بالكثير من الحب والأمل تحسّن نمط العمل اليومي للممرضات اللواتي يسهرن على صحة ولدها.

كان الوقت آنذاك الظهيرة، وأعتقد أن أحاديثهما المتواصلة كانت ترهقني أكثر من آثار التهاب الرئتين اللعين. ولكن عندما قرع الباب، سكتتا كلتاهما. ما كنت

شاهدت قط من قبلُ هذه الظاهرة المدهشة الشبيهة بتوقف أزيز الزيز في منتصف يوم مشمس. لما دخل والتر، لاحظ هيئتي المنذهلة، فسألني:

ــ ماذا، ما الأمر؟

ــ لا شيء، لا شيء، إطلاقاً.

ــ لكن بلى، أرى ذلك جيداً، فأنتم جميعاً عابسون.

ــ لا أبداً، أتناقش مع خالتي الممتعة إيلينا وأمي عندما دخلت، هذا كل ما في الأمر.

ــ عن أي شيء كنتم تتناقشون؟

استهلت أمي الحديث للتو:

ــ كنتُ على وشك القول إن هذا المرض قد تكون له عواقب غير متوقعة.

سأل والتر، وقد ساوره القلق: هل هذا صحيح؟ ماذا قال الأطباء؟

ــ أوه، قالوا إن بإمكانه الخروج الأسبوع المقبل، لكن ما تقوله أمه هو أن ابنها أصبح على شيء من الغباء، هذه هي النتيجة الطبية إن كنت تريد أن تعرف كل شيء.

من الأجدر أن تحتسي القهوة مع أختي، يا والتر، بينما أقول أنا بضع كلمات لأدريان.

ـ سأكون سعيداً، ولكن لا بد أولاً أن أتكلم معه، أرجوكِ لا تمتعضي، لا بد أن أكلّمه من رجل إلى رجل.

قالت إيلينا، وهي تنهض: إذاً بما أن النساء لم يعد مرحباً بهن، فلنخرج!

جذبت أمي وتركتنا وحدنا، أنا ووالتر.

قال وهو يجلس على حافة سريري: عندي أخبار ممتازة.

ـ إبدأ، مع ذلك، بالخبر السيئ.

ـ نحتاج إلى جواز سفر خلال الأيام الستة ويستحيل الحصول عليه في غياب كيرا!

ـ لا أفهم عما تكلمني.

ـ كنتُ أشك فعلاً، لكنك طلبت مني أن أبدأ بالخبر السيئ، هذا التشاؤم المنهجي مزعج في نهاية المطاف. حسناً، إسمعني، عندما أقول لك إن عندي خبراً سعيداً أبشرك به، فهذا واحد منها. هل كنتُ قد أطلعتك على أن لي بعض المعارف من ذوي المراكز المرموقة داخل مجلس

إدارة أكاديميتنا؟

شرح لي والتر أن أكاديميتنا تعهدت بإجراء مشاريع أبحاث وتبادلات مع بعض الجامعات الصينية الكبرى. كنت أجهل ذلك، وأعلمني أيضاً أنه، مع تتابع الرحلات، أجريت أخيراً بعض الاتصالات مع مختلف مراتب السلطات الدبلوماسية الصينية. وأفضى إلي والتر أنه نجح بفضل علاقاته في أن يسيّر آلية صامتة، لم تكن عجلاتها توقفت عن الدوران... بدءاً بطالبة صينية أنهت تحصيلها لنيل الدكتوراه في الأكاديمية، والتي كان والدها قاضياً كسب تقدير السلطات، إلى بعض الدبلوماسيين العاملين في دائرة التأشيرات المعطاة من قبل جلالتها، مروراً بتركيا، حيث قضى أحد القناصلة القسم الأكبر من خدمته في بكين وكان لا يزال يعرف بعض أعيان الدولة، كانت العجلات تواصل طقطقتها، من بلد إلى بلد، ومن قارة إلى قارة، إلى أن يتصاعد صوت مفصال أخير في مقاطعة سيشوان. كانت السلطات المحلية، التي أمست عطوفة، تتساءل منذ زمن غير بعيد ما إذا كان المحامي الذي دافع عن شابة غريبة أعوزته المفردات عند بدء اللقاءات الممهدة للمرافعة عن دعواها. كان من شأن بعض مسائل الترجمة الخاصة بزبونته أن أغفل القول للقاضي بأن المواطنة الأجنبية ــ المحكوم عليها لنقص أوراقها الثبوتية ــ تملك في الواقع

جواز سفر بحسب الأصول. ولئن كانت الإدارة الحسنة لا بد منها ومُنح القاضي ترقية، فستنال كيرا العفو بشرط أن يتم تقديم هذا الدليل الجديد إلى محكمة شنكدو. ولن يبقى سوى الانطلاق للبحث عنها بغية مرافقتها إلى خارج حدود الجمهورية الشعبية.

سألت والتر، وقد نهضت متوثباً ومعانقاً إياه بين ذراعي: هل أنت جاد في ما تقول؟

ــ وهل يبدو علي أني أمزح؟ كان عليك أن تنظر بأدب إلي، منعاً لإطالة محنتك، لم أعمد حتى إلى استعادة تنفسي.

كنتُ سعيداً جداً فجذبته إلي في رقصة فالس هوجاء. كنا لا نزال نرقص وسط غرفتي في المستشفى عندما دخلت أمي ونظرت إلينا مغلقة الباب.

سمعت، وهي تتنهد تنهيدة عميقة في الممشى، تقول خالتي إيلينا لها: «لن تعيدي الكرة ثانية!».

أصيب رأسي بدوار خفيف، فاضطررت للعودة إلى سريري.

ــ متى، متى ستستعيد حريتها؟

ــ آه، لقد نسيتَ إذاً ذاك الخبر الصغير الذي فضلت مع ذلك سماَعه أولاً. سأعيده عليك إذاً. يوافق القاضي الصيني على إطلاق سراح كيرا إن قدمنا له جواز سفرها خلال ستة أيام. ذاك الأثر القيّم الراقد في أعماق النهر، نحن في حاجة إلى واحد جديد مثله. في غياب صاحبة العلاقة، وفي مهل قصيرة كهذه، يبدو الأمر مستحيلاً. هل فهمت الآن مشكلتنا بصورة أفضل؟

ــ ستة أيام، هل هي كل ما يتسع لنا من الوقت؟

ــ إحسبْ يوماً لبلوغ محكمة العدل في شنكدو، وهذا لا يبقي لنا أكثر من خمسة أيام للاستحصال على جواز سفر جديد. لا أرى، من دون حدوث أعجوبة، كيف يمكننا أن نعمل.

ــ جواز السفر هذا، هل ينبغي حتماً أن يكون جديداً؟

ــ في حال انتقلت عدوى التلوث من رئتيك إلى دماغك أيضاً، ألفت نظرك إلى أني لا أعتمر قبعة ضابط جمارك! أتصوّر، بما أنه وثيقة سارية الصلاحية، ينبغي أن يفي بالغرض، لماذا؟

ــ لأن كيرا تتمتع بجنسية مزدوجة فرنسية وإنكليزية. ولما كان دماغي سليماً، أشكر لك اهتمامك به، أذكر تماماً

أننا دخلنا الصين بجواز سفرها البريطاني، وكانت تأشيراتنا مدرجة على هذا الأخير، وأنا الذي قصدت الوكالة لجلبه. كانت تحمل معها دائماً الجواز. وعندما عثرنا على مكبر الصوت، كنا قد قلبنا أمتعتها ولكن جواز سفرها الفرنسي لم يكن بداخلها، إني متأكد من ذلك.

ــ لا فكرة لدي...

ــ أقل ما يمكن قوله إننا بتنا الآن أكثر تقدماً حول القضية. سأقوم باتصال أو اثنين قبل أن أعود إلى رؤيتك مجدداً. خالتك وأمك تنتظران في الخارج ولا أود أن تعتبرانا شخصين فظين.

خرج والتر من غرفتي، وما لبثت أمي وخالتي إيلينا أن دخلتا. جلست أمي على المتكأ، أشعلت التلفزيون المعلّق على الجدار في مواجهة سريري ولم توجه إلي الكلام، ما جعل إيلينا تبتسم.

قالت خالتي، وقد جلست على طرف سريري: إن والتر هذا شخص لطيف، أليس كذلك؟

وجهتُ إليها نظرة لجوجة. أمام أمي، لم يكن الأوان ربما أكثر ملاءمة للحديث عن ذلك.

وأردفتْ، متجاهلة توسلاتي: ورجل وسيم على الأرجح،

ألا تجده كذلك؟

أجابتْ أمي عوضاً عني، من دون أن تصرف نظرها عن الشاشة:

ــ هو على الأرجح شاب، إن كنتِ راغبة في معرفة رأيي! ولكن تصرفكما لو أني غير موَجودة هنا! ما هو أقرب إلى الطبع منه إلى خلوة بين خالة وابن اختها؛ أما الأمهات فلا يقام لهن وزن! ما أن ينتهي هذا البث الحميم حتى أتوجه لإجراء محادثة وجيزة مع الممرضات. من يدري، لعل عندهن أخباراً عن ولدي.

عندها كلمتني إيلينا، مختلسة النظر إلى أمي التي كانت تدير ظهرها لنا، وعيناها مسمرتان في التلفزيون الذي قطعت عنه الصوت لكي لا يفوتها شيء من نقاشنا. كانت الشبكة تبث فيلماً وثائقياً عن القبائل البدوية التي تعمر هضاب التيبت العالية.

تنهدت أمي مطفئة الجهاز: كفى! هذا على الأقل هو البث الخامس. والآن، لماذا تقلب وجهك؟

ــ هل كانت هناك فتاة صغيرة في هذا الفيلم الوثائقي؟

ــ لست أدري، ربما، لماذا تسأل؟

فضلتُ ألا أجيبها. قرع والتر الباب، فاقترحت إيلينا عليه التوجه إلى الكافيتيريا لترك أختها تغتنم قليلاً فرصة البقاء مع ابنها، هذا ما تذرّعت به إيلينا وهي تنهض. لم يدعها والتر تكرر الكلام ثانية.

ما إن أغلق الباب حتى هتفت أمي: لكي أغتنم قليلاً البقاء مع ابني، أنتِ تقولين هذا! عليك أن تراها منذ إصابتك بالمرض، وصَديقك هنا، كأنها تحولت فتاة صبية. إنه أمر مثير للسخرية.

ــ ما من عمر محدد لحب صاعق، ثم قد يجعلها هذا سعيدة.

ــ ليس واقع تعرضها لحب صاعق هو الذي يجعلها سعيدة، بل أن يغازلها أحدهم.

ــ وأنت في وسعك أن تفكّري في بدء حياة جديدة، أليس كذلكَ؟ إنك تلبسين الحداد منذ زمن بعيد جداً. لست لأنك تسمحين لأحدهم بدخول بيتك، ستطردين لذلك أبي من قلبك.

ــ أ أنت من يقول لي هذا الكلام؟ لن يكون أبداً إلا رجل واحد في بيتي، وهذا الرجل هو والدك، حتى ولو هو راقد في المقبرة، فإنه حاضر تماماً، أحادثه كل يوم عندما

أستيقظ، وأحادثه في مطبخي، وعلى الشرفة حينما أعتني بالأزهار، وفي الطريق لما أنزل إلى القرية، وعند المساء أيضاً وأنا أخلد إلى النوم. لستُ وحدي لأن والدك ما زال معي. أما بالنسبة إلى إيلينا، فليس الشيء نفسه، إنه لم يواتها الحظ في أن تلتقي رجلاً مثل زوجي.

ــ وهذا سبب إضافي لتدعيها تميل إلى المغازلة، ألا تعتقدين ذلك؟

ــ أنا لا أعارض سعادة خالتك، غير أني أفضّل ألا يتم ذلك مع صديق لابني. أعرف أني شخص ربما من الطراز القديم، لكن لي الحق في امتلاك بعض العيوب. ما كان عليها أن تولع بصديق والتر الذي جاء يعودك.

استويت جالساً في سريري، فانتهزت أمي الفرصة لتضع مخدّتي في مكانهما.

ــ أي صديق؟

ــ لا أعرف، لقد شاهدته في الممشى قبل أيام، وأنت لمّا تستفق. لم تتح لي الفرصة لتحيته لأنه رحل بينما كنت قادمة. في كل الأحوال، كانت مشيته رصينة وسحنته بلون العنبر، لقد وجدتُه أنيقاً للغاية. ثم أن تكون سنّه أصغر عشرين عاماً من سن خالتك، كان يبدو أنه أكبر منها

بمقدار ذلك.

ــ وليس لديك أية فكرة عمّن يكون؟

ــ إني بالكاد قابلته. أما الآن فاسترح واستعد قواك، ولنغير موضوع حديثنا. أسمعُ يمامتينا تتكتكان في الممشى، إنهما لن يلبثا أن يدخلا.

جاءت إيلينا تبحث عن أمي، لأن أوان الرحيل قد حان، إن لم تريدا تفويت السفينة الأخيرة المنطلقة إلى هيدرا. فرافقهما والتر حتى المصعد وانضم إلي بعد لحظات.

ــ روت لي خالتك حادثتين أو ثلاثاً مما وقع لك في طفولتك، إنها مثيرة للضحك.

ــ لو أعدتها علي!

ــ هل ثمة ما يضايقك،أدريان؟

ــ تقول أمي إنها شاهدتك منذ بضعة أيام بصحبة صديق جاء يعودني، من كان ذاك الصديق؟

ــ لا بد أن أمك وقعت في خطأ، كان على الأرجح زائراً يسألني عن طريقه، ثم إني الآن وأنا أحادثك، خطر ببالي ثانية، كان بالضبط سيداً مسنّاً يبحث عن قريبة له، فأرشدته إلى مكتب الممرضات.

ـــ أعتقد أن لدي دلائل لوضع اليد على جواز سفر كيرا.

ـــ إن هذا الخبر أهم كثيراً، هيا أنا أسمعك.

ـــ أختها جان، لعلها قادرة على مساعدتنا.

ـــ وتعرف كيف تتصل بـــ جان هذه؟

قلت وأنا مرتبك على الأرجح: نعم، أخيراً، لا.

ـــ نعم أم لا؟

ـــ لم أجد لدي الشجاعة قط في الاتصال لأكلمها عن الحادث.

ـــ ألم تُطلعِ أختها على أخبارها، ألم تجرِ أي اتصال معها منذ ثلاثة أشهر؟

ـــ أن أُعلمها عبر الهاتف بأنها توفيت كان بالنسبة إلي أمراً مستحيلاً، كما كان التوجه إلى باريس فوق طاقتي.

ـــ يا للنذالة! إنه لشيء مثير للشفقة، هل تتصور في أي حال من القلق قد تجد فيها نفسها الآن؟ كيف يمكن من ناحية أخرى، أنها لم تكشف عن حالتها النفسية؟

ـــ لم يكن من النادر أن تظل جان وكيرا فترة طويلة

من دون تبادل أخبارهما.

ــ إذاً، أدعوك إلى مباشرة الاتصال بها في أقرب وقت ممكن، وعندما أقول في أقرب وقت ممكن، أعني هذا اليوم بالذات!

ــ كلا، يجب أن أذهب لزيارتها.

ردّ والتر، مادّاً إلي جهاز الهاتف: لا تكن مثيراً للسخرية. أنت مسمّر في السرير ونحن لا وقت لدينا نضيّعه، تدبّر أمرك مع ضميرك وأجرِ هذا الاتصال الآن.

حاولتُ ما بوسعي ذلك أن أتدبر أمري مع ضميري؛ فما أن تركني والتر وحدي في الغرفة حتى عثرت على رقم هاتف المتحف في «كيه برانلي». كانت جان تشارك في اجتماع ولم يكن جائزاً إزعاجها. عاودت طلب الرقم وعاودته أيضاً، إلى أن لفتت عاملة المقسم الهاتفي انتباهي أنه من غير المجدي مضايقتها. فأدركت أن جان ليست مستعجلة في التكلم معي، وأنها تعتبرني متواطئاً في شأن صمت كيرا وتحقد علي أيضاً لامتناعي عن تزويدها بالأخبار. اتصلت مرة أخيرة وشرحت لعاملة الهاتف تلك أنه لا بد أن أحادث جان على وجه السرعة، فالمسألة مسألة حياة أو موت بالنسبة إلى أختها.

قلقت جان، وقالت بصوت متهدّج: هل حدث مكروه لكيرا؟

أجبت، وقلبي مفعم غماً: لقد حدث لنا الاثنين مكروه. أنا الآن في حاجة إليك، جان.

رويتُ لها قصتنا، مقللاً من خطورة النهر الأصفر المأسوية، متحدثاً إليها عن حادثتنا من دون إطالة الكلام عن الظروف التي وقعنا فيها. ووعدتها بأن كيرا في مأمن من الخطر، وشرحت لها أنها، بسبب مشكلة أوراق ثبوتية تافهة اعتقلت واحتجزت في الصين. لم أتفوه بلفظة سجن، ولكن أحسست تماماً أن جان كانت، عند كل عبارة أرددها، تتلقى الضربات، وقد حبست مراراً نشيجها، واضطررت أنا أيضاً مراراً إلى كبح انفعالاتي. أنا لست موهوباً في قول الأكاذيب، لست موهوباً بكل تأكيد. وسرعان ما أدركت جان أن الوضع أشد إثارة لانشغال البال مما كنت أريد البوح به لها. وحلّفتني أكثر من مرة أن أختها الصغيرة في صحة جيدة. فوعدتها بأن أعيدها إليها سالمة شارحاً لها أنه لا بد لي لتحقيق ذلك من أن أعثر على جواز سفرها في أقرب مهلة ممكنة. كانت تجهل أين يمكن أن تجده، لكنها غادرت مكتبها فوراً لتقلّب شقتها رأساً على عقب، إذا دعت الحاجة، وتعاود الاتصال بي في أقرب وقت.

عندما وضعت سماعة الهاتف، اسودّت الدنيا في عيني. كان الحديث مجدداً مع جان قد استثار الضياع، وعبء غياب كيرا أجّج الغم بكل بساطة.

لم تكن جان عبرت يوماً باريس بمثل هذه السرعة متجاوزة ثلاث مرات الإشارة الحمراء على الأرصفة، وتجنبت بالكاد سيارة شحن صغيرة، وانحرفت فجأة على جسر الكسندر الثالث، وقد تمكنت في اللحظة الأخيرة من إعادة السيطرة على سيارتها الصغيرة تحت صيحات الاستنكار المنبعثة من أبواق السيارات. لقد سلكت جميع ممرات سيارة الركاب الكبيرة، تسلقت رصيفاً على امتداد جادة مزدحمة بالناس، وأوشكت أن تصدم راكب دراجة هوائية، إلا أنها وصلت بأعجوبة ومن دون ضرر إلى أسفل بيتها.

في بهو بنايتها، دقت باب مسكن البواب، ورجت حارسة البناء أن تأتي لتمد لها يد المساعدة. لم تكن السيدة هرّيرا قد رأت جان البتة في مثل هذه الحال. كان المصعد محجوزاً من قبل مسلّمي بضائع في الطابق الثالث، فصعدتا الدرج أربعاً أربعاً. عندما بلغتا الشقة، أمرت جان السيدة هريرا أن تفتش في غرفة الاستقبال والمطبخ، بينما كانت هي تهتم بالغرف الأخرى. كان ينبغي عدم ترك أي

شيء للمصادفة، فتحْ الخزانات، إفراغ الأدراج، والعثور على جواز كيرا أينما كان.

كانتا، في غضون ساعة، قد بعثرتا كل شيء في الشقة، ولما عرف أي لص أن يبتكر مثل هذه الفوضى، إذ غطت كتب المكتبة الأرض، وتبعثرت الملابس من غرفة إلى أخرى، وقُلبت المتكآت، وحتى الفراش كان فوضوياً. بدأت جان تفقد الأمل وإذ بها تسمع السيدة هريرا تزعق من عند المدخل، فاندفعت مسرعة نحوها. كانت تلوح ظافرة بالكراس الصغير ذي الغلاف الأحمر الخمري. ضمتها جان بين ذراعيها وقبلت وجنتيها الاثنتين.

عاد والتر إلى فندقه عندما هاتفتني جان، ومكثتُ وحدي في غرفتي، وبقينا طويلاً على الهاتف. دفعتُها إلى الكلام على كيرا، فقد كنتُ محتاجاً إلى أن تسدّ غيابها ناقلة إلي بعضاً من ذكريات طفولتهما. لبّت جان مطلبي بطيبة خاطر، وأعتقد أنها كانت مشتاقة إليها بمثل اشتياقي إليها. ووعدتني بأن تبعث إلي بجواز السفر بالبريد السريع. فأمليتُ عليها عنواني في مستشفى أثينا، وانتهى بها الأمر إلى أن تسألني عن حالي الصحية.

غداة اليوم التالي، دامت زيارة الأطباء أطول من المعتاد. كان رئيس قسم أمراض الرئة ما زال يتساءل

حول وضعي. لم يكن أي منهم يجد تفسيراً كيف أن خمجاً رئوياً جرثومياً استطاع أن يظهر من دون أي دليل على قرب حدوثه. صحيح أنني كنت لما صعدت على متن الطائرة في تمام العافية. وأكد لي الطبيب أن مضيفة الطيران هذه لو لم تتحلَّ بسرعة البديهة في تنبيه قائد الطائرة، ولو لم يعد هذا الأخير أدراجه، لكنتُ فارقت الحياة قبل بلوغ بكين. ما كان فريق عمله يفهم شيئاً عن المشكلة، فلم يكن الأمر يتعلق بـ «فيروس»، حتى أنه لم يشاهد شيئاً مماثلاً طوال حياته المهنية. قال وهو يهز كتفيه: المهم أنني أبديتُ استجابة حسنة لسبل العلاج. لم نكن قد ابتعدنا عن الأسوأ، لكني كنتُ تخلصت من المأزق، بضعة أيام من النقاهة وأتمكن سريعاً أن أستعيد حياتي العادية. وعدني رئيس القسم بأنه سيفرج عني بعد ثمانية أيام. كان قد غادر تماماً غرفتي، عندما وردني جواز سفر كيرا. فضضت المغلف الذي يحوي جواز المرور القيّم ووجدت كلمة وجيزة من جان.

«أعدْها في أسرع ما يمكن، فأنا أعتمد عليك، إنها عائلتي الوحيدة».

طويتُ الملاحظة وفتحت جواز السفر. كانت كيرا تبدو أصغر سناً في صورة الهوية هذه. وقررت أن أرتدي

ثيابي.

دخل والتر الغرفة وتفاجأ بي وأنا في سروالي وقميصي، فسألني ما أنا على وشك أن أعمل.

ــ إني ذاهب للبحث عنها فلا تحاول أن تقنعني بالعدول عن السفر، سيكون ذلك جهداً ضائعاً.

ليس فقط لم يحاول إقناعي بالعدول، بل بالعكس ساعدني على الهرب. وكان قد شكا بما فيه الكفاية أن المستشفى تقفر من روادها حين تخلد أثينا إلى القيلولة، وقد بات الوضع لمصلحتنا. ترصّد الممشى بينما كنت أجمع أمتعتي وواكبني حتى المصعد، محاذرين أن نلتقي في الطريق أي عضو من أعضاء الهيئة الاستشفائية.

صادفنا، ونحن نمرّ أمام الغرفة المجاورة، طفلة واقفة وحدها أمام عتبة الباب، تلبس بيجامة مبرقشة برسوم حشرة القرمز ولوحت بإشارة صغيرة من يدها لوالتر.

قال مقترباً منها: ما زلتِ هنا، يا عفريتة. ألم تصل أمك بعد؟

استدار والتر ناحيتي، فأدركت أنه يعرف جيداً جارة غرفتي. قال لي وهو يرشق الطفلة بغمزات كبيرة (متواطئة): إنها جاءت تعودك خلال فترات قصيرة.

جثوت بدوري لأقول لها صباح الخير. فنظرت إلي نظرة خبيثة وانفجرت ضاحكة. كانت وجنتاها حمراوين كتفاحتين.

بلغنا الطابق الأرضي، وكل شيء جرى على خير ما يرام. كنا قد واجهنا في المصعد حامل نقالة، لكن هذا الأخير لم يعرنا أي انتباه. عندما انفتح باب المصعد على قاعة المستشفى، صادفنا أمي وخالتي إيلينا. وكانت هنا مسألة أخرى، فتحولتْ محاولة هربنا إلى كابوس. أخذت أمي تصرخ سائلة ماذا أفعل وأنا واقف على قدميّ. أمسكتها بذراعها وتوسلت إليها أن تتبعني إلى الخارج من دون إثارة فضيحة. لو طلبتُ منها أن ترقص رقصة الـ «سيرتاكي» في وسط الكافيتيريا، لكان الحظ واتاني أكثر مما لو حاولتُ إقناعها.

قال والتر، وهو يودّ طمأنة أمي: لقد سمح له الأطباء بالقيام بنزهة قصيرة. فهاجتْ وماجت، قائلة: وهل للقيام بنزهة قصيرة عليه أن يتجول بحقيبة السفر؟ أم لعلك تريد أيضاً أن تجد لي سريراً في قسم أمراض الشيخوخة، فيما أنت مقيم هناك؟

استدارت ناحية سائقي سيارة إسعاف كانا مارين، وحزرتُ للتو قصدها، وهو أن تجعلني أعود إلى غرفتي،

وبالقوة إذا اقتضى الأمر.

نظرت إلى والتر، وكان هذا كافياً ليفهم واحدنا الآخر. وشرعت أمي في الصياح، فيما انطلقنا نحن في سباق سريع باتجاه أبواب القاعة وتمكنّا من اجتيازها قبل أن يستجيب المسؤولون عن الأمن لأوامر أمي التي كانت تطالب بإلحاح شديد بإلقاء القبض علي.

ما كنتُ في أحسن حال، فشعرت بعد زاوية الشارع بصدري يحرقني وتولتني نوبة سعال عنيفة. كنت أجهد وأنا أتنفس، وقلبي يخفق كأنه موشك على الانفجار. فاضطررت إلى أن أتوقف ريثما أستعيد أنفاسي. استدار والتر فرأى رجلين من رجال الأمن يركضان في اتجاهنا، وكان لسرعة بديهيته وقع العبقرية، فاندفع نحو الحارسين يعرج وصرّح لهما، متصنعاً مظهراً ينم عن الندم، أنه تعرض لتدافع عنيف من قبل شخصين في الشارع المجاور لاذا بالفرار. وبينما كان الحارسان يندفعان مسرعين، نادى والتر على سيارة تاكسي وأشار إلي بالالتحاق به.

لم ينبس بكلمة واحدة أثناء انتقاله بالسيارة، فساورني القلق حين رأيته صامتاً بغتة، من دون أن أفهم ما الذي أوقعه في مثل هذه الحال.

أصبحت غرفته في الفندق مقر قيادتنا العامة، فمضينا

نعد العدة لسفري. كان السرير كبيراً كفاية لكي نتقاسمه، وقد وضع والتر مخدة بالطول ليحدّد منطقتينا. وبينما كنت أستريح، كان هو يقضي أيامه على الهاتف، ويخرج من حين لآخر ليتفسّح، كما يقول. كانت تلك الكلمات القليلة التي يتلطف بالتفوه بها، ونادراً ما يوجه الكلام إلي؛ إلا أنه توصل، لا أدري بأي معجزة إلى الحصول من السفارة الصينية على تأشيرة لي صالحة لثمان وأربعين ساعة. فشكرته مئات المرات ولكنه، منذ هربنا من المستشفى، لم يعد الشخص ذاته.

وذات مساء، بينما كنا نتعشى في الغرفة، أشعل والتر التلفزيون رافضاً دائماً الحديث إلي، فأمسكت بالـ «ريموت كونترول» واطفأت الجهاز.

ــ ما الذي يجعلك تحرد مني؟

انتزع والتر آلة الإدارة من يدي وأشعل الشاشة ثانية. نهضتُ ونزعت قابس التيار من المأخذ الجداري وانتصبت قبالته.

ــ إن قمتُ بعمل أزعجك، فلنحلَّ ذلك مرة نهائية.

حدّق والتر فيّ طويلاً ومضى لينزوي في الحمام من دون أن ينبس ببنت شفة. عبثاً باءت محاولاتي بالفشل،

قرعت الباب، إلا أنه رفض أن يفتح لي. بعد دقائق، ظهر مجدداً لابساً بيجامته، ومحذراً إياي أنه إذا أثارت العناصر الزخرفية المربعة أي سخرية من قبلي أنا، فسأنام على سطح الدرج، ثم اندس في فراشه وأطفأ النور من دون أن يمسيني بالخير.

قلتُ، وقد لفني الظلام: والتر، ماذا فعلت، ماذا يجري؟

ــ يحدث، في بعض الأحيان، أن يستحيل تقديم العون لك عبئاً ثقيلاً.

خيّم السكون من جديد ولاحظت أني ما كنت أجزلت الشكر له لقاء كل الجهود التي بذلها في الآونة الأخيرة. بالطبع، كان إنكار الجميل هذا قد آذاه فاعتذرت إليه. لكنه أضاف أنه سيكون ممتناً لي إن تمكنت من نيل المغفرة على سلوكنا غير المقبول تجاه أمي، وتجاه خالتي بالأخص. وعليه، استدار ولزم الصمت.

أشعلت النور ثانية واستويت جالساً في السرير.

سأل والتر: ماذا بعد؟

ــ هل أنت، في الحقيقة، مغرم بإيلينا؟

ــ وهل يعنيك هذا بالفعل؟ أنت لا تفكر إلا في كيرا، ولا

تهتم إلا بقصتك الخاصة، ولا وجود لنا بالنسبة إليك. وعندما لا يتعلق الأمر بأبحاثك ومقتطفاتك التافهة، يكون الموضوع صحتك، وعندما لا يتعلق الأمر بصحتك، يكون الموضوع عالمة الآثار صديقتك، وفي كل مرة تتم الاستعانة بوالتر الطيب. والتر هنا، والتر هناك، أما أنا إذا ما حاولت الاعتماد عليك فتصرفني بخشونة. لا تقل لي الآن إن اضطرابي وهياجي يستأثران اهتمامك، المرة الوحيدة التي أردت فيها أن أفتح قلبي لك هزئتَ بي!

ـ أؤكد لك أني لم أكن أنوي الهزء بك.

ـ حسناً، لقد خاب سعيي! هل يمكننا النوم الآن؟

ـ لا، ما دمنا لم نضع نهاية لهذه المناقشة.

استشاط والتر غضباً: ولكن أية مناقشة؟ ما من أحد سواك يتكلم.

ـ والتر، هل أنت مغرم حقيقة بخالتي؟

ـ أنا مغتاظ لأني أغظتها عندما ساعدتك على مغادرة المستشفى هكذا، هل هذه الإجابة تناسبك؟ فركتُ ذقني لبضع لحظات.

ـ إذا تدبرت الأمر لتبرئة ساحتك كلياً ونلت لك

المغفرة، هل تكفّ عن الحقد علي؟

ـ هيا افعله وسنرى فعلاً!

ـ سأعنى بالأمر منذ صباح الغد الباكر.

كانت ملامح والتر قد انشرحت، وكان لي الحق حتى في ابتسامة خاطفة. عندها استدار وأطفأ النور. بعد خمس دقائق، عاود إضاءته واستوى بوثبة منه جالساً في السرير.

ـ لماذا لا تعتذر هذا المساء؟

ـ أ وتريد أن أتصل بإيلينا في هذه الساعة؟

ـ ليست إلا العاشرة. وقد حصلت لك على تأشيرة للصين في غضون يومين، كان بوسعك أن تنال لي الصفح تماماً من خالتك في مساء واحد، أليس كذلك؟

نهضت وطلبت أمي. سمعت تعنيفاتها خلال ربع ساعة كاملة، من دون أن أستطيع التفوه بكلمة واحدة. عندما أعوزتها الكلمات، سألتُها إن كانت ذهبت للبحث عن أبي في أقاصي المعمورة لو تعرض لخطر أياً كانت الظروف. سمعتها مستغرقة في التفكير، ولا حاجة لرؤيتها لنعرف أنها كانت تبتسم. تمنت لي سفراً سعيداً ورجتني ألا أتأخر

في الطريق. أثناء إقامتي في الصين، سوف تُعدّ بعض الأطباق الفاخرة الجديرة بهذه التسمية وذلك تكريماً لكيرا لدى عودتنا.

كانت على وشك إقفال الخط عندما عاودتُ التفكير في سبب استدعائي لها، وطلبتُ منها أن تصلني بإيلينا. كانت خالتي قد انزوت في غرفة الضيوف، فرجوت أمي أن تذهب لمناداتها.

كانت إيلينا قد وجدت عملية فرارنا رومنطيقية بامتياز. وكان والتر صديقاً نادراً لإقدامه على العديد من المخاطر، وجعلتني أعدها بألا أكرر على مسامع أمي ما قالته لي تواً.

التحقتُ بوالتر الذي كان يذرع الحمام جيئة وذهاباً.

قال لي مهموماً: ماذا بعد؟

ــ أعتقد إذاً أنه باستطاعتك أن تبحر نهاية هذا الأسبوع، عندما أطير إلى الصين باتجاه هيدرا. ستنتظرك خالتي للعشاء في المرفأ، وأنصحك بأن تطلب منها طبق «مسقعة»، إنه خطيئتها المغتفرة، ويبقى هذا سراً بيننا لأني لم أبح لك بشيء ما.

وعليه، اطفأت النور إذ كنت منهوك القوى.

يوم الجمعة من الأسبوع ذاته رافقتني والتر إلى المطار. أقلعتْ بي الطائرة في الموعد المحدد. وبينما كانت ترتفع في سماء أثينا، رأيت بحر إيجه يتلاشى تحت الجناحين فأحسست بشعور غريب سبق لي أن كنت شاهداً عليه. في غضون عشر ساعات سأصل إلى الصين...

بكين

فور إتمام المعاملات الجمركية، حجزت بطاقة سفر لمواصلة الطيران إلى شنكدو.

كان ترجمان شاب، سارعت السلطات الصينية إلى إيفاده بانتظاري في المطار.

قادني عبر المدينة حتى قصر العدل، حيث أمضيت ساعات طويلة جالساً على مقعد غير مريح، أنتظر القاضي المكلف النظر في ملف كيرا، أن يتكرم باستقبالي. كنت كلما أثب باتجاهه ــ وما كنت أغمضت عيني منذ حوالي عشرين ساعة ــ نكزني مرافقي بمرفقه، وكلما أراه يتنهّد أفهمني أنه يجد سلوكي غير مقبول في هذه الأمكنة. في نهاية بعد الظهر، فُتح أخيراً الباب الذي كنا نلوذ بالصبر أمامه. خرج من المكتب رجل قوي البنية، يحمل تحت ذراعه مجموعة من الملفات، من غير أن يوليني أي انتباه. نهضت واثباً وركضت خلفه، ملحقاً الضرر بترجماني الذي سارع إلى جمع حوائجه واندفع ورائي.

توقف القاضي لينظر إلي بازدراء كأني حيوان غريب. شرحت له الغرض من زيارتي، فقد كان متفقاً أن أقدم له

جواز سفر كيرا لكي يُبطل الحكم الصادر في حقها ويوقّع على محضر الإفراج عنها. كان الترجمان يضطلع بمهمته على خير وجه، إلا أن صوته غير الواثق من نفسه نمّ عن مدى الخوف من سلطة ذاك الذي كنت أوجّه إليه كلامي. بدا القاضي نافد الصبر، وأنا لم أكن على موعد معه، وما كان لديه وقت يكرّسه لي. كان سيسافر غداً إلى بكين حيث تم نقله، وكان لا يزال عنده مزيد من العمل.

قطعتُ عليه الطريق وفقدت، تحت وطأة التعب، شيئاً من هدوئي. وسألت القاضي: هل أنت في حاجة لأن تكون ظالماً ولا مبالياً لتحمل الآخرين على احترامك؟ ألا يكفيك أن تحكم بالعدل؟

تغيّر لون ترجماني، وكان شحوب وجهه باعثاً على القلق. تلعثم رافضاً رفضاً قاطعاً ترجمة كلامي وانتحى بي جانباً.

ـ هل فقدت صوابك؟ أتعرف إلى من توجه كلامك؟ لو ترجمتُ ما قلته تواً، لكنا نحن اللذين سننام الليل في السجن.

بدأت أسخر فعلاً من تحذيراته، فدفعته وانطلقت أعدو نحو القاضي الذي تركنا من غير استئذان. مرة جديدة أخذت مكاني أمام طريقه.

ــ هذا المساء، عندما تفتح زجاجة شمبانيا لذيذة للاحتفال بترقيتك، قل لزوجتك إنك أصبحت شخصية مقتدرة جداً، بحيث لم يعد لمصير امرأة بريئة الحق في إزعاج ضميرك. فكِّرْ قليلاً بأولادك وأنت تتلذذ بالتهام الــ «بيتي فور»، حدِّثهم عن معنى الشرف والأخلاق ووجوب الاحترام، وعن العالم الذي سيورثه لهم والدهم، وعن عالم تستطيع فيه نساء بريئات الاهتراء في السجون لأن هناك قضاة لديهم ما يفعلونه خير من إحقاق الحق، قل كل هذا لأسرتك من قبلي أنا، وهكذا سيخيّل إلي أني أشاركك في العيد قليلاً، وكيرا أيضاً!

سحبني ترجماني بالقوة هذه المرة، متوسلاً إلي بوجوب الصمت. وفيما كان يعنفني، حدّق القاضي فينا موجهاً الكلام إلي:

ــ إني أتحدث لغتك بطلاقة لأني درست في أوكسفورد. ترجمانك ليس على خطأ، فأنت تنقصك التربية بالتأكيد، لا شيء من الوقاحة.

نظر القاضي إلى ساعته، قائلاً:

ــ ناولني جواز السفر هذا وانتظر هنا ريثما أهتم بك.

مددتُ له الوثيقة فانتزعها من يدي قبل الانطلاق

بخطوات متسارعة نحو مكتبه. بعد خمس دقائق، ظهر شرطيان وراء ظهري، فلم يكد يتسع لي الوقت للتحقق من وجودهما، حتى قُيِّدت يداي واقتدت بالقوة. تبعني ترجماني، وهو في أسوأ حالاته، مُقسماً أنه سيبلِّغ سفارتي منذ الغد. أمره الشرطيان بالابتعاد، بينما أصعدتُ أنا على متن شاحنة صغيرة، كانا قد دفعاني فيها دون مراعاة. وصلتُ، في أعقاب ثلاث ساعات على طريق مرجرجة إلى باحة سجن غارتهر، الذي لم يكن يتحلى بضخامة الدير الذي كنت تخيلته خلال أسوأ فترات كوابيسي.

صادرا حقيبتي وساعتي وحزام بنطالي، واقتاداني، إثر فك قيودي، تحت حراسة مشددة، إلى زنزانة تعرفتُ فيها إلى سجين آخر معي، يبدو أنه في الستين من عمره، يدعى أدرد، لا أثر لأي جذر سن نخرة في فكيه. وددت كثيراً لو أعرف أية جريمة ارتكب ليسجن هنا، لكن تبين لي أن محادثته لا تخلو من صعوبة. كان يشغل المرقد الأعلى، فأخذت إذاً ذلك الأسفل، فالأمر سيّان عندي، إلى أن لمحتُ جرذاً بالغ السمنة يتنزه في الممشى. كنت أجهل المصير الذي ينتظرني، غير أني أنا وكيرا كان يجمعنا هذا البناء، وأتاحت لي هذه الفكرة أن أصمد داخل هذه المؤسسة التي كان نجمها الوحيد أحمر اللون، مخيطاً على قلانس حراس السجن.

بعد ساعة، فتح الباب، فتبعت رفيق زنزانتي، سائراً على خطى رتل طويل من السجناء الذين كانوا يهبطون بوتيرة منسجمة السلم المؤدي إلى قاعة الطعام. وصلنا إلى صالة فسيحة، حيث أحدث شحوب بشرتي تأثيراً قوياً. تأملني السجناء الجالسون إلى المائدة. بينما كنت أنتظر ما هو أسوأ، لكنهم هزئوا بي، استغرقوا في التهام ما في صحونهم. لقد دفعني الحساء الذي يطفو فيه بعض الأرز وفضلة من لحم إلى التزام الحمية بلا ندم. نظرت منتهزاً فرصة انتكاس الرؤوس صوب الحاجز المشبك الطويل الذي يفصلنا من قسم قاعة الطعام حيث تتعشى النساء. بدأ قلبي يخفق بوتيرة أقوى، إذ لا بد أن تكون كيرا وسط صفوف السجينات اللواتي يتناولن وجبة العشاء على بعد بضعة أمتار منا. كيف لي أن أُعلمها بحضوري من دون أن يتمكن الحرس من اكتشاف أمري؟ الكلام ممنوع، وكان جاري على المائدة قد دفع ثمن ذلك ضربة خيزران على مؤخرة عنقه لأنه طلب من جاره أن يناوله المملحة. فكرت في العقوبة التي ستنزل بي، لكني لما عجزت عن تمالك نفسي، نهضتُ بوثبة وصحت «كيرا» في وسط قاعة الطعام وعاودت الجلوس من فوري.

لم يعد هناك أي رنين لملاعق وأشواك ولا أي ضجيج لمضغ: تقصى حراس السجن القاعة من غير حراك، ولم

يفلح أحد منهم أن يعيّن المصدر الذي جرؤ على مخالفة القانون. استمر هذا الصمت الثقيل للحظات، وإذا بي أسمع صوتاً مألوفاً ينادي «أدريان».

أدار جميع السجناء رؤوسهم ناحية السجينات وجميع السجينات نظرن باتجاه السجناء، حتى الحراس فعلوا الشيء نفسه، وكان كل واحد من جانبي القاعة يراقب الجانب الآخر.

نهضتُ وتقدمت نحو الحاجز المشبك، وأنت تقدمت أيضاً. وهكذا سار واحدنا، من طاولة إلى طاوَلة، نحو الآخر في جو من الصمت مهيب. واستولت الدهشة على الحراس فلم يحرك أحدهم ساكناً.

ما كنت إلا على بعد أمتار، هيئتك شاحبة، تذرفين الدمع، وأنَا كذلك. اقتربنا من الحاجز المشبك وكلنا جرأة في هذه اللحظة المنتظرة بلهفة شديدة بحيث لم يكن أحدنا يكترث للعصا التي تترصدنا، وتلاقت أيدينا عبر القضبان وتشابكت أصابعنا، فألصقتُ وجهي بالحاجز المشبك والتقى فمك فوق فمي. في مطعم سجن صيني، قلت لك «أحبك»، فيما تمتمت أنت قائلة: «وأنا أيضاً أحبك«. ثم سألتني ما أنا فاعل هنا. لقد أتيت لأحررك. وأجبتني: «من داخل السجن؟« صحيح أني ما كنت فكرت، تحت وطأة الانفعال،

في هذا التفصيل. لم يتسع لي الوقت للتفكير في ذلك، إذ دفعتني ضربة انهالت على فخذي إلى ثني ركبتيّ. وضربة ثانية على حقويّ طرحتني أرضاً. لقد اقتادوك بالقوة. كنت تزعقين اسمي، واقتادوني أيضاً فكنت أزعق اَسمك.

هيدرا

اعتذر والتر لإيلينا، كانت الظروف خاصة، وما كان ليترك هاتفه الخلوي مشتعلاً، لو لم يكن ينتظر عما قليل معلومات من الصين. رجته إيلينا أن يتلقى هذا الاتصال، فنهض والتر وابتعد من رصيف المقهى وهو يخطو بضع خطوات باتجاه المرفأ. كان إيفوري يدخل في صلب الأخبار:

ــ كلا، يا سيدي، لا شيء على الدوام. لقد حطت طائرته في بكين، هذا ما جرى! إن صحت حساباتي. فإنه قابل في الساعة التي نحن فيها، القاضي وأتخيل أنه في الطريق إلى السجن، ولربما هما مجتمعان أيضاً. لندعهما ينعمان بالألفة التي يستحقانها. تصوّر مدى سعادتهما لالتقائهما من جديد! أعدك بأن أهاتفك حالما يتصل بي.

وضع والتر السماعة عائداً إلى الطاولة.

قال لإيلينا: لم يكن للأسف سوى واحد من زملاء الأكاديمية الذي كان في حاجة إلى معلومة.

تابعا حديثهما أمام الحلوى التي طلبتها لهما إيلينا.

سجن غارتهر

كان تطاولي أثناء وجبة الطعام قد جلب لي عطف المسجونين معي، فبينما كنت عائداً إلى زنزانتي يحوطني حارسان، حظيتُ ببعض الربتات الصديقة لسجناء يلتحقون بمقر زنزاناتهم. قدم لي جاري في السجن سيكارة، وهي تعتبر هنا هدية بالغة القيمة، فأشعلتها بطيبة خاطر، إلا أنه، بسبب إصابتي مؤخراً بخمج رئوي، اعترتني نوبة سعال، الأمر الذي أضحك كثيراً رفيقي الجديد.

كان لوح الخشب المستخدم كعدّة سرير مغطى بفراش قش يكاد يكون أشد سماكة من غطاء، فتجدّد بملامسته وجع ضربات العصا غير أني كنت متعباً جداً، فما أن تمددت على السرير حتى استغرقت في النوم. كنت كذلك رأيت كيرا، فلم يفارقني محياها طوال هذه الليلة القذرة.

في صباح اليوم التالي، أيقظنا صنج تنبيه تجاوبت أصداؤه في كل أرجاء السجن. فنزل المسجون معي من مرقده، لبس بنطاله وجوربيه القصيرين المعلقين على قائمة السرير.

فتح أحد الحراس باب زنزانتنا، فتناول جاري قصعته

وخرج إلى الممشى، بينما أمرني الحارس ألا أبدي حركة ما. فأدركت أن تصرفي البارحة حال دون دخولي المطعم. تملّكني الحزن إذ كنت عددت الساعات التي ستتيح لي رؤية كيرا ثانية في قاعة الطعام، أما الآن فعليّ الانتظار.

لما انقضى الضحى، انتابني القلق للعقاب المهيأ لها. كانت حينها شاحبة جداً... وهاءنذا، الملحد، أجثو أمام سريري داعياً الله على غرار طفل، كي تنجو من الزنزانة.

سمعتُ أصوات السجناء في الباحة. لا بد أنها فترة التنزه، وقد حرمتُها. مكثت مكاني يتآكلني القلق على مصير كيرا، ثم تسلقت مقعداً لأرتفع إلى مستوى النافذة الصغيرة في الأعلى لعلي أراها. كان السجناء يمشون في صفوف منتظمة مقتربين من ساحة مسقوفة. أما أنا فكنت واقفاً على رؤوس أصابعي في حالة توازن، وإذ زلّت بي القدم وجدتني طريحاً على الأرض. وبينما حاولت النهوض ثانية، كانت الباحة خالية تماماً.

ارتفعت الشمس في كبد السماء، قد تكون الظهيرة قد حانت. إنهم مع ذلك لن يتركوني أموت جوعاً ليعلموني الانضباط. كما ما كنت لأعوّل على ترجماني لتخليصنا من هذا المكان. وخطرت جان ببالي، فقد اتصلت بها قبل الإقلاع من أثينا ووعدتها بأن أطلعها اليوم على أخباري.

لعلها ستفهم أن حدثاً ما طرأ علي، ولعلها ستنبه سفاراتنا خلال بضعة أيام.

سمعتُ، ومعنوياتي في أدنى مستوياتها، وقع أقدام في الممشى. دخل حارس زنزانتي وأجبرني على تتبع أثره. جزنا الجسر الصغير ونزلنا الدرج المعدني فوجدتني في المكتب الذي صادروا فيه البارحة أمتعتي. لقد ردّوها إلي بعد التوقيع على استمارة، وساقوني إلى الباحة من دون أن أعرف ماذا يحدث لي. بعد خمس دقائق، انطبقت أبواب الإصلاحية من ورائي، لقد استرددت حريتي. كانت سيارة مركونة في موقف الزوار، انفتح الباب وتقدم ترجماني باتجاهي.

شكرتُه على نجاحه في إخراجي من السجن واعتذرت له لارتيابي به.

قال لي: لا فضل لي في ذلك، فبعد أن اقتادك رجال الشرطة خرج القاضي من مكتبه وطلب مني أن آتي للبحث عنك هنا عند الظهيرة. وطلب مني أيضاً أن أنقل إليك أنه يأمل أن تكون ليلة قضيتَها في السجن قد علمتك التهذيب. أنا لا أقوم إلا بالترجمة.

وسألت من فوري: وكيرا؟

أجابني ترجماني بهدوء: التفتْ وراءك.

شاهدتُ الأبواب تنفتح من جديد وظهرت حاملة رزمة ثيابك على كتفك، فوضعتها على الأرض راكضَة نحوي.

لن أنسى أبداً هذه اللحظة التي تعانقنا خلالها أمام سجن غارتهر. كنتُ أضمك إلي ببالغ القوة حتى كدت تختفين، لكنك كنت تضحكين ونحن ندور معاً، منتشين من الفرح. عبثاً حاول الترجمان أن يسعل ويخبط الأرض برجله ويتوسل إلينا كي ينبهنا إلى النظام، لا شيء كان قادراً على تعطيل عناقنا.

وطلبتُ، بين قبلتين، المعذرة منك، المعذرة على جرك إلى هذه المغامرة المجنونة، فوضعت يدك على فمي لإسكاتي، ثم تمتمت: لقد أتيتَ، أتيت تبحَث عني هنا.

ــ كنتُ وعدتك بالعودة بك إلى أديس أبابا، هل تذكرين؟

ــ أنا كنت قد انتزعت هذا الوعد منك، لكني مسرورة جداً لأنك وفيتَ به.

ــ وأنتِ، ماذا فعلت لتصمدي كل هذا الوقت؟

ــ لستُ أدري، لقد كان ذلك طويلاً، طويلاً للغاية، غير

أني انتهزته للتأمل، إذ لم يكن لدي ما أفعله سوى ذلك، إنك لن تذهب بي إلى أثيوبيا تواً، لأني أظن أني أعرف أين أجد القطعة القادمة، إنها ليست في إفريقيا.

ركبنا سيارة الترجمان فأوصلنا إلى شنكدو، ومنها ركبنا ثلاثتنا على متن الطائرة.

في بكين، هدّدت ترجماننا بأنك لن تغادري البلاد ما لم يُنزلنا في فندق تستطيعين فيه الاستحمام. نظر إلى ساعته وأمهلنا ساعة واحدة جعلها كلها تحت تصرفنا.

الغرفة 409، لم أعر أي انتباه للمشهد، فقد قلتُ لك إن السعادة تجعل المرء شارد الفكر. جلست وراء ذلك المكتب الصغير، قبالة النافذة. وإذا ببكين تمتد أمام ناظري، لكني لا أبالي بها إطلاقاً، فأنا لا أريد أن أشاهد شيئاً آخر سوى هذا السرير الذي تنامين عليه. من حين لآخر، تفتحين عينيك وتتمطين، قائلة لي إنك لم تفهمي قط كم هو حسن أن يأخذ المرء راحته في ملاءة نظيفة، إنك تضمين الوسادة بين ذراعيك وترشقين بها وجهي، ما زلت أشتهيك.

لا بد أن الترجمان فريسة الغضب، فقد مضى أكثر من ساعة ونحن هنا. نهضت ورأيتك تتوجهين ناحية الحمام، فنعتّني بشخص يجد لذَة في رؤية مشاهد جنسية، ولم

ألتمس أي عذر. لاحظتُ الندب على ظهرك وساقيك، فاستدرتُ مدركاً من نظراتك أنك لا تريدين الحديث عنها الآن. وسمعت ماء الحمام يسيل، إن خرير الماء يمنحني قوة ويحول دون سماعك هذا السعال الذي يعاود الظهور كأنه ذكرى سيئة. بعض الأمور لن تتكرر كما كانت في الماضي، ففي الصين فقدت هذه اللامبالاة التي كانت تملأني طمأنينة. إني أخشى أن أبقى وحدي في هذه الغرفة، وحتى لبعض اللحظات، وحتى لو فصلني عنك مجرد حاجز بسيط، لكني لا أخاف البوح به لنفسي، لم أعد أخاف القيام بغية الالتحاق بك كما لم أعد أخاف البوح لك بكل ذلك.

في المطار، وفيتُ بوعد آخر، فما أن دُوِّنتْ بطاقتا طيراننا حتى قدتُكِ إلى غرفة الهاتف وقمنا بالاتصال بجان.

لم أعرف أيكما كانت البادئة، لكنك شرعت في البكاء وسط محطة الانطلاق الكبيرة هذه، ثم أخذتِ تضحكين وتنشجين.

مرت الساعة سريعاً، وكان لا بد من الرحيل. وقلت لجان إنك تحبينها، وإنك سوف تتصلين بها فور وصولكَ إلى أثينا.

عندما وضعت السماعة، انفجرت مجدداً في النشيج

وشقّ علي كثيراً أن أواسيك.

وبدا ترجماننا أشد عياء منا. لقد اجتزنا مرحلة تفتيش جوازات السفر، فرأيته أخيراً مرتاحاً. كان يبدو مسروراً جداً حتى أنه لم يكفّ عن إلقاء التحية علينا من وراء الزجاج.

كان الأوان ليلاً عندما صعدنا على متن الطائرة. أسندتِ رأسك إلى الكوة ونمت حتى قبل إقلاع الطائرة.

وفيما كنا نهّم بالهبوط باتجاه أثينا، جزنا منطقة اضطراب جوي. فأمسكت بيدي وضممتها بشدة، كما لو أن هذا الهبوط يقلقك. عندهَا أخرجتُ، رغبة مني في إلهائك، القطعة التي اكتشفناها في جزيرة ناركندام، فملتُ ناحيتك وأريتك إياها.

ــ قلت لي إنك على علم بالمكان الذي توجد فيه إحدى القطع الأخَرى.

ــ هل الطائرات صُنعتْ حقاً لتقاوم مثل هذه الهزات؟

ــ لا داعي للقلق. إذاً، أين هي هذه القطعة؟

أخرجتِ بيدك الطليقة ــ لأن يدك الأخرى كانت تضم يدي بقوةَ متزايدة ــ قلادتك. وتردّدنا في تقريبهما من

بعضهما ورفضنا القيام بذلك في وقت حالَ مطب هوائي دون تحقيق رغبتنا.

ورجوتني قائلة: سأروي لك هذه الأمور كافة عند هبوطنا على الأرض.

ــ أعطني على الأقل أثراً واحداً.

ــ منطقة الشمال الكبرى، في مكان ما بين خليج بافن وبحر بوفور، وهو عبارة عن بضعة آلاف كيلومتر لا بد من استكشافها، سأشرح لك لماذا، ولكن ستساعدني بادئ الأمر على زيارة جزيرتك.

هيدرا

ركبنا في أثينا سيارة تاكسي، وصعدنا بعد ساعتين على متن السفينة المتجهة إلى هيدرا. كنت جالسة داخل المقصورة في حين التحقتُ أنا بالجسر الخلَفي.

ــ لا تقل لي إنك تشكو من دوار البحر؟

ــ أحب أن أستفيد من الهواء الطلق.

ــ أنت ترتعد، لكنك ترغب في أن تقيم في الهواء الطلق؟ اعترف بأنك تصاب بدوار البحر، لماذا لا تقول الحقيقة؟

ــ لأن عدم المحافظة على التوازن على ظهر المركب يكاد يُعتبر عيباً بالنسبة إلى يوناني ولا أرى ما الغرابة في ذلك.

ــ أعرف واحداً كان يتهكم بي منذ زمن ليس ببعيد لأني أشكو من دوار الطيران... أجبتُ وأنا منحنٍ على الدرابزين: لم أكن أتهكم.

ــ وجهك أخضر رمادي ويرتجف، لنعد إلى المقصورة، سينتهي بك الأمر إلى الإصابة حقاً بمرض.

تملكتني نوبة سعال جديدة، وتركتك تجريني إلى الداخل، وشعرت فعلاً أن الحمى عاودتني، غير أني ما كنت أريد التفكير في ذلك. فأنا سعيد لاصطحابك إلى بيتي ولم أكن أرغب أن يكدّر شيء صفاء هذه اللحظة.

انتظرت أن نصل إلى الـ «بيريه» كي أخطر أمي، وبينما كانت السفينة ترسو، تصورت في تلك الآونة توبيخاتها. وكنت قد رجوتها ألا تُعدّ أي احتفال، فنحن مرهقان ولم نكن نحلم إلا في شيء واحد وهو النوم قدر ما نشتهي.

استقبلتنا أمي في بيتها. وهذه هي المرة الأولى التي أشاهدك فيها خائفة. لقد رأت في مظهرنا ما يبعث على الذعر، فأعدت لنا وجبة خفيفة على الشرفة. أما الخالة إيلينا فآثرت البقاء في القرية، لكي تدعنا وحدنا نحن الثلاثة. وما إن جلسنا إلى المائدة حتى انهالت عليك بالأسئلة. وعبثاً حاولتُ أن أتوعّدها علّها تتركك بسلام، ولكن لا شيء أثرّ فيها. أما أنت فتكيفت مع الوضع وأجبتها بطيبة خاطر، ثم انتابتني نوبَة سعال جديدة وضعت حداً نهائياً للسهرة. ورافقتنا أمي حتى غرفتي، وكانت رائحة خزامى زكية تفوح من الملاءة، فنمنا ونحن نسمع انكفاء الأمواج بعد اصطدامها بالصخور.

نهضت، في الصباح الباكر، على رؤوس أصابعك. فقد جعلتك إقَامتك أسيرة السجن تتخلين عن عادتك في النوم إلى الضحى. وسمعتك تغادرين الغرفة، لكني كنت خائر القوى لأقوى على متابعتك. كنت تحادثين أمي في المطبخ، وبدا لي أنك على توافق تام معَها، وما لبثتُ أن عدتُ إلى النوم.

علمتُ في ما بعد أن والتر نزل في الجزيرة عند نهاية الضحى. وقد هاتفته إيلينا البارحة لتخطره بوصولنا، فركب الطائرة من فوره. وذات يوم، باح لي أنه لكثرة السفر ذهاباً وإياباً بين لندن وهيدرا، أثرّت ظروفي الطارئة تأثيراً جاداً في ما ادّخره من أموال.

في مطلع بعد الظهر، دخل كل من والتر، إيلينا، كيرا وأمي غرفتي. كانت هيئاتهم متفككة حين رأوني طريح الفراش تلهبني الحمى. وضعت أمي على جبيني كمّادة منقوعة في خلاصة أوراق الكينا، وهي أحد علاجاتها القديمة التي لن تكفي للتغلب على الداء الذي راح يجتاحني. بعد ساعات، عادتني امرأة ما كنت لأفكر في معاودة رؤيتها، لكن والتر كان من عادته أن يسجل كل شيء حتى رقم هاتف طبيبة أيضاً، قامت في حينه بقيادة طائرة وانزلق رقمها في صفحات دفتره الأسود الصغير.

جلست الطبيبة صوفي شوارتز على سريري ممسكة بيدي:

ـ في هذه المرة، أنت، للأسف، لا تنافق بل تعاني من حمى شديدة، يا صديقي المسكين.

تنصّتت إلى رئتي وشخصّت انتكاس الخمج الرئوي الذي كلمتها أمي عنه. كانت فضّلتْ لو نُقلت تواً إلى أثينا، لكن سوء الأحوال الجوية ما كان ليسمح بذلك. لقد هبت عاصفة وهاج البحر ولم تكن طائرتها الصغيرة لتقوى على الإقلاع. في مطلق الأحوال، ما كنت في حالة تمكنني من السفر.

قالت كيرا: لا بد من تحمّل المتاعب التي تفرضها علينا الظروف، ينبغي التوافق مع الإمكانات المتاحة بحراً.

استمرت العاصفة ثلاثة أيام. دامت اثنتين وسبعين ساعة هبت خلالها ريح الـ «ملتم» على الجزيرة. كانت الريح العاتية التي تعصف من ناحية جزر «السيكلاد» تحني الأشجار، ويطقطق البيت وقد فقد السقف بضعة قراميد. وكنت أنا، من غرفتي، أسمع الأمواج تتحطم على الصخور.

أنزلت أمي كيرا إلى غرفة الضيوف، ولكن حالما كانت الأنوار تنطفئ، تنضم إلي وتنام بقربي. أما الطبيبة فكانت،

خلال أوقات الراحة النادرة التي تمنحها لنفسها، تُقبل للمناوبة والسهر علي. أما والتر فكان يتسلق التلة متحدياً خوفه على ظهر حمار مرتين في اليوم ليعودني، فأراه يدخل غرفتي مبللاً من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، فيجلس على كرسي ويخبرني كم أنه يبارك هذه العاصفة. وكان بيت الضيوف الذي اعتاد عليه قد شاهد جزءاً من سقفه مقتلعاً. فعزمت إيلينا للتو على إيوائه في بيتها، بينما تملّكني الهياج لأني أفسدت اللحظات الأولى لوجود كيرا في الجزيرة، لكن حضورهم جميعاً حولي جعلني أدرك أن عزلتي في هضاب أطاكاما العالية أمست جزءاً من ماضٍ غابر.

في اليوم الرابع، هدأت ريح الـ «ملتم» وولّت الحمى معها.

أمستردام

كان فاكيرز منهمكاً في قراءة صحيفة. دُقّ الباب دقتين، وإذ لم يكن ينتظر أحداً، فتح درج مكتبه تلقائياً ودس يده فيه. دخل إيفوري متجهم الوجه.

كان في استطاعتك أن تخبرني أنك في المدينة، فقد كنت أرسلت سيارة للبحث عنك في المطار.

ــ ركبتُ الحافلة الكهربائية لأنه كان لدي ما أقرأه.

استأنف فاكيرز الكلام، مطبقاً الدرج بحذر: لم أُعدّ شيئاً للعشاء.

همس إيفوري: أراك هادئاً هكذا على الدوام.

ــ أستقبلُ قلة من الزائرين في القصر، والبعض لا أُخطر بقدومهم. هيا لنذهب إلى العشاء، ثم ننصرف إلى اللعب.

ــ لم آتِ للمبارزة بل للتكلم معك.

ــ يا لها من لهجة جادة! يبدو أنك منشغل البال جداً، يا صديقي.

ـ المعذرة لوصولي على هذا النحو من غير الإعلان عن قدومي، ولكن كان لي أسبابي وأتمنى أن أكلمك.

ـ أعرف طاولة منعزلة في مطعم ليس ببعيد من هنا، سأذهب بك إليه وسنتناقش أثناء المسير.

ارتدى فاكيرز معطفه الواقي من المطر. اجتازا قاعة قصر «دام» الكبرى، وتوقف إيفوري لدى مروره فوق الخريطة الفلكية لنصف الكرة السماوية المنقوشة على الأرض الرخامية، توقف ليشاهد خريطة العالم المرسومة تحت قدميه.

قال لصديقه بمهابة: سوف تُستأنف الأبحاث.

ـ لا تقل لي إنك فوجئت، يخيل إلي أنك فعلت كل ما في وسعك من أجل إتمام ذلك.

ـ آمل ألا أضطر إلى الندم عليه.

ـ لماذا هذا المظهر الكئيب؟ أنا لم أعد أتعرّف إليك. أنت الذي كنت سعيداً جداً في زخم النظام القائم. ستثير بلبلة موفقة، وستوشك أن تطير فرحاً. من ناحية ثانية، أتساءل ما الذي يحفزك فوق كل شيء وفي هذه المغامرة، أهو اكتشاف الحقيقة حول أصل العالم أم الأخذ بثأرك من بعض الأشخاص الذين جرّحوك في غابر الأيام؟

ــ أتصور أنه في البداية كان القليل من الأمرين معاً، لكني لم أعد وحدي في هذا البحث والذين أشركتهم معي خاطروا بحياتهم وما انفكوا يخاطرون بها.

ــ وهل يفزعك هذا؟ إذاً تلقيتَ ضربة لعينة جديرة بشيخ في هذه الأوقات الأخيرة.

ــ لست خائفاً لكني أواجه مأزقاً.

هذا لا يعني أني مستاء من هذه الردهة الفخمة، يا عزيزي، إنما أجد أن صوتينا تتجاوب أصداؤهما أكثر من المعتاد بخصوص محادثة من هذا القبيل. لنخرج، إن كنت موافقاً.

تقدم فاكيرز باتجاه النهاية الغربية للردهة حتى وصل إلى باب خفي في الجدار الحجري وهبط سلماً يؤدي إلى الطوابق ما تحت الأرض في قصر دام. وقد أرشد إيفوري على امتداد الجسور الخشبية الصغيرة التي تعلو القناة الباطنية. كان الموقع رطباً، والسير زلقاً أحياناً.

ــ انتبه أين تضع رجليك، لا أود أن تقع في هذا الماء القذر البارد. ثم أضاف فاكيرز، وهو يضيء مصباح جيب: إتبعني.

مرا من أمام يافطة خشب حيث كان دسار يتحكّم في

آلية يديرها فاكيرز لما كان يرغب في الالتحاق بالصالة الخاصة بالمعلوماتية. لم يتوقف عندها بل واصل طريقه.

قال لإيفوري: هذا كل ما في الأمر، بضع خطوات أخرى وننتهي إلى باحة صغيرة. لا أدري إن كان أحدهم قد رآك تدخل القصر، لكن كن على يقين أن أحداً لن يراك تخرج منه.

ـ يا لها من متاهة غريبة، لن أتعودها أبداً.

ـ كان في وسعنا أن نسلك الممر المؤدي نحو «الكنيسة الجديدة»، لكنه أكثر رطوبة، ولكانت أرجلنا قد تبلّلت.

دفع فاكيرز باباً، صعدا بضع درجات وألفيا نفسيهما في الهواء الطلق. أصابتهما ريح باردة، رفع إيفوري ياقة معطفه. ثم صعد الصديقان القديمان سيراً على الأقدام «هوك سترات»، الشارع الذي يحاذي القناة.

أردف فاكيرز: إذاً، ما الذي يقلقك؟

ـ لقد تلاقى محميايَ الإثنان.

ـ إنه خبر سعيد على الأرجح، فبعد المقلب الشنيع الذي لعبناه على سير آشتون لا بد أن نحتفل بالحدث بدلاً

من إظهار وجهين كئيبين.

ـ أشك أن يتوقف عند ذلك الحد.

ـ لقد اندفعتَ اندفاعاً قوياً بعض الشيء حين استفززته في عقر داره، بينما كنت اقترحت عليك مزيداً من الحذر.

ـ لم يكن لدينا الوقت، لا بد أن تستعيد عالمة الآثار الشابة حريتها في أسرع وقت ممكن. كانت قد تعفنت وراء القضبان كفاية.

ـ لتلك القضبان الفضل في إبقائها خارج متناول آشتون، وبالتالي حماية عالم الفيزياء الفلكية أيضاً.

ـ هذا الغبي أنحى باللوم عليه كذلك.

ـ هل لديك الدليل؟

ـ إني متأكد من ذلك، وهو من دسّ السم له! رأيت كميات كبيرة من نبات «ست الحسن» في حديقة آشتون. تسبب هذه النبتة مضاعفات رئوية خطرة.

ـ إني على يقين أن كثيرين من الناس لديهم «ست الحسن» التي تنمو في ريفهم من غير أن يعمدوا مع ذلك إلى تسميم الناس بالجملة.

ـ فاكيرز، نحن نعلم ما يستطيع هذا الرجل فعله، لعلي تصرفت بطريقة عنيفة، ولكن ليس بلا روية، كنت أفكر بإخلاص...

ـ كنتَ تفكر أن الوقت حان لاستئناف أبحاثك! إسمعني، إيفوري، أفهم دوافعك، ولكن مواصلة أعمالك ليست في مأمن من الخطر. إذا عادا للبحث عن قطعة جديدة، فسأضطر إلى إعلام الآخرين. فأنا لا يسعني المجازفة إلى ما لا نهاية بأن أرى نفسي متهماً بالخيانة.

ـ في الوقت الحاضر، تعرّض أدريان لانتكاسة قذرة، هو وكيرا يستريحان في اليونان.

ـ لنأمل أن تستمر هذه الاستراحة أطول مدة ممكنة.

سلك إيفوري وفاكيرز جسراً يعلو القناة. توقف إيفوري واتكأ بمرفقه على الدرابزين.

تنهد فاكيرز: أحب هذا الموقع، إنه الموقع الذي أفضله من كل أمستردام. أنظر كم هي جميلة المشاهد هنا.

ـ إني في حاجة إلى مساعدتك، فاكيرز، وأعرفك مخلصاً ولن أطلب منك أبداً أن تخون الجماعة، ولكن كما كانت الحال في الماضي، ستتشكل تحالفات عاجلاً أم آجلاً، وسيعدّ سير آشتون أعداءه...

ـ كذلك أنت ستعدّهم، وبما أنه لم يعد لك مقعد حول الطاولة، تتمنى لو أكون لسان حالك الذي سيقتع أكبر عدد ممكن، أهذا ما تنتظره مني؟

تنهد إيفوري، قائلاً: هذا وأكثر منه قليلاً.

دُهش فاكيرز: وماذا غير ذلك؟

ـ أحتاج إلى التوصل إلى استخدام وسائل لم أعد أمتلكها.

ـ أي نوع من الوسائل؟

ـ أنا في حاجة إلى حاسوبك لمراجعة بنك معطياتك.

ـ لا، لست موافقاً، عندئذ لا يلبث أن يكتشف أمرنا وأتعرض أنا للخطر.

ـ لن يحصل ذلك إن قبلتَ أن تصل جهازاً صغيراً خلف محطتك الخارجية.

ـ أي نوع من الأجهزة؟

ـ جهاز يسمح بفتح اتصال حذر وغير قابل للكشف في آن معاً.

ـ إنك تحط من شأن الجماعة، فالموظفون

المتخصصون في المعلوماتية الذين يعملون لديها هم من خيرة المعلوماتيين، حتى أن بعضهم هم من قُدامى هؤلاء المولعين المخيفين.

قال إيفوري، وهو يمد علبة صغيرة إلى فاكيرز: نحن الاثنان نلعب الشطرنج خيراً من أي شاب اليوم، فما عليك إلا الثقة بي.

نظر فاكيرز إلى العدة بشيء من الاشمئزاز: هل تريد أن تجعلني أتنصّت؟

ـ أريد بالفعل استخدام نظام الشيفرة عندك لألج إلى الشبكة، وإني أؤكد لك أنك لا تتعرض لأي مخاطرة.

ـ إنهم إن اشتبهوا بي، أتعرض لخطر الاعتقال والمثول أمام العدالة.

ـ فاكيرز، هل أستطيع الاعتماد عليك أم لا؟

ـ سأفكر في ما تطلبه مني وسأحيطك علماً بإجابتي فور اتخاذ قراري. إن قصتك الصغيرة قد صدّت نفسي عن كل شهية للطعام.

أعرب له إيفوري: كذلك أنا ما كنتُ أشعر بجوع شديد.

سأل فاكيرز، متنهداً: هل يعود كل هذا بأي منفعة؟ ما

هي حظوظهما في النجاح، هل تعلم ذلك على الأقل؟

ـ قلما يفيدهم ذلك إن بقيا وحدهما، ولكن إذا وضعتَ تحت تصرفهما المعلومات التي جمعتُها على مدى ثلاثين عاماً من الأبحاث، فعند ذاك لا يستحيل عليهما اكتشاف القطع الناقصة.

ـ ألديك فكرة عن الموضع الذي تتواجد فيه؟

ـ أترى، فاكيرز، قبل قليل كنتَ تشك حتى في وجودها، أما الآن فأنت تهتم بالموضع الذي تحتجب فيه.

ـ إنك لم تُجب عن سؤالي.

ـ أعتقد أن العكس صحيح تماماً.

ـ أين هي إذاً؟

ـ لقد تم اكتشاف القطعة الأولى في الوسط، والثانية في الجنوب، والثالثة إلى الشرق، وأترك لك أن تحزر أين توجد القطعتان الأخيرتان. فكّرْ ملياً في طلبي، فاكيرز، أعرف أنه ليس تافهاً، وأنه يكلّفك غالياً، لكني قلت لك أنا أحتاج إليك.

حيّا إيفوري صديقه وابتعد، فلحق به فاكيرز.

ــ «ودقّ» الشطرنج بيننا، أنت لا تنوي الذهاب بهذه الطريقة؟

ــ أفي وسعك أن تُعدّ لنا وجبة طعام خفيفة في بيتك؟

ــ لا بد أن عندي بعض الجبن وقطع خبز محمصة.

ــ إذاً، سيفي ذلك بالغرض، مع كأس خمر جيدة، واستعّد للخسارة، فأنت مدين لي بثأر.

أثينا

كنا أنا وكيرا جالسين في الشرفة، وقد استعدت بفضل العناية التي أحاطتني بها الطبيبة قواي، وللمرة الأولى أمضيتُ ليلة من دون سعال. واستردّ وجهي ألواناً كادت تطمئن أمي. كما انتهزت الطبيبة فرصة إقامتها القسرية لتفحص كيرا وتصف لها بعض خلاصات النباتات ومتممات من الفيتامين، إذ كان السجن قد ترك فيها آثاراً سلبية.

كان البحر هادئاً، وركدت الريح، وباستطاعة طائرة طبيبتنا الصغيرة أن تقلع اليوم من جديد.

كنا مجتمعين حول مائدة الإفطار، حيث أعدّت أمي وجبة بمزيد من الاهتمام كما لو كانت هذه الطبيبة ملكة. خلال هذه المرحلة، التي لم أكن فيها على ما يرام، كانت النسوة قد قضين معاً ساعات كاملة يتقاسمن سرد قصص وذكريات بين المطبخ وغرفة الاستقبال. كانت أمي مشغوفة بمغامرات هذه المرأة، الطبيبة التي تقود طائرة متنقلة من جزيرة إلى جزيرة لتلازم المرضى. وقد حثتني، وهي تفارقنا على أن أعدها بتمديد نقاهتي لبضعة أيام على الأقل قبل الشروع بأي عمل آخر، وهي وصية جعلتها أمي تعيدها مرتين في حال لم يتسنَّ لي سماعها جيداً. ورافقتها

إلى المرفأ تاركة لنا أخيراً بعض لحظات من الألفة الحميمة.

ما إن خلت الدار لنا حتى أقبلت كيرا تجلس بجواري.

ــ هيدرا جزيرة جذابة، أدريان، وأمك امرأة رائعة، وأنا أهيم بحب جميع الناس هنا، ولكن...

قلتُ، مقاطعاً إياها: وأنا أيضاً ما عدت أحتمل البقاء، بل أحلم بالرحيل معك. هل يطمئنك كلامي هذا؟

أجابت كيرا متنهدة: آهِ، نعم!

ــ لقد لعبنا الجولة الحاسمة في السجن الصيني، أظن أنه بإمكاننا النجاح في الإفلات من هنا دون صعوبات تُذكر.

نظرت كيرا إلى عرض البحر.

ــ ماذا دهاكِ؟

لقد حلمت بـ «هاري» هذه الليلة.

ــ هل ترغبين في العودة إلى هنالك؟

ــ أريد أن أراه، وهذه ليست المرة الأولى التي أحلمه فيها. لطالما جاء هاري يزورني في لياليّ بسجن غارتهر.

ــ لننطلق ثانية إلى وادي أومو، إن كان ذلك ما تتمنينه، كنتُ قد وعدتك بأن أصحبك إلى هنالك.

ــ إني لا أعلم حتى إن كنت لا أزال أشغل وظيفتي، ثم هناك أبحاثنا.

ــ لقد كلفتنا غالياً، ما عدت أريد أن أعرّضك لمخاطر.

ــ بمعزل عن كل تحذلق، لقد عدتُ من الصين في حالة صحية أفضل من حالتك، لكني أتصور أن قرار المتابعة أو عدمها يتعلق بنا كلينا.

ــ أنتِ تعرفين وجهة نظري.

ــ أين هي قطعتكَ؟

نهضتُ وفتشت عنها في منضدة السرير حيث رتبتها عند وصولي إلى البيت. لما رجعتُ ثانية إلى الشرفة، نزعت كيرا عقدها ووضعت قلادتها فوق الطاولة. قرِّبت القطعتين، وما إن اتحدتا تجددت الظاهرة التي شهدناها على جزيرة ناركوندام.

اصطبغت القطعتان باللون الأزرق السماوي وجعلتا تبرقان بريقاً نادر الشدة.

سألتني كيرا محدّقة في القطعتين، اللتين خف لمعانهما:

أ تريد الاكتفاء بذلك؟ لو عدتُ إلى وادي «أومو» من دون اختراق هذا السرّ، لما وسعني القيام بعملي بصورة صحيحة، وسوف أقضي أيامي وأنا أفكر ما عسى تكشفه لنا هذه القطعة في ما لو جمعنا القطع كلها، ثم وعد لقاء وعد، إنك قطعتَ علي عهداً آخر: أن تجعلني أفوز بمئات الآلاف من السنين في أبحاثي، ولكن إذا كنتَ تعتقد أن هذا العرض وقع في إذن امرأة صماء!

ــ أعلم ما وعدتك به، كيرا، ولكن قبل اغتيال كاهن تحت أنظارنا، وقبل أن نوشك في السقوط في وهدة، وقبل أن نُقذف من أعالي صخرة في مجرى نهر، وقبل أن تقيمي في سجن صيني، ثم هل نملك أدنى فكرة عن الوجهة التي ينبغي البحث فيها؟

ــ قلتُ لكَ: منطقة الشمال الكبرى، ما من شيء محدد حتى الآن، ولكنه أثر يمكن اقتفاؤه.

ــ لماذا هنالك وليس في مكان آخر على الأرجح؟

ــ لأني أعتقد أن هذا ما يرشدنا إليه ذلك النص المكتوب باللغة الغيزية، لم أكفّ عن التبصّر فيه أيام كنت أهترئ في غارتهر. لا بد من العودة إلى لندن، إذ يجب أن أعكف على الدراسة انطلاقاً من مكتبة الأكاديمية الكبرى، إني في حاجة للاطلاع على بعض الأعمال، كما يتوجب

علي معاودة الحديث مع ماكس، لدي أسئلة أطرحها عليه.

ــ أ وترغبين في رؤية صاحبك المطبعي؟

ــ لا تقلب وجهك، تبدو مثيراً للسخرية، ثم لم أقل إني أرغب أن أراه بل أن أتحدث إليه، لقد عمل على إعادة نقل هذه المخطوطة، فإذا قام بأي اكتشاف ولو بسيط، ستصلح معلوماته للأخذ بها، وأريد بالأخص أن أتحقق من صحة أمر ما معه.

ــ إذاً، لنعد إدراجنا، فلندن ستوفّر لنا حجة وجيهة لمغادرة هيدرا.

ــ وسأعرّج على باريس إن كان ذلك مستطاعاً.

ــ لتري ماكس، إذاً؟

ــ بل لأرى جان! ثم لأزور كذلك إيفوري.

ــ كنت أعتقد أن الأستاذ العجوز ترك متحفه وسافر.

ــ أنا أيضاً سافرت، ثم ترى لقد رجعت، من يدري لعله هو أيضاً رجع؟

مضت كيرا تهيئ أمتعتها، وأهيئ أنا أمي لفكرة رحيلنا، فيما أسف والتر لعلمه أننا نغادر الجزيرة. كان قد استنفد

رصيده الخاص في العطل خلال العامين القادمين، لكنه كان لا يزال يأمل في قضاء نهاية الأسبوع في هيدرا. دعوتُه إلى عدم تغيير أي شيء في خططه، فسألتقيه الأسبوع المقبل بكل سرور في الأكاديمية، حيث عقدت أنا بدوري العزم على الذهاب. هذه المرة، لن أدع كيرا تقوم بأبحاثها بمفردها، وخصوصاً مذ أعلنت لي أنها سوف تعرّج أولاً على باريس، لذا ابتعت تذكرتَي سفر إلى باريس.

أمستردام

كان إيفوري قد غفا على أريكة حجرة الاستقبال، فيما تدثّر فاكيرز بغطاء وانسحب إلى غرفته، حيث أمضى جزءاً كبيراً من الليل وهو ينعم النظر في أفكاره التي منعته من النوم. كان شريكه القديم يطلب بإلحاح مساعدته، لكن إسداء خدمة له ينطوي على مخاطرة بسمعته. فالأشهر القليلة القادمة ستكون الأخيرة في حياته المهنية، وضبطه متلبساً بجرم الخيانة ما كان ليثير حماسه البتة. قام، في الصباح الباكر، ليعدّ الفطور، وأيقظ صفير الغلاية إيفوري.

قال، جالساً حول مائدة المطبخ: كان الليل قصيراً، أليس كذلك؟

أجاب فاكيرز: هذا أقل ما يمكن قوله، ولكن من أجل مبارزة من هذا النوع، كان الأمر يستحق العناء.

ـ لم ألاحظ أني نمت، هذه هي المرة الأولى التي يحدث لي ذلك. أنا متأسف أن أفرض نفسي في بيتك على هذا النحو.

ـ لا قيمة لذلك، أرجو ألا تكون هذه الأريكة القديمة قد أنهكت ظهرك.

ضحك إيفوري، مستهزئاً: أظن أني أعرق منها في القِدم.

ــ إنك تعتدّ بنفسك، فهي أريكة ورثتها عن أبي.

ساد الصمت وحدّق إيفوري في فاكيرز، شرب فنجان الشاي وقضم بسكوته ثم نهض.

ــ لقد أفرطتُ في استغلال ضيافتك، وسأدعك تُعنى بزينتك وهندامك، بينما ألتحق أنا بفندقي.

لم ينبس فاكيرز بكلمة ونظر بدوره إلى إيفوري يتوجه ناحية المدخل.

استرد إيفوري معطفه، قائلاً: شكراً على هذه السهرة الممتازة، يا صديقي، لنا وجهان يبعثان على الخوف، ولكن يجب أن أعترف أننا لم نلعب بهذا الشكل الجيد منذ زمن بعيد.

زرّر معطفه ودس يديه في جيبيه، وفاكيرز لا يني يلزم الصمت.

هزّ إيفوري كتفيه وفتح المزلاج، عندها لاحظ رسالة وجيزة موضوعة بوضوح على طاولة صغيرة بجانب الباب، في حين لم تكن عينا فاكيرز تفارقانه. تردّد إيفوري

ثم تناول الرسالة الصغيرة واكتشف سلسلة من الأرقام والأحرف. كان فاكيرز لا ينفك يحدق فيه، وهو جالس على كرسيه في المطبخ.

تمتم إيفوري: شكراً.

دمدم فاكيرز: شكر على ماذا؟ إنك مع ذلك لن تشكرني على استغلال ضيافتي لتنبش في أدراجي وتختلس نظام الشيفرة للولوج إلى حاسوبي.

ـ لا، في الواقع، لن أكون في مثل هذه الوقاحة.

ـ إنك تراني مطمئناً.

أغلق إيفوري الباب خلفه، إذ كان لديه الوقت الكافي للعودة ثانية إلى فندقه لاستعادة أمتعته وركوب الحافلة الكهربائية. في الشارع أومأ بيده إلى سيارة تاكسي.

أما فاكيرز فكان يذرع شقته جيئة وذهاباً، متنقلاً من المدخل إلى غرفة الاستقبال. وضع فنجان الشاي على الطاولة الصغيرة المستديرة متجهاً ناحية الهاتف.

قال، حالما تسلّم مراسله الاتصال: أمستردام على جهاز الهاتف، بلّغ الآخرين أنه يجب أن ننظم اجتماعاً هذا المساء، الساعة الثامنة، محاضرة هاتفية.

سأل القاهرة: لماذا لا تنظمه عبر شبكة المعلوماتية، كما درجت العادة عندنا؟

ـ لأن حاسوبي معطل.

علّق فاكيرز الهاتف وانطلق ليعدّ نفسه.

باريس

اندفعت كيرا مسرعة نحو جان، وفضلتُ أنا أن أدعهما وحدهما تستفيدان ملياً من هذه اللحظات. تذكّرت وجود تاجر عاديات (أنتيكه) في الـ «ماريه» يبيع أجمل أجهزة علم البصريات في العاصمة. وكنت أستلم قوائم بضاعته مرة كل سنة في منزلي اللندني. كانت معظم القطع المعروضة تتخطى إمكاناتي الشرائية، لكن النظر لم يكن يكلف شيئاً وهكذا تسنّت لي ثلاث ساعات لا بد من إهدارها.

كان تاجر العاديات العجوز جالساً وراء مكتبه ينظّف أسطرلاباً رائعاً، عندما دخلتُ حانوته. لم يعرني في بادئ الأمر أي انتباه إلى أن توقفتُ أمام محلقة (آلة فلكية قديمة تمثل الدوائر الرئيسية في الكرة السماوية) ذات صياغة فريدة.

صرّح تاجر العاديات، واقفاً على قدميه: هذا النموذج الذي تنظر إليه، أيها الشاب، صنعه كواليتروس أرسينيوس، أو إن شئت غوتيه أرسينيوس. وبعضهم يقول إن أخاه رغنيريوس كان يشتغل معه لإنجاز هذه الرائعة الصغيرة.

دنا مني وفتح الواجهة، مقدّماً لي العدة الثمينة:

ــ إنه واحد من أجمل الأعمال المنتجة في المشاغل الفلامنكية إبان القرن السادس عشر، صانعون كثر حملوا اسم أرسينيوس، ولم يصنعوا إلا أسطرلابات ومحلّقات. كان غوتيه نسيب عالم الرياضيات «جمّا فريزيوس»، والذي يشتمل أحد أبحاثه المطبوعة في آنفير عام 1553 على أقدم عرض لمبادئ التثليث (استخدام المثلثات) وطريقة في تحديد خطوط الطول. ما تنظر إليه قطعة نادرة حقاً، وثمنه تبعاً لذلك.

ــ يعني؟

أردف تاجر العاديات وهو يصف الأسطرلاب في الواجهة: لا يقدّر بثمن، لو كان الأمر يتعلق بالنموذج الأصلي طبعاً. ولكن، للأسف، ليس هذا سوى نسخة أنجزه، على الأرجح حوالي نهاية القرن الثامن عشر، تاجر هولندي ثري حريص على ترك أثر في محيطه. ثم قال، متنهداً: هل لك بفنجان قهوة؟ لقد مرّ زمن طويل لم أُسرّ بالحديث إلى عالم فيزياء فلكية.

سألته، مذهولاً: وكيف عرفتَ مهنتي؟

ــ قلة من البشر تجيد استعمال هذا النوع من الآلة

بمثل هذه السهولة، وأنت لا تملك عقل تاجر، وعليه ليس من حاجة أن يكون المرء ثاقب الفكر ليحزر ماذا تفعل. أي طراز من العدة جئت تفتش عنه في حانوتي؟ لدي بعض القطع أسعارها معقولة جداً.

ــ سأخيّب أملك ولكني لا أهتم إلا بصناديق آلات التصوير القديمة.

ــ يا لها من فكرة غريبة، غير أن الأوان لم يفت بعد للبدء بمجموعة جديدة. ويحك دعني أقدّم لك شيئاً سيثير اهتمامك، أنا متأكد من ذلك.

اتجه تاجر العاديات العجوز ناحية مكتبه، أخرج منها مؤلفاً ضخماً مغطّى بالجلد، وضعه على مكتبه، سوّى نظارتيه وقلّب الصفحات بمنتهى الحذر.

قال: هيا انظر، هذا رسم محلّقة مصنوعة بصورة فائقة. نحن مدينون بها لـ ايرسموس هابرميل، صانع آلات في علم الرياضيات للامبراطور رودولف الثاني.

ملتُ على الصورة المحفورة وفوجئت باكتشاف نسخة لصورة تشبه ما اكتشفته أنا وكيرا تحت كف أسد من حجر في أعالي جبل هواسهان. جلستُ على الكرسي الذي قدمه لي بائع العاديات وتفحصت عن كثب هذا الرسم المدهش.

قال تاجر العاديات، منحنياً من فوق كتفي: أنظر كم أن دقة هذا العمل مذهلة وأضاف: ما بهرني على الدوام في المحلقات ليس أنها تسمح بتحديد موقع الكواكب في السماء خلال لحظة معينة، بل الأرجح ما لا تبيّنه لنا ومع ذلك نخمّنه تخميناً.

رفعتُ رأسي من كتابه القيّم ونظرت إليه، وكلني شوق لما سيقوله لي.

فتابع، فرحاً: الفراغ وصديقه الزمن! الفراغ يا له من مفهوم غريب. الفراغ مليء بأشياء غير مرئية بالنسبة إلينا. أما الزمن الذي يمضي ويغيّر كل شيء، يعدّل مسيرة النجوم، يهدهد العالم بحركة مستدامة. إنه هو الذي يبعث الحياة في عنكبوت الحياة الجبار المتنقل على شبكة الكون. إنه بُعد محيّر، هذا الزمان الذي نجهل عنه كل شيء، ألا ترى ذلك؟ أنت تبدو لي مؤنساً بهيئتك المذهولة لشيء تافه، أتخلى لك عن الكتاب بالسعر الذي كلّفني. مال بائع العاديات نحو أذني ليهمس فيها بالمبلغ الذي أمله لكتابه. لم تكن كيرا معي، فاشتريت الكتاب.

قال لي بائع العاديات، وقد شيعني حتى عتبة بابه: عدْ مجدداً لرؤيتي، عندي تحف أخرى أعرضها عليك. ثم أردف بمرح: إنك لن تضيّع وقتك، أؤكد لك ذلك.

أغلق الباب من بعدي بالمفتاح، ورأيته من وراء الواجهة يختفي في خلفية حانوته.

ألفيتني في الشارع حاملاً تحت ذراعي هذا الكتاب الضخم، وأنا أتساءل فعلاً لماذا ابتعته. وإذا بهاتفي الخلوي اهتز في جيبي. رفعت الهاتف وسمعت صوت كيرا يقترح عليّ أن أجدها بعد قليل لدى جان، التي ستبتهج لاستقبالنا أثناء السهرة وفي الليل أيضاً. سأنام على أريكة غرفة الاستقبال بينما ستتقاسم الأختان السرير. وأعلمتني، كما لو أن هذا البرنامج لم يكن كافياً لتجميل نهاية نهاري، أنها سوف تقوم بزيارة ماكس، فمشغل المطبعي ليس بعيداً عن بيت جان، ويسعها الوصول إليه خلال عشر دقائق. وأضافت أنها متشوّقة للتحقق من أمر ما معه ووعدتني بالاتصال بي حالما يتم ذلك.

مكثتُ بارد الأعصاب، وأخبرتها أنه يبهجني العشاء الذي ينتظرنا وعلّق كل منا سماعة هاتفه.

عند ركن شارع ليونز ــ القديس بولس، لم أكن أدري ما أفعل، ولا إلى أين أتوجه.

كم مرة تأففت لاضطراري إلى اقتناص دقائق زهيدة القيمة، ولعجزي عن منح نفسي القليل من الراحة. في نهاية بعد الظهر، راودني إحساس غريب ومزعج وأنا

سائر على امتداد أرصفة نهر السين، بأني عالق بين فترتين من فترات النهار تأبيان أن تتحدا مترافقتين. لا بد أن المتسكعين في الطرقات يدرون كيف يتصرفون. فلطالما شاهدتهم جالسين على مقاعد يقرؤون أو يستغرقون في أحلام اليقظة، ولمحتهم عند منعطف منتزه عام أو حي من دون أن أتساءل حول مصيرهم. ووددت فعلاً لو أبعث برسالة إلى كيرا لكني امتنعت عن القيام بذلك، ولكان والتر نصحني بالعدول عن ذلك، وتمنيت الالتحاق بها في مطبعة ماكس. ومن هناك، لتمكنّا من الذهاب معاً عند جان، وشراء أزهار لها في الطريق. هذا بالضبط ما كنت أحلم به بينما كانت خطواتي تجرني باتجاه جزيرة سان لوي. هذا الحلم، مهما كان تحقيقه بسيطاً، تم تأويله تأويلاً خاطئاً. فكانت كيرا اتهمتني بالغيرة، مع أن ذلك ليس من طبعي، وأخيراً...

كنتُ سأجلس تحت مظلة حانة صغيرة قائمة في زاوية شارع «الجسرَيْن». فتحتُ كتابي واستغرقت في القراءة راصداً ساعتي. توقفت أمامي سيارة تاكسي، ترجّل منها رجل يحمل معطفاً واقياً من المطر ويمسك في يده بمتاع صغير. ابتعد بخطى متسارعة على رصيف «أورليان». كنت على يقين من أنه سبق أن رأيت وجهه، ولكن من غير أن أتذكر مع ذلك في أية مناسبة، ثم توارى خياله

وراء المدخل الرئيسي.

كانت كيرا جالسة عند ركن المكتب. قال ماكس، رافعاً عينيه من الوثيقة التي كان يتفحصها: المتكأ أكثر مدعاة لراحتك.

ـ لقد تخليتُ عن عادة المقعد الوثير خلال هذه الأشهر الأخيرة.

ـ هل أمضيت حقاً ثلاثة أشهر في السجن؟

ـ سبق أن أخبرتك بذلك، ماكس. ركّزْ فكرك في هذا النص وأبدِ لي رأيك بصدده.

ـ لا أعتقد أنك مذ عاشرت هذا الشخص الذي ليس، على زعمهم، سوىَ زميل لك، باتت حياتك مستهجنة. حتى أني لا أفهم لماذا تثابرين على معاشرته بعد كل ما جرى لك. سحقاً له! إنه أخيراً أفسد عليك أبحاثك، بصرف النظر عن المنحة التي فزت بها لمتابعةَ أعمالك. هذا النوع من الهبة لا يسنح للمرء مرتين. ويبدو أنك تجدين كل ذلك عادياً.

ـ ماكس، لي في مسائل الأخلاق أخت متخصصة في المادة، وأؤكد لك أنك، ولو بذلت قصارى جهودك، لن تصل إلى علو كعبها، لذا لا تضيّع وقتك سدى. ما رأيك في

نظريتي؟

ــ وإذا أجبتك، ما الذي تحاولين الوصول إليه؟ هل تقصدين إلى جزَيرة كريت لسبر البحر المتوسط، أم تسبحين حتى تبلغي سوريا؟ إنك تفعلين أي شيء، وتتصرفين كيفما اتفق. كان من الممكن أن تلقي حتفك في الصين، أنتِ فاقدة الحس كلياً.

ــ نعم، كلياً، لكني في حال جيدة، كما ترى. أخيراً، لا أدعي أن قليلاً من الكريما...

ــ أرجوكِ، لا تكوني وقحة.

ــ همْمْ، يا عزيزي ماكس، تعجبني عندما تصطنع معي الكلام بلَهجة أستاذ. أعتقد أن ذلك كان يغريني إغراء شديداً حين كنت تلميذتك، لكني الآن ما عدت كذلك. أنت لا تعلم شيئاً عن أدريان، وتجهل كل شيء عن السفر الذي أقدمنا عليه، فإذا كانت هذه الخدمة الصغيرة تكلفك غالياً فليس الأمر خطيراً، أعدْ إلي هذا المستند وأنا أتركك للتو.

ــ حدّقي جيداً في عينيّ واشرحي لي في ما سيساعدك هذا النص نوعاً ما في الأبحاث التي تقومين بها منذ سنينَ طويلة.

ــ قل لي، ماكس، ألم تكن أستاذ علم آثار؟ كم سنة

كرست لتصبح باحثاً ثم مدرساً قبل أن تغدو صاحب مطبعة؟ أيمكنك أن تحدق في عينيّ وتشرح لي ما لمهنتك من علاقة بما مارسته في الماضي؟ الحياة، ماكس، حافلة بأمور طارئة. لقد استُغني عن خدماتي مرتين في وادي «أومو»، لعل الوقت حان لطرح بعض الأسئلة حول مستقبلي.

ــ هل أولعتِ بهذا الشخص إلى حد التفوّه بمثل هذه الحماقات؟

ــ ربما هذا الشخص، كما تقول، مليء بعيوب، شارد الذهن، وحالم أحياناً، ومرتبك أكثر من اللزوم، لكنّ لديه شيئاً لم أعرفه قط من قبل. إنه يجذبني، يا ماكس. منذ أن تعرّفت إليه لم تعد حياتي أشبه بشيء آخر، إنه يضحكني، يهز مشاعري، يثيرني ويطمئنني.

ــ إذاً، فالمسألة أسوأ مما ظننت، أنت تحبينه.

ــ لا تقوّلني ما لم أقله.

ــ لقد قلتِهِ وإن لم تلاحظي ذلك، لأنك بلهاء كثيراً.

نهضتْ كيرا من المكتب متقدمة نحو نافذة الزجاج الكبيرة التي تشرف على المطبعة. نظرت إلى الطابعات التي تسحب لفائف الورق الطويلة بوتيرة جنونية. وكان

الصوت المتقطع المنبعث من الآلات الطاوية يتردد صداه حتى في الطابق الأوسط؛ وإذ بها توقفت فخيم الصمت في المشغل الذي كفّ عن العمل.

أردف ماكس: هل يعكّر هذا مزاجك؟ وحريتك الغالية، أين هي؟

همست قائلة: أتريد أن تتفحص هذا النص، نعم أم لا؟

ــ لقد عكفتُ طويلاً على نصك، منذ زيارتك الأخيرة. كانت هذه وسيلتي للتفكير فيك أثناء غيابك.

ــ ماكس، أرجوك.

ــ مم ترجيني؟ من أن تراودني أحاسيس تجاهك حتى الآن؟ ما الذي يهمك في هذا الخصوص، إنها مشكلتي وليست مشكلتك.

اتجهت كيرا نحو باب المكتب، أدارت المقبض ملتفتة وراءها.

أمر ماكس: قفي مكانك، يا حمقاء! تعالي اجلسي حول ركن مكتبي، سأدلي برأيي في نظريتك، لعلي ارتكبت خطأً. إن فكرة أن يفوق التلميذ أستاذه شأناً لا تعجبني كثيراً، ولكن كان علي أن أواصل التدريس. من الجائز أن تكون لفظة

«آبوج» (apogee) في نصك قد تم الخلط بينها وبين لفظة «ناووس» (hypogee)، وهذا ما يغير المعنى طبعاً. فالنواويس هي تلك المدافن السابقة على القبور، التي شيدها المصريون والصينيون، مع الأخذ بفارق واحد: إذا كان الأمر يتعلق بغرف للموتى يتم الانتقال إليها عبر ممر، فالنواويس تشيد تحت الأرض وليس في قلب هرم أو في أي صرح آخر. لعلي لا أفيدك شيئاً جديداً بقولي هذا، إلا أن هنالك على الأقل أمراً ما ملائماً في هذا التأويل. هذه المخطوطة باللغة الغيزية يرقى تاريخها على الأرجح إلى الألف الرابع أو الخامس قبل الميلاد. وهذا ما يعود بنا إلى صلب تاريخ نشوء البشرية، إلى صلب ولادة الشعوب الآسيانية.

ــ بيد أن الساميين الذين قد يكونون في أصل هذا النص باللغة الغيزية لم يكونوا ينتمون إلى الشعوب الآسيانية. هذا إذا كانت ذكرياتي الجامعية ما تزال جيدة.

ــ كنت أشد انتباهاً أثناء الدرس مما افترضتُه! كلا، إن لغتهم كانَت، في الحقيقة، إفريقية ــ آسيوية ذات قربى بلغة البربر والمصريين. لقد ظهروا في صحراء سوريا إبان الألف السادس قبل الميلاد، لكنهم كانوا جنباً إلى جنب وبإمكان بعضهم أن يرووا تاريخ البعض الآخر. أما الذين

يسترعون اهتمامك في إطار نظريتك، فينتمون إلى شعب حدّثتك عنهم قليلاً في معرض كلامي، إنهم «بيلاجيو النواويس». في مطلع الألف الرابع، قدم بيلاجيون انطلقوا من اليونان واستقروا في إيطاليا الجنوبية، وقد تواجدوا في سردينيا. ثم تابعوا مسيرهم حتى الأناضول، ومنها ركبوا البحر ليؤسسوا حضارة جديدة في جزر وسواحل المتوسط. لا شيء يثبت أنهم لم يواصلوا عبورهم إلى مصر عبر كريت. ما أحاول قوله لك هو أن الساميين أو أسلافهم استطاعوا أن يرووا في هذا النص وبصورة جيدة جداً حدثاً يمت بصلة إلى بيلاجيي النواويس.

ــ هل تعتقد أن أحد هؤلاء البلاجيين قد تمكن من السير إلى النيل، حتى النيل الأزرق؟

ــ حتى أثيوبيا؟ أشك في ذلك، ولكن مهما يكن من أمر، فإن مثل هذه الرحلة لا يمكن أن تكون صنيع فرد واحد، بل عمل جماعة. هذه الرحلة، من الجائز أنها أُنجزت بنجاح على مدى جيلين أو ثلاثة أجيال. وبناء عليه، أنا أميل على الأرجح إلى أنها تمت في الاتجاه الآخر، من المنبع حتى الدلتا. قد يكون أحدهم حمل عدتك العجيبة إلى البيلاجيين. ينبغي أن تخبريني بالمزيد، يا كيرا، إن كنت تريدين حقاً أن أساعدك.

بدأت كيرا تذرع الغرفة جيئة وذهاباً:

ــ لأربعمائة مليون سنة خلت، كانت خمس قطع تشكل عدة وحيدة ذات خصائص مدهشة.

انتفض ماكس، قائلاً: إنه لأمر غريب، كيرا، اعترفي به. لم يكن أي كائن حي متطوراً تطوراً كافياً لصنع أية مادة. وأنت تعلمين جيداً، كما أعلم أنا، أن ذلك مستحيل.

ــ لو زعم «غاليليو» أنه سيتم يوماً إرسال مقراب لاسلكي إلى تخوم نظامنا الشمسي، لكانوا أحرقوه حياً قبل أن ينتهي من إتمام عبارته؛ ولو زعم آدر أن الإنسان سيمشي على القمر لحوّلوا مركبته الفضائية إلى عيدان كبريت قبل أن تغادر الأرض. وقبل عشرين عاماً من اليوم، كان جميع الناس يؤكدون أن لوسي هي أقدم سلف لنا، ولو أطلقت، في هذه الحقبة، فكرة أن أم البشرية عمرها عشرة ملاَيين سنة، لكانوا طردوك من منصبك في الكلية!

ــ لعشرين سنة مضت، كنت لا أزال أدرس!

ــ قصارى القول، لو طُلب مني أن أذكر جميع الأمور المستحيلة التي تحققت، لوجب أن نقضي ليالي عدة معاً لإعداد قائمة بكل ذلك.

ــ أمر واحد قد يملأني سعادة منذ الآن...

ــ إنك رجل فظ، يا ماكس! ما أنا متيقنة منه هو أن أحداً، قبل أربعة أو خمسة آلاف سنة قبل الميلاد، اكتشف هذه العدة. ولأسباب ما زلت عاجزة عن شرحها لنفسي، فإن الذي أو الذين عثروا عليها قرروا، لعدم تمكنهم من تحطيمها، فصل أجزائها. وهذا ما يبدو أن السطر الأول من المخطوطة يكشفه لنا.

«لقد فصلتُ جدول الذكريات، وعهدتُ إلى سلطات المستوطنات بالأجزاء التي تقترن بها...».

ــ إن «جدول الذكريات» يحيل، على الأرجح، دون الرغبة في مقاطعتك، إلى معرفة، إلى علم. وإذا استجبتُ للعبتك، فسأقول لك إنه ربما تم فصل هذه العدة لكي يحمل كل جزء منها معلومة إلى أقاصي العالم.

ــ ممكن، ولكن خاتمة الوثيقة لا توحي بذلك. بقي أن نعرف، لنكون مرتاحي البال، أين تناثرت هذه القطع. نحن نملك اثنتين منها، وعثر على ثالثة. ولكن ثمة قطع أخرى. والآن إسمع، يا ماكس، لم أتوقف عن التفكير في هذا النص الغيزي أثناء إقامتي في السجن، وبشكل أدق في كلمة وردت في القسم الثاني من العبارة «عهدت إلى سلطات المستوطنات». من هي برأيك هذه السلطات؟

ــ هم رجال واسعو المعرفة، رؤساء قبائل على

الأرجح. السلطة هي معلّم، إن شئت.

سألت كيرا بنبرة ساخرة: وهل كنتَ سلطتي؟

ـ شيء ما من هذا القبيل، نعم.

أردفت كيرا: هذه هي نظريتي إذاً، أيتها السلطة العزيزة. قطعة أولى ظهرت مجدداً في وسط بحيرة تقع بين أثيوبيا وكينيا. ووجدنا واحدة أخرى في بركان أيضاً، ولكن هذه المرة في جزيرة ناركوندام في أرخبيل «أندامان». وهذا ما جعل واحدة في الجنوب وأخرى في الشرق، وكان كل منهما على بعد بضع مئات الكيلومترات من نبع أو مصب أنهار كبرى. النيل والنيل الأزرق بالنسبة لواحدة منهما، و«ايرادادي» و«يانغ تسي» بالنسبة للثانية.

قاطع ماكس: ماذا إذاً؟

ـ لنسلّم لسبب ما ما زلت عاجزة عن شرحه، فُصلت هذه العدة عن قصد إلى أربع أو خمس قطع، وأودعت كل قطعة منها في إحدى نقاط المعمورة. فعُثر على واحدة في الشرق، وثانية في الجنوب، وثالثة تم اكتشافها أولاً قبل عشرين أو ثلاثين سنة...

ـ أين هي؟

ــ لستُ أدري. كفّ عن مقاطعتي باستمرار، ماكس، إن هذا لأمر مزعج، وأنا مستعدة لأن أراهن أن القطعتين الباقيتين هما في الشمال لواحدة منهما، وفي الغرب للثانية.

ــ لا أود خاصة أن أزعجك، أشعر بأني أوتّر أعصابك كفاية بهذه الطريقة، لكن الشمال والجنوب واسعتان جداً...

ــ حسناً، إذاً كان الغرض من ذلك هو الاستهزاء بي، فأنا أفضّل العودة.

نهضت كيرا متوثبة واتجهت للمرة الثانية نحو باب مكتب ماكس.

ــ قفي كيرا! كفّي عن التصرف كما لو أنك قائدة صغيرة، تباً لك، أنت كذلك مزعجة. هل هذا حديث منفرد أم حديث مشترك؟ هيا أكملي تفكيرك المنطقي، لن أعود أقاطعك.

عادت كيرا لتجلس بجوار ماكس. تناولت ورقة ورسمت خريطة فلكية لتصف الكرة السماوية ممثِّلة في غير اتقان الكتل القارية الكبرى.

ــ إننا على علم بالطرق الكبرى المتبعة إبان الهجرات الأولى التي عمرت الكوكب. خطّت جماعة أولى، منطلقة

من إفريقيا، طريقاً لها باتجاه أوروبا، فيما اتجهت ثانية ناحية آسيا، تابعت كيرا راسمة سهماً كبيراً على الورقة، وانقسمت عمودياً بمحاذاة بحر اندامان. تابع بعضها ناحية الهند، وعبرت برمانيا، تايلندا، كمبوديا، الفيتنام، إندونيسيا، الفليبين، غينيا الجديدة وببوازيا، حتى بلغت أستراليا. وقالت راسمة سهماً جديداً: وتسلّلت غيرها صوب الشمال مجتازة منغوليا وروسيا، ثم صاعدة مجرى نهر يانا باتجاه مضيق بيرينغ. واستدارت هذه الجماعة الثالثة، في عزّ الحقبة الجليدية، حول غرينلاند، وحاذت السواحل المجلدة، لتصل لخمسة وعشرين ألف سنة خلت، إلى الشواطئ المشمولة بين آلاسكا وبحر بوفور. ثم كان الهبوط إلى القارة الأميركية حتى مونتي فردي، حيث قدمت الجماعة الرابعة قبل اثني عشر ألف إلى خمسة عشر ألف سنة من الآن! لعل هذه الطرق نفسها التي سلكها هؤلاء الذين نقلوا هذه القطع قبل أربعة آلاف سنة. وتوجهت قبيلة من المرسلين نحو «اندانام» منهية رحلتها في جزيرة ناركوندام، بينما اتجهت قبيلة أخرى باتجاه منبع النيل حتى الحدود بين كينيا وإثيوبيا.

ــ هل تستنتجين من ذلك أن شعبين آخرين من هذه «الشعوب المرسلة» يُحتمل أنهما بلغا الغرب والشمال ليسيرا بالقطعتين الأخريين؟

ــ يقول النص: «عهدتُ إلى سلطات المستوطنات بالأجزاء التي تقترن بها». لقد انطلقت كل جماعة من المرسلين، إذ لم يكن من الممكن أن تتم مثل هذه الرحلة على مدى جيل واحد، انطلقت حاملة قطعة مماثلة لقلادتي إلى سلطات المستوطنات الأولى.

ــ فرضيتك معقولة، إلا أن هذا لا يعني أنها صحيحة. تذكّري ما علمتك إياه في الكلية، ليس لأن نظرية تبدو منطقية هي مع ذَلك معترف بصحتها.

ــ كما قلتَ لي ليس لأن الإنسان لم يعثر على شيء ما يعني أن هذا الشيء لا وجود له!

ــ كيرا، ماذا تنتظرين مني؟

أجابت: أن تقول لي ماذا كنتَ تفعل لو كنت مكاني.

ــ لن أمتلك أبداً المرأة التي أصبحت، لكن أرى أنني سأحتفظ دوماً بجزء من التلميذة التي كنتِهِ. هذا هو الواقع.

نهض ماكس وراح يجوب مكتبه بخطى واسعة.

ــ إنك تزعجيني بأسئلتك، يا كيرا، لا أدري ما سأفعله لو كنت مَكانك؛ لو كنتُ موهوباً لهذا النوع من الألغاز لتركت قاعات الجامعة المغبرة لأزاول مهنتي بدلاً من

تدريسها.

ـ كنتَ تخشى الثعابين، وتكره الحشرات وتتخوف من انعدام الرفاهية، هذا لا علاقة له بقدرتك على التفكير المنطقي، يا ماكس، كنت سلكت طريق البورجوازية أكثر من المعتاد، وهذا لا يعدّ عيباً.

ـ لأنال إعجابك ظاهرياً، نعم!

ـ كفّ عن ذلك وأجبني: ماذا كنت ستفعل لو كنت مكاني؟

ـ لقد كلمتني عن قطعة ثالثة اكتشفت قبل ثلاثين عاماً، سأبدأ محَاولاً أن أعرف أين وُجدت بالضبط. فإذا حدث ذلك في بركان على بعد حوالي عشرة أو مائة كيلومتر من نهر كبير إلى الغرب أو إلى الشمال، عندئذ سيكون على الأرجح معلومة جاءت لتدعم تفكيرك المنطقي. أما إذا تم اكتشافها على العكس في قلب منطقة «بوس» أو في وسط حقل للبطاطا الحلوة في الريف الإنكليزي، فنظريتك من الأجدر رميها في سلة المهملات وفي وسعك أن تبدئي كل شيء من الصفر. هذا ما كنتُ سأفعله قبل التوجه مجدداً لا أعلم إلى أين. كيرا، أنت تبحثين عن حصاة مخبأة في مكان ما على كوكب الأرض، هذه استحالة طوباوية!

ــ أن يقضي المرء حياته وسط واد قاحل للعثور على بقايا عظام قديمة مئات آلاف السنين، من دون الاستعانة بشيء آخر سوى حدسه، ألا يعدّ هذا وهماً طوباوياً؟ وأن يبحث عن هرم مطمور تحت الرمال وسط الصحراء، ألا يعد هذا وهماً طوباوياً؟ ليست مهنتنا، ماكس، إلا استحالة طوباوية جبارة، ولكنها حلم من الاكتشافات يدغدغ كل واحد منا، نسعى جميعاً إلى تحويله إلى حقيقة!

ــ لا داعي لجعل نفسك في هذا الوضع. لقد طلبت مني ماذا سأفعل لو كنت مكانك، فأجبتك. ابحثي أين اكَتشفت هذه القطعة الثالثة وستعلمين إن كنت قي الطريق السليم.

ــ وإذا كان الأمر كذلك؟

ــ عودي لمراجعتي وسنفكر معاً في الطريق الذي يجب أن تسلكيه لاستكمال حلمك. أما الآن، فينبغي أن أقول لك شيئاً قد يزعجك كذلك.

ــ ما هو؟

ــ إنك لا ترين الوقت يمضي بصحبتي، وإني لأبتهج لذلك، ولكن الساعة هي التاسعة والنصف مساء، وأشعر بجوع شديد، هل أرافقكِ إلى العشاء؟

نظرت كيرا، إلى ساعتها وانتفضت.

ـ جان، أدريان، تباً لكما!

كانت الساعة تكاد تشير إلى العاشرة ليلاً عندما دقت كيرا على باب شقة أختها.

سألتها جان، وهي تفتح الباب لها: ألستِ تنوين تناول الطعام؟

سألت كيرا شاخصة ببصرها من فوق كتف أختها: هل أدريان هنا؟

ـ لا أرى كيف يمكنه الوصول إلى هنا، إلا إذا كان يتمتع بموهبة الانتقال من بعد.

ـ كنت على موعد معه...

ـ وهل أطلعتِهِ على رمز البناية؟

ـ ألم يتصل هاتفياً؟

ـ وهل أعطيته رقم البيت؟

لزمت كيرا الصمت.

ـ لعله، في هذه الحالة، ترك لي رسالة في مكتبي، لكنني سارعت في الخروج منه، لأعدّ لك وجبة تجدينها... في صندوق القمامة. إنها مطبوخة جداً، لن تحقدي علي!

ــ ولكن أين أدريان؟

ــ كنت أظن أنه برفقتك، وأفكر أنكما قررتما تمضية الأمسية على غرار عاشقين.

ــ ولكن لا، كنتُ مع ماكس...

ــ من حسن إلى أحسن، وهل يمكنني أن أعرف لماذا؟

ــ من أجل استكمال أبحاثنا. جان، لا تبدئي، ولكن كيف لي أن أجده ثانية؟

ــ ناديه!

انقضّت كيرا على الهاتف وعثرت على رسالتي الشفوية. كان لدي مع ذلك شيء من حب الذات! تركتْ لي رسالة طويلة... «أنا متأسفة، ما شعرت بالوقت يمضي، تصرُّفي لا يغتفر لكنه مثير للاهتمام، لدي أشياء رائعة أرويها لك، أين أنت؟ أعرف أن الساعة تجاوزت العاشرة، ولكن أطلبني ثانية، أطلبني، أطلبني!» ثم رسالة ثانية، حيث بلغتني هذه المرة رقم أختها في بيتها. وثالثة بدت فيها منزعجة حقاً لعدم الاطلاع على أخباري. ورابعة كانت فيها متوترة الأعصاب قليلاً. وخامسة اتهمتني فيها بأن لي طبعاً سيئاً. وسادسة حوالي الساعة الثامنة صباحاً ورسالة أخيرة علقت خلالها السماعة دون التفوه بكلمة واحدة.

كنتُ قد نمت في فندق صغير بجزيرة سان لوي. ما إن ابتلعت فطوري حتى طلبت من سيارة تاكسي أن توصلني إلى أسفل منزل جان. كان الرمز يعمل على الدوام. لمحت مقعداً على الرصيف المقابل، فجلست عليه وقرأت صحيفتي.

بعد وقت قصير، خرجت جان من بنايتها، تعرّفت إلي واتجهت ناحيتي:

ــ لقد انشغل بال كيرا كثيراً!

ــ إذاً كنا اثنين!

قالت جان: أنا متأسفة، أنا أيضاً حانقة عليها.

أجبت على الفور: أنا لست حانقاً.

ــ إنك غبي فعلاً!

وعليه، سلمت علي جان وخطت بضع خطوات قبل أن تتجه ثانية نحوي.

ــ إن مقابلتها مع ماكس أمس كانت مهنية بحتة، لكني لم أقل لك شيئاً عنها!

ــ هل تفضلتِ بإعطائي رمز باب المدخل عندك؟

كتبته جان بسرعة على ورقة ومضت إلى عملها.

مكثتُ على هذا المقعد أقرأ صحيفتي حتى الصفحة الأخيرة، ثم أتيت إلى مخبز صغير في زاوية الشارع وابتعت بعض قطع الحلوى.

فتحت كيرا الباب لي وعيناها ما زالتا مغشيتين بالنعاس.

سألتني، وهي تفرك أجفانها: ولكن أين كنتَ؟

ــ كرواسان؟ خبز بالشوكولا؟ كلاهما؟

ــ أدريان...

ــ تناولي فطورك والبسي ثيابك. هناك قطار «أوروستار» ينطلق عند الظهيرة وباستطاعتنا أن ندركه.

ــ في الواقع، هناك قطار أوروستار كل ساعة، لنذهب إذاً... لمقابلة إيفوري.

أعدّت كيرا لنا قهوة وقصّت علي الكشف الذي عرضته على ماكس. وبينما كانت تشرح لي نظريتها، كنت أفكر مجدداً في تلك العبارة الصغيرة التي تفوه بها بائع العاديات بشأن المحلَّقات. ما كنت أعرف لماذا، غير أني وددت لو اتصل بــ أروان لأحدثه عنها. شرودي العابر لم يخفَ

على كيرا التي نبهتني إلى حفظ النظام.

قلتُ لها، متعلقاً بخيط حديثها: أ وتريدين أن أرافقك لرؤية هذا الأستاذ العجوز؟

ــ هل لك أن تخبرني أين قضيت الليل؟

أجبتُ بابتسامة عريضة ارتسمت على شفتي: أخيراً أستطيع ذلك، لكني لن أقوله لك.

ــ الأمر سيّان عندي تماماً.

ــ إذاً، لا تتكلّمنَّ عن ذلك... وإيفوري هذا هو الذي توقفنا عنده، أليس كذلك؟

ــ ما عاد مجدداً إلى المتحف، لكن جان أعطتني رقم هاتف منزله. سأطلبه.

اتجهت كيرا نحو غرفة أختها، حيث كان الهاتف، استدارت ناحيتي سائلة:

ــ أين نمت الليل؟

قَبِل إيفوري أن يستقبلنا في منزله. كان يقطن في شقة أنيقةَ في جزيرة سان لوي... على بعد خطوتين من فندقي. عندما فتح لنا الباب، عرفتُ في شخصه الرجل الذي ترجّل

عشية البارحة من سيارة تاكسي أثناء تصفّح كتابي على شرفة حانة. دخل بنا إلى غرفة استقباله واقترح علينا شاياً وقهوة.

ــ إنها لمتعة أن أراكما كليكما من جديد. كيف أستطيع أن أخدمكما؟

صارحته كيرا بالغاية من مجيئها، فسألته إن كان على علم بمكان اكتشاف القطعة التي حدثها عنها في المتحف.

ــ لو أخبرتني أولاً لماذا يهمّك ذلك؟

ــ أظن أني حققت تقدماً في شرح النص باللغة الغيزية.

ــ هذا ما يشغل بالي إلى أقصى الحدود. ماذا علمتِ؟

شرحت له كيرا نظريتها حول شعوب النواويس. كان بعض الرجال، في الألف الرابع أو الخامس قبل الميلاد وجدوا العدة في شكلها السليم وفكّكوها. وبحسب المخطوطة، تشكلت فِرق لحمل الأجزاء المختلفة إلى أقاصي الأرض.

هتف إيفوري: إنها لفرضية رائعة، ولعلها ليست عارية من المعنى. ما عدا ذلك، لا تملكني أية فكرة عمّا يمكن قد

حفّز الناس على هذه الأسفار الخطرة، بقدر ما هي بعيدة الاحتمال.

أجابت كيرا: لي فكرتي الصغيرة في صددها.

فاقترحت، معتمدة على ما علمته من ماكس، أن كل قطعة تؤشر إلى معرفة، إلى علم لا بد من العمل على اكتشافه.

ردّ عليها إيفوري: هنا، لا أوافقك الرأي، لا بل أميل إلى نقيض ذلك. فخاتمة النص تترك المجال واسعاً للتفكير بأن الأمر يتعلق بسر ينبغي الاحتفاظ به. إقرئي أنت بنفسك: «ولتبقَ مخفية ظلال اللانهاية».

وفيما كان إيفوري يناقش كيرا، ذكّرني «ظلال النهاية» ببائع العاديات المقيم في منطقة الــ «ماريه».

تمتمت قائلاً: ليس بالفعل ما تبينه المحلقات لنا هو الذي يشغل بالنا، بل بالأحرى ما لا تبينه ومع ذلك نخمّنه.

سأل إيفوري، ملتفتاً نحوي: عفواً؟

قلتُ له: الفراغ والزمان.

سألت كيرا: ماذا تقول؟

ـ لا شيء، فكرة لا علاقة لها بحديثكما، لكنها خطرت ببالي.

أردف إيفوري: وأين تعتقدان العثور على القطع الناقصة؟

ـ القطعتان اللتان في حوزتنا اكتشفتا في فوهة بركان على بعد عشرات الكيلومترات من نهر كبير. واحدة إلى الشرق، والأخرى إلى الجنوب، ويحدثني قلبي أن القطع الأخرى مخبأة في أماكن مماثلة إلى الغرب والشمال.

أصرّ إيفوري، وعيناه تبرقان: هل تحملان معكما هاتين القطعتين؟

اختلسنا أنا وكيرا النظر، فنزعت قلادتها، وأخرجت أنا القطعة التي كنت أحافظ عليها بحرص شديد في جيب سترتي الداخلي، ووضعناهما على الطاولة الواطئة. جمعتهما كيرا فاصطبغتا بهذا اللون الأزرق الزاهي الذي كان يفاجأنا دائماً، لكني لاحظت، هذه المرة، أن التلألؤ بدا أقل سطوعاً، كأن القطعتين فقدتا شيئاً من إشراقتهما.

هتف إيفوري: إنه لمذهل! أكثر من كل شيء كنت تصوّرته.

سألت كيرا، منشغلة البال: ماذا كنت تصورت؟

تلعثم إيفوري: لا شيء، لا شيء خاصاً، ولكن اعترفا أن هذه الظاهرة مدهشة، وبخاصة عندما نعرف عمر هذه العدة.

ــ والآن، هلا تفضلت بالإفصاح لنا عن المكان الذي اكتشفتَ فيه قطعتك؟

ــ إنها، للأسف، ليست لي. لقد تم اكتشافها قبل ثلاثين عاماً في جبال «الأند البيروفية»، ولكن لسوء حظ نظريتك، لم تكن في فوهة بركان.

سألت كيرا: أين وُجدتْ إذاً؟

ــ على بعد نحو مائة وخمسين كيلومتراً إلى شمال شرق بحيرة «تي تي كاكا».

سألتُ: وفي أية ظروف؟

ــ في بعثة قادها فريق من علماء الجيولوجيا الهولنديين، فقد صعدوا نحو منبع نهر الأمازون. اكتُشفت الأداة بسبب شكلها الفريد في كهف كان العلماء الباحثون محتمين فيه من رداءة الطقس. ما كانت الأداة لتلفت الانتباه أكثر مما لفتت، لو لم يكن رئيس البعثة شاهداً على الظاهرة نفسها التي شهدتماها. أثناء تلك الليلة العاصفة، تسببت بروق الصاعقة في بث نقاط ضوئية على جدار

خيمته. فأثّر فيه الحدث تأثيراً عميقاً بحيث لاحظ عند طلوع النهار أن القماشة أصبحت قابلة لنفوذ الماء، إذ كانت آلاف الثقوب قد تكوّنت فيها. ولما كانت العواصف متواترة في تلك المنطقة، أعاد مستكشفنا إجراء التجربة مرات عدة مستنتجاً أن الأمر لا يتعلق بمجرد حصاة بسيطة. فنقل القطعة معه وطلب القيام بدراستها عن كثب.

ـ هل من الممكن لقاء عالم الجيولوجيا هذا؟

ـ مات بعد أشهر قليلة جرّاء سقطة تافهة أثناء رحلة أخرى.

ـ أين هي القطعة التي اكتشفها؟

ـ في مكان ما آمن، لكن أين؟ لا أملك أي يقين.

ـ هذا لا يتلاءم مع البركان، إلا أنه في المقابل يقع فعلاً إلى الغرب.

ـ أجل، هذا أقل ما يمكن قوله.

ـ وعلى بُعد بضع عشرات الكيلومترات من أحد روافد الأمازون.

تابع إيفوري: إنه صحيح تماماً.

قالت: تحققت فرضيتان من أصل ثلاث، وهذا ليس فيه ما يضير.

ـ أخشى ألا يساعدك هذا كثيراً في اكتشاف القطع الأخرى. فاثنتان منها أُخرَجتا إلى النور عرضاً، أما في ما يتعلق بالثالثة فقد واتاكم الحظ كثيراً.

ـ لقد وجدتُ نفسي معلقة في الفراغ على ارتفاع ألفين وخمسمائة متر، حلّقنا فوق برمانيا مسفّين قرب سطح الأرض على متن طائرة لم تكن لتستحق هذا الاسم لولا توافر جناحين لها، فيما أوشكت على الغرق وكاد أدريان يقضي حتفه نتيجة إصابته بذات الرئة، إضافة إلى ذلك ثلاثة أشهر كنتُ خلالها سجينة في الصين، لستُ أرى حقاً أين ترى أنت شيئاً من الحظ في كل ذلك!

ـ ما كنت راغباً في التقليل من مواهبكما الخاصة، أتركيني أفكر بضعة أيام في نظريتك، سوف أستغرق من جديد في قراءاتي، فإن وجدتُ أي معلومة يمكنها أن تسهم في بحثكما فسأتصل بكما.

سجلّتْ كيرا رقم هاتفي على قطعة ورقة وقدمتها لإيفوري.

سأل هذا الأخير، وهو يشيعنا إلى الباب: أين تنويان

الذهاب؟

ـ إلى لندن، حيث علينا نحن أيضاً القيام ببعض الأبحاث.

ـ إذاً، أتمنى لكما إقامة سعيدة في انكلترا. وشيء أخير أقوله قبل مفارقتكما: لقد كنتما على حق قبل قليل، إذ لم يرافقكما الحظ البتة في أسفاركما، كما أنصحكما بالتزام أشد مظاهر الحذر، وبداية لا تكشفا لأحد هذه الظاهرة التي عاينتها قبل قليل.

غادرنا الأستاذ العجوز، استعدتُ حقيبتي من الفندق حيث لم تُبدِ كيرا أي تعليق على سهرة البارحة، ثم رافقتها إلى المتحفَ كي تعانق جان قبل رحيلنا.

لندن

ما كنتُ لأعيرهما أي انتباه على رصيف محطة الشمال، عندما زحماني من غير أن يعتذرا، ولكن حين توجهت إلى العربة ــ الحانة، لاحظت من جديد هذا الثنائي الغريب على الأقل. في بادئ الأمر، بدوا كأنهما في الحقيقة شاب إنكليزي وصديقته، وكلاهما محزوم باللباس على هذه الهيئة. بينما كنت أدنو من منضدة الشرب، تفرّس الشاب فيّ بطريقة غريبة، وصعد هو وصديقته سربة العربة باتجاه القاطرة. سيتوقف القطار لاحقاً في أشفورد حوالي خمس عشرة دقيقة. فاستنتجت أنهما ذاهبان للبحث عن أمتعتهما قبل نزولهما. إن القيّم على المطعم السريع ــ ونظراً لرتل خط الانتظار الذي لا نهاية له لبلوغه، كنت أتساءل ما الشيء السريع حقاً في هذا المطعم ــ نظر متنهداً إلى الشابين الحليقي الرأس يبتعدان.

قلت له، موصياً على فنجان قهوة: المرء بآدابه لا بزيّه وثيابه. ألعلهما جذابان، إذا ما ما تم التعرف إليهما؟

أجاب الخادم بلهجة مريبة: ربما، ولكن هذا الفتى أمضى فترة السفر كلها وهو يُعنى بأظافره بواسطة قاطعة حادة، فيما كانت الفتاة تنظر إليه وهو منهمك في العمل. لا

شيء يحفّز على الشروع في تبادل أطراف الحديث!

سدّدت ثمن المشروب عائداً إلى مكاني. وبينما كنت أدخل العربة التي تغفو كيرا بداخلها، صادفت مجدداً المهرجين اللذين كانا يجران أقدامهما قرب مقصورة الأمتعة حيث تركنا حقيبتينا. اقتربت منهما، فأومأ الشاب بإشارة إلى الفتاة التي استدارت سادّة الطريق في وجهي.

هتفت في وجهي بنبرة متعجرفة: محجوز.

قلت لها: أرى ذلك، ولكن محجوز لأي شيء؟

تدخل الفتى وأخرج من جيبه آلته القاطعة، مدعيّاً أنه لم يكن راضياً عن اللهجة التي خاطبتُ بها صديقته.

لقد أمضيت وقتاً طويلاً إبان شبابي في «لدبروك غروف»، حيث كان يقطن أفضل صديق لي في المدرسة، وخبرت الأرصفة المخصصة لبعض العصابات، ومفارق الطرق المحظور علينا اجتيازها، والمقاهي التي لا يستحسن ارتيادها للعب بالــ «بَيبي فوت». كنت مدركاً أن هذين المهرجين راغبان في المشاجرة. فلو تحركتُ، وثبت الفتاة على ظهري لتثبيت ذراعيّ بينما انهال صديقها عليّ بالضرب. وحالما يتمكنان من طرحي أرضاً، سيقضيان علي بركلات في ضلوعي. ما كانت انكلترا التي عرفتها في

شبابي تتألف وحسب من حدائق مغطاة بالعشب الأخضر، وما كانت الأزمنة، من هذا القبيل، قد طرأ عليها تغيير كبير. ومن الصعب دائماً أن يترك المرء غريزته تتصرف عندما يتبنى له مبادئ في الحياة، لذا حوّلت صفعة مهيبة إلى الفتاة فتمددت في الحال فوق الأمتعة ممسكة بخدها. عندها وثب الفتى أمامي مذهولاً، ناقلاً شفرته من يد إلى أخرى. كان الأوان قد حان لنسيان المراهق الكائن فيّ لإخلاء مكانه للراشد الذي يفترض أني صرتُه.

قلتُ له: عشر ثوان، في عشر ثوان سأصادر قاطعتك الحادة، وإذا التقطتها ستنزل عارياً من هذا القطار. هل يستهويك هذا أم تضعها في جيبك ونتوقف هنا؟

نهضت الفتاة غاضبة عادت تتحداني، كان صديقها متوتر الأعصاب أكثر فأكثر. صاحت: إطعن هذا الأبله، اغرزها فيه، يا توم!

ـ توم، لا بد أن تبدي مزيداً من السيطرة على صديقتك، ردّ هذه الآلة قبل أن يُجرح واحد منا.

سألت كيرا وقد وصلت وراء ظهري: هل لي أن أعرف ماذا يجري؟

أجبتها، مرغماً إياها على التراجع: مشاجرة صغيرة.

ـ أتريد أن أطلب المساعدة؟

لم يكن الشابان يأملان وصول نجدة. تباطأ القطار، وبتُّ أرى من الباب رصيف محطة أشفورد. جذب توم صديقته مهدداً إيانا دائماً بقاطعته الحادة. بقينا أنا وكيرا بلا حراك، لا نفارق ببصرنا الآلة التي كانت تتمايل إزاء أعيننا.

قال الفتى: هيا، أغربا عنا!

فور توقف القطار، اندفع مسرعاً ناحية الرصيف مطلقاً ساقيه للريح مع صديقته.

بقيت كيرا صامتة، وأجبرنا الركاب الذين كانوا يرغبون في النزول على التدافع. فعدنا إلى مكانينا، وتحرك القطار من جديد. أرادت كيرا أن أخطر الشرطة، لكن الوقت كان قد تأخر جداً، وهكذا اضطر الثنائي الوغد إلى الانفضاح، وكان هاتفي الخلوي داخل حقيبتي. نهضت للتثبت من أنه ما زال فيها. وساعدتني كيرا في تفحص أمتعتنا، كان متاعها غير ممسوس، أما متاعي فكان مفتوحاً، وبدا كل شيء في موضعه، باستثناء بعض الفوضى. تناولتُ هاتفي وجواز سفري ودسستهما في سترتي. لدى بلوغنا لندن، كانت الحادثة قد طواها النسيان.

أحسست بفرح غامر أمام باب بيتي الصغير، وقفزت

من نفاد الصبر عندي، وأنا أفكر في الدخول. فتشت عن مفاتيحي في جيوبي، كنت مع ذلك متأكداً من أنها معي حين مغادرة باريس. لحسن الحظ لمحتني جارتي من خلال شباكها، فعرضتْ علي المرور عبر حديقتها لأن العادات القديمة لا سبيل إلى زوالها.

قالت لي: أنت تعرف أين السلم، أنا في زحمة الكي، فلا تشغل بالك، سأغلق الباب ثانية حين أفرغ من عملي.

شكرتها وعبرت بعد لحظات من فوق سياج من القضبان المتشابكة. وبما أني لم أصلح الباب الخلفي ــ ربما كان من المستحسن أن أرفض إصلاحه ــ ضربتُ ضربة خفيفة خاطفة على المقبض ودخلت أخيراً. كنت سأفتح الباب لكيرا التي تنتظرني في الشارع.

أمضينا بقية بعد الظهر ونحن نتسوق في الحي. لقد اجتذبت بسطة بائع خضر وفاكهة جوال انتباه كيرا، فملأت سلة منها كافية للصمود أمام حصار كامل. ولكن للأسف لم يتسع لنا الوقت هذا المساء لتناول العشاء.

كنتُ منهمكاً في المطبخ، مقطّعاً بدقة شديدة الكوسى قطعاً صغيرة، حسبما طلبت مني كيرا، بينما راحت هي تعدّ الصلصة رافضة أن تعطيني وصفة الطبخ. رن الهاتف، ليس هاتفي الخلوي بل خط البيت. تبادلنا أنا وكيرا

النظرات منشغلي البال. قصدتُ غرفة الاستقبال ورفعت سماعة الهاتف.

ــ صحيح إذاً، أنكما عدتما!

ــ لقد وصلنا قبل قليل، عزيزي والتر.

ــ شكراً لتلطفك بإخطاري بوصولك، حقاً إن ذلك لظرف منك.

ــ بالكاد ترّجلنا من القطار...

ــ مع ذلك من المعيب حقاً أن أعلم بوصولك من خلال مستخدم جوال في شركة «القطار الفيدرالي السريع»، أنت لست «توم هانكس» على ما أعلم!

ــ أمستخدم جوال هو من أخطرك بعودتنا؟ يا له من أمر غريب...!

ــ تصوّر أنه أودع في الأكاديمية ظرف مرسل إلى عنوانك، ولكن ليس إلى عنوانك كاملاً، فقد كتب اسم صديقتك على المغلف، وإلى الأسفل: «على همتك». أطلب في المرة القادمة، أن يرسلوا بريدك إلي مباشرة. وموضّح أيضاً: «الرجاء التسليم بأقصى السرعة». وإذ أمسيت ساعي بريدك المعتمد، فهل تتمنى أن أوصل لك هذه

الرسالة إلى منزلك؟

ــ لا تقطع الخط، أتكلم مع كيرا!

سألت: مغلّف باسمي، مرسل إلى أكاديميتك؟ ما هذه القصة؟

لم أكن أعرف المزيد، فسألتها إن كانت راغبة في أن يحمله والتر إلينا، حسبما عرض ذلك ببالغ اللطف.

شبّرت لي كيرا بيديها، فلم أجد مشقة في فهم أن ذلك يعتبر آخر همومها. كان والتر، عن يساري، يهمس في أذني، وكيرا، عن يميني، تتوعدني، فيما أنا كنت بينهما في حيرة. ولما كان لا بد من الحسم، رجوتُ والتر أن يتكرّم بانتظاري في الأكاديمية، إذ ليس وارداً أن أطلب منه اجتياز لندن، فسآتي لاستلام الرسالة. أقفلت الهاتف وأنا مرتاح لعثوري على تسوية مدهشة، لكني لما استدرت ناحية كيرا، أدركتُ أنها لم تكن تشاطرني حماسي. ووعدتها بأني لن أحتاج إلى أكثر من ساعة للقيام بالمهمة ذهاباً وإياباً.

لبست معطفي الواقي من المطر، تناولت المفتاح الاحتياطي من درج المكتب وصعدت في دربي متجهاً نحو الموقف الصغير حيث كانت تركن سيارتي.

عندما جلست فيها، عاودتني رائحة الجلد القديم المثيرة. وبينما كنت خارجاً من الموقف، اضطررت أن أضغط بقسوة على دواسة الفرملة تجنباً لدهس كيرا الواقفة أمام مصابيحي منتصبة كالوتد. استدارت حول المبراد (الكالندر) وجلست على المقعد بجواري.

قالت، صافقة الباب: ربما كان ممكناً أن تنتظر الرسالة يوم غد. ألا تعتقد ذلك؟

وضّح والتر: لقد كُتب على المغلف «عاجل جداً...» بالقلم الأحمر، غير أني أستطيع تماماً أن أذهب بمفردي، فأنتِ لست مجبرة...

ــ هذه الرسالة موجهة إلي، وأنت تتحرق شوقاً إلى رؤية صديقك، هيا اندفع مسرعاً.

فقط في أمسيات أيام الاثنين، يمكن التجول حسب الأصول تقريباً في شوارع لندن. لم نكد نحتاج إلا إلى عشرين دقيقة للوصول إلى الأكاديمية، حتى بدأ المطر ينهمر ونحن في الطريق، إحدى زخات المطر الغزيرة التي غالباً ما تتساقط على العاصمة. كان والتر ينتظرنا أمام الباب الرئيسي، وقد تبلل الجزء الأسفل من بنطاله وسترته كذلك، وأظهر استياءه المعهود في أيام الشدة. انحنى نحو الباب وقدّم الرسالة لنا. لم يكن في مقدوري حتى أن أقترح

عليه مرافقته إلى بيته، لأن سيارتي، وهي من طراز الـ «كوبيه»، لا تضم سوى مقعدين. مع ذلك، كنا قد قررنا الانتظار ريثما يجد سيارة تاكسيٍ. ما إن مرت واحدة حتى سلّم علي والتر ببرود متجاهلاً كيرا وانصرف. وجدنا نفسينا جالسين في هذه السيارة، تحت وابل من المطر، والمغلف موضوع فوق ركبتي كيرا.

ــ ألا تفضينه.

تمتمت: إنه خط ماكس.

ــ لا بد أن هذا الشخص يتمتع بتبادل الخواطر!

ــ لماذا تقول هذا الكلام؟

ــ أشتبه في أنه رأى أننا على وشك إعداد عشاء صغير على غرار عاشقين، وأنه انتظر اللحظة التي أصبحت فيها صلصتك كما يجب تماماً، ليبعث إليك برسالة ويفسد سهرتنا.

ــ ليس هذا بغريب...

ــ ربما، ولكن اعترفي أنه لو أزعجتنا إحدى عشيقاتي القديمات، لما كنتِ واجهت الأمر بالقدر نفسه من الفكاهة.

مررت كيرا يدها على المغلف سائلة:

ـ وأية عاشقة قديمة قد تتمكن من الكتابة إليك؟

ـ ليس هذا ما قلتُه.

ـ أجب عن سؤالي!

ـ ليس لي عشيقات قديمات!

ـ هل كنت بتولاً عندما تلاقينا؟

ـ ما أريد قوله هو أني، وأنا في الكلية، لم أضاجع أياً من عشيقاتي!

ـ إنها لرهيفة هذه الملاحظة الصغيرة.

ـ هل تفضّين هذا المغلف، نعم أو لا؟

ـ قلتَ: «عشاء على غرار عاشقين»، هل أحسنتُ السماع؟

ـ من الجائز أني قلت هذا.

ـ هل أنت مغرم بي، أدريان؟

ـ افتحي هذا المغلف، كيرا!

ـ سأعتبر هذا موافقة. خذني إلى بيتك، ولنصعد مباشرة إلى غرفتك، إني أتحرق شوقاً إليك أكثر من

تشوقي إلى ملء مقلاة كوسى.

ــ سأعدّ هذا مجاملة منك! وهذه الرسالة؟

ــ سننتظر صباح غد وماكس أيضاً.

أيقظت هذه السهرة الأولى في لندن الكثير من الذكريات، فبعدٍ ممارسة الحب نمت. كانت درفات الغرفة مفتوحة قليلاً، وكنتُ جالساً أنظر إَليك مصغياً إلى تنفسك الهادئ. كان في وسعي أن أرى على ظهرك ندباً لن يمحوها الزمن أبداً. فلمستها لمساً خفيفاً بأصابعي، وأثارت حرارة جسدك الرغبة الخالية من كل شائبة كما هي الحال في متع المساء الأولى. أخذت تئنين فنزعتُ يدي، لكنك أمسكت بها سائلة بصوت خنقَه النعاس لماذا قطعت هذه الملامسة اللطيفة. عندها وضعتُ شفتي فوق بشرتك إلا أنك كنت قد نمتِ ثانية فأسررتُ إليك أني أحبك.

فتمتمتِ: كذلك أنا.

كان صوتك بالكاد يسمع، لكن هاتين الكلمتين كانتا كافيتين لأن ألحق بك في ليلك.

لم نر، وقد أرهقتنا التعب، الصباح يولّي، وأوشك النهار أن ينتصف عندما فتحتُ عيني. كان مكانك في السرير خاوياً، فلحقت بك إلى المطبخ. كنتِ ارتديت أحد قمصاني

ولبست جوربين قصيرين وجدتهما في أحد أدراجي. ومن تلك الاعترافات التي بحنا بها عشية البارحة، تولّد ارتباك، حياء مؤقت أسهم في التباعد بيننا. سألتك إن كنت قرأت رسالة ماكس. بنظرك، أومأت لي بأنها فوق الَطاولة، والمغلّف لا يزال على حاله. لا أدري ما السبب. لكنني وددتُ في هذه اللحظة لو أنك ما فضتتها البتة. إذاً لكنتُ رتّبتها بطيبة خاطر في درج مَن الأدراج، ونسيناها هنالك. لم أكن أرغب أن يتواصل مجدداً هذا السباق المحموم، كنت أحلم بتمضية الوقت معك، وحدنا في البيت، من دون أي سبب، للخروج عدا التسكع على امتداد نهر التايمز، والبحث عن الأوكازيونات عند تجار السلع المستعملة في «كَمْدن»، والتلذذ بالتهام الفطائر في أحد مقاهي نوتن هيل الصغيرة. أما أنتِ ففتحتِ المغلّف ولم يعد من أهمية لكل ذلك.

ثم بسطت الرسالة وقرأتها لي. ربما لتبرهني لي منذ البارحة أن لَا شيء لديك تخفينه علي.

كيرا،

بحزن عشتُ زيارتك إلى المطبعة، وأعتقد أننا، مذ تلاقينا في التويلري، تأججت فيّ مجدداً المشاعر التي ظننتُها قد همدت.

لم أبح لك قط كم كان فراقنا مؤلماً، وكم حزّ في نفسي رحيلك، لزومك الصمت، غيابك عني، وذلك ربما أكثر من أن أعرفك سعيدة، لا مبالية بما سبق أن خبرناه. ولكن كان لا بد من الاعتراف بواقع الحال، ما دمت امرأة يكفي مجرد حضورها أن يحمل من السعادة أكثر مما يستطيع المرء أن يتوقعه، فأنانيتك وغيابك يتركان فراغاً إلى الأبد. وقد انتهى بي الأمر إلى أن أدرك أنّ من العبث التفكير في احتجازك، إذ لا يقوى أحد على ذلك، إنك تحبين بصدق وإخلاص، ولكن تحبين لبعض الوقت. سبق أن كانت بعض مواسم السعادة مُرْضية، حتى وإن طال زمن الندوب بالنسبة إلى أولئك الذي هجرتِهم.

أُفضل ألا نتلاقى أبداً، فلا تطلعيني بعد اليوم على أخبارك، ولا تقومي بزيارتي حينما تمرّين بباريس. إنه ليس أستاذك الذي يأمرك بذلك، وإنما صديقك الذي يطلبه منك.

لقد فكرتُ ملياً في محادثتنا. كنت تلميذة لا تطاق، ولكن سبق أن قلت لك إنك صاحبة غريزة قوية، وهي سمة قيّمة في مهنتك. أنا فخور بالمسار الذي أنجزته، حتى لو لم يكن لي يد فيه، ذلك أن أي أستاذ لكان اكتشف طاقة عالمة الآثار الكامنة فيك والتي أصبحتِهِ في ما بعد. والنظرية

التي عرضتها علي لا تبدو مستحيلة، لا بل لدي رغبة في تصديقها، ولَعلك تقتربين من حقيقة ما زال فحواها يغيب عن بالنا. أسلكي طريق بيلاجيي النواويس، من يدري إن كان يوصلك إلى مكان ما.

حالما غادرتُ مشغلي، عدت إلى بيتي. فتحت مجدداً كتباً طويتها منذ سنين، وأخرجت دفاتري «المؤرشفة» وراجعت ملاحظاتي المدونة. أنت تعلمين كم أنا مهووس، وكم كل شيء هو مصنّف ومرتب في مكتبي حيث قضينا أوقاتاً ممتعة جداً. وجدتُ في دفتر صغير أثر رجل قد تكون أبحاثه مفيدة لك. إنه كرّس حياته لدراسة هجرات الشعوب الكبرى، وكتب العديد من النصوص حول الآسيانيين، حتى لو أنه لم يعمد إلا إلى نشر النزر القليل منها، مكتفياً بإلقاء محاضرات في بعض القاعات المظلمة، ومنها محاضرة ألفيتُني فيها منذ زمن بعيد. هو بدوره كانت لديه أفكار مجددة بشأن الأسفار التي قامت بها حضارات حوض المتوسط الأولى. وكان له عدد لا يستهان به من الخصوم، ولكن في مجال نشاطنا، من ليس له خصوم؟ ثمة قدر كبير من الحسد بين زملائنا. هذا الرجل الذي أحدثك عنه علامة بارزة أكن له احتراماً لا حدود له. أقصديه، يا كيرا. فقد بلّغني أنه اعتزل في يل، وهي جزيرة صغيرة في أرخبيل شتلاند في الطرف الشمالي من اسكوتلندا. يبدو أنه يعيش

هناك منزوياً ويرفض الكلام على أعماله مع أي كان، إنه امرؤ جريح، ولكن سحرك ربما ينجح في إخراجه من جحره وتحفيزه على الكلام.

هذا الاكتشاف الشهير الذي تصبين إليه منذ البداية، والذي تحلمين بتسميته باسمك هو، في نهاية المطاف، في متناول يدك. إني واثق بك، ستصلين إلى مراميك.

أتمنى لك حظاً سعيداً.

ماكس

طوت كيرا الرسالة ورتبتها في مغلفها، ثم نهضت، وضعت أواني فطورها داخل المجلى وفتحت الحنفية.

سألتني، مديرة لي ظهرها: هل تود أن أعدّ لك فنجان قهوة؟

لم أجبها.

ــ أنا متأسفة، أدريان.

ــ أن يكون هذا الرجل ما زال مشغوفاً بك؟

ــ لا، بل لما يقوله عني.

ــ هل تتمثلين نفسك في المرأة التي وصفها؟

ـ لست أدري، ربما لم أعد أتمثّلها الآن، لكن صدقه يوحي إلي بأن كلامه لا بد أن ينطوي على أساس من الحقيقة.

ـ ما يلومك عليه هو أن يجد من الأسهل عليك الإساءة إلى من يَحبك من أن يشوّه صورتك.

ـ أنت أيضاً تفكر أني أنانية؟

ـ لست أنا من كتب الرسالة، ولكن أن يستأنف المرء حياته قائلاً عن نفسه إنه ما دام في حال جيدة، سيكون الآخر كذلك في حال جيدة، وإن كل شيء ليس إلا مسألة وقت، لعلّ هذا دليل جبن، لن أشرح لك أنت الاختصاصية في الإناسة (علم الإنسان) غريزة بقاء الإنسان الرائعة في الحياة.

ـ الصفاقة لا تلائمك.

ـ أنا إنكليزي، وأتصور أنها في موروّثاتي. لنغير الموضوع، من فضلك. سأواصل المسير حتى وكالة السفريات، لي رغبة في التنزه. تريدين الذهاب إلى يل، أليس كذلك؟

قررت كيرا مرافقتي. كان الرحيل قد حدد في يوم غد. سنتوقف في غلاسكو قبل الهبوط في صمبور، الجزيرة

الرئيسية في أرخبيل شتلاند. ثم يوصلنا زورق عبور إلى يل.

ذهبنا وبطاقتانا معنا للقيام بجولة في«كينغز رود». إني معتاد على الحي، يسرني أن أصعد في هذه الجادة التجارية حتى «سدني ستريت» لأتنزه لاحقاً في مسالك «تشلسي مارمرز ماركت». كنا هناك تواعدنا مع والتر. هذه النزهة الطويلة فتحت شهيتي إلى الطعام.

بعدما درسنا بدقة لائحة الوجبات، وطلبنا «همبرغر» من طبقتين مال والتر على أذني:

ــ لقد سلمتني الأكاديمية شيكاً لك، تعادل قيمته رواتب ستة أشهر.

سألته، لماذا؟

ــ هذا هو النبأ السيئ. نظراً لغيابك المتمادي، لن يكون منصبك إلا فخرياً، فأنت لست مثبتاً.

ــ هل أنا مطرود؟

ــ لا، ليس بالضبط. لقد دافعتُ عن قضيتك بأحسن ما استطعت من الجهد، غير أننا في صلب مرحلة تقليص الميزانية، وقد أُنذر مجلس الإدارة بإلغاء كل النفقات غير

المجدية.

ـ هل يتوجب علي أن أستنتج أني في نظر المجلس نفقة غير مجدية؟

ـ إن موظفي الإدارة لا يعرفون حتى ملامح وجهك، فأنت لم تأت عملياً إلى الأكاديمية منذ عودتك من التشيلي، عليك أن تتفَهّمهم.

بدت هيئة والتر أشد تجهماً أيضاً.

ـ وماذا بعد؟

ـ لا بد أن تخلي مكتبك، فقد طُلب مني أن أعيد أمتعتك إلى بيتك، لأن أحدهم سيشغله اعتباراً من الأسبوع القادم.

ـ هل عينوا منذ الآن خلفاً لي؟

ـ كلا، ليس هذا ما جرى بالضبط، لنقل إنهم أسندوا الصف الذي كان مخصصاً لك إلى أحد زملائك المداومين بلا انقطاع، فهو يحتاج إلى مكان لإعداد دروسه وتصحيح مسابقاته واستقبال طلابه... مكتبك يلائمه كل الملاءمة.

ـ هل لي أن أعرف من هو هذا الزميل اللطيف الذي يطردني ما إن هممتُ بإدارة ظهري؟

ــ لا تعرفه، إنه لا يعمل في الأكاديمية إلا منذ ثلاثة أعوام.

أدركت من عبارة والتر الأخيرة أن الإدارة تدّفعني اليوم ثمن الحرية التي أفرطت في استغلالها. كان والتر مقهوراً، وكيرا تتحامى نظرتي. أخذت الشيك عاقداً العزم على قبض قيمته منذ اليوم. كنت غاضباً ولم يكن في وسعي أن انحي باللائمة إلا على نفسي.

تمتمت كيرا: لقد هبت «الشمال» حتى على انكلترا.

هذا التلميح الطفيف المر والحلو إلى الريح التي طردتها من تنقيباتها في أثيوبيا كان يشير إلى أن التوتر الناجم عن نقاشنا الصباحي لم يكن قد زالت حدته كلياً.

سألني والتر: ماذا تنوي عمله؟

ــ إذاَ، بما أنني عاطل عن العمل، سنتمكن من السفر.

كانت كيرا تعارك قطعة لحم تقاومها، وأعتقد أنها تُغير بطيبة خاطر على بورسلين صحنها تحاشياً منها للمشاركة في حديثنا.

قلت لوالتر: وردتنا أخبار من ماكس.

ــ ماكس؟

ــ صديق قديم لصديقتي الصغيرة...

انزلقت شريحة اللحم المشوي تحت نصل سكين كيرا، واجتازت مسافة لا يستهان بها قبل أن تسقط بين ساقي خادم.

قالت: لم أكن أحس بجوع شديد، فقد تناولت فطوري متأخرة.

سأل والتر: أهي الرسالة التي سلّمتك إياها البارحة؟

ابتلعت كيرا جرعة من الجعة عن طريق الخطأ، فسعلت مثيرة ضجيجاً عنيفاً.

قالت، وهي تمسح فمها: لكن تابعا، تابعا حديثكما، وتصرفا كما لو أني غير موجودة هنا...

ــ نعم، إنها الرسالة موضوع البحث.

ــ وهل لها صلة بمشاريع سفرك؟ أذاهب أنت بعيداً؟

ــ إلى شمال اسكوتلندا، في شتلاند.

ــ أعرف المكان جيداً، كنت أقضي فيها عطلتي في شبابي، فقد كان والدي يذهب بنا مع العائلة إلى والساي. إنها أرض قاحلة، لكنها رائعة صيفاً. لا يخيّم عليها الحرّ

أبداً، وأبي كان يمقت الحر، أما الشتاء فهو قارس، لكن أبي كان يعشق الشتاء، على الرغم من أننا لم نقصدها قط في هذا الفصل. إلى أي جزيرة تتوجهان؟

ــ إلى يل.

ــ زرتها أيضاً، وفي الطرف الشمالي منها يقوم البيت الأكثر سكنى بالأشباح في المملكة المتحدة. إنه «ويندهاوس»، عبارة عن بيت خَرِب تلذعه الرياح كما يشير إلى ذلك اسمه. ولكن لماذا إلى هناك؟

ــ سنزور أحد معارف ماكس.

ــ آهِ، نعم، وبمَ يتعاطى هذا الرجل؟

ــ إنه مُحال على التقاعد.

ــ أفهم بالتأكيد أنكما تذهبان إلى شمال اسكوتلندا للقاء صديق متقاعد لصديق قديم لكيرا. لا بد في الأمر من مغزى. أرى أنكما غريبا الأطوار حقاً، ألا تخفيان علي شيئاً؟

فجأة سألت كيرا: أكنت تعرف أن لأدريان طبعاً سيئاً، يا والتر؟

أجاب: أجل، كنت قد لاحظت ذلك.

ـ إذاً، إن كنتَ على علم بذلك، فنحن لا نخفي عليك شيئاً آخر.

طلبتْ مني كيرا مفاتيح البيت، إذ أنها فضلت العودة سيراً على قدميها، تاركة لنا أن ننهي، كرجال، هذا الحديث الشيّق. حيّت والتر وخرجت من المطعم.

ـ لقد تشاجرتما، هل هذا صحيح؟ ماذا فعلتَ أيضاً، أدريان؟

ـ مع أن ذلك لا يمكن تصديقه، لماذا ينبغي أن تكون غلطتي أنا؟

ـ لأنها هي التي غادرت المائدة ولست أنت. هذا هو السبب. إذاً، أنا أسمعك، ماذا فعلتما كذلك؟

ـ لا شيء إطلاقاً، تباً لك، ما عدا سماع الخطاب الغرامي للشخص الذي كتب إليها هذه الرسالة.

ـ هل قرأت الرسالة الموجهة إليها؟

ـ هي التي قرأتها لي.

ـ إذاً، هذا يثبت على الأقل استقامتها، بينما كنتُ أعتقد أن ماكس هذا هو صديق لها؟

ـ صديق كانت معه وهو عارٍ تماماً في فراشه لبضعة أعوام خلت.

ـ قل لي، يا عزيزي، لم تكن أنت كذلك بتولاً عندما التقيتها. أو تريد أن أذكّرك بما بحتَه لي؟ زواجك الأول، طبيبتك، وصاحبتك ذات الشعر الأحمر التي كانت تخدم في ملهى!

ـ لم أكن قط مع امرأة حمراء الشعر تخدم في ملهى!

ـ آه، حسناً! إذاً كنت أنا. لا بأس، لا تقل لي إنك أبله إلى هذا الحد لتغار من ماضيها؟

ـ إذاً، لا أقوله لك!

ـ لكن بارك أخيراً ماكس هذا بدلاً من إبداء الكره له.

ـ لا أرى في الحقيقة لماذا علي أن أفعل ذلك.

ـ لكن لو لم يكن غبياً إلى هذه الدرجة بحيث أنه تركها ترحل، لما كنتما اليوم مجتمعين معاً.

نظرتُ إلى والتر وهو منشغل البال، ما كان تفكيره خالياً بمجمله من معنى.

ـ حسناً، قدّمْ لي حلوى ثم توجه للاعتذار منها. يا

لشدة طيشك ورعونتك!

لا بد أن القشدة المخفوقة بالشوكولا كانت لذيذة المذاق، لذا توسل إلي والتر أن أترك له الفرصة لتناول واحدة أخرى. أعتقد أنه كان يحاول تمديد الوقت الذي نقضيه معاً ليحدثني عن الخالة إيلينا أو بالأحرى أن أحدثه عنها. كان مصمماً على دعوتها لقضاء بضعة أيام في لندن، ويريد أن يعلم إن كانت هي، بحسب رأيي، ستقبل دعوته. ما كنتُ، على ما أذكر، رأيت خالتي يوماً تغامر إلى أبعد من أثينا. ولكن لم يكن شيء ليثير دهشتي، إذ كان كل شيء، منذ بعض الوقت، يُعدَّ جزءاً من نطاق الممكن. مع ذلك أوصيت والتر أن يتصرف برقة ولطف. تركني أن أغدق عليه ألف نصيحة ونصيحة وانتهى الأمر به إلى البوح، وهو شبه مرتبك، أنه سبق وعرض عليها الطلب. فأجابته أنها تحلم بزيارة لندن. وقد ارتأى الاثنان أن يتم تنظيم هذا السفر في نهاية الشهر.

ــ لماذا إذاً هذا الحديث ما دمتَ تعرف الجواب مسبقاً؟

ــ لأني أردت التأكد من أنك لن تستاء. فأنت الرجل الوحيد في العائلة، ومن الطبيعي أن أطلب السماح منك بمعاشرة خالتك.

ــ لا يبدو لي أنك، في الحقيقة، طلبت ذلك مني، أو

غرب هذا عن بالي.

ــ لنقل إنني جسست نبضك. عندما سألتك لمعرفة مدى حظوظي، أو أحسست بأي معاداة في إجابتك...

ــ أكنتَ تخليت عن مشاريعك؟

اعترف والتر: كلا، ولكني كنت سأتوسل إلى إيلينا كي تقنعك بعدم إضمار الحقد لي. أدريان، كنا لبضعة أشهر فقط، بالكاد نعرف بعضنا بعضاً، ومنذئذ تعلقت بك ولا أودّ أن أعرض نفسي لخطر الإساءة إليك، فصداقتنا ثمينة للغاية.

قلتُ له محدقاً إلى بياض عينيه: والتر.

ــ ماذا؟ أ وتظن أن علاقتي بخالتك لا تليق بي، هل هذا ما تعتقده؟

ــ أرى من الروعة بمكان أن تجد خالتي أخيراً، في صحبتك، هذه السعادة التي ترقّبتها طويلاً. لقد كنتَ على حق في هيدرا، لو كنتَ تكبرها بعشرين عاماً لما وجد أحدهم ما يعترض عليه، لنكفّ عن الارتباك لهذه الأحكام المسبقة المنافقة الجديرة بالبرجوازية الريفية.

ــ لا تلومَّن الريف، أخشى ألا ينظر الناس إلى ذلك

بعين الرضى في لندن أيضاً.

ــ لا شيء يضطرك إلى أن تتعانقا بحميمية تحت نوافذ مجلس إدارة الأكاديمية... مع أن الفكرة لن تزعجني، لأقول لك الحقيقة كاملة.

ــ إذا منحتني موافقتك؟

ــ ما كنتَ في حاجة إليها!

ــ على نحو ما، بلى، لسوف تفضل خالتك أن تكون أنت الذي تكلم أمك عن مشروعها الصغير بالسفر... وقد وضّحت في النهاية: على شرط أن توافق شخصياً.

رنّ هاتفي في جيبي، وظهر رقم مسكني على الشاشة. كانت كيرا قد عيل صبرها ولم يكن عليها إلا البقاء معنا.

سأل والتر بقلق: ألا ترفع السماعة؟

ــ كلا، أين توّقف بنا الحديث؟

ــ عند المعروف الصغير الذي نأمله أنا وخالتك منك.

ــ هل تريد أن أخبر أمي بطيش وجهالة أختها؟ يصعب عليّ أن أحدثها عن جهالاتي، غير أني سأبذل ما في وسعي، فأنا مدين لك بذلك.

أمسك والتر بيديّ وضمّهما بحرارة.

قال، وهو يهزني كمثل شجرة خوخ: شكراً، شكراً، شكراً.

رن الهاتف من جديد، تركته على المائدة حيث كنتُ وضعته ودرت نحو الخادمة طالباً منها قهوة.

باريس

كان مصباح صغير ينير مكتب إيفوري، والأستاذ يكمل ملاحظاته حتى تاريخه. رنّ الهاتف، فنزع نظارتيه ورفع السماعة:

ــ أردتُ أن أحيطك علماً بأني سلّمت رسالتك إلى المرسَل إليها.

ــ هل قرأتها؟

ــ أجل، هذا الصباح بالذات.

ــ وما كانت ردة فعلهما؟

ــ من السابق لأوانه إجابتك عن ذلك...

شكر إيفوري والتر، وانتقل إلى مكالمة أخرى منتظراً أن يرفع محدثه السماعة.

ــ لقد وصلت رسالتك إلى شاطئ الأمان. وكنت أود أن أشكرك. هل أحسنت كتابة كل ما بينته لك؟

ــ أعدتُ نسخ كل كلمة من كلماتك، وسمحت لنفسي بأن أضيف فقط بضعة أسطر.

ـ كنتُ طلبت منك ألا تغير شيئاً على الإطلاق!

ـ لماذا لم ترسلها أنت إذاً، لماذا لم تقل له كل ذلك مشافهة؟ لماذا استخدمتني كوسيط لك؟ لا أفهم أي لعبة تلعبها.

ـ أود صادقاً ألا يكون ذلك إلا لعباً. إنها تصدقك أكثر من تصديقها لي، وأكثر من أي شخص آخر في مطلق الأحوال، ولست أحاول بقولي هذا تملقك، يا ماكس. أنت كنت أستاذها، لا أنا. إنها ستغدو أكثر اقتناعاً، عندما سأتصل بها خلال أيام لتأكيد المعلومات التي ستحصل عليها. ألا يقال إن رأيين خير من رأي واحد؟

ـ ليس إذا صدر هذان الرأيان عن الشخص ذاته.

ـ لكننا نحن وحدنا نعرف ذلك. أليس كذلك؟ إن كنت متضايقاً فقل لنفسك إني أفعل هذا لضمان أمنهما. أعلمني حالما تتصل بك. إنها ستقوم بذلك، أنا متيقن مما أقول. وتدّبر الآن أمرك، كما تم الاتفاق بيننا، كي لا يجري الاتصال بك ثانية. سأبلّغك، غداً، رقماً جديداً لتهاتفني. طابت ليلتك، ماكس.

لندن

انطلقنا باكراً. كانت كيرا تترنح من النعاس. عاودت النوم في سيارة التاكسي، فاضطررت إلى أن أهزّها لدى وصولنا إلى هيثرو.

قالت، بينما كانت الطائرة مقلعة: بات حبي لركوب الطائرة يتضاءل باستمرار.

ــ هذا أمر مسيء بالنسبة إلى امرأة تُعنى بالاستكشافات، هل تنوين بلوغ أقصى الشمال سيراً على قدميك؟

ــ هناك الباخرة...

ــ وفي الشتاء؟

ــ دعني أنام.

كان أمامنا ثلاث ساعات للتوقف في غلاسكو. وددتُ لو اصطحب كيرا لزيارة المدينة، لكن الطقس، في الحقيقة، لم يكن يسمح بذلك. كما انتاب القلق كيرا للهبوط في أحوال جوية يبدو أنها أقل ملاءمة باستمرار. فقد استحالت السماء سوداء، وأظلمت غيوم ضخمة الأفق. وراح صوت

يعلن، من وقت لآخر، مواقيت التأخر ويدعو الركاب إلى تحمّل أذيتهم بصبر. وأخذت عاصفة عاتية تبلل أرض المطار، فأُلغي معظم رحلات الطيران، لكن رحلتنا كانت واحدة من تلك الرحلات النادرة التي ما زالت مدرجة على لوحة انطلاق الطائرات.

عندها سألتُ، بينما كانت الحانة تغلق أبوابها: بكم تقدّرين حظوظنا في أن يستقبلنا ذلك الرجل؟

بدورها سألت كيرا: بكم تقدّر حظوظنا في الوصول سالمين إلى شتلاند؟

ـ لا أعتقد أنهم سيعرضوننا لمخاطر لا طائل لها.

أجابت كيرا: إن ثقتك بالإنسان يفتنني.

كانت زخة المطر الغزيرة تبعد عنا، فأمرتنا مضيفة طيران، منتهزة فترة هدوء قصيرة، بالتوجه إلى بوابة الركاب على جناح السرعة. فسلكت كيرا جسر الملاحة الصغير على مضض.

قلت لها، مشيراً بإصبعي من خلال كوة: أنظري، ثمة انفراج في الطقس، سنمر إلى الداخل متجنبين الإساءة إلى أحد.

ــ وهل سيلحق بنا انفراجك حتى الموضع الذي ينبغي النزول فيه مجدداً على الأرض؟

إن الجانب الإيجابي للاضطرابات الجوية التي هزتنا خلال الخمس والخمسين دقيقة التي استغرقها هذا الطيران، هو أن كيرا لم تفارق ذراعي.

وصلنا إلى أرخبيل شتلاند منتصف العصر على وقع وابل من المطر. كانت الوكالة نصحتني باستئجار سيارة في المطار. فاجتزنا ستين ميلاً من الطريق عبر سهول ترعى فيها قطعان من الغنم. وقد درج المربون، نظراً لكون الحيوانات تسرح حرة في الطبيعة، على صبغ صوف قطعانهم لتمييزها من القطعان المجاورة. وهذا ما يضفي على الريف ألواناً جميلة جداً تتعارض مع لون السماء الرمادي. في «توفت»، ركبنا على متن زورق عبور مبحر إلى «أولستا»، وهي قرية صغيرة على ساحل «يل الشرقي»، أما بقية الجزيرة فليست مأهولة عملياً إلا بدساكر صغيرة.

كنت قد أعددت العدّة لسفرنا، وفي انتظارنا غرفة في «براند بريكفست» في «بورافو»، النزل الوحيد في الجزيرة، على ما أعتقد.

كان لا بد أن بريكفست موضوع البحث هي مزرعة

تضم نزل موضوع تحت تصرف الزائرين النادرين الذين يأتون للتيهان هنا، بل هي إحدى هذه الجزر في أقاصي المعمورة، أرض بائرة طولها خمسة وثلاثون كيلومتراً وعرضها يكاد يبلغ اثني عشر كيلومتراً. يعيش فيها تسعمائة وسبعة وخمسون شخص، التعداد دقيق، وكل ولادة أو وفاة تؤثر تأثيراً بيّناً في ديمغرافية المكان. وتكثر هنا بوفرة ثعالب الماء والفقمات الرمادية أو خطاف البحر القطبي.

مع ذلك، بدا الزوجان مربيّا الحيوانات اللذان استقبلانا لطيفين، باستثناء أن لهجتهما لم تكن تسمح لي باستيعاب كل حديثهما. كان العشاء جاهزاً في الساعة السادسة أو السابعة. وجدنا نفسينا أنا وكيرا في غرفتنا، لا نور يضيء لنا سوى شمعتين. وكانت الريح تهب عاتية في الخارج، فتصطفق درفات الشبابيك، وتصرّ في الليل مراوح النواعير الهوائية الصدئة ثم بدأ المطر يقرع زجاج النوافذ. لبدت كيرا فيّ، ولكن لم يواتنا الحظ هذا المساء في ممارسة الحب.

ما شعرت بالأسف لأننا نمنا باكراً، إذ أن التنبّه من النوم كان في ساعة مبكرة جداً. فمن ثغاء خراف وقباع خنازير إلى قوقأة طيور مختلفة الأجناس، لم يكن ينقص

المشهد إلا خوار بقرة، غير أن البيض واللحم المقدد وحليب النعاج التي قدمت إلينا عند الفطور كان لها مذاق لم أجده قط في ما بعد. وسألتنا صاحبة المزرعة عن سبب مجيئنا إلى هنا.

سألتها كيرا: لقد جئنا لزيارة عالم إنتروبولوجيا أُحيل على التقاعد في الجزيرة، رجل يدعى يان ثونستن، هل تعرفينه؟

هزّت صاحبة المزرعة كتفيها وغادرت المطبخ، بينما تبادلنا أنا وكيرا النظرات حائرين.

همستُ لها: سألتني البارحة ما هي الحظوظ التي قد تدفع هذا الشخص إلىَ استقبالنا؟ لقد أعدتُ لتوي النظر في توقعاتي، فإذا هي تسجل هبوطاً.

ما إن التهمنا الفطور حتى توجهتُ ناحية الاصطبل للقيام بزيارة زوج صاحبة مزرعتنا. عندما سألته عن المدعو يان ثورنستن، قطّب وجهه.

ــ أهو في انتظاركما؟

ــ لا، ليس بالضبط.

ــ إذاً سيستقبلكما على وقع طلقات بندقية. الهولندي

رجل سيئ، لا صباح الخير، ولا إلى اللقاء، إنه إنسان منعزل. حينما يقصد القرية مرة في الأسبوع للتسوق، لا يتكلم مع أحد. لسنتين خلتا، تعرضت الأسرة التي تسكن المزرعة على مقربة منه لمشكلة. لقد ولّدت المرأة في عز الليل ولم تجرِ الأمور على ما يرام. كان لا بد من استدعاء الطبيب وما كانت سيارة زوجها لتنطلق. فعبر الرجل الأرض البائرة وسار كيلومترات تحت المطر طلباً للمساعدة، فما كان من الهولندي إلا أن فتح النار عليه ببندقيته. لم يعش الطفل الوليد طويلاً. مثلما أقول لك، إنه رجل سيئ الطبع. ولم يكن هناك، يوم شُيع الصغير إلى المقبرة سوى كاهن الرعية والنجار.

سألته: لماذا النجار؟

ــ لأنه هو صاحب عربة الموتى، وحصانه هو الذي يجرها.

رويتُ حديثنا لكيرا وقررنا القيام بنزهة على امتداد الشاطئ، ريثما نضع خطة لمقاربته.

صرّحت كيرا: سأذهب بمفردي.

ــ ثم ماذا بعد، هذا غير وارد!

ــ إنه لن يطلق النار على امرأة، فليس من داعٍ لديه

للشعور بأنه مهدد. إسمع، إن القصص حول سوء الجوار أكثر من أن تُحصى في الجزر، وهذا الرجل ليس بالتأكيد الوحش الذي يصفونه لنا. أنا أعرف أكثر من شخص قد يطلق النار على طيف يقترب من بيته في وسط الليل.

ــ إن لك أصحاباً غريبي الأطوار!

ــ أنت توصلني أمام ملكه وأنا أقوم بالباقي مشياً على قدمي.

ــ طبعاً لا!

ــ صدقني، إنه لن يطلق النار علي، وأنا أخاف طيران العودة أكثر من ملاقاة هذا الرجل.

تابعنا تبادل الحجج أثناء النزهة. كنا نسير على امتداد الصخور مكتشفين خلجاناً صغيرة موحشة. أُولعت كيرا بثعلب بحر، لم يكن الحيوان جفولاً لا بل بدا أنه يتسلى بحضورنا، فيتبعنا على بعد بضعة أمتار منا. ومن فرط تسلّيه، جرّنا إلى السير خلال أكثر من ساعة. كانت الريح ثلجية ولكن المطر لم يهطل وكان السير ممتعاً. في الطريق، التقينا رجلاً يعود من الصيد، فسألناه عن طريقنا. كانت لهجته أسوأ من لهجة مضيفينا.

تمتم من بين لحيته: أين أنتما ذاهبان؟

ـ إلى بورافو.

قال مبتعداً: إنـها خلفكما على مسيرة ساعة.

تركتني كيرا في مكاني وتعقبت خطاه.

قالت، وقد لحقتْ به: إنـها منطقة جميلة.

أجاب الرجل: إن شئت ذلك.

ثم تابعت: أتصور أن فصل الشتاء لا بد أن يكون قاسياً.

ـ هل لديك الكثير من الحماقات الأخرى الشبيهة بها تقولينها لي؟ ينبغي أن أذهب لإعداد طعامي.

ـ أ أنت السيد ثورنستن؟

قال الرجل، معجلاً خطاه: لا أعرف أحداً بهذا الاسم.

ـ ما من جمهور كبير من الناس في الجزيرة، ويشق علي أن أصدقكَ.

ـ اعتقدي ما شئت واتركيني في سلام. كنت تريدين أن أدلك على طريقك، وأنت الآن على وشك أن تديري له ظهرك، عودي أدراجك وستَكونين في الاتجاه الصحيح.

ـ أنا عالمة آثار، وقد أتينا من مكان بعيد لملاقاتك.

ـ عالمة آثار أو لا، الأمر سيان عندي كلياً، قلت لك إني لا أعرف مدعوّك ثورنستن.

ـ أناشدك أن تخصص لي بضع ساعات بالضبط، لقد قرأت أعمالك عن الهجرات الكبرى إبان العصر الحجري القديم، وأنا في حاجة إلى إيضاحاتك.

تجمّد الرجل ونظر بازدراء إلى كيرا.

ـ لك رأس امرأة مزعجة وأنا لست راغباً في أن تزعجيني.

ـ وأنت لك رأس رجل سريع الاحتداد وكريه.

أجاب الرجل، مبتسماً: إني متفق تماماً، وهذه حجة إضافية كي لا نتعارف أنا وأنتِ. في أي لغة ينبغي أن أقول لك اتركيني بسلام؟

ـ جرّب الهولندية! أتصوّر أن قلّة من الناس في الجوار لهم لهجة شبيهة بلهجتك.

أدار الرجل ظهره لكيرا وانصرف. فتبعته وأدركته حالاً.

ـ كن عنيداً كالبغل، الأمر سيّان عندي تماماً، سأتبعك حتى إلى بيتك إذا دعت الحاجة. ماذا ستفعل عندما تصل أمام بابك، هل ستطردني بطلقات من بندقية؟

ـ هل هما مزارعا بورافو اللذان رويا لكما هذا؟ لا تصدّقا كل القذارات التي ستسمعانها في الجزيرة، الناس يتضايقون هنا ولا يدرون ماذا يلفّقون.

أردفت قائلة: الشيء الوحيد الذي يهمني هو ما ستقوله أنت لي، وليس أي شيء آخر.

للمرة الأولى، بدا الرجل يهتم بي. تجاهل كيرا مؤقتاً وخطا خطوة ناحيتي.

ـ أهي دائماً مزعجة هكذا أم أن لي الحق في معاملة مميزة؟

ما كنتُ لأصوغ المسألة على هذا النحو، لكني اكتفيت بابتسامة وأكدت له أن لكيرا طبعاً ثابت العزم.

ـ وأنت ماذا تفعل في الحياة عدا ملاحقتها؟

ـ أنا عالم فيزياء فلكية.

فجأة تبدلت نظرته، وتوسعت عيناه الزرقاوان زرقة عميقة أكثر من المعتاد.

همس: إني أحب النجوم، لقد هدتني في ما مضى...

نظر ثورنستن إلى طرف حذائه وأطلق حصاة في

الهواء راحت تتدحرج، ثم أردف: أتصور أنك لا بد أن تحبها بدورك، إن كنت تزاول هذه المهنة.

أجبته: أتصور ذلك.

ــ إتبعاني، فأنا أسكن في آخرٍ الطريق. سأقدم لكما ما ترويان به ظمأكما، وتحدثاني قليلاً عن السماء، ثم تدعاني وشأني، هل اتفقنا؟

تبادلنا مصافحة كانت بمثابة وعد حق.

على الأرض الخشبية، سجاد رث، وأمام المدفأة متكأ قديم، وعلى امتداد الحائط مكتبتان تنوءان بالكتب والغبار، وفي ركن ما سرير من حديد مشغول مغطى بقماشة تضم مربعات مختلفة المواد والألوان، مصباح ومنضدة سرير، كل هذا يؤلف الغرفة الرئيسية في هذا المسكن المتواضع. أجلسنا مضيفنا حول مائدة مطبخه، قدّم لنا قهوة سوداء بلا حليب، لم تكن مرارتها لتحسدها على لونها. أشعل سيكارة من ورق الذرة وحدّق إلينا.

قال، وهو ينفخ في عود الثقاب: عمَّ أتيتما تبحثان بالضبط؟

ــ معلومات عن الهجرات البشرية الكبرى التي عبرت إلى أقصى الشمال للوصول حتى إلى أميركا.

ـ هذه الموجات من الهجرات موضع جدال واسع، وتعمير القارة الأميركية أشد تعقيداً مما يبدو. لكن كل هذا تجدانه في بطون الكتب، ولم تكونا تحتاجان إلى السفر.

أردفت كيرا: هل تعتقد من الممكن أن تكون جماعة قد غادرت حوض المتوسط لتبلغ مضيق بيرينغ وبحر بوفور مروراً بالقطب؟

ضحك ثورنستن، استهزاءً: نزهة ملعونة. وهل أتموا السفر في رأيكما بالطائرة؟

ـ لا داعي للرجوع إلى المصادر، فأنا سألتك للإجابة عن سؤالي وحسب.

ـ وفي أي عصر تحققت هذه الملحمة، بحسب اعتقادك؟

ـ قبل أربعة أو خمسة آلاف سنة من الميلاد.

ـ ما سمعتُ كلاماً على مثل هذا الأمر. لماذا هذه الفترة بالذات؟

ـ لأن ذلك هو ما استرعى اهتمامي.

ـ كان الجليد قد تكون أكثر بكثير مما هو عليه اليوم. وكان المحيط أصغر ،بانتقال حالته بحسب الفصول

المؤاتية. أجل، لعل هذا كان ممكناً. والآن لنتصارح: تقولان إنكما قرأتما مؤلفاتي. لا أدري كيف نجحتما في إنجاز هذه المعجزة ما دمتُ نشرت القليل وما زلتما صغيري السن لسماع إحدى المحاضرات النادرة التي ألقيتها حول هذا الموضوع. لئن كنتما حقاً أكببتما على كتاباتي، فقد طرحتما عليّ للتو سؤالاً تعرفان الإجابة عنه قبل مجيئكما، لأنها تؤلف بالضبط النظريات التي دافعتُ عنها. وقد أكسبتْني التشهير أمام جمعية علماء الآثار؛ لذا علي أن أطرح عليكما بدوري سؤالين اثنين. عمَّ أتيتما تبحثان حقاً عندي، ولأي هدف؟

ابتلعت كيرا فنجان قهوتها بجرعة واحدة، قائلة:

ـ موافقة، لنلعب أوراقنا على المكشوف. لم أقرأ لك شيئاً البتة، وكنت حتى الأسبوع الفائت أجهل وجود أعمالك. إنٍ أستاذاً صديقاً هو الذي أوصاني بالمجيء للقائك، قائلاً لي إن بإمكانك أن تفيدني علماً بهذه الهجرات الكبرى التي لا تشكل الإجماع لدى زملائنا. واليوم أبحث عن ممر تمكّن عبره رجال من اجتياز أقصى الشمال في الألف الرابع أو الخامس قبل الميلاد.

سأل ثورنستن: لماذا يكونون قد أقدموا على هذا السفر؟ ما الذي حضّهم على المجازفة بحياتهم؟ هذا هو

السؤال المفتاح، أيتها الشابة، حين يزعم المرء الاهتمام بالهجرات. إن الإنسان لا يهاجر إلا بدافع الحاجة، لأنه جائع أو عطشان، لأنه مضطهد، إن غريزة البقاء لديه هي التي تدفعه إلى الانتقال. تمثّلا بنفسيكما، لقد فارقتما عشكما الدافئ للقدوم إلى هذا الكوخ القديم لأنكما بحاجة إلى شيء ما، أليس كذلك؟

نظرت كيرا إلي مفتشة في عيني عن الجواب عن سؤال توقعته. هل كان ينبغي نعم أو لا أن نولي هذا الرجل ثقتنا، وأن نخاطر في عرض قطعتينا عليه، وفي جمعهما من جديد ليعاين الظاهرة؟ كنتُ قد لاحظت أننا كلما فعلنا ذلك، كانت القوة تتناقص. فضَّلت أن أقتصد الطاقة فيهما، وأحاول بشكل ما أن يطّلع أقل ما يمكن من الناس على ما نسعى إلى اكتشافه. فأومأت إليها بإشارة من رأسي فهمتها، ودارت نحو ثورنستن.

أصرّ، قائلاً: ماذا إذاً؟

أجابت كيرا: بغية حمل رسالة.

ــ أي نوع من رسالة.

ــ معلومة مهمة.

ــ وإلى أين؟

ـ إلى سلطات الحضارات القائمة في كل واحدة من القارات الكبرى.

ـ وكيف تمكّنوا من معرفة أن حضارات أخرى غير حضارتها موجودة على بعد مثل تلك المسافات؟

ـ لم يكن في وسعهم أن يتأكدوا من ذلك، لكنني لا أعرف رحّالة ما علم عند رحيله ما سوف يجده أوان وصوله. مع ذلك، فإن الذين أفكّر فيهم كانوا قد التقوا عدداً كافياً من شعوب مختلفة عن شعبهم لكي أفترض أن ثمة شعوباً أخرى تعيش في أصقاع نائية. لقد ثبت لي بالدليل أن ثلاثة أسفار من هذا النوع تم القيام بها في العصر ذاته وعلى امتداد مسافات بعيدة: واحد باتجاه الجنوب، وآخر باتجاه الشرق حتى الصين، وثالث باتجاه الغرب، ولا يبقى إلا الشمال لإثبات نظريتي.

سأل ثورنستن، محترساً: هل لديك الدليل على أن أسفاراً مماثلة قد جرت؟

كان صوته قد تغير، فقرّب كرسيه من كيرا ووضع يده على الطاولة، وهو يحك الخشب بطرف أظافره.

أكدت له كيرا: لن أكذب عليك.

ـ تريدين القول، ليس مرتين متتاليتين؟

ــ قبل قليل، أردتُ أن أسلس طبعك، إذ قيل لنا إنك لست سهل القياد.

ــ أنا أعيش متوحداً، لكني لست حيواناً!

حدّق ثورنستن إلى كيرا. كانت عيناه محاطتين بتجاعيد ونظرته من العمق بحيث كان من الصعب إطالة النظر فيه. نهض وتركنا على انفراد لفترة قصيرة.

ثم صاح من غرفة الاستقبال: سوف نتحدث لاحقاً عن نجومك، فأنا لم أنسَ عملية التسوق.

عاد ومعه أنبوب طويل أخرج منه خريطة بسطها على الطاولة، وسند زواياها المعاندة بفنجاني قهوتنا وبمنفضة.

قال، مشيراً إلى شمال روسيا في الخريطة الكبيرة: ها هي هنا. إذا تم فعلاً هذا السفر، فإن طرقاً عدة توافرت لرسلكم. منها طريق بالتوجه من منغوليا وروسيا للوصول إلى مضيق بيرنغ، على ما اقترحته أنت. كانت الشعوب السومرية في ذلك العصر قد استكمَلت صنع قوارب متينة بما فيه الكفاية لتتمكن من محاذاة طريق الجبال الجليدية وبلوغ بحر بوفور، حتى ولو لم يتوافر أي دليل يثبت أنهم ارتادوا تلك الأصقاع. طريق آخر ممكن، بالمرور من النروج فجزر فيرويه وايسلندا ثم عبروا بمحاذاة ساحل

غرينلاند، وخليج بافين، وهكذا يكونون قد استطاعوا بلوغ بحر بوفور. هذا، على افتراض أنهم تمكنوا من البقاء على قيد الحياة وسط درجات حرارية قطبية، والاغتذاء بحيوانات الصيد على طول الطريق، من غير أن يتعرضوا هم أنفسهم لافتراس الدببة، لكن كل شيء جائز.

أصرّت كيرا: جائز أو معقول؟

ــ لقد دافعتُ عن فرضية أن أسفاراً مماثلة أقدم عليها رجال من أصل قوقازي قبل عشرين ألف سنة من الميلاد، وزعمتُ كذلك أن حضارة السومريين لم تظهر على ضفاف الفرات ودجلة لمجرد أنهم تعلّموا تخزين نبتة العلس (أو الخندروس) (poutreé)، لكن أحداً لم يصدقني.

سألت كيرا: لماذا تحدثني عن السومريين؟

ــ لأن هذه الحضارة من أوائل الحضارات، إن لم تكن هي الأولى، التي هيأت لنشوء الكتابة، وإحدى الأوائل التي تزوّدت بأداة سمحت للرجال بتدوين لغتهم. ومع الكتابة، اخترع السومريون الهندسة المعمارية وبنوا سفناً جديرة بهذه التسمية. تبحثين عن دلائل لسفر طويل جرى قبل آلاف السنين وتأملين أن تعثري عليها، كما لو أن شخصاً خيالياً بذر الأرض حصى؟ إنك لساذجة سذاجة مؤلمة. أياً يكن ما تبحثين عنه في الواقع، إذا سبق ووُجد، فإنك

ستجدين آثاره في النصوص. أتريدين الآن أن أحدثك أكثر قليلاً أو أنك تنوين مقاطعتي لكي لا تقولي شيئاً ما؟

أمسكتُ بيد كيرا وضممتها في يدي، إنها طريقة خاصة بي للتوسل إليها بأن تدعه يتابع روايته.

ـ يجزم البعض أن السومريين تحضّروا على نهري الفرات ودجلة، لأن نبات العلس كان ينمو هناك بوفرة وأنهم تعلموا تخزين هذا النوع من الحبوب. كان في مقدورهم المحافظة على المحاصيل التي ستؤمن لهم الغذاء في المواسم الباردة والمجدبة وما عادوا في حاجة إلى أن يعيشوا حياة بداوة لتأمين القوت اليومي لهم. هذا ما كنتُ أشرحه لك، فالتحضر يدل على أن الإنسان ينتقل من حال البقاء حياً إلى حال الحياة. وحالما يباشر التحضر، يحاول تحسين معيشته اليومية، وحينها، حينها فقط تبدأ الحضارات تتطور. ولكن إن حصل حادث جغرافي أو مناخي عارض ودمّر هذا النظام، فلا يعود الإنسان يجد خبزه اليومي، وإذا به يعاود سلوك الطريق. فالهجرات الجماعية والترحلات تعود إلى الصراعات نفسها، إلى السبب نفسه، سبب البقاء الأبدي للنوع على قيد الحياة. لكن معارف السومريين في ذلك الحين كانت متطورة جداً بحيث لا يمكن اعتبارهم مجرد مزارعين تحضّروا فجأة.

لقد تقدّمت بالنظرية التي تقول إن حضارتهم البالغة التطور ولدت جراء اتحاد مجموعات متعددة، حملت كل منها ثقافتها الخاصة. فالبعض جاء من شبه القارة الهندية، فيما وصل البعض الآخر من طريق البحر محاذياً الساحل الإيراني، وأخيراً أتت الجماعة الثالثة من آسيا الصغرى. آزوف، الأسود، إيجه والمتوسط، ما كانت هذه البحار متباعدة بعضها عن بعض إطلاقاً، إن لم تكن، على العكس، متصلة في ما بينها. كل هؤلاء المهاجرين توحدوا لتأسيس هذه الحضارة الفذّة. لئن أقدم أفراد شعب على السفر الذي كلمتني عنه، فلربما لم يكونوا إلا هم أنفسهم. وإذا صدق ذلك، فإنهم يكونون قد رووا أخبار رحلاتهم. اعثري على ألواح هذه الكتابات وسيتوفر لك الدليل على أن ما تبحثين عنه موجود.

همست كيرا بصوت خفيض: «لقد فصلتُ قائمة الذكريات...».

سأل ثورنستن: ماذا تقولين؟

ــ عثرنا على نص يبدأ بهذه الجملة: «لقد فصلتُ الذكريات».

ــ أي نص؟

ـ إنها قصة طويلة، لكنها كُتبت باللغة الغيزية لا السومرية.

هاج ثورنستن وماج ضارباً بجمع كفّه: ولكن كم أنت بلهاء. مع ذلك، هذا لا يعني أن النص قد أعيد نسخه في مرحلة الرحلة البحرية التي تتحدثين عنها. هل درست، نعم أو لا؟ القصص تتناقل من جيل إلى جيل، تتخطى الَحدود فتحولها الشعوب وتستولي عليها. هل تجهلين الاقتباسات الواردة في العهد القديم والجديد؟ إنها نتف حكايات اختلست من حضارات أخرى أقدم بكثير من اليهودية والمسيحية اللتين وفّقتا بينها. نشر كبير أساقفة إيرلندا الإنغليكاني جيمس اسشر، ما بين عامي 1625 و 1656 تأريخاً للأحداث حدد فيه ولادة الكون يوم الأحد 23 تشرين الأول (أكتوبر) من العام 4004 قبل الميلاد. يا له من عمل تافه! لقد خلق الله الزمان، الفضاء، المجرات، النجوم، الشمس، الأرض والحيوانات، الرجل والمرأة، الجحيم والنعيم. وخلق المرأة انطلاقاً من ضلع الرجل!

انفجر ثورنستن ضاحكاً، ونهض للإتيان بزجاجة نبيذ، فتحها وسكب ثلاث كؤوس ووضعها فوق الطاولة. شرب كأسه دفعة واحدة وعاود السكب لتوه.

ـ لو كنتما تعرفان عدد الحمقى الذين ما زالوا

يعتقدون أن للرجال ضلعاً أقل من أضلاع النساء، لضحكتما طوال الليل... ومع ذلك، فإن هذه الحكاية مستوحاة من قصيدة سومرية، وقد تولّدت من لعب بسيط بالألفاظ والتوراة محشوّة بهذه الاقتباسات، ومنها الطوفان الشهير وسفينة نوح، وهي حكاية كتبها السومريون. انس إذاً شعوب نواويسك، فأنت تضلّين الطريق. إنهم لم يكونوا في أحسن الأحوال سوى مناوبين ومخبرين؛ وحدهم السومريون كان في وسعهم تخيّل الزوارق القادرة على القيام بالرحلة، التي تحدثيني عنها، إنهم اخترعوا كل شيء! ونسخ المصريون عنهم كل شيء، الكتابة التي استوحوها منهم لأبجديتهم الهيروغليفية، فن بناء السفن وبناء المدن بالآجر. إذا كانت رحلتكما قد تمت فعلاً، فإنها بدأت هناك! أكد ثورنستن مشيراً إلى الفرات.

نهض، متوجهاً ناحية غرفة الاستقبال.

ـ أمكثا حيث أنتما، فسآتي لكما بشيء ما وأعود.

خلال الآونة القصيرة التي كنا فيها وحدنا في المطبخ، انحنت كيرا على الخريطة وتابعت بإصبعها مجرى النهر. ابتسمت وأسرّت لي بصوت خفيض:

ـ ريح الشمال، هناك أيضاً برزت إلى الوجود، في الموضع الدقيق الذي حدّده لنا ثورنستن. إنه لغريب أن

أتصور أنها طردتني من وادي «أومو» لأرجع إليه في نهاية المطاف.

أجبتُ، هازاً كتفي: حفيف أجنحة الفراشة... لو لم تهب الشمال لما كنا في الواقع هنا.

عاود ثورنستن ظهوره في المطبخ ومعه خريطة أخرى، تفصّل بشكل أدق نصف الكرة الشمالي.

ــ كيف كان وضع المناطق الجليدية الحقيقي في تلك الحقبة؟ أي الطرق كانت مسدودة، وأيها سالكة؟ ليس كل ذلك إلا مجرد افتراض، لكن الشيء الوحيد الذي سيثبت نظريتك سيكون في العثور على دلائل عن هذه الممرات، إن لم يكن في نقطة الوصول، فعلى الأقل في الموضع الذي توقف فيه رسلك. لا شيء يؤكد أنهم بلغوا هدفهم.

ــ أياً من هذين الطريقين ستسلكه أنت فيما لو أردت تتبع آثارهم؟

ــ أخشى ألا يكون قد بقيت آثار على الإطلاق، إلا إذا...

فسألته: إلا إذا ماذا؟

ــ لقد تحدثتِ عن سفر أول أُنجز إلى الصين، كان في

استطاعة الذين وصلوا إلى هنالك أن يتابعوا طريقهم باتجاه منغوليا، وفي هذه الحال، فإن الطريق المعقول أكثر من غيره كان الصعود نحو بحيرة بايكال. من هناك، كان يكفيهم أن يسمحوا لنهر أفغارا بحملهم، إلى أن يصبّ في نهر ينسساي، فمصبه هو في بحر كارا.

تملّك الحماس كيرا، فقالت: إذاً كان الأمر ممكناً!

ـ أنصحكما بالتوجه إلى موسكو. تقدّما من جمعية علماء الآثار وحاولا الحصول على عنوان شخص يدعى فلادنكو إيغوروف. إنه مدمن للكحول قديم، يعيش منعزلاً مثلي داخل بيت حقير في مكان ما، أعتقد حول بحيرة بايكال. لا بد أن يستقبلكما إذا ما استشهدتما بي ورددتما له المائة دولار التي أدينها له منذ ثلاثين سنة...

فتش ثورنستن في جيب بنطاله وأخرج منه ورقة عشر استرلينات ملفوفة بشكل مكور.

ـ ينبغي أن تسلّفاني المائة دولار... إيغوروف هو واحد من علماء الآثار الروس، الذين ما زالوا على قيد الحياة، هذا ما آمله على الأقل، وقد تمكن من إجراء أبحاث تحت ستار حكومته في المرحلة التي كان كل شيء فيها ممنوعاً. وأدار خلال بضعة أعوام جمعية علماء الآثار لذا فهو يعرف أكثر بكثير مما أراد البوح به. في عهد

خروتشوف لم يكن مستحسناً أن يتألق كثيراً، وأقل من ذلك أن تكون له نظرياته الخاصة حول أصول تعمير وطنه الأم. إذا كشفت الحفريات عن آثار مرور مهاجريكما بالقرب من بحر كارا في الألف الرابع أو الخامس، فهو يكون قد أحيط علماً بذلك. لا أرى شخصاً آخر ينبئك إن كنت، نعم أو لا، تسلكين الصراط القويم. حسناً، هتف ثورنستن وهو يضرب بجمع كفه على الطاولة، الآن وقد هبط الليل، سأعيركما ما من شأنه أن يحول دون تجمّدكما، ولنخرج فالسماء صافية هذا المساء؛ مذ بدأت أنظر إلى هذه النجوم التائهة، هنالك بعض منها أود لو أستطيع أخيراً أن أطلق عليها اسماً.

تناول من على المشجب معطفين قصيرين ورشقهما باتجاهنا.

ــ ارتديا هذين المعطفين، وما إن ننتهي، سأفتح لنا مراطبين سمك الرنة، لتبديا لي رأيكما فيه!

لا يُخلف المرء وعده، ولا سيما إذا كان يقيم في أقاصي العالم وكان الشخص الوحيد الذي يعيش على امتدادٍ عشرة كيلومترات حول المكان يتنزه إلى جانبك حاملاً معه بندقية ملقمة.

ــ لا ترمقاني كما لو كنت أنوي حشو مؤخرتيكما برصاص الصيد. هذه البقعة متوحشة، ولا ندري أبداً أي

الحيوانات يمكن أن نلتقيها في الليل. في كل الأحوال، لا تبتعدا عني. هيا، أنظرا إذاً إلى تلك التي تتلألأ هنالك في الأعالي وأخبراني ما اسمها!

مكثنا طويلاً نتنزه في الليل، وثورنستن يمدّ يده، من حين لآخر، محدداً لي نجمة أو كوكبة نجوم أو بقعة سديمية أيضاً. فكنتُ أسمّيها له وأسمّي حتى بعض النجوم غير المرئية لأعيننا. بدا سعيداً حقاً، ولم يعد إطلاقاً الإنسان الذي صادفناه في نهاية بعد الظهر.

ما كان سمك الرنة عاطلاً، وخفّف لب حبات البطاطا التي شواها في الرماد من حرقة الملح. كما لم تفارق عينا ثورنستن، أثناء العشاء، كيرا. كان لا بد أن وقتاً طويلاً قد انقضى من غير أن تدخل امرأة في مثل هذا الجمال بيته، هذا على افتراض أنه قد يكون استقبل واحدة ذات مساء في هذا المكان المهجور. وبعد قليل، بينما كنا نتذوق، أمام المدفأة، نوعاً من الشراب أثّر في سقف فمنا وحلقنا، انحنى ثورنستن مجدداً على الخريطة التي بسطها على السجاد وأومأ إلى كيرا بأن تأتي وتجلس بجواره.

ـ قولي لي ما الذي تبحثين عنه حقاً!

لم تجبه كيرا، فأمسك ثورنستن بيديها وحدّق في راحتيها.

ــ ما قدّمت الأرض إليهما أي هدية!

ثم أدار يديه وأراهما كيرا.

ــ هما أيضاً حفرتا منذ زمن بعيد.

سألت كيرا: في أي بقعة من العالم قمت بالتنقيب؟

ــ لا يهم، كان ذلك منذ زمن بعيد حقاً.

في ساعة متأخرة من السهرة، اصطحبنا حتى مستودع غلاله، حيث أركبنا على متن سيارته «البيك آب»، وأوصلنا إلى مسافة مائتي متر من المزرعة التي نمنا فيها. بلغنا غرفتنا ونحن نمشي بخطى غير مسموعة في ضوء قداحة باعنا إياها بمائة دولار... كاملة. وأقسم، متمنياً لنا سفراً ميموناً، أنها قداحة «زيبو» قديمة تساوي قيمتها على الأقل ضعف هذا المبلغ.

كنتُ قد أطفأت الشمعة وأحاول أن أتدفأ في هذه الملاءات الجليدية الرطبة، عندما استدارت كيرا ناحيتي لتطرح علي سؤالاً غريباً.

ــ هل تذكر أنك سمعتني أكلّمه عن شعوب النواويس؟

ــ ما عدت أعرف، ربما... لماذا؟

ـ لأنه قبل أن يطلب منا التوجه لتسديد ديونه لصديقه الروسي القديم، قال لي: «ما لك ولشعوب النواويس، إنك تضلين طريقك». عبثاً حاولت التدقيق في محادثتنا، وإني شبه متيقنة أني لم آتِ قط على ذكرها.

ـ لعلك فعلت ذلك من غير أن تنتبهي. إنكما ثرثرتما كثيراً أنتماَ الاثنان.

ـ وهل شعرت بالضجر؟

ـ لا، إطلاقاً، إنه شخص غريب الأطوار، وعلى الأرجح مثير للاهتمام. ما وددتُ أن أعرفه، هو لماذا اختار هولندي النفي الطوعي إلى جزيرة معزولة إلى هذا الحد في شمال اسكوتلندا!

ـ وأنا كذلك. كان ينبغي أن نطرح السؤال عليه.

ـ لكني لست متاكدة من أنه كان سيجيب عنه.

ارتعدت كيرا من البرد، فجاءت تحتمي بي، بينما كنت أمعن التفكير في سؤالها. عبثاً حاولت إعادة النظر في حديثها مع ثورنستن. لم أرَ في الواقع في أي لحظة تكلمت على شعوب النواويس. إلا أن هذه المسألة ما بدت أنها لا تزال تكدر صفوها، إذ كان تنفسها منتظماً، وكانت قد استسلمت للنوم.

باريس

كان إيفوري يتنزه على ضفاف النهر. اكتشف على مقربة من صفصافة كبيرة مقعداً فتوجه ليجلس عليه. كان هواء جليدي يهبّ على امتداد السين. رفع الأستاذ العجوز قبة معطفه وفرك ساعديه. رن الهاتف في جيبه، وكان قد ترقّب هذا النداء طيلة السهرة.

ــ لقد تم!

ــ هل لقياك من غير التعرض لصعوبات كثيرة؟

ــ قبل أن يصل هذان الشخصان إلى عقر داري، كان من الممكن مشاهدة حلول نهاية الشتاء. لقد حاولت بشكل ما أن ألاقيهما...

ــ كيف جرت الأمور؟

ــ تماماً كما كنت قد طلبت مني

ــ وهل تعتقد...

ــ أني أقنعتهما؟ أجل، أظن ذلك.

ــ أشكرك، ثورنستن.

ـ لا شكر على واجب. اعتبر أننا تخالصنا الآن.

ـ لم أقل لك البتة إنك مدين لي بشيء ما.

ـ إيفوري، أنت أنقذت حياتي، وكنتُ منذ زمن بعيد أحلم بالوفاء بهذا الدين تجاهك. لم يكن وجودي غريباً طوال الأيام في هذا المنفى القسري، لكنها كانت ستصبح أقل إملالاً منها في المقبرة.

ـ هيا، ثورنستن، لا جدوى من الكلام مجدداً على كل ذلك.

ـ أوه، بلى، ما انتهيتُ بعد، وستصغي إلي حتى النهاية. لقد انتشلتني من بين هؤلاء الأشخاص الذين أرادوا القضاء علي عندما وجدت تلك الحصاة اللعينة في بلاد الأمازون. فأنقذتني من محاولة اغتيال في جنيف، لو أنك لم تخطرني بالأمر، ولو لم تؤمّن لي وسائل الاختفاء...

قاطعه إيفوري بصوت ملؤه الحزن: كل هذا بات من التاريخ القديم.

ـ ليس قديماً كما تزعم، وإلا لما وجهتَ إلي خروفيك الضالين لكي أرشدهما إلى سواء السبيل؛ ولكن هل قدّرت المخاطر التي تعرضهما لها؟ أنت ترسلهما إلى المسلخ

عارفاً ذلك تمام المعرفة. أولئك الذين كلفوا أنفسهم إتيان المزيد من الشر بمحاولة قتلي، سيفعلون الشيء نفسه معهما إذا ما اقتربا كثيراً من الهدف المنشود. لقد جعلتَ مني شريكك، ومذ تركتُهما أصبحتُ منقبض الصدر.

ـ لن يحدث لهما شيء، أؤكد لك، فقد تغير الزمان.

ـ آه نعم، ولكن لماذا ما زلت أتعفّن هنا؟ وعندما ستنال مبتغاك، هل ستعينهما كذلك على تغيير هويتهما؟ هل عليهما أيضاً أن يقبعا في جحر منعزل كي لا يتم العثور عليهما أبداً؟ أهذا هو مخططك؟ أياً يكن ما فعلتَه لي في الماضي، فقد صرنا الآن متخالصين، هذا كل ما كنت أرغب في قوله لك. ما عدتُ مديناً بشيء ما.

سمع إيفوري صوت مفصال، فوضع ثورنستن حدّاً لحديثهما. عندها تنهد ورمى هاتفه في نهر السين.

لندن

كان علينا، لدى عودتنا إلى لندن، أن نصبر بضعة أيام قبل الحصول على تأشيرتينا إلى روسيا. والشيك الذي منحني إياه مديرو الأكاديمية بسخاء تصفية لكل مستحقاتي كان له الفضل في مواصلة تمويلي هذا السفر. كانت كيرا تقضي أغلب أوقاتها في مكتبة الأكاديمية الكبرى، وحافظتُ، بفضل والتر، على حقي في الدخول إليها. لقد اقتصر عملي بشكل أساسي على البحث في الرفوف عن الكتب التي كانت تطلبها مني وإعادة ترتيبها في أماكنها عندما تنتفي الحاجة إليها. بدأت حينها أشعر بالملل بصورة جادة، وكنت في عصر ذات يوم، استأذنت في الانصراف، فجلست أمام حاسوبي كي أعاود الاتصال بصديقين عزيزين ما كنت أطلعتهما على أخباري منذ زمن بعيد. فبعثت برسالة الكترونية إلى أروان على شكل أحجية. وكنت على علم بأنه، ما إن يكتشفها، حتى يدفعه مجرد قراءة عنواني إلى كيل وابل من الشتائم لي. قد يرفض على الأرجح قراءتي، ولكن قبل أن يحل المساء، سيغلبه الفضول، فيشعل شاشته ويضطر بحكم طبعه إلى التفكير في المسألة التي طرحتها عليه.

ما إن ضغطتُ على زر الإرسال في حاسوبي، حتى رفعت سماعتي وناديت مارتن في «مرصد جودرل».

لقد فاجأني فتور استقباله، فطريقة حديثه معي لم تكن تشبهه إطلاقاً. وبصوت يكاد يبدو لطيفاً أخبرني بأنه مشغول جداً وعلّق سماعة الهاتف في وجهي تقريباً. هذه المحادثة المجهضة تركت في نفسي انطباعاً سيئاً. كنا أنا ومارتن أقمنا دوماً علاقات ودية، ومغرية في الغالب، بحيث تعذّر علي فهم موقفه. ربما كان يعاني مشكلات شخصية لم يشأ أن أشاطره إياها.

حوالي الساعة الخامسة مساء، عالجتُ أمور بريدي، سددت فواتيري المتأخرة، قدّمت علبة شوكولا إلى جارتي عربون شكر على الخدمات التي أدتها لي على مدار السنة، وعقدت العزم على القيام بجولة في حانوت السمانة الكائنة على زاوية الشارع لأملأ ثلاجتي.

كنت أتجول عبر أقسام الأغذية، وإذا بالمدير دنا مني بذريعة أنه سيجهز أحد الرفوف ثانية بالمعلبات.

ـ لا تلتفت حالاً إلى الوراء، هناك شخص يراقبك من الرصيف المقابل.

ـ عفواً.

ـ ليست هذه المرة الأولى، كنتُ قد لاحظت ذلك عندما أتيت في المرة الأخيرة. لا أدري في أي مأزق أقحمت نفسك، لكن ثق بخبرتي، هذا من صنف «كندا دراي».

ـ وماذا يعني ذلك؟

ـ إن له هيئة شرطي وتصرف شرطي، لكنه ليس واحداً منهم، صدّقني، هذا النوع من الأشخاص هو من حثالة الناس الصافية.

ـ كيف يمكنك معرفة ذلك؟

ـ لي أبناء عم وراء القضبان، لم يرتكبوا أعمالاً شريرة، تجارة سلع سقطت في غير وقتها من الشاحنة.

قلتُ شاخصاً ببصري من فوق كتفه: أظن أنك وقعت في خطأ.

ـ مثلما تشاء، ولكن حجرتي القائمة في مؤخرة المخزن مفتوحة، إذا غيَّرت رأيك، ثمة باب يطل على الباحة، ومن هناك تستطيع المرور عبر البناية المجاورة والخروج مجدداً إلى الشارع الخلفي.

ـ إنه للطف منك.

ـ مذ بدأت تتسوق هنا، يؤسفني أن أخسر زبوناً أميناً.

عاد التاجر إلى وراء منضدته، أما أنا فاقتربت بمظهري الاعتيادي من باب دوّار قرب الواجهة، أخذت صحيفة منتهزاً الفرصة لإلقاء نظرة باتجاه الطريق. لم يكن صاحب المخزن على خطأ، كان هنالك، أمام مقود سيارة مركونة على امتداد الرصيف المقابل، رجل يبدو أنه يراقبني فعلاً. قررت أن أتحقق من الأمر، فخرجت متقدماً رأساً نحوه. وبينما كنتُ على وشك اجتياز وسط الطريق، سمعت هدير محرك سيارته المغلقة تنطلق مندفعة بسرعة.

كان صاحب المخزن، من الجانب الآخر من الشارع، ينظر إلي هازاً كتفيه. فعدت أسدد له ثمن مشترياتي.

قلت له، ماداً إليه بطاقة ائتماني: لا بد من الاعتراف بأنه غريب جداً.

سألني: ألم ترتكب أي عمل غير مشروع في هذه المدة الأخيرة؟

بدا لي السؤال في غير محله، لكنه كان قد طُرح علي برفق شديد بحيث لم أشعر إطلاقاً بإساءته إلي.

أجبته: ليس على علمي.

ــ عليك أن تترك مشترياتك هنا وتنطلق بسرعة إلى منزلك.

ـ ولماذا؟

ـ لأن هذا المهرج بدا لي كأنه في مهمة مريحة، ربما لتأمين تغطية ما.

ـ أية تغطية؟

ـ إنهم متأكدون أنك، أثناء وجودك هنا، لست في مكان آخر، إذا كنت تعي ما أريد أن أقوله.

ـ وأين لن أكون؟

ـ في بيتك، مثلاً!

ـ أو تعتقد أن...؟

ـ أنك إذا واصلت الثرثرة هكذا، ستصل متأخراً جداً؟ بلا أدنى ريب!

تناولت كيس مؤني وعدت مسرعاً. كان البيت كما تركته، لا أثر لأي خلع للباب ولا شيء في الداخل جاء يعزز افتراضات سمّاني. وضعت مشترياتي في المطبخ وقررت البحث عن كيرا في الأكاديمية.

كانت كيرا تتمطى متثائبة وتفرك عينيها، علامة أنها كدّت كثيراً هذا النهار. أطبقت الكتاب الذي كانت تدرسه

وراحت ترتبه في المكان الصحيح فوق أحد الرفوف. غادرت المكتبة، مرت لإلقاء التحية على والتر في مكتبه وغابت في ثنايا المترو.

سماء رمادية، رذاذ، أرصفة لماعة، مساء شتاء حقيقي في لندن. كانت حركة السير رهيبة. خمس وأربعون دقيقة من العرقلة قبل الوصول إلى المكان المقصود، إضافة إلى عشر دقائق للعثور على موضع لركن السيارة. أقفلتُ باب سيارتي بالمفتاح، حين رأيت والتر خارجاً من الأكاديمية. كان هو أيضاً قد لمحني، فاجتاز الشارع وقدم لملاقاتي.

سألني: هل لديك فسحة من الوقت لتناول كأس؟

ــ دعني أذهب للبحث عن كيرا في المكتبة وسنلحق بك إلى الحانة.

ــ آه، أشك في ذلك، لقد رحلت قبل نصف ساعة، وربما أكثر من ذلك بقليل.

ــ هل أنت متأكد؟

ــ جاءت تمسيني بالخير، وثرثرنا لبضع لحظات في مكتبي. إذاً، ما رأيك في كأس جعة؟

نظرت إلى ساعتي، كانت أسوأ ساعة لمعاودة اجتياز

لندن، لذا سأتصل بكيرا حالما نكون في مأمن لإبلاغها أني سأعود متأخراً بعض الوقت.

كانت الحانة مكتظة بالرواد. زحم والتر الآخرين بمرفقيه ليشق طريقاً له حتى منضدة الشرب. أوصى على مكيالين من شراب «بنتين» وقدم لي واحداً من فوق كتف رجل وفّق في الاندساس بيننا. ثم جرّني إلى مؤخرة القاعة حيث كانت إحدى الطاولات قد تم إخلاؤها. فجلسنا وسط ضجيج يصعب احتماله.

صاح والتر: إذاً، هل كانت موفقة هذه الرحلة القصيرة إلى اسكوتلندا؟

ـ مدهشة... إن كنتَ تحب سمك الرنة. كنت أعتقد أن الطقس بارد في أطاكاما، لكن مناخ «يل» قارس أشد بكثير ورطب للغاية!

ـ هل وجدتما ما كنتما تبحثان عنه؟

ـ بدت كيرا متحمسة، هذا كل ما في الأمر، أخشى أنه ما كان ينبغي لنا العودة بمثل هذه السرعة.

زعق والتر: هذه القصة ستؤول إلى خرابكما.

ـ هذا ما حدث في الحقيقة!

رنّ هاتفي الخلوي في قعر جيبي، فتناولته وألصقته بأذني.

سألتني كيرا بصوت يكاد يسمع: هل فتشتَ أمتعتي؟

ــ طبعاً لا، لماذا علي أن أفعل مثل هذا العمل؟

وهمست: ألم تفتح حقيبة يدي، هل أنت متأكد؟

ــ لقد طرحتِ علي السؤال تواً، الجواب دائماً لا.

ــ هل كنتَ تركت أحد المصابيح مضاء في الغرفة؟

ــ لا كذلك، هل لي أن أعرف ماذا يجري؟

ــ أعتقد أني لست وحدي في البيت...

تجمّد الدم بغتة في عروقي.

صرخت بأعلى صوتي: أخرجي من هناك، كيرا! إرحلي فوراً، أركضي حتى حانوت السمانة في زاوية «أولد برومتن»، لا تلتفتي وراءك وانتظريني هناك، هل تسمعينني؟ كيرا، هل تسمعينني؟

انقطع الاتصال، وقبل أن يتيسر الوقت لوالتر كي يستوعب شيئاً ما، اجتزت قاعة الحانة زاحماً الجميع لدى مروري، واندفعت إلى الخارج. كانت سيارة تاكسي عالقة

في زحمة السير، بينما تهمّ دراجة نارية بتجاوزها، فألقيت بنفسي تقريباً تحت عجلتيها مجبراً سائقها على التوقف. شرحت له أن الأمر يتعلق بمسألة حياة أو موت ووعدته بالتعويض عليه إن أوصلني تواً إلى تقاطع «أولد برومتن» و«كريس ول غاردن». سمح لي بتسلق المقعد، شبّك معدل السرعة واندفع على عجل.

كانت الشوارع تتوالى بأقصى السرعة، «أولد ماري لوبون»، «ادغوير رود»، «ماربل آرتش»، بدا مفترق الطرق الدوار أسود من كثرة الناس، سيارات ركاب وتاكسيات بدت كأنها متداخلة في لعبة «دومينو» لا سبيل إلى الخلاص منها. تسلّق سائقي الرصيف، لم تسنح لي الفرصة غالباً في ركوب الدراجة النارية، لكني كنت أحاول مصاحبته على أحسن وجه ما إن نميل للدخول في منعطف. عشر دقائق من سباق لا نهاية له، واجتزنا «هايد بارك» تحت وابل من المطر، ثم صعدنا «كريج درايف» بين صفين من السيارات، في حين كانت ركبنا تلامس أحياناً هياكلها. «سربنتين، اكزبيشن رود»، مستديرة محطة «مترو ساوث كنسنتن»، وأخيراً ظهر جانب من «أولد برومتن» أكثر ازدحاماً من الجادات السابقة. عند تقاطع «كوينز غيت ميوز»، زاد سائق الدراجة النارية السرعة أيضاً متجاوزاً مفترق الطرق فيما كانت إشارة

الضوء تتحول من البرتقالي إلى الأحمر. كانت شاحنة صغيرة استبقت الضوء الأخضر بحيث بدت الصدمة لا مفر منها. استلقت الدراجة النارية على جانبها وتشبّث سائقها بالمقود، بينما درت أنا على ظهري مندفعاً ناحية الرصيف. وفي انطباع خاطف، خيّل إلي رؤية وجوه المارة الجامدة، وهم شهود على هول المشهد. لحسن الحظ، توقف سباقي من غير صدمات متكررة عند عجلات شاحنة متوقفة. بعد تعرضي للهز والزعزعة، وقفت على قدميّ ولكن في حالة سليمة، فيما كان سائق الدراجة النارية منتصباً على رجليه يحاول رفع دراجته. لم يتسع لي الوقت إلا للقيام بإيماءة عاجلة لشكره، فقد كان زقاقي الضيق لا يزال على بعد مائة متر فعلاً. صرخت كي يتنحى الناس لي عن الطريق، زاحماً زوجين ومعرضاً نفسي للشتائم. أخيراً، لمحت محل السمانة وصلّيت علّ كيرا تكون في انتظاري.

انتفض صاحب المحل حين رآني أظهر هكذا في حانوته. كنت أتصبب عرقاً وألهث، فاضطررت أن أحاول الكلام مرتين ليفهم ما أطلبه منه. لا فائدة من انتظار جوابه، إذ لم يكن هناك سوى زبونة واحدة في مؤخرة المخزن. صعدت الممر بخطى متسارعة وحضنتها برقة بين ذراعيّ. أطلقت المرأة الشابة صرخة مسدّدة إلي صفعتين قويتين، وربما ثلاثاً، لم يتسع لي الوقت لأعدّها.

رفع صاحب المحل هاتفه، وبينما كنت أخرج من عنده، طلبتُ منه أن يخطر الشرطة ولتتوجهْ بأسرع ما يمكن إلى 24 كريس ول بلاس.

هنا وجدتُ كيرا جالسة على الحاجز أمام بابي.

فسألتني: ما بالك، خداك قرمزيان، هل وقعت؟

أجبتها: على شخص يشبهكِ... من الخلف.

ــ سترتك ممزقة كلياً، ماذا دهاك؟

ــ كنت سأطرح عليك السؤال نفسه.

قالت كيرا: أخشى أن يكون أحدهم زارنا أثناء غيابنا. وجدت حقيبتي مفتوحة في غرفة الاستقبال، وكان اللص لا يزال في البيت عندما دخلت وسمعت وقع خطوات في الشقة.

ــ هل رأيته ينصرف؟

اصطفت سيارة للشرطة أمامنا، وخرج منها ضابطان. شرحت لهما أن لدينا أسباباً وجيهة للاعتقاد أن لصاً كان في بيتي. أمرانا بالبقاء على انفراد ودخلا لاستكشاف الأمكنة.

خرج الشرطيان بعد دقائق بخفيّ حنين. وعلى افتراض أن لصاً كان هنا، فلا بد أنه لاذ بالفرار عبر الحديقة، إذ إن الطابق الأول ليس عالياً جداً في هذه البيوت الصغيرة القديمة التي لا يكاد ارتفاعها يتجاوز المترين، وعشب أخضر كثيف تحت النوافذ يخفف من وقع السقوط. فكرت مجدداً في قبضة الباب هذه التي ما كنت أصلحتها بعد، فمن المرجح أن يكون اللص قد دخل من الجزء الخلفي.

كان لا بد من إعداد قائمة بما تمت سرقته والعودة إلى مخفر الشرطة للتوقيع على شكوى. وعدنا رجال الشرطة بالقيام بجولة تفتيشية وإعلامي في حال إلقاء القبض على أحد.

فتشنا أنا وكيرا كل غرفة. كانت مجموعة آلاتي التصويرية كاملة، ومحفظة النقود التي أتركها دوماً في مفرّغة الجيوب عند المدخل في مكانها، ولم يطرأ تغيير يذكر على شيء. وبينما كنت أتفحص غرفتي، نادتني كيرا من الطابق الأرضي، قائلة لي:

ــ إن باب الحديقة مقفل. أنا التي أقفلتها بالمزلاج مساء البارحة. إذاً، كيف دخل هذا اللص؟

ــ هل أنت متأكدة من أن شخصاً ما كان هنالك؟

ـــ أنا متيقنة تماماً، إلا إذا كان بيتك مسكوناً بالأشباح.

ـــ إذاً من أين دخل هذا اللص العجيب؟

ـــ لست أدري شيئاً على الإطلاق، أدريان!

وعدتُ كيرا أن لا شيء سوف يكدر صفو عشائنا كعاشقين وقد حرمنا منه عشية البارحة. المهم ألا يكون أمر ما حدث لها، لكني كنت قلق البال. ربما تكون استعادت النفس ذكريات الصين الأليمة، فاتصلتُ بوالتر لأقاسمه همومي، غير أن خطه كان مشغولاً.

أمستردام

كلما كان فاكيرز يمر بقاعة قصر «دام» الكبرى، يُعجب لجمال الخرائط الفلكية المنحوتة على الأرضية الرخامية، حتى لو أنه كان يفضل الرسم الثالث، ذاك الذي يمثّل خريطة للنجوم جبارة. خرج إلى الشارع وعبر الساحة. كان الليل قد هبط وبدأت مصابيح الشوارع تشتعل ومياه أقنية المدينة الهادئة تعكس هالاتها. صعد شارع هوغ ستراث ليعود إلى بيته. كانت دراجة نارية ضخمة مركونة فوق رصيف على مستوى الرقم 22 وثمة امرأة تدفع عربة لندو، ابتسمت لفاكيرز فردّ عليها بابتسامة متابعاً طريقه.

خفض سائق الدراجة النارية واقية خوذته والراكب الذي خلفه أيضاً. هدر المحرك فاندفعت الدراجة في الممر الجانبي.

كان عاشقان شابان متعانقين، وقد أسندا ظهريهما إلى شجرة. وكانت شاحنة صغيرة بجانب سيارة أخرى تعرقل السير، بحيث وحدها الدراجات الهوائية كان في وسعها التسلل.

أمسك الراكب خلف الدراجة النارية بالهراوة المخيفة داخل كم قميصه. التفتت المرأة الشابة التي كانت تدفع العربة وكفّ الزوجان العاشقان عن تبادل القبلات.

كان فاكيرز يعبر جسراً عندما أحس بغتة بطعنة هائلة في وسط ظهره. انقطع نفَسه ولم يعد الهواء يصل إلى رئتيه. سقط فاكيرز على ركبتيه، حاول أن يتمسك بعمود مصباح الشارع، لكن عبثاً، لقد انهار وجهه تجاه الأرض. شعر بطعم الدم في فمه وفكر أنه عضّ لسانه وهو يتهاوى. ما كان تألم قط بمثل هذا القدر من الألم. كان الهواء، أثناء كل شهيق، يحرق رئتيه، بينما كان أسفل ظهره الممزق يسيل الدم منه بغزارة، ويضغط النزيف الداخلي على قلبه بشكل متزايد من ثانية إلى أخرى.

أحاط به صمت غريب، إلا أنه تمكن من استجماع القليل من القوى التي بقيت فيه ورفع رأسه. اندفع بعض المارة لنجدته، وسمع زعيق صفارة إنذار في البعيد.

لم تعد المرأة ذات العربة هنالك، والزوجان العاشقان اختفيا، أما الراكب خلف الدراجة النارية فقام بحركة مشينة بيده، بينما دارت الدراجة الضخمة حول زاوية الشارع.

أمسك فاكيرز بهاتفه الخلوي في قعر جيبه، ضغط على ملمس وأدنى الجهاز من أذنه وترك رسالة نصية على

جهاز إيفوري المجيب.

همس قائلاً: أنا معك، أخشى أن صاحبنا الإنكليزي لم ترقه إطلاقاً الحيلة التي دبّرناها له.

حالت نوبة سعال دون مواصلة كلامه؛ كان الدم يسيل من فمه، فأحسّ بفتوره وهذا ما أفاده، كما شعر بالبرد وأخذ الوجع يشتد أكثر فأكثر. عندها قطّب فاكيرز وجهه.

«لن نستطيع، للأسف، أن نلعب بعد الآن معاً، فسأشتاق إلى ذلك، يا عزيزي، كما آمل أن تشتاق أنت أيضاً».

نوبة سعال جديدة، حرقة جديدة لا تحتمل، زلق الهاتف من بين أصابعه، لكنه تمكن بالكاد من الإمساك به:

«إني سعيد للهدية الصغيرة التي قدّمتها لك في المرة الأخيرة التي تلاقينا فيها، أحسنْ استعمالها. سوف أشعر بشوق إليك، يا صديقي القديم، أكثر من شوقي إلى مبارياتنا. كن على جانب كبير من الحذر واعتنِ بنفسك».

أحسّ فاكيرز بقواه تفارقه، محا الرقم الذي ألّفه لتوه. ثم ارتخت يده ببطء، ولم يعد يرى ويسمع شيئاً، لقد هوى رأسه على الزفت.

باريس

كان إيفوري راجعاً إلى شقته الباريسية، بعد عرض مسرحي سبّب له مللاً شديداً. علّق معطفه في المدخل ومضى يبحث في الثلاجة عما يستطيع قضمه. أخرج صحن فاكهة، سكب لنفسه شراباً وقصد غرفة الاستقبال. ثم حلّ ــ لما جلس على الأريكة ــ رباط حذائه ومدّ ساقيه اللتين كانتا تؤلمانه. فتش عن جهاز التحكم بالتلفزيون عن بعد ولاحظ وميض ضوء جهازه المجيب، فقام منشغل البال وضغط على زر، ليتعرف في الحال إلى صوت صديق قديم.

في ختام الرسالة، أحس إيفوري بساقيه تخوران. تعلّق بالمكتبة جارفاً معه بعض الكتب القديمة التي سقطت على الأرضية الخشبية المصقولة بالشمع. استعاد توازنه وكزّ فكيه بأقصى ما أوتي من قوة، ولكن بلا جدوى، كانت الدموع تتدحرج على خديه. عبثاً حاول تبديدها بظاهر يده، لم يتمكن من السيطرة بسرعة على النشيج الذي كان يهزه وهو ما زال مقيماً في المكتبة.

تناول بحثاً قديماً في علم الفلك، قلّب غلافه ليعاين صفحة الوقاية، حيث كانت خريطة النجوم مطبوعة بطريقة غير مباشرة يعود تاريخها إلى القرن السابع عشر؛ أعاد

قراءة الإهداء الموجه إليه:

«أعرف أن هذا الكتاب سينال إعجابك، لأن كل شيء يتوافر فيه ولا ينقصه شيء، حتى الشهادة على صداقتنا».

شريكك المخلص في لعب الشطرنج.

فاكيرز

في الصباح الباكر، أقفل إيفوري حقيبته، أغلق باب شقته وراءه متوجهاً إلى المحطة ليستقل أول قطار على وشك الانطلاق إلى أمستردام.

لندن

كانت الوكالة اتصلت بي في بداية الصباح معلنة أن تأشيرتينا جاهزتان أخيراً، وأن باستطاعتي سحب جوازَي سفرنا. كانت كيرا مستغرقة في النوم، فقررت الذهاب إلى هناك وشراء حليب وخبز طازج في الطريق. كان البرد قارساً وشوارع «كرس ول بلاس» زلقة. عند وصولي إلى زاوية الشارع، أومأتُ إيماءة خفيفة إلى السمان الذي ردّ على تحيتي الصباحية بغمزة من عينه، عندها رنّ هاتفي. لم يكن على كيرا أن تقرأ الكلمة الموجزة التي تركتها لها في المطبخ. سمعت، على الرغم من دهشتي، صوت مارتن.

قال: أنا متأسف لما حدث ذلك النهار.

ــ لا تتأسفْ، كنتُ قلقاً على ما جرى لك فأصبحتَ سيئ المزاج.

ــ كدتُ أفقد وظيفتي، أدريان، بسببك أنت، أخيراً بسبب تلك الزيارة الخاطفة التي قمتَ بها إلى المرصد، وجرّاء بعض الأبحاث التي أجريتها لك بفضل الوسائل المتوافرة لدينا في جودرل.

ــ ولكن، ماذا تخبرني؟

ــ بذريعة سماحي بالدخول لأحد الأشخاص الذين لا يُعتبرون في عداد الموظفين، وهو في هذه الحال صديقك والتر، هددوني بصرفي من العمل متذرعين بارتكابي خطأ مهنياً جسيماً.

ــ ولكن من هم هؤلاء؟

ــ هم أولئك الذين يموّلون المرصد، حكومتنا.

ــ على كل حال، لم تكن هذه الزيارة مهمة إطلاقاً، يا مارتن، ثم أنا ووالتر عضوان من أعضاء الأكاديمية، لذا لا معنى لما جرى!

ــ بلى، أدريان، لهذا السبب فكرتُ طويلاً قبل الاتصال بك، ولهذا السبب أيضاً أتصل بك هذا الصباح من غرفة عمومية للهاتف. لقد أفهموني بوضوح أنه يحظر عليّ من الآن فصاعداً الاستجابة لأي طلب من مطالبك، كما تُمنع من الدخول إلى مقراتنا منعاً باتاً. لم أعلم بصرفك من الخدمة إلا البارحة، وأنا لا أدري ما الذي ارتكبتَه، ولكن تباً لك، أدريان، لا يمكن طرد شخص يتمتع بمثل صفاتك، فلا تتصرف هكذا، وإلا فإن حياتي المهنية معلقة بخيط واهٍ، وأنت أكثر كفاءة مني عشرة أضعاف!

ــ إنه للطف منك، مارتن، وإفراط في الإطراء، ولكن إذا كان هذا يطمئنك، فأنت بالفعل الشخص الوحيد الذي فكرتَ في الأمر. لا أدري ما يجري، وهم لم يقولوا لي إني مطرود، وإنما فقدتُ مؤقتاً فقط تثبيتي في العمل.

ــ افتح عينيك جيداً، أدريان، إنهم بصراحة طردوك. وقد استلمت إنذارين يتعلقان بك، ولم يعد يُؤذن لي بالحديث إليك هاتفياً، إن رؤساءنا فقدوا رشدهم.

أجبته بلهجة إنسان مضحك لا يَضحك: لكثرة أكل اللحم المشوي جميع أيام الآحاد والسمك مع البطاطا المقلية طيلة السنة، كان لا بد أن يحدث ما حدث.

ــ لا شيء مضحكاً في كل هذا، أدريان، ولكن ماذا سيكون مصيرك أنت؟

ــ لا يضطرب بالك، مارتن، لم يعرض عليّ أي اقتراح بوظيفة في الأجل المنظور، كما لم يعد لي تقريباً مال في المصرف، لكنني منذ بعض الوقت أستيقظ بقرب المرأة التي أحبها، وهي تدهشني، تضحكني، تزاحمني وتستأثر باهتمامي، ويستهويني حماسها على مدى النهار وفي المساء عندما تخلع ثيابها تجعلني... لا أدري كيف أعبّر لك... تحرك مشاعري، وهكذا ترى أني لا أستحق الشفقة وأقول لك صادقاً، بمعزل عن التبجح، أني ما كنت سعيداً

إلى هذا الحد في يوم من أيام حياتي.

ــ أنا مغتبط لذلك، أدريان. إني صديقك، وأشعر بالذنب لأني أذعنتُ للضغوط وقطعت كل صلة بك. إفهمني جيداً، لا أسمح لنفسي بفقدان وظيفتي، وما من امرأة تشاركني سريري عند المساء، ولا يستهويني في الحياة إلا حبي لمهنتي. إذا احتجت إلى التكلم معي، أترك لي رسالة في المكتب باسم جلليغن. وسوف أتصل بك، إن تتاح لي الفرصة.

ــ ومن هو جلليغن هذا؟

ــ إنه كلبي، كلب قصير القوائم من منطقة «آرتوا». اضطررتُ إلى تلقيحه العام الماضي. إلى اللقاء قريباً. يا أدريان.

كنتُ قد أقفلت الهاتف لتوي بعد مكالمة شغلت بالي، وإذا بصوت من وراء ظهري جعلني أنتفض وسط الشارع.

ــ أتفكر كل هذا في شأني أنا؟

درت إلى الوراء ورأيت كيرا. كانت قد استعارت إحدى كنزاتي ولبست معطفي فوق كتفيها.

ــ وجدتُ كلمتك الموجزة في المطبخ، ورغبت في

اللحاق بك إلى الوكالة لكي ترافقني لتناول الفطور، فعندما استيقظت من النوم لم أجد في ثلاجتك إلا بعض الخضار والكوسى... كنتَ مستغرقاً في حديثك، فدنوتُ بهدوء لأفاجئك وأنت في زحمة الثرثرة مع عشيقك.

جررتُها إلى مقهى حيث كانوا يقدمون فطائر «الكرواسان» الشهية، في حين أن جوازَي السفر باستطاعتهما أن ينتظرا.

ــ إذاً، هكذا عندما أخلع ثيابي في المساء أجعلك تتوتر؟

ــ أليس لديك أمتعة خاصة بك. أم أن لملابسي سحراً خاصاً يجتذبك؟

ــ مع من كنت على الهاتف لتحدّثه عني بطريقة مفصّلة إلى هذه الدرجة؟

ــ صديق قديم. أعلم أنك سترين الأمر غريباً، ولكن كان في الواقع قلق البال لأنيَ فقدتُ عملي.

دخلنا المقهى، وبينما كانت كيرا تلتهم بنهم فطيرة كرواسان ثانية باللوز، رحتُ أسأل نفسي ما إذا كان من الحكمة إشراك كيرا في همومي، وهي لا تمتّ بصلة إلى وضعي المهني.

بعد غد، سنكون في الطائرة إلى موسكو، لم تكن فكرة الابتعاد عن لندن لتثير كراهيتي.

أمستردام

لم يكن في هذا الصباح أحد تقريباً في هذه المقبرة، إن صح القول، لا أحد تقريباً لتعقّب عربة الموتى التي كانت تواكب نعشاً طويلاً مطلياً بالبرنيق. كان رجل وامرأة يمشيان بخطى متباطئة خلف العربة. ما من كاهن يترأس الرتبة الدينية أمام القبر، بل أربعة موظفين من والبلدية أنزلوا النعش بقطع حبال طويلة. وعندما لامس قعر الحفرة، رشقت المرأة وردة بيضاء وحفنة تراب، وفعل الرجل الذي كان يرافقها الشيء نفسه، ثم سلّم عليها وانطلق كل منهما في اتجاه معاكس.

لندن

جمع سير آشتون مجموعة الصور الفوتوغرافية المصفوفة فوق مكتبه، رتّبها في ظرف وأطبق ثنيته.

ــ إنك جميلة جداً في هذه الصور، إيزابيل، يلائمك الحداد كل الملاءمة.

ــ ليس إيفوري مغفلاً.

ــ آمل ذلك، كان ينبغي توجيه رسالة إليه.

ــ لا أدري إن كنتِ...

ــ لقد طلبتُ منك أن تختاري بين فاكيرز والعالمَين الشابين، فاخترت العجوز! فلا تأتيني الآن لتنهالي عَليّ باللوم.

ــ هل كان ذلك ضرورياً؟

ــ لا أفهم حتى أنك كنت تطرحين على نفسك السؤال! هل أنا الوحيد الذي عليه أن يقدّر عواقب أعماله؟ أتلاحظين ما الذي كان سيحدث لو بلغ هذان المحميان أهدافهما؟ أو تعتقدين أن الرهان لا يستحق التضحية بالسنوات الأخيرة من عمر عجوز؟

ــ أعرف، آشتون، فقد سبق أن قلته لي.

ــ لست عجوزاً معتوهاً وسفاك دماء، ولكن حينما تتطلب ذلك المصلحة العليا، فلا أتردد. لا أحد منا، ومن بيننا أنت، لا يتردد. إن القرار الذي اتخذناه قد ينقذ الكثير من حيوَات الناس، بدءاً بحياة هذين المستكشفين، إلا إذا عقد إيفوري العزم على الرفض. لا ترمقيني هكذا، إيزابيل، أنا لم أتصرف قط إلا لمصلحة العدد الأكبر من الناس، وربما لن تفتح لي مهنتي أبواب الجنة، ولكن...

ــ أرجوك، آشتون، لا تكن ساخراً، ليس بالأخص اليوم. حقاً كنتُ أحب فاكيرز حباً جماً.

ــ وكذلك أنا كنت أقدره كثيراً، حتى لو كانت لكل منا آراؤه. كنت أحترمه وأريد أن آمل أن هذه التضحية التي كلفتني كثيراً مثلما كلفتك أنت، ستحقق النتائج المرجوة.

ــ صباح البارحة، بدا إيفوري مثبّط العزيمة، ما رأيته قط في مثل تلك الحال، لقد تقدم في السن عشر سنوات خلال ليلة واحدة.

ــ لو استطاع أن يتقدم عشر سنوات أكثر وينتقل من الحياة إلى الموت لكان ذلك يلائمنا تماماً.

ــ لماذا لم تضحِّ به هو بدلاً من إلقاء اللوم على

فاكيرز؟

ـ لدي أسبابي!

ـ لا تقل لي إنه نجح في الاحتماء منك، كنت أظنك فوق النقد والتجريح؟

ـ لو حدث ومات إيفوري، لكان ذلك ضاعف حوافز عالمة الآثار هذه. إنها حادة الطبع وماكرة جداً لتؤمن في حادث. كلا، أنا على يقين من أنك قمت بالخيار الموفق، لقد سحبنا البيدق الذي توجّب سحبه؛ لكني أحذرك، إذا كانت نتيجة الأحداث تتهمك، وتواصلت الأبحاث، فلستُ في حاجة لأن أسمّي لك الشخصين القادمين اللذين سيكونان في مرمانا.

تنهدت إيزابيل: أنا متأكدة من أن إيفوري فهم الرسالة.

ـ في حال العكس، ستكونين أول الأشخاص المطلعين، فأنت الوحيدة التي ما زال يضع ثقته فيك.

ـ كان رقمنا الصغير في مدريد منظماً تماماً.

ـ لقد سمحتُ لك بترؤّس المجلس، فأنت مدينة لي بذلك.

ـ لا أتصرف اعترافاً بالجميل تجاهك، يا آشتون، ولكن

لأني أشاطرك وجهة نظرك. ما زال من السابق لأوانه أن يطلع العالم عليه، من السابق جداً لأوانه. نحن لسنا مستعدين.

تناولت إيزابيل حقيبتها متوجهة ناحية الباب. قبل خروجها سألت:

ــ وهل علينا أن نسترد القطعة التي تخصّنا؟

ــ لا، إنها في حرز حريز حيث هي، والآن ربما أكثر من أي وقت مضى بسبب وفاة فاكيرز. ثم لا يعرف أحد كيفية الوصول إليها، وهذا ما كنا نتمناه فعلاً. لقد حمل معه سرّه إلى القبر، وهكذا اكتمل كل شيء.

هزّت إيزابيل رأسها وفارقت سير آشتون. وبينما كان كبير الخدم يشيّعها إلى باب الفندق الخاص، دخل أمين سر سير آشتون مكتبه حاملاً مغلفاً بيده. فضّه آشتون ورفع رأسه.

ــ متى حصلا على هاتين التأشيرتين؟

ــ قبل البارحة، سيدي، لا بد أنهما الآن في هذه الساعة داخل الطائرة، في الواقع لا. صحّح أمين السر خطأه وهو ينظر إلى ساعته قائلاً: لقد سبق أن هبطا في شريمتيافو.

ــ كيف جرى أننا لم نبلّغ بذلك قبل الأوان؟

ــ لست أدري، لكني سأجري تحقيقاً دقيقاً إن كنت راغباً في ذلك. أتريد أن أستدعي مدعوتك ثانية، فهي ما زالت بين جدراننا؟

ــ لا تقم بعمل ما، إنما في المقابل، بلّغ رجالنا المنتشرين في الساحة. لا ينبغي لهذين العصفورين أن يطيرا في مطلق الأحوال أبعد من موسكو. لقد بلغ السيل الزبى. وليغتالوا الفتاة، فمن دونها عالم الفيزياء الفلكية ليس بإنسان مؤذٍ.

ــ بعد التجربة المؤسفة التي اختبرناها في الصين، هل أنت متأكد أنك تريد أن تتصرف بالطريقة ذاتها؟

ــ لو كان في مستطاعي التخلص من إيفوري، لما ترددت لحظة، لكن ذلك مستحيل، ولست متيقناً أن موته سيحلّ مشكلتنا نهائياً. إعملْ كما طلبت منك، وقل لرجالي ألا يبخلوا في الاستفادة من الإمكانيات المتوافرة. هذه المرة أفضّل الفعالية على الحذر.

ــ في هذه الحال، هل يتوجب علينا إبلاغ أصدقائنا الروس؟

ــ سأتكفل بذلك.

انصرف أمين السر.

شكرت إيزابيل كبير الخدم الذي فتح لها باب سيارة التاكسي، واستدارت لتنظر إلى الواجهة المهيبة لمسكن سير آشتون اللندني. وطلبت من السائق أن يوصلها إلى مطار المدينة.

نظر إيفوري، وهو جالس على مقعد طويل في المنتزه العام الصغير الكائن قبالة المنزل الفيكتوري بالضبط، نظر إلى السيارة وهي تبتعد. كان الرذاذ قد بدأ ينهمر. اتكأ على مظلته لينتصب واقفاً وانطلق بدوره.

موسكو

كانت غرفة فندق انتركونتيننتال تفوح منها رائحة تبغ بارد. فور وصولها، فتحت كيرا النافذة على سعتها، بالرغم من درجة الحرارة التي تقارب الصفر.

ــ أنا متأسف، إنها الغرفة الوحيدة الشاغرة.

ــ تنتشر فيها رائحة سيكار لا تُحتمل.

أردفتُ: وهو من الصنف الرديء. أتريدين أن نغير الفندق، وإلاّ يمكنني أن أطلب أغطية إضافية أو سترتين واقيتين من البرد؟

ــ لا نبدّدنَّ الوقت، بل لنذهب فوراً إلى جمعية علماء الآثار؛ كلما سارعنا في وضع اليد على إيغوروف، تمكّنا من الانطلاق بسرعة من هنا. كم أنا مشتاقة إلى عطور وادي «أومو»!

ــ لقد وعدتكِ أننا سنعود يوماً إليه، حالما ننتهي من كل هذا.

تمتمت كيرا، مغلقة الباب: إني لأتساءل أحياناً هل سيكون لكل هذا، كما تقول نهاية يوماً ما؟

سألتها في المصعد: وهل لديك عنوان جمعية علماء الآثار؟

ــ لا أدري لماذا يواصل ثورنستن تسميتها هكذا، مع أن جمعية علماء الآثار أعيدت تسميتها أكاديمية العلوم في نهاية خمسينات القرن الماضي.

ــ أكاديميةِ العلوم؟ يا للاسم الجميل، قد أستطيع أن أجد فيها عملاً لي، من يدري.

ــ في موسكو؟ ثم ماذا بعد؟!

ــ أتعرفين، كنتُ في أطاكاما قد تمكّنت من العمل وسط وفد روسي، النجوم لا تبالي بذلك كلياً.

ــ طبعاً، ثم قد يكون هذا نافعاً لعلاقاتك، لا بد أن تريني كيف تضرب على حلقة للمفاتيح بالحروف الروسية.

ــ أن يكون الحق في جانبك، أحاجة هو عندك أم هاجس متسلط؟

ــ ليس الأمران متعارضين! لننطلق الآن.

كانت الريح ثلجية، فقبعنا داخل سيارة تاكسي. شرحت كيرا للسائق وجهتنا على وجه التقريب، لكنه لم يفهم كلمة واحدة، فبسطت مخططاً للمدينة وأشارت إلى العنوان على

الخريطة. إن الذين يتحدثون عن قلة لطافة سائقي تاكسيات باريس لم يجربوا قط حظهم في موسكو. كان الجليد الشتوي قد تشكل في الشوارع. مع ذلك، ما بدا أن الأمر ضايق سائقنا، فسيارته الـ «لادا» القديمة تنزلق في الغالب إلى الخلف، لكنه كان بحركة طفيفة من مقوده يعيدها إلى خط السير.

قدمت كيرا نفسها عند مدخل الأكاديمية وعرّفت بهويتها وبمهنتها كعالمة آثار فوجهها الحارس ناحية أمانة السر الإدارية. استقبلتنا مساعدة أبحاث شابة تتحدث الإنكليزية بلباقة وبطريقة ودية للغاية. شرحت كيرا لها أننا نحاول الاتصال بأستاذ يدعى إيغوروف كان قد أدار جمعية علماء الآثار في الخمسينات من القرن الماضي.

استغربت المرأة الشابة، إذ أنها لم تسمع قط الكلام على مثل هذه الجمعية، وما كانت مجموعة بطاقات أكاديمية العلوم يعود تاريخ تأسيسها إلى أبعد من العام 1958. طلبت منا أن نتحلى بطول الأناة ورجعت بعد نصف ساعة بصحبة أحد رؤسائها، كان الرجل يناهز الستين من عمره. قدّم نفسه وطلب منا أن نرافقه إلى مكتبه. سلّمت علينا المرأة الشابة التي تدعى «اسفتلانا»، وكانت إلى ذلك بارعة الجمال. سدّدت كيرا ضربة من رجلها إلى بطة

ساقي، وهي تسألني إن كنت محتاجاً إلى مساعدتها للحصول على إحداثياتها.

تنهدتُ، وأنا أدلك عظم ساقي: لا أفهم عما تتكلمين.

ـ هل تحسبني غبية؟!

كان المكتب الذي دخلناه من المحتمل أن يثير الحسد عند والتر، إذ كانت نافذة كبيرة تسمح بدخول الضوء الصافي، وتتساقط ندف ثلج كبيرة وراء الزجاج.

دعانا الرجل إلى الجلوس، معلناً: ليس هذا الموسم الأفضل لزيارتنا. إنهم يتوقعون عاصفة ثلجية عتية هذه الليلة، أو صباح غد على أبعد تقدير.

فتح الرجل زجاجة «ترموس» وقدم لنا قدحا شاي ساخن، ثم قال:

ـ ربما وجدت أثر صاحبكما إيغوروف، هل لي أن أعرف لماذا تتمنيان لقاءه؟

ـ أقوم بأبحاث حول الهجرات البشرية في سيبيريا إبان الألف الرابع، وقد أفهموني أنه على اطلاع واسع على الموضوع.

قال الرجل: هذا جائز، حتى ولو أني أبدي بعض

التحفظات.

سألت كيرا: ولماذا؟

ــ كانت جمعية علماء الآثار اسماً مستعاراً للدلالة على فرع خاص جداً من فروع المخابرات السرية. ولم يكن رجال العلم، أثناء الحقبة السوفياتية، أقل تعرضاً للرقابة من الآخرين، وإنما العكس تماماً. كانت مهمة هذه الخلية، تحت ستار هذه التسمية الطريفة، تعداد الأعمال الجارية في ميدان علم الآثار وبنوع أخص إعداد جردة ومصادرة كل ما من شأنه أن يخرج من الأرض، وقد اختفت أشياء كثيرة... إزاء دهشتنا، أضاف الرجل: ثمة عامل الفساد وجاذب كسب المال. كانت الحياة قاسية في هذه البلاد، وما زالت كذلك إلى اليوم، ولكن اعلما أن قطعة ذهبية واحدة عثر عليها في ذلك الزمان، كانت قادرة على تأمين العيش لصاحبها خلال أشهر، وكذلك الأمر بالنسبة إلى الأحافير التي كانت تعبر الحدود بأسهل مما يعبر الناس. منذ عهد بطرس الأكبر الذي اعتبر المحرّض الحقيقي الأول على بدء الأبحاث الأثرية في روسيا، لم يتوقف تراثنا عن التعرض للسطو. والمنظمة الراقية ــ التي أنشأها خروتشوف لحمايته ــ انتهى بها الأمر، للأسف، إلى أكبر عمليات تهريب للآثار القديمة شهدتها البلاد. فما أن كانت

تُستخرج الكنوز التي تحويها أرضنا، حتى يتم تقاسمها بين أعضاء الحزب الشيوعي السوفياتي، فتنطلق لتغذية مجموعات المتاحف الغربية الغنية، هذا إن لم تكن تُباع من أفراد معينين. كان جميع الناس على امتداد السلسلة يخدمون أنفسهم بأنفسهم بدءاً من عالم الآثار الأساسي وصولاً إلى رئيس البعثة، مروراً بموظفي جمعية علماء الآثار الذين يفترض فيهم أن يراقبوهم. من المرجّح أن صاحبكما فلادنكو إيغوروف كان أحد الأسماك الكبيرة داخل تلك الشبكات المشؤومة حيث كانت كل المؤمرات مباحة، بما فيها القتل، وهذا أمر طبيعي. إذا كان حديثنا يدور حول الرجل نفسه، فإن هذا الذي تنويان سؤاله هو مجرم قديم مدين بحريته للشخصيات النافذة في السلطة، وهم زبائن ممتازون لا بد أنهم حزنوا لإحالته على التقاعد. إن كنتما راغبين في معاداة جميع علماء الآثار الشرفاء المجايلين لي، حسبكما أن تذكرا لهم اسمه. كما كنت أريد، قبل أن أعطيكما عنوانه، أن أعرف أي نوع من الأدوات تأملان في إخراجه من روسيا. أنا على يقين من أن هذا الأمر يهم الشرطة إلى أقصى حد، إلا إذا كنتما تفضلان أن تخبرونهم بنفسيكما، سألهما الرجل رافعاً هاتفه.

صرخت كيرا، واضعة يدها على قرص الهاتف: إنك تخطئ، لا يتعلق الأمر بالتأكيد بصاحبنا إيغوروف... بل هو

سميّ له!

حتى أنا ما استطعت أن اصدّق كلمة واحدة من حديثه. ابتسم مضيفنا وأعاد تأليف الرقم الذي كان على وشك طلبه.

ــ هيا توقف، تباً لك، أو تعتقد أنني لو كنت أتعاطى تهريب العاديات، سآتي لطلب عنوان تاجري من أكاديمية العلوم؟ هل تنّم هيئتي أني غبية إلى هذا الحد؟

قال الرجل، معيداً الجهاز إلى مكانه: عليّ أن أعترف أن المسألة تفتقر إلى دقة تفكير. ثم أردف: من أوصاكما به ولأي هدف؟

ــ عالم آثار قديم، وللأسباب التي شرحتها لك بصدق.

ــ إذاً، لقد سخر منكما تماماً، لكن في استطاعي ربما أن أفيدكما أو أن أجعلكما على صلة بأحد اختصاصيينا في هذا المجال. وقد أبدى العديد من مساهمينا اهتماماً بالهجرات البشرية التي أعمرت سيبيريا، حتى أننا نُعدّ مؤتمراً حول هذا الموضوع في الصيف القادم.

أجابت كيرا: إني في حاجة للقاء هذا الرجل، لا العودة إلى الكلية. فأنا أبحث عن دلائل، وقد يكون تاجركم الزائف قد جمعها في كيسه.

ـ هل لي برؤية جوازَي سفركما؟ لئن وجب علي أن أساعدكما على الاتصال بهذا النوع من الأشخاص، أريد على الأقل أن أبلّغ الجمارك عن اسميكما، لا تحملا ذلك محمل السوء، إنه شكل من أشكال حمايتي الشخصية. ولا أرغب في أي حال، وبالرغم من إتيانكما إلينا، أن أشارككما لا بل أن أُتَهم خصوصاً بالتواطؤ معكما. إذاً واحدة بواحدة، أعطياني نسخة مصورة عن أوراقكما الثبوتية وأنا أبوح لكما بالعنوان الذي تبحثان عنه.

قالت كيرا: أخشى ألا نضطر إلى العودة ثانية، فقد أودعنا الفندق جوازَي سفرنا لدى وصولنا قبل قليل ولمّا نستردّهما.

قلتُ، مشاركاً في الحديث: إنها الحقيقة، هما في فندق المتروبول، اتصل بمكتب الاستقبال إن كنت لا تصدّقنا، فلعل بمستطاعه أن يرسل إليك بالفاكس الصفحات الأولى منهما.

قُرع الباب، فتبادل شاب بضع كلمات مع محدثنا.

قال: المعذرة منكما، سأعود بعد لحظات، استعملا الهاتف الموضوع فوق المكتب واطلبا أن يرسلوا إلي بالفاكس أوراقكما الثبوتية على هذا الرقم.

خربش سلسلة من الأرقام على قطعة ورقة وقدّمها إلي قبل أن يخرج. بقينا أنا وكيرا وحدنا.

ــ ثورنستن، يا له من معتوه!

ــ في الوقت نفسه، دافعتُ عنه مع أنه لم يكن على صواب إذ وشى بماضي صديقه، ثم لا شيء يدل على أنه شاركه تجارته.

ــ والمائة دولار، هل تعتقد أنها لشراء ملبّسات؟ أتعلم ماذا يمثّل ذلك مائة دولار في أعوام الستينات؟ قم بهذا الاتصال ولنرحل من هنا، هذا المكتب يضايقني.

وإذ لم تبدر مني أية حركة، رفعت كيرا بنفسها السماعة، فانتزعتُ الجهاز من يدها لأضعه مجدداً على قاعدته.

قلت لها: لا يعجبني هذا إطلاقاً، إطلاقاً.

ثم نهضتُ، متقدماً ناحية النافذة.

سألتني كيرا: هل لي أن أعرف ماذا تفعل؟

ــ كنت أعاود التفكير في ذلك الافريز على «جبل هوا سهان» على ارتفاع ألفين وخمسمائة متر، هل تذكرين؟ فهل تلمسين في نفسك القوة على تكرار المحاولة بطابقين

اثنين فقط تحت قدميك؟

ـ عمَّ تحدثني؟

ـ أظن أن محدثنا توجه لاستقبال رجال الشرطة على درج الأكاديمية الخارجي، وأفترض أنهم سيأتون لإلقاء القبض علينا خلال دقائق، سيارتهم مركونة في أسفل الشارع تماماً، وهي من طراز «فورد» يعلو سقفها جهاز إنارة جميل. أغلقي مزلاج الباب واتبعيني!

أدنيتُ كرسياً من الحائط، فتحت النافذة وقدّرت المسافة التي تفصلنا عن سلم النجاة القائم في زاوية المبنى. قد يجعل الثلج الافريز زلقاً، لكننا سنتمكن من السيطرة على الوضع بين الحجارة المنحوتة في الواجهة بشكل أفضل مما قمنا به على حواجز جبل هوا سهان الملساء. ساعدتُ كيرا على تسلق حافة الجدار ثم تبعتُها. وبينما كنا نهم بالسير على الحاجز الأمامي، سمعت دقدقة على باب المكتب، لم أفسح لهم وقتاً طويلاً قبل أن يكتشفوا عملية فرارنا.

كانت كيرا تنتقل على امتداد الحائط بسرعة مذهلة، لكن الريح والثلج يعيقان تقدمها، ظلت مع ذلك صامدة وكذلك صمدت بدوري. بعد بضع دقائق، كنا نتعاون على تجاوز درابزين سلم النجاة. كان لا يزال أمامنا هبوط خمسين

درجاً من الحديد المشغول مغطاة بالجليد. انبطحت كيرا على طولها فوق سطيحة الطابق الأول، وتعلقت بالدرابزين مطلقة الشتائم وهي تهم بالنهوض. صُعق مستخدم التنظيفات الذي كان ينظف ممشى الأكاديمية الكبير، عندما رآنا نمر من الجانب الآخر من الزجاج، فوجهتُ إليه إشارة صغيرة مطمئنة وأمسكت بكيرا. كان الجزء الأخير من الدرج يتألف من سلم ينزلق حتى الرصيف. سحبت كيرا السلسلة المحررة للأقفال التي كانت تحتجزها، لكن الآلية كانت مستعصية، ونحن عالقان على ارتفاع ثلاثة أمتار على الأرض. إننا على علو مرتفع جداً كي نجرب القيام بمحاولة ما من دون المخاطرة بتحطيم سيقاننا. تذكّرت رفيق عهد دراسة كان، بقفزة من الطابق الأول لإقامة حاجز رياضي، وجد نفسه ممدداً على الطريق وقد خرج عظما ساقيه الأكبران من بطتيه في شكل زاوية قائمة. هذه الذكرى، وإن كانت خاطفة، دفعتني إلى رفض تجربة أن أظن نفسي «جيمس بوند» أو ممثلاً بديلاً عنه. وحاولتُ بلكمات متلاحقة أن أحطم الجليد الذي يحتجز السلم، بينما كانت كيرا تقفز فوقه برجليها المضمومتين صارخة «ستنهار، يا سافل!...» إني أستشهد بقولها حرفياً تقريباً! وهذا فعل فعله، فانهار الجليد دفعة واحدة، ورأيت كيرا المتعلقة بقضبان السلم تتدحرج نحو الشارع بسرعة

مدوّخة.

نهضتْ عن الرصيف متأففة، فيما كان رأس مضيفنا بدأ يبرز من نافذة مكتبه، وهو بدوره هائج المظهر. لحقتُ بكيرا وأطلقنا سيقاننا للريح كلصين نحو منفذ المترو على مسافة مائة متر منا. ركضت كيرا في النفق السفلي وصعدت الدرج المتسلق إلى الناحية الأخرى من الجادة. في موسكو، كثر هم السائقون الذين يعتبرون أنفسهم فجأة أصحاب سيارات تاكسي ليزيدوا مدخولهم في نهايات أشهر صعبة. يكفي رفع اليد كي تتوقف سيارة، وتعقد الصفقة ما إن يتم الاتفاق على السعر. قَبِلَ سائق سيارة «زيل» أن يحملنا على متنها لقاء عشرين دولاراً.

لقد امتحنتُ مستواه في الإنكليزية، قائلاً له بابتسامة عريضة إن سيارته تفوح منها رائحة معزى قوية وتشبه كل الشبه،كنقطتي ماء، والدة جدي، وأخيراً لم يكن من اليسير أن يضع أصابعه في أنفه بيدين مثل يديه. وعندما أجابني «دا» ثلاث مرات، خلصت إلى أن بإمكاني الحديث إلى كيرا بمنتهى الهدوء. فسألتها:

ــ ماذا نفعل الآن؟

ــ نستعيد أمتعتنا من الفندق ونحاول ركوب قطار قبل إلقاء القبض علينا. بعد السجن الصيني، ما زلت أفضّل أن

أقتل أحداً من أن ارجع مجدداً إلى الحبس.

ـ إلى أين نحن ذاهبان؟

ـ إلى بحيرة بايكال التي تكلم عنها ثورنستن.

اصطفت السيارة أمام فندق متروبول ـ كونتيننتال، فاندفعنا مسرعين إلى مكتب الاستقبال حيث ردت إلينا مضيفة لطيفة جوازَي سفرنا. ورجوتها أن تهيئ الحساب معتذراً عن ضرورة تقصير إقامتنا على هذا النحو، واغتنمت الفرصة للطلب إليها إن كان في وسعها أن تحجز لنا سريرين على متن القطار العابر سيبيريا. ثم مالت نحوي لتقول لي بصوت خفيض إن شرطيين طلبا منها طبع كشف بالمواطنين الإنكليز النازلين في الفندق، حيث كانا جالسين على مقعدين في الصالة على وشك مراجعة الأسماء. وأضافت أن صديقها بريطاني سيصطحبها للعيش معه في لندن حيث سيتزوجان في الربيع. فهنأتها لهذا النبأ الممتاز، فهمست لي «ليحفظ الله الملكة» بغمزة كبيرة لي متواطئة.

جذبت كيرا ناحية المصعد، وفي الطريق وعدتها مرتين بأنني لم أغازل موظفة مكتب الاستقبال، وشرحت لها لماذا أمامنا وقت قصير للهرب من هنا.

كنا، بعد حزم أمتعتنا، سنغادر الغرفة وإذا بالهاتف يرن. أكّدت لي المرأة الشابة المكلفة بالاستقبال أنها حجزت لنا مكانين في العربة رقم 7 في القطار العابر سيبيريا الذي ينطلق من المحطة المركزية الساعة الحادية عشرة وأربعِ وعشرين دقيقة ليلاً. وأطلعتني على مرجع الحجز، فلم يبق لنا إلا أن نسحب البطاقتين، إذ إنها كانت قد «فوترتهما» على حسابنا وحسمت المبلغ من بطاقة ائتماني. بات في وسعنا، ونحن نجتاز الحانة، أن نغادر الفندق من دون المرور بالصالة.

لندن

كانت نشرة الأخبار الليلية تتوالى على الشاشة، أطفأ إيفوري التلفزيون واقترب من النافذة. توقف المطر. خرج زوجان من دورشستر، فاستقلت المرأة سيارة تاكسي، فيما انتظر الرجل أن تبتعد السيارة قبل العودة باتجاه الفندق. كانت سيدة عجوز تأخذ كلبها إلى نزهة في «بارك لين»، فحيّت صاحب العربة متجاوزة إياه.

ترك إيفوري موقع مراقبته، فتح خزانة الشرب الصغيرة، تناول قالب شوكولا صغير، فنزع الغلاف عنه ووضعه فوق الطاولة الواطئة. ثم قصد الحمام، فتّش عن عدة زينته. أمسك بأنبوب الدواء المنوم، أزلق حبّة في

راحة يده وحدّق في المرآة:

«يا لك من عجوز مخبول، كنتَ تجهل بلا ريب طبيعة الرهان؟ ألم تكن تعرف أي لعبة كنت تؤديها؟».

بلع البرشامة، صبّ لنفسه كوب ماء من حنفية المغسلة ورجع إلى غرفة الاستقبال ليجلس أمام رقعة الشطرنج.

أطلق اسماً على كل بيدق من بيادق العدو، أثينا، اسطنبول، القاهرة، موسكو، بكين، ريو، تل ابيب، برلين، بوسطن، باريس، روما وسمى الملك لندن وملكته مدريد، وقام بدحرجة كل قطع معسكره على السجاد، باستثناء تلك التي سماها أمستردام. لفّ هذه القطعة في منديله ورتّبها برقة في قعر جيبه. لقد تراجع الملك الأسود مربعاً واحداً. أما الفارس والبيدق فلم يتزحزحا، بيد أن إيفوري قدّم الفيلين إلى الخط الثالث. تأمل رقعة الشطرنج، خلع حذاءيه، تمدد على الأريكة وأطفأ النور.

مدريد

كان الاجتماع قد انتهى للتو، فتجمّع الضيوف حول صوان السفرة. ولامست يد إيزابيل خلسة يد سير آشتون الذي كان قد تألق خصوصاً هذا المساء. وإذ كان العدد الأكبر من الأصوات، خلال المجلس الأخير، قد حكم لصالح استئناف الأبحاث، فإن اللورد الإنكليزي أفلح هذه المرة في ترجيح أغلبية من المشاركين لمصلحة معسكره وقبِلَ الحليف الأَنَفس في الوقت الراهن أن يتعاون معه بشكل تام: سيضع موسكو كل الإمكانات المتوافرة لديه لتحديد موقع واستجواب العالمين كليهما. وسوف يعاد إرجاعهما إلى لندن في أول طائرة ولن يُمنحا من الآن فصاعداً أي تأشيرة إقامة. كان آشتون فضّل اتخاذ تدابير أشد جذرية، لكن زملاءه لم يكونوا مستعدين للتصويت على هذا النوع من الاقتراح. وكانت إيزابيل – رغبة منها في تهدئة خواطر كل منهم – قد أبدت رأياً حاز إجماع الحاضرين كافة. ولئن لم يتمكن أحدهم حتى ذلك الحين من ردع هذين الباحثين بالقوة، لماذا إذاً لا يردّونهما عن مسعاهما عبر تقديم عروض لكل منهما لا يستطيعان رفضها، عروض قد تبعد أحدهما عن الآخر فعلاً؟ هذا، وما كان الإكراه دائماً الطريقة الفضلى للاستعمال. لقد اصطحبت رئيسة المجلس

ضيوفها حتى قاعدة البرج. وغادر موكب من سيارات «الليموزين» ساحة أوروبا متجهاً ناحية مطار «باراخس». وكان موسكو عرض على سير آشتون الاستفادة من طائرته الخاصة، لكن اللورد ما زال لديه بعض الأمور التي ينبغي تسويتها في إسبانيا.

كان ــ بحسب رأيي ــ عدد كبير جداً من الشرطة في «محطة ياروسلاف» لكي يُعتبر الوضع فيها عادياً. سواء اتجهنا نحو الأرصفة، أم نحو صفوف صغار التجار الجوالين أو نحو مستودع الأمانات، كانوا هناك في مجموعات من أربعة أشخاص لاستقصاء جمهور الناس. شعرت كيرا بقلقي فسارعت إلى طمأنتي قائلة:

ــ إننا، مع ذلك، لم نسطُ على مصرف! أن يقوم شرطي بتحقيقه حتى فندقنا شيء، والانتقال من ذلك إلى أن يتصور المرء أنهم طوقوا المحطات والمطارات كأننا مجرمان كبيران، تباً لهم، لا نبالغنَّ في شيء! ثم كيف لهم أن يعرفوا أننا هنا؟

أسفتُ على حجز بطاقتينا من طريق فندق أنتركونتيننتال. لو كان المفتش الذي يقتفي أثرنا وضع اليد على نسخة من فاتورتنا ــ وكانت لي أسباب وجيهة لأن أفكر بأن الوضع هو كذلك ــ لما كنت أمهله عشر دقائق كي يحمل موظفة مكتب الاستقبال على الكلام. لم أكن أشاطر إذاً كيرا تفاؤلها وأخشى أن تتواجد قوى الأمن هنا من أجلنا. إن صف الآلات حيث يتم سحب عناوين النقل لم

يكن إلا على بعد بضعة أمتار. ألقيتُ نظرة خاطفة باتجاه شبابيك التذاكر، لو كنت محقاً لكان الموظفون الآن متيقظين وأبلغوا عن أوائل الأجانب الذين تقدموا منهم.

كان ماسح أحذية يجول أمامنا حاملاً عدّته ورباً على صدره، بحثاً عن شخص يلمّع له حذاءه. اتفق أن مرّ مرات عدة من أمامي مرمّقاً النظر على جزمتي، فأومأت إليه بإشارة صغيرة واقترحت عليه صفقة من نوع آخر.

سألتني كيرا: ماذا تفعل؟

ــ أتحقق من أمر ما.

وضع ماسح الأحذية الدولارات التي عرضتها عليه كدفعة أولى على الحساب في جيبه. وحالما سيسحب بطاقتي سفرنا بالقطار من الآلة الموزعة ويسلمنا إياهما سأدفع له الرصيد الموعود.

ــ إنه لعمل كريه، توريط هذا الشخص بتكليفه باستلام التذاكر.

ــ لا يتعرض لأي خطر لأننا لسنا مجرمين خطرين!

بينما كان ماسح الأحذية قد طبع مرجع حجزنا على شاشة الآلة الموزعة، سمعتُ أجهزة اللاسلكي لدى العديد

من رجال الشرطة تئز، وكان صوت يزعق معطياً تعليمات كنت، للأسف، أتوجس منها شراً. أدركت كيرا ما كان يجري فلم تتمالك عن الصراخ في ماسح الأحذية بالهرب. بالكاد اتسع لي الوقت للإمساك بها من ذراعها ودفعها نحو ركن منعزل. أربعة رجال في لباس عسكري موحد تجاوزونا وطفقوا يركضون باتجاه صف آلات التذاكر الأوتوماتيكية. تجمدت كيرا، ولم يعد في مقدورنا أن نفعل شيئاً من أجل الماسح الذي كانت يداه قيدتا بالأغلال. طمأنتها بأن رجال الشرطة سيحتجزونه لبضع ساعات، لكنه سيعطيهم من الآن وحتى بضع دقائق أوصافنا.

خلعتُ معطفي، وأمرت كيرا أن تفعل الشيء ذاته!

رتّبت رداءينا في الحقيبة وناولتها كنزة صوف سميكة وارتديت أنا واحدة أخرى. ثم انطلقتُ بها ناحية مستودع الأمانات ممسكاً إياها من خاصرتها. قبّلتها وطلبت منها أن تنتظرني وراء عمود. حملقت بناظريها حين رأتني أذهب مباشرة باتجاه آلات توزيع البطاقات. إنه، في الحقيقة، المكان الذي قلما يبحث فيه رجال الشرطة عنا. تسلّلت بين الجموع، اعتذرت بأدب لضابط كي يسمح لي بالمرور، واتجهت نحو آلة كانت لحسن حظي، تقدّم تعليمات للسيّاح باللغة الإنكليزية. حجزت مكانين على متن قطار، سدّدت

الثمن نقداً وعدت أفتش عن كيرا.

ما كان الموظفون الذين يراقبون معاملات نقاط الوصول والانطلاق، في المقر المركزي لأمن المحطة، يعيرون أي انتباه للمعاملة التي أجريتها لتوي.

انتاب القلق كيرا حين نظرت إلى البطاقة التي مددتها لها: ماذا سنفعل في مونغوليا؟

ــ علينا أن نستقل القطار العابر سيبيريا كما هو مقرر، ولكن ما إن نركب على متنه حتى أشرح للمفتش أننا أخطأنا وجهتنا وأدفع له الفارق إذا اقتضى الأمر.

بالرغم من ذلك، لم نكن قد ربحنا الرهان بعد، كان علينا دخول العربات. ولم يكن في حوزة رجال الشرطة سوى توصيف بسيط، وفي أسوأ الحالات صورة مسحوبة عن نسخة لجوازَي سفرنا، لكن لن يلبث الخناق أن يضيق ما إن نقترب من القطار. من غير المجدي لفت الانتباه، فقوى الأمن كانت تفتش عن زوجين، فمشت كيرا خمسين متراً أمامي. كان القطار العابر سيبيريا ذو الرقم 10 والمتوجه إلى اركوتسك يغادر المحطة في الساعة الحادية عشرة وأربع وعشرين دقيقة ليلاً، ولم يبق أمامنا متسع كبير من الوقت. كان الهياج يذكّر بتصرفات قرية ريفية في يوم سوق شعبي؛ صناديق طيور، بسطات جبن ولحم

مجفف، مأكولات متعددة الأنواع كانت تختلط بالحقائب والصناديق والصرر التي تعيق حرية الحركة على الرصيف. كان ركاب القطار، العابر القارة الآسيوية في ستة أيام، يحاولون شق طريق لهم عبر سقط المتاع العائد للتجار المستقرين في المحطة. كان هناك من يتشاجرون ويتشاتمون بكل أنواع اللغات، الصينية، الروسية، المنشورية والمنغولية. وكان بعض أولاد الشوارع يبيعون بلا ترخيص كميات من المواد الضرورية: قبعات، أوشحة، آلات حلاقة، فراشي ومعجون أسنان. تعرّف شرطي على كيرا فدنا منها، سرّعت خطاي وزحمته معتذراً إليه بتفاهة. عنّفني الشرطي، لكنه عندما استدار ناحية الجماهير، كانت كيرا قد اختفت من مجال رؤيته ورؤيتي أنا أيضاً.

أعلن صوت في مكبرات الصوت عن انطلاق القطار الوشيك، فتزاحم الركاب الذين ما زالوا على الرصيف أكثر قليلاً، وتراكمت على المفتشين الأشغال. ما من أثر على الدوام لكيرا، فيما أنا تركت نفسي أنجرّ في رتل من المتجمعين أمام العربة رقم 7. لمحت من خلال الشبابيك الممشى مكتظاً بالمسافرين يبحث كل منهم عن المكان المعين له، لكني ما عثرت قط على وجه كيرا. وكان قد جاء دوري لتسلق مرقاة القطار، فألقيت نظرة أخيرة على الرصيف، ولم يكن لدي خيار آخر إلا أن أدع نفسي أنساق

مع السيل البشري الذي يتزاحم داخل العربة، غير أني سأنزل في أول موقف إن لم تكن كيرا على متن القطار، وسأجد حتماً وسيلة للعودة إلى موسكو. أسفتُ لأننا لم نتواعد على نقطة لقاء في حال ضياعنا عن بعضنا، وأخذت أفكر ملياً في المكان الذي قد يخطر ببالها. سرت في الممشى الجانبي، كان شرطي آتياً من الاتجاه المعاكس، فتسللت إلى مقصورة ولم يولني أي انتباه. كان كل راكب قد استقر في مكانه وموظفا الشركة المسؤولان عن العربة منشغلان الآن بأمور أخرى كثيرة غير التحقق من بطاقات السفر. جلست بجانب زوجين إيطاليين، في حين كانت المقصورة المجاورة يشغلها فرنسيون وقد ألتقي العديد من المواطنين أثناء هذا السفر. كان القطار يجتذب على امتداد السنة عدداً من السياح الأجانب، وكان ما يحدث لمصلحتنا. انطلق الموكب ببطء، وبعض رجال الشرطة لا يزالون يتجولون على الرصيف المهجور، وما لبثت محطة موسكو أن احتجبت عن الأنظار تاركة المجال لمشهد رمادي مريع من مشاهد الضاحية.

وعدني جاراي بالسهر على حقيبتي، فغادرتهما للبحث عن كيرا. لم أجدها في العربة التالية ولا في تلك التي بعدها. كان السهل قد تلا الضاحية، والقطار منطلق بأقصى سرعة. العربة الثالثة، ولا أثر دائماً لكيرا. واقتضى اجتياز

الممرات المزدحمة بعض الصبر. كان الروس فتحوا زجاجات جعة وفودكا وراحوا يشربون مرددين كماً هائلاً من الأغاني والصيحات، كما كانت العربة ــ المطعم زاخرة بالنشاط والحيوية.

كانت قد تشكلت جماعة، بينها ستة أوكرانيين، عريضي المناكب، يرفعون كؤوسهم صارخين: «تحيا فرنسا!». اقتربت منهم واكتشفت كيرا ثملة بشكل مقبول.

قالت: لا تنظر إلي هكذا، إنهم لطفاء جذابون! زاحت قليلاً لتهيئ لي مكاناً حول الطاولة وشرحت لي أن رفاقها الجدد أثناء السفر ساعدوها على ركوب القطار جاعلين من أجسادهم متراساً لشرطي أبدى اهتماماً أكثر من اللازم لسيمائها، فلولاهم لأقدم على استجوابها. إذاً، من الصعب عدم تقديم الشكر إليهم بدعوتهم إلى تناول كأس معهم. ما كنت رأيت كيرا قط في حال كهذه، شكرتُ رفاقها الجدد وحاولت إقناعها بمتابعتي.

ــ إني جائعة ونحن داخل العربة ــ المطعم، ثم حسبي ركضاً، اجلس وكُلْ!

طلبتُ لنا صحن بطاطا وسمكاً مدخناً، كرعتْ كأسي فودكا أخريين منهارة بعد ربع ساعة على كتفي.

حملتها، بمعاونة أحد الشبان الستة الممتلئين عافية، حتى مقصورتي. فالتهى جاراي الإيطاليان بالوضع. ثم دمدمتْ، وهي ممددة على مرقدها، بضع كلمات غير مسموعة ونامت في الحال.

أمضيتُ قسماً من هذه الليلة الأولى على متن القطار العابر سيبيريا، في رصد السماء عبر زجاج النافذة. وفي طرف كل عربة موضع صغير تعمل فيه «بروفونتسس»، موظفة مسؤولة عن العربة تداوم طيلة النهار أمام «ساموفار»، تقدّم ماء ساخناً وشاياً. قمتُ لتناول الشاي منتهزاً الفرصة لأستعلم عن مدة السفر حتى«اركوتسك». ستلزمنا ثلاثة أيام وأربع ليال، بما فيها هذه، لقطع مسافة أربعة آلاف وخمسمائة كيلومتر تفصلنا عنها.

مدريد

وضع سير آشتون هاتفه الخلوي على طاولة غرفة الاستقبال، حلّ زنار بيجامته وعاد إلى السرير.

سألتْ إيزابيل، مطبقة دفتر يومياتها: ما هي آخر الأنباء؟

ــ لقد تم العثور عليهما في موسكو.

ــ في أية ظروف؟

ــ قصدا أكاديمية العلوم للاستعلام عن تاجر عاديات قديم. وجد المدير أن في الأمر شبهة، فأبلغ رجال الشرطة.

اعتدلت إيزابيل جالسة في السرير وأشعلت سيكارة.

ــ هل اعتُقلا؟

ــ كلا. لقد اقتفت الشرطة أثرهما حتى الفندق الذي نزلا فيه، لكنها وصلت متأخرة جداً.

ــ هل ضيّعت أثرهما؟

ــ في الحقيقة، لا أعرف شيئاً، حاولا السفر على متن القطار العابر سيبيريا.

ـ حاولا؟

ـ استجوب الروس شخصاً كان يسحب بطاقتين باسميهما.

ـ إذاً، هما على متن القطار؟

ـ كانت المحطة تعجّ برجال الشرطة، ولكن ما من أحد رآهما يستقلان القطار.

ـ إذاً أحسا بأنهما مطاردان، تمكنا من تضليل مطارديهما في تتبّع آثارهما. لا ينبغي أن تتدخل الشرطة الروسية في أمورنا، فهذا لن يزيد المهمة إلا تعقيداً.

ـ أشك أن يكون عالمانا ماكرين إلى هذه الدرجة مثلما تفترضين. أظن أنهما على متن هذا القطار، وأن الشخص الذي يبحثان عنه يسكن على ضفة بحيرة بايكال.

ـ لماذا يرغبان في لقاء تاجر العاديات هذا؟ يا لها من فكرة غريبة! هل تعتقد أن...

ـ أن في حوزته إحدى القطع؟ لا، وإلا كنا علمنا بالأمر منذ وقت طويل، ولكن إذا كانا يُجهدان نفسيهما كل هذا الجهد للتمكن من رؤيته، فيعني ذلك أن هذا الشخص يملك معلومات ستكون قيّمة لهما.

ـ إذاً، لا يبقى عليك، يا عزيزي، إلا أن تُسكت هذا الرجل قبل الوصول إليه.

ليس الأمر في مثل هذه البساطة. فالشخص المعني هو من قدامى «الحزب»، ونظراً لسوابقه، إذا كان يعيش في خلوة ذهبية داخل بيت ريفي على ضفة بحيرة، فذلك لأنه ينعم بحماية تستدعي الاهتمام والعناية. لن نجد أحداً في المكان عينه يجازف بالإقدام على أي عمل ضد هذا الرجل، ما عدا إيفاد شخص ما من جانبنا.

سحقت إيزابيل عقب سيكارتها في منفضة طاولة السرير، التقطت علبة الدخان وأشعلت منها واحدة أخرى.

ـ هل لديك مخطط آخر لمنع هذا اللقاء؟

أجاب سير آشتون، وهو يفتح النافذة: إنك تسرفين في التدخين، يا عزيزتي. أنتِ تعرفين مشاريعي خيراً من أيِ إنسان آخر، لكنك، إيزابَيل، اقترحتِ على المجلس بديلاً يضيّع علينا الوقت.

ـ هل في وسعنا أن نقطع عليهما الطريق، نعم أو لا؟

ـ وعدني موسكو، وقد اتفقنا أنه من الأفضل ألا يبالغ ضحيتانا في أخذ حذرهما. فالتدخل على متن قطار ليس بالأمر اليسير كما قد يبدو للوهلة الأولى. ثم إن مهلة

الثماني والأربعين ساعة من الراحة ينبغي أن تُحدث لديهما الانطباع بأنهما مرا عبر خيوط الشبكة. سيرسل موسكو فريقاً يتكفل بهما عند بلوغهما اركوتسك، ولكن نظراً للقرارات المتخذة أمام المجلس، سيكتفي رجاله باستجوابهما وإصعادهما على متن طائرة متوجهة إلى لندن.

ــ كان لما اقترحتُه على المجلس الفضل في إمالة الأصوات لصالح وقف التحريات، بغض الطرف عن أن هذا برّأك من كل شبهة تتعلق بمقتل فاكيرز؛ ولما كان هذا ثابتاً، فليس من المحتم أن تجري الأمور كما كانت مقدرة في البداية...

ــ هل يجب أن أفهم أنكِ لن تعارضي اتخاذ إجراءات أكثر جذرية؟

ــ إفهمْ ما يحلو لك فهمه ولكن كفّ عن ذرع المكان ذهاباً وإياباً، إنك تسبب لي الدوار.

توجه آشتون لإغلاق النافذة، خلع بيجامته واندسّ تحت الملاءة.

ــ ألا تتصل بأجهزتك؟

ــ لا حاجة إلى ذلك، فقد أنجزت الأمور الضرورية،

وسبق أن اتخذت القرار بهذا الشأن.

ــ عن أي نوع من القرار تتحدث؟

ــ التدخل قبل أصدقائنا الروس، فالقضية ستسوّى غداً عندما ينطلق القطار من ياكاترينا بورغ. ثم سأخطر موسكو تأدباً كي لا يبعث برسالة سدى.

ــ سوف تثور ثائرة المجلس إذا علم بأنك تجاهلت القرارات التي تم الاقتراع عليها هذا المساء.

ــ أترك لك الاهتمام بالاتصال على طريقتك في هذه المناسبة. أتشجَبين حسن المبادرة عندي أم عجزي عن الانصياع للقوانين، إنك ستعظيني فأُقدّم لك اعتذاري مقسماً اليمين بأن رجالي تصرفوا من تلقاء أنفسهم، وصدقيني، أن أحداً لن يتكلم عن هذا في غضون أسبوعين. وهكذا ستَسلم سلطتك وتُحلّ مشكلاتنا، فماذا يسعنا أن نتمنى أفضل من ذلك؟

أطفأ آشتون النور...

القطار العابر سيبيريا

أمضت كيرا نهارها مضطجعة على مرقدها، وقد هدّدتها الشقيقة، فيما حاذرتُ أنا توجيه أدنى لوم إليها جراء الإسراف في الشرب عشية البارحة، بما في ذلك توسّلها إلي بالقضاء على الشقيقة كي يتوقف الألم. كنت، كل نصف ساعة، أقصد نهاية العربة، حيث كانت المسؤولة عن الساموفار تناولني بلطف كمّادات فاترة وأعود في الحال لأضعها على جبينها. وما أن تنام، ألصق وجهي بالنافذة متأملاً الريف يتوالى بمشاهده أمام ناظري. كان الموكب، من حين لآخر، يحاذي قرية بيوتها مبنية بجذوع أشجار بتوله مدورة. وكان، عندما يتوقف في محطات صغيرة، يسارع مزارعو الجوار إلى الرصيف لبيع منتوجاتهم المحلية من الركاب، من سلطة بطاطا، معجنات مرقوقة، مربيات وفطائر ملفوف أوٍ لحم مقلية. هذه التوقفات ما كانت لتدوم وقتاً طويلاً، ثم يعاود القطار انطلاقه عبر سهول أورال الصحراوية الشاسعة.

في نهاية العصر، بدأت كيرا تشعر بتحسن طفيف، فارتشفت فنجان شاي وقضمت بعض الثمار الجافة. كنا نقترب من ياكاترين بورغ، حيث سيفارقنا جارانا الإيطاليان

للصعود إلى قطار آخر متوجه إلى أولان باتور.

تنهدت كيرا: لطالما وددت لو أزور هذه المدينة، وكنيسة «الدم» المراق، يبدو أنها في غاية الروعة. إنه اسم غريب أطلق على كنيسة شيّدت على أنقاض دارة «ايباتييف»، حيث أُعدم «القيصر نيكولا الثاني» وزوجته «ألكسندرا فيديروفا» مع أولادهما الخمسة في تموز 1918.

لن يتسع الوقت أمامنا، للأسف، كي نمارس السياحة، فالقطار لن يتوقف إلا نصف ساعة ليغير القاطرة. لكن سنستطيع دوماً أن نذهب لإزالة خدر أرجلنا وشراء بعض الطعام، وهو ما سيعود بالفائدة على كيرا.

أَنّت، مؤكدة: لست جائعة.

لاحت الضاحية شبيهة بضاحية كل المدن الصناعية الكبرى. وتوقف القطار في المحطة.

وافقت كيرا على مغادرة مرقدها لتخطو بضع خطوات. كان الليل قد هبط، وراحت العجائز الروسيات يبعن سلعهن بالمزاد. وصعدت على متن القطار وجوه جديدة، فيما قام شرطيان بجولة فطمأنني مظهرهما اللامبالي، وخيّل إلينا أن همومنا بقيت في موسكو، وقد ابتعدنا عنها أكثر من

ألف وخمسمائة كيلومتر.

لم تكن أي صفارة تنبئ بالرحيل، وحدها حركة جمهور الناس كانت تعلمهم أن أوان الصعود إلى العربة قد حان. ابتعت صندوق مياه معدنية وبعض المعجنات الصغيرة المحشوة باللحم التي تذوقتها بمفردي، لأن كيرا عادت تستلقي على مرقدها وتخلد إلى النوم. بعد التهام وجبتي، نمت بدوري وجرني اهتزاز القطار وضجيج عرباته الرتيب إلى الاستغراق في نوم عميق.

كانت الساعة الثانية صباحاً بتوقيت موسكو، عندما سمعت ضوضاء غريبة عند الباب، إذ كان أحدهم يحاول الدخول إلى مقصورتنا. فقمت أسدل الستار وأطللت برأسي، لكن لم يكن أحد هناك والممر مقفر، مقفر بشكل شاذ، حتى المرأة العاملة غادرت ساموفارها.

أغلقت القفل وقررت إيقاظ كيرا: ثمة شيء غير طبيعي. انتفضتْ، فوضعتُ يدي على فمها وأومأتُ إليها بالنهوض، فهمستْ:

ــ ماذا هناك؟

ــ ما زلت لا أفهم شيئاً، ولكن أسرعي في ارتداء ثيابك.

ـ لنذهبَ إلى أين؟

لم يكن السؤال عارياً من المعنى. كنا محتجزين في مقصورة من ستة أمتار مربعة، وكانت العربة ـ المطعم على مسافة ست عربات من عربتنا وفكرة التوجه إليها ما كانت لتغريني البتة. أفرغتُ حقيبتي، حشوت مرقدينا بأمتعتنا وغطيتهما بالملاءات. ثم أعنت كيرا على تسلق حاملة الأمتعة، أطفأتُ النور منسلاً إلى جوارها.

ـ هلا قلت لي أي لعبة تلعبها؟

ـ لا تثيري ضجة، نفذي كل ما أطلبه منك.

مضت عشر دقائق، فسمعتُ من جديد القفل يطقطق. انزلق باب مقصورتنا، فرقعت أربع طلقات خاطفة، وانغلق الباب ثانية. لبثنا محتميين بعضنا ببعض فترة طويلة إلى أن أبلغتني كيرا أن تشنجاً في ساقها سيدفعها حالاً إلى الزعيق من الألم، فغادرنا مخبأنا. أرادت كيرا إشعال مصباح السقف فمنعتها من ذلك، وأزحت الستار بغية الإفساح لضوء القمر بالتسلل. لقد امتقع لوننا عند اكتشاف عدّة سريرينا مخترقة بثقبين في الموقع الذي كان ينبغي أن يتواجد فيه جسمانا الراقدان. لا ريب أن أحداً تسلل إلى مقصورتنا لكي يطلق الرصاص علينا. جثت كيرا أمام مرقدها وأمرّت إصبعها عبر شق الملاءة مدمدمة:

ــ إنه لأمر مروّع...

ــ في الواقع، أخشى أن تكون عدة السرير قد أصابها التلف!

ــ لكن، تباً لهم، لماذا هذا العناد؟ مع أننا لا نعرف ما نبحث عنه، وإن كنا بالتأكيد سنجده يوماً ما، إذاً...

ــ من المرجح أن الذين يحقدون علينا يعلمون أكثر منا. والآن لا بد من التزام الهدوء للتخلص من هذا الفخ. ومن مصلحتنا الإسراع في التفكير بروية.

إن قاتلنا ما زال في القطار، وسيبقى فيه أقله حتى المحطة القادمة، إلا إذا قرر الانتظار حتى العثور على جثتينا ليتأكد من نجاح مهمته. في الحالة الأولى، من مصلحتنا البقاء قابعين في مقصورتنا، وفي الحالة الثانية، من الحكمة أن نسبقه إلى الترجل من القطار. كان الموكب يبطئ في مسيرته ونحن على وشك الاقتراب من «اومسك»، وسيتم التوقف الثاني عند الفجر، حين يدخل القطار «محطة نوفوسيبيرسك».

كان رد فعلي الأولي أن أجد وسيلة لسدّ الباب، وهو ما فعلته بإمرار حزام بنطالي حول المسكة وربطه بقائمة السلم الذي كان يسمح بالمرور إلى حاملة الأمتعة. كان

الجلد متيناً بما فيه الكفاية ليمنع من الآن فصاعداً أي إنسان من إزلاقه. ثم أمرتُ كيرا أن تنحني لنتمكن كلانا من مراقبة الرصيف من دون أن يُكتشف أمرنا.

تجمد الموكب. كان صعباً علينا أن نرى من موقعنا من ينزل منه، ولم نشاهد شيئاً يحملنا على الأمل بأن القاتل غادر متن القطار.

خلال الساعات التالية، هيأنا مجدداً رزمتينا مترصّدين أقل ضجة. في السادسة صباحاً، سمعنا صيحات. خرج ركاب المقاصير المجاورة إلى الممر وقامت كيرا متوثبة.

قالت، وهي تحرر مسكة الباب: ما عدتُ أطيق الحبس هنا!

فتحتِ الباب وقذفت إلي حزامي.

ـ لنخرجْ! أرى في الخارج جمهوراً غفيراً لكي نعرض نفسينا لخطر ما.

كان أحد الركاب قد اكتشف المسؤولة عن العربة مطروحة جثة هامدة بجانب ساموفارها، وعلى جبينها جرح بليغ. أمرتنا زميلتها، التي كانت تؤمن الخدمة نهاراً، بالالتحاق بمرقدينا، لأن الشرطة ستصعد في «نوفوسيبيرسك». وفي انتظار ذلك، على كل راكب أن

ينزوي في مقصورته.

انفجرت كيرا، مهددة بالعودة إلى كوخ الانطلاق!

قلت، وأنا أضع حزامي ثانية: إذا فتش رجال الشرطة المقاصير، فمن مصلحتنا إخفاء ملاءتينا فليس الآن أوان إثارة الانتباه.

ــ أوَ تعتقد أن هذا الشخص ما زال يحوم في الأنحاء؟

ــ لا أعرف شيئاً، لكنه لن يتمكن الآن من القيام بأي محاولة.

خضع الركاب، في محطة نوفوسينيرسك، للاستجواب كل بدوره من قبل مفتشين، لا أحد كان قد رأى شيئاً. نُقلت المرأة الشابة في سيارة إسعاف، واستعيض عنها بموظفة أخرى من موظفات الشركة. كان في هذا القطار عدد لا بأس به من الأجانب كي يسترعي حضورنا انتباهاً خاصاً من جانب السلطات. ففي عربتنا وحدها، كان ثمة هولنديون وإيطاليون وألمان وحتى زوجان يابانيان، بينما لم نكن نحن إلا إنكليزيين بينهم. لاحظوا هوياتنا، ثم نزل المفتشان وعاود الموكب انطلاقه.

اجتزنا منطقة مستنقعات متجمدة، وارتفعت تضاريس الأرض بجبال مكسوة بالثلوج، تلتها من جديد سهول

سيبيرٍيا. عند انتصاف النهار، سلك القطار جسراً معدنياً طويلاً يعلو نهر يانيسّاي المهيب. استمر التوقف في نوفوسيبيرسك طيلة نصف ساعة. كنتُ فضلت عدم مغادرة مقصورتنا، غير أن كيرا لم يهدأ لها بال. وكانت الحرارة على الرصيف تناهز العشر درجات تحت الصفر، فاغتنمنا فرصة هربنا لفترة قصيرة واشترينا ما استعدنا به قوانا.

قالت كيرا، وهي تلتهم بشهية كبيرة فطيرة خضار مقلية: لا أرى شيئاً مشبوهاً.

ــ شرط أن يدوم هذا الوضع حتى صباح غد.

كان الركاب يعودون إلى عرباتهم، فألقيتُ نظرة أخيرة حولنا وأعنت كيرا على الصعود من خلال المرقاة. فصرخت المسؤولة الجديدة فيّ كي نتعجّل في سيرنا وأن أطبق الباب من ورائي.

اقترحتُ على كيرا تمضية أمسيتنا الأخيرة على متن القطار العابر سيبيريا في العربة ــ المطعم. كان روس وسياح يشربون الليل بطوله، وكلما كان الجمهور أكثر عدداً شعرنا بأننا في أمان. تلقت كيرا اقتراحي بارتياح، فوجدنا طاولة تقاسمناها مع أربعة هولنديين.

ــ كيف سنتمكن في «ارسكوتسك» من العثور على

رجلنا، وبحيرة بايكال تمتد على مسافة تفوق الستمائة كيلومتر؟

ــ سنحاول، فور وصولنا، التعرف إلى مقهى فيه إنترنت، ونقوم ببعض الاستقصاءات وبقليل من الحظ سوف نجد أثر رجلنا.

ــ ألانك تعرف إجراء استقصاءات بلغة حروفها كيرللية (الأبجدية الروسية)؟

رمقتُ كيرا، فذكرتني ابتسامتها المتهكمة كم كنت أجدها فتانة. قد نحتاج في الواقع إلى الاستعانة بخدمات مترجم.

أردفتْ، هازئة بي: في اركوتسك سنتوجه إلى لقاء «شامان» (كاهن ــ ساحر وفي الوقت عينه عراف ومتطبب)، فهو سيطلعنا على أحوال المنطقة وسكانها أكثر بكثير من آليات الاستقصاء المتوافرة في الانترنت السيئ الحظ الذي تتغنى به!

وإذ كنا نتعشى، شرحت لي كيرا لماذا أصبحت «بحيرة بايكال» مسرح مآثر علم الإحاثة (علم البقايا المتحجرة للكائنات الحية). فاكتشاف مخيمات يعود عهدها إلى العصر الحجري القديم ساعد على إثبات حضور رجال في ما وراء بايكال عاشت في سيبيريا قبل خمسة وعشرين ألف سنة

قبل الميلاد. وكانوا يعرفون استخدام الرزنامة ويمارسون الشعائر الدينية منذ ذلك التاريخ.

تابعت كيرا: آسيا هي مهد «الشامانية»، التي تعتبر في هذه المناطق الديانة الأصلية للإنسان. والشامانية، بحسب الميثولوجيا، ولدت مع نشوء الكون وكان الشامان الأول هو ابن السماء. أترى، إن مهنتينا مرتبطتان منذ أقدم العصور. والأساطير السيبيرية الخاصة بنشأة الكون كثيرة. لقد عُثر في المقبرة الكبيرة ــ وسط جزيرة الرّنة على نهر أونيغا ــ على منحوتة عظيمة يعود تاريخها إلى الألف الخامس قبل الميلاد. وهي تمثل كسوة للرأس شامانية مزدانة بخطم ألكة (نوع غزال). كانت القبعة يعتمرها محتفل بشعائر دينية يرتقي إلى مصاف العالم السماوي، وتحوطه امرأتان.

ــ لماذا تقصّين عليّ كل هذه الأخبار؟

ــ لأنك إذا أردت هنا كما في جميع القرى البورية، أن تعرف شيئاً، لا بد أن تطلب مقابلة شامان. والآن هل لك أن تقول لي لماذا تلمسني بلا لباقة من تحت الطاولة.

ــ أنا لا ألمسك أبداً!

ــ ماذا تفعل إذاً؟

ـ أفتش عن الدليل السياحي الذي أخفيته في مكان ما. لا تقولي لي إنك كنت عالمة بكل هذَهَ الأمور عن الشامانيين، فأنا لن أصدقك!

ضحكت كيرا عندما دسست يدي وراء خاصرتيها. لا تكن غبياً، ما من كتاب تحت آليتيّ! لدي أسباب وجيهة لمعرفة درسي عن ظهر قلب، كما لا شيء كذلك بين نهديّ. كفى، أدريان!

ـ أية أسباب؟

ـ لقد اجتزت مرحلة صوفية جداً عندما كنت في الكلية، كنت يومها متأثرة للغاية... بالشامانية. بخور، حجارة مغناطيسية، رقصات، انخطافات، غشيات، أخيراً كانت مرحلة من حياتي متسمة بطابع «العصر الجديد» (New Age)، إن كنتَ ترى ما أبغي قوله، وإني لأمنعك من الهزء بي. توقّف، أدريان، أنت تدغدغني، لا أحد يخبئ كتاباً في هذا الموضع.

قلت، معتدلاً في وقفتي: وكيف لنا أن نجد شامانا؟

ـ أول صبي تلتقيه في الشارع يخبرك أين يعيش شامان الحي، ثق بي. حين كنتُ في العشرين من عمري، كنت شغوفة بالإقدام على هذه الرحلة. الجنة، بالنسبة إلى

بعض الناس، هي في «كاتمندو»، أما أنا فكنت أحلم بالمجيء إلى هنا.

ــ أحقاً ما تقولين؟

ــ نعم، حقاً! الآن لست أعارض أن تعمّق تحرياتك، ولكن لنعد إلى المقصورة.

لم أدعها تكرر الكلام علي ثانية. عند الفجر، فتشت بدقة متناهية جسد كيرا... غير أني لم أجد عليه قط أية مذكرات تساعدها على الغش والخداع!

لندن

كان سير آشتون جالساً حول مائدة قاعة الطعام، يقرأ صحيفة النهار وهو يرتشف الشاي. دخل أمين سره الخاص الغرفة مقدماً له هاتفاً خلوياً على طبق من فضة. أمسك آشتون بالجهاز، استمع إلى ما كان محدثه يخبره وأعاد الهاتف إلى الطبق. كان يتوجب على أمين السر، بحسب العادة، أن يعود أدراجه على الفور، لكن بدا أنه يريد أن يضيف شيئاً ما، فانتظر أن يتوجه سير آشتون إليه بالكلام:

ــ ماذا هناك أيضاً؟ هل لي أن أتناول فطوري بلا إزعاج؟

ـ يرغب قائد الأمن أن يجتمع بك، سيدي في أقرب وقت ممكن.

ـ حسناً، ليأتِ لرؤيتي بعد الظهر.

ـ إنه في الممشى، سيدي، ويبدو الأمر عاجل للغاية.

ـ مدير الأمن في بيتي في التاسعة صباحاً. ما هذه القصة؟

ـ أتصور، سيدي، أنه يفضّل أن يكلمك شخصياً، فهو لم يشأ أن يقول لي شيئاً، ما عدا أنه لا بد أن يراك في أقرب وقت.

ـ هيا، دعه يدخل بدلاً من أن تثرثر، وهو أمر مزعج، وقدّم لنا شاياً ساخناً وليس كهذا السائل الفاتر الذي كان لي الحق فيه. هيا أسرع، لأنه عاجل!

انصرف أمين السر، تاركاً مكانه لقائد الأمن.

ـ ماذا تريد مني؟

سلّم قائد الأمن سير آشتون مغلفاً مختوماً، ففضّه ووجد فيه مجموعة من الصور الفوتوغرافية. تعرّف إلى إيفوري جالساً على مقعد في المنتزه الصغير قبالة بيته.

تساءل آشتون، متوجهاً إلى النافذة: ما الذي يفعله هذا الأبله هنا؟

ــ لقد التُقطت الصور في نهاية عصر البارحة، سيدي.

أسدل آشتون الستار والتفت نحو قائد الأمن.

ــ إذا كان هذا العجوز المعتوه يستمتع بإطعام الحمام قُبالة بيتي فذلك شأنه، آمل أنك لم تزعجني في مثل هذه الساعة الصباحية لسبب تافه كهذا.

ــ بدايةً، انتهت العملية في روسيا كما كنت قد طلبت.

ــ إذاً، لماذا لم تستهل الحديث بهذا النبأ الممتاز؟ هل ترغب في فنجان شاي؟

ــ أشكرك، سيدي، لكن عليّ بالانصراف، لدي عمل كثير.

ــ انتظر لحظة، لماذا قلت: «بداية»؟

ــ لقد اضطر مبعوثنا إلى مغادرة القطار أسرع مما كان متوقعاً، لكنه، مع ذلك، على يقين من أنه أصاب هدفه على نحو مميت.

ــ إذاً، بوسعك الانصراف.

اركوتسك

لم نكن مستاءين لمغادرة القطار العابر سيبيريا، فنحن لم نحتفظ منه بذكريات سعيدة جداً، باستثناء هذه الليلة الأخيرة التي قضيناها على متنه. لدى عبورنا المحطة، نظرت ملياً حولنا، فما بدا شيء مثيراً للشبهة. أما كيرا فاكتشفت صبياً يافعاً يبيع سكائر مهربة، فاقترحت كيرا عليه عشرة دولارات لقاء خدمة صغيرة: أن يقودنا إلى بيت الشامان. لم يكن الصبي يفهم كلمة واحدة مما طلبتْ منه، لكنه جاء بنا إلى بيته. كان أبوه يملك مشغلاً صغيراً للدباغة في زقاق من أزقة المدينة القديمة.

أثار تنوع المكان انتباهي من الناحية الإثنية. كان العديد من الجماعات يتخالط في انسجام تام. اركوتسك المدينة ذات الماضي الفريد ببيوتها الخشبية العتيقة التي تنحني لتغوص في الأرض قبل أن تموت لعدم توافر الصيانة لها. اركوتسك وحافلتها الكهربائية بلا محطة، المتوقفة على قارعة الطريق، اركوتسك ونساؤها المسنّات بشالهن المعقود حتى الذقن، وسلالهن حول أذرعهن... هنا لكل واد ولكل جبل روحه، هنا تُعبد السماء، وقبل احتساء الكحول تسكب بضع قطرات منها على المائدة لمشاركة

الآلهة الشراب. استقبلنا الدبّاغ في مسكنه المتواضع وشرح لنا بلغة إنكليزية بدائية أن عائلته تعيش هنا منذ ثلاثة قرون. كان جده صانع فراء في تلك الحقبة، كان خلالها «البوريون» لا يزالون يفاوضون بشأن الفراء في متاجر المدينة. كان هذا كله من مخلفات الماضي، ماض غابر. لقد اختفت الآن حيوانات السمّور، القاقوم، القضاعة والثعلب، وما عاد المشغل الصغير ـ الكائن على مسافة خطوات من كنيسة القديسة باراسكيفا الصغيرة ـ ينتج سوى حقائب مدرسية من جلد، يتم بيعها بصعوبة في السوق المجاورة. سألت كيرا مضيفنا إن كان يعرف وسيلة لطلب مقابلة لنا مع شامان. إن أفضل الشامانيين يقيم بحسب رأيه، في «لستفيانكا»، بلدة صغيرة على ضفة بحيرة «بايكال». سيارة ركاب صغيرة تسمح لنا بالوصول إليها بأقل مصاريف، أما سيارات التاكسي فهي، كما قال لنا، باهظة الثمن وليست أكثر راحة على الإطلاق، ثم قدم لنا الطعام. ليس في هذه البقاع المعذبة ـ غالباً بطغيان بعض المتنفذين الأهوج ـ إلا قانون واحد هو قانون الضيافة. لحم أحمر مسلوق، بضع حبات بطاطا، شاي بالزبدة وشريحة خبز رقيقة، هذا الطعام الشتوي في مشغل دباغ في اركوتسك ما زلت أذكره حتى اليوم.

كانت كيرا قد ألفت الصبي، فراحا يلعبان معاً في تكرار

كلمات يجهلها كل منهما في الإنكليزية أو الروسية، ويضحكون تحت أنظار الحرفي الحنون. في مستهل بعد الظهر، اصطحبنا الصبي حتى موقف سيارة الركاب. أرادت كيرا أن تعطيه الدولارات التي وعدته بها لكنه رفضها. عندها حلّت وشاحها وأهدته له، فلفّه حول عنقه وانصرف راكضاً. في نهاية الشارع، استدار ولوّح بقطعة القماش علامة الوداع. كنت، في هذه اللحظة، أعلم تماماً أن كيرا ضيقة الصدر، مشتاقة جداً إلى هاري، وكنت أشعر بأنها ترى عينيه في نظر كل صبي تلتقيه في الطريق. ضممتها بين ذراعي، بدت حركاتي تفتقر إلى اللباقة، لكنها أسندت رأسها إلى كتفي. فأحسست بحزنها وذكّرتها هامساً في أذنها بالوعد الذي قطعته لها. سوف نعود إلى وادي أومو، ومهما طال الزمن الذي تستغرقه العودة، فإنها ستنعم برؤية هاري مجدداً.

كانت سيارة الركاب الصغيرة تحاذي النهر محوطة بمشاهد سُهبية. وثمة نسوة يمشين إلى جانب الطريق حاملات أطفالهن على أذرعهن. أثناء السفر، أخبرتني كيرا بالمزيد عن الشامانيين وعن الزيارة المرتقبة.

ــ الشامان هو متطبب، ساحر، كاهن وعرّاف، لا بل شخص به مس. إنه مكلف بمعالجة بعض الأمراض،

واستدعاء الطريدة، أو إنزال المطر، وأحياناً العثور على شيء مفقود.

ــ قولي لي، أليس في مقدور شامانك أن يهدينا مباشرة إلى قطعتنا، فيعفينا ذلك من زيارة إيغوروف ويجعلنا بالتالي نكسب وقتاً؟

ــ سآتيه بمفردي!

كان الموضوع على جانب من الأهمية والمزاح غير مقبول، فأصغيتُ إذاً بانتباه إلى ما تشرحه لي:

ــ لكي يتصل الشامان بالأرواح، يضع نفسه في حالة لا شعور ظاهري أو استحواذي، وتؤشر تشنّجاته إلى أن روحاً تلبّست جسده. عندما تنتهي حالته اللاشعورية ينهار ويُصاب بتصلب الجسم بعض الوقت. إنها لحظة تأثّر بالغة بالنسبة إلى الجماعة، فمن غير المؤكد أن يعود الشامان إلى عالم الأحياء. حين يستعيد وعيه يسرد وقائع سفره. ثمة بين أسفاره واحد قد ينال إعجابك، هو السفر الذي ينطلق فيه الشامان باتجاه الكون، ويدعى الطيران السحري، وفيه يحاذي الشامان «مسمار السماء» ويمر عبر النجم القطبي.

ــ هل تعلمين أننا نحتاج فعلاً إلى عنوان، وربما

نستطيع أن نكتفي بطلب خدمة مختزلة منه.

دارت كيرا ناحية زجاج السيارة من دون أن توجه إلي الكلام في ما بعد.

لستفيانكا

... مدينة مبنية كلها بالخشب، كالعديد من قرى سيبيريا، حتى الكنيسة الأرثوذكسية مبنية بجذوع البتولة، وبيت الشامان لا يخالف القاعدة. لم نكن وحدنا عندما قمنا بزيارته في ذلك اليوم. أملت ألا نضطر إلا لتبادل بضع كلمات معه، على غرار ما يحدث حين يُقدم أحدنا على سؤال رئيس بلدية قرية صغيرة عن عائلة في الجوار يتم البحث عن أثر لها، لكن توجب علينا بدايةً حضور الخدمة الدينية التي كانت قد بدأت للتو.

أخذنا مكاننا في غرفة تضم قرابة خمسين شخصاً، متحلقين على سجاجيد. دخل الشامان مرتدياً حلة رتبة دينية. كان الجميع صامتاً، وامرأة شابة، بالكاد في العشرين من عمرها، ممددة فوق حصيرة، تعاني بصورة ظاهرة ألماً يسبب لها حمى رهيبة، فيتصبب العرق من جبينها وتأخذ في الأنين. تناول الشامان طبلة، كما شرحت لي كيرا، التي ما زالت حاقدة علي بالرغم من أني لم أطلب شيئاً منها: إن العناصر المتممة لا غنى عنها في إقامة

الشعائر. وإن للطبلة هوية جنسية مزدوجة، الجلد ذكَر والإطار أنثى. ندّت عني حماقة الضحك فتلقيت على الفور صفعة على قفا رأسي.

باشر الشامان تسخين جلد الطبلة، ملامساً إياها على لهيب شمعدان.

همستُ في أذن كيرا: هيا اعترفي أن هذا أشد تعقيداً حتى من الاستعانة بالاستعلامات.

رفع الشامان يديه وطفق جسمه يتماوج على وقع قرع الطبلة. كان غناؤه آسراً بحيث تخليتُ عن كل رغبة في التهكم، بينما غرقت كيرا بأكملها في المشهد الذي يدور أمام أبصارنا. غشي على الشامان وهزّت جسمَه تشنجات عنيفة. وتحوّل وجه المرأة الشابة أثناء الرتبة كما لو أن الحمى خفّت وطأتها، وعادت النضارة تظهر على خديها. كانت كيرا مسحورة وكذلك كنت أنا أسوة بها. توقف قرع الطبلة وانهار الشامان. لم يكن أحد يتكلم، وما من ضجة تعكر صفو الصمت. كانت عيوننا شاخصة إلى جسمه الهامد ولبث على هذه الحال لفترة طويلة. عندما استعاد الرجل وعيه وانتصب على قدميه، دنا من المرأة الشابة ووضع يديه على وجهها طالباً منها أن تنهض. بدت واقفة، بالرغم من ترنحها لقد شُفيت من الداء الذي كان

قبل قليل لا يزال يصرعها. هلّل الجمهور للشامان لأن السحر فعل فعله.

ما عرفتُ قط ما هي القوى الحقيقية التي يتمتع بها هذا الرجل، وسيبقى ما شهدته بنفسي في ذلك اليوم داخل مسكن «شامان لتسفيانكا»، سيبقى بالنسبة إلي لغزاً محيراً إلى الأبد.

فور انتهاء الرتبة، تفرّق الناس، فيما دنت كيرا من الشامان طالبة مقابلته. فدعاها إلى الجلوس وطرح الأسئلة التي أتت لملاقاته من أجلها.

أخبرنا أن الرجل الذي تبحث عنه هو أحد وجهاء المنطقة، وهو إلى ذلك محسن يهب الفقراء أموالاً طائلة، كما يتبرع لبناء المدارس، حتى إنه موّل ترميم مستوصف ظهر منذ ذلك الحين بمظهر مستشفى صغير. تردد الشامان في إعطائنا عنوانه لقلقه من نياتنا. وعدتْ كيرا بأننا نريد فقط الحصول على بعض المعلومات، فشرحت له مهنتها وما يستطيع إيغوروف أن يفيدنا فيه، إذ إن بحثها علمي بحصر المعنى.

نظر الشامان بانتباه إلى قلادة كيرا وسألها عن مصدرها، فباحت له بلا رادع: إنها أداة قديمة جداً، قطعة من خريطة النجوم نفتش عن أجزاء ناقصة لها.

سأل الشامان، وقد طلب مشاهدتها عن كثب: ما عمر هذه الأداة؟

أجابته كيرا، مادّة له إياها: ملايين السنين.

داعب الشامان القلادة وسرعان ما تجهم وجهه.

قال بصوت رزين: ينبغي ألا تتابعي رحلتك.

استدارت كيرا نحوي. ما الذي أقلق بغتة هذا الرجل؟

وأردف: لا تحتفظي بها لديك، إنك لا تعرفين ماذا تفعلين.

فسألته كيرا: هل سبق أن شاهدت أداة كهذه؟

قال الشامان: لا تدركين ما ينطوي عليه ذلك من أمور.

كانت نظرته قد ازدادت تجهماً.

أجابت كيرا، مستردة قلادتها: أجهل ما تريد الحديث عنه، نحن عالمان باحثان...

ـــ .. أنتما جاهلان! هل تعرفان فحسب كيف يدور العالم؟ هل تريدان المجازفة بتوريط توازناته؟

ثارت ثائرة كيرا، فقالت: ولكن عمَّ تتكلم؟

ـ هيا اغربا من هنا! إن الرجل الذي تمنّيان نفسيكما بمقابلته يقطن على مسافة كيلومترين من هنا، في منزل ريفي وردي اللون ذي ثلاثة أبراج صغيرة، لا يمكنكما أن تخطئاه.

كان شبان يتزحلقون على بحيرة بايكال بعيداً من الشط حيث كانت الأمواج التي أدركها الشتاء قد تجلّدت مكونة منحوتات ذات أشكال مخيفة. وكانت سفينة شحن قديمة تضطجع على جنبها وقد تفشى الصدأ في هيكلها. أخفت كيرا يديها في جيبيها وسألتني:

ـ ماذا حاول هذا الرجل قوله لنا؟

ـ ليست لدي أي فكرة، فأنت الخبيرة بمسائل الشامانية. أظن أن العلم يقلقه، هذا كل ما في الأمر.

ـ لم يبدُ لي خوفه غير معقول، بل خيّل إلي أنه على بينة مما يتكلم... كأنه أراد أن يجعلنا نحتاط لخطر ما.

ـ كيرا، لسنا نحن تلميذَين مبتدئين قليلي الخبرة، ولا مكان في موادنا التعليمية للسحر ولا للباطنية. ويتّبع كلانا منهجاً علمياً محضاً. في حوزتنا قطعتان لخريطة نسعى إلى استكمالها، لا شيء سوى ذلك.

ـ خريطة وضعت، في رأيك، قبل أربعمائة مليون سنة

ونجهل كل شيء عما ستكشفه لنا إذا أكملناها...

ـ عندما سنكملها سنتمكن إذ ذاك أن نفكر بطريقة علمية أن إحدى الحضارات كانت تمتلك معرفة فلكية في أزمنة كنا نعتقد من المستحيل توافرها على الأرض. إن اكتشافاً كهذا سوف يفتح آفاقاً جديدة أمام تاريخ البشرية. أليس هذا ما يستأثر باهتمامكِ منذ البداية؟

ـ وأنت، ماذا تأمل؟

ـ أن تبيّن هذه الخريطة لي نجمة ما زالت مجهولة، سيشكل ذلك أمراً مدهشاً. لماذا تُظهرين الاستياء.

ـ إني خائفة، أدريان، ما كانت أبحاثي يوماً لتعرضني لعنف الناس، ولا أفهم البتة حوافز الذين يحقدون علينا إلى هذا الحد. هذا الشامان يجهل كل شيء عنا، والطريقة التي تفاعل بها إزاء قلادتي كانت... مريعة.

ـ ولكن هل لاحظت ما كشفته له وما استلزم ذلك منه؟ هذا الرجل متنبئ بالَغيب، ترتَكز سلطته وهالته على معرفته وجهل الذين يبجّلونه. لقد وصلنا فجأة عنده شاهرين في وجهه الدليل على معرفة تتجاوز معارفه قليلاً، معرّضين إياه للخطر. لا أتوقع رداً أفضل من أعضاء الأكاديمية، لو أفشينا لهم كشفاً مماثلاً. فأن يصل طبيب إلى

قرية نائية من قرى العالم ـ حيث لم تبلغها الحداثة قطعاً ـ وأن يعالج مريضاً بأدوية، سيرى فيه الآخرون ساحراً ذا قدرات لا متناهية. إن المرء ليوّقر ذاك الذي يفوقه معرفة.

ـ شكراً على الأمثولة، أدريان، إن جهلنا هو ما يخيفني وليس جهل السكان المحليين.

وصلنا أمام المنزل الريفي الوردي، كان شبيهاً تمام الشبه بما وصفه لنا الشامان وعبّر عن الحقيقة، فمن المستحيل عدم تمييزه من أي منزل آخر نظراً لأن هندسته المعمارية كانت تدل على تباه مفرط. فمن عاش هنا لم يقم بأي مسعى لإخفاء ثرائه، وإنما كان على العكس يظهره للعيان عربون نفوذه ونجاحه.

كان رجلان، والكلاشنيكوف على صدرهما، يحرسان مدخل المنزل الفاخر. عرّفت بنفسي وطلبت مقابلة سيد الموقع. فنحن قادمان من قبل ثورنستن، أحد أصدقائه القدامى، الذي فوّضنا بأمر الوفاء بدين له. أمرنا الحارس بالانتظار أمام الباب، فيما كانت كيرا تنطنط مكانها رغبة منها في التدفؤ، تحت نظر الحارس الآخر اللاهي، الذي كان يرمقها بطريقة مزعجة للغاية بحسب رأيي. فضممتها بين ذراعيّ ودلّكت ظهرها. عاد الرجل بعد لحظات، في

أعقاب تعرضنا للتفتيش وفق الأصول، ليسمح لنا أخيراً بدخول مسكن إيغوروف الباذخ.

كانت الأرصفة مبلطة برخام «كرّارا» والجدران مغطاة بتلبيسات خشبية مستوردة من إنكلترا، على ما شرح لنا مضيفنا لدى استقبالنا في صالونه. أما السجادات فأكد أنه أتى بها من إيران، وهي قطع ذات قمية كبيرة.

هتف إيغوروف، وهو يقدّم لنا الفودكا: كنت أعتقد أن ثورنستن هذا الشخص القذر قد مات منذ زمن بعيد. اشربا، فالشراب سيدفئكما!

ردّت كيرا: آسفة لتخييب أملك، لكنه يتمتع بصحة جيدة.

أجاب إيغوروف: نعم الأمر له، إذاً جئتما تحملان إلي المال الذي يدين به لي؟

أخرجت محفظة نقودي ومددت لمضيفنا مائة دولار.

قلت، واضعاً القطعة النقدية الوحيدة فوق الطاولة: ها هي، بإمكانك التحقق منها، لقد اكتمل الحساب.

نظر إيغوروف إلى القطعة الخضراء باحتقار.

ـــ آمل أنها مزحة!

ــ إنه المبلغ الدقيق الذي طلب منا أن نسلّمه لك.

ــ هذا ما كان يدين به لي لثلاثين سنة خلت! لا بد، بالعملة الثابتة، ومن دون حساب الفوائد، أن يضربه بمائة كي نتخالص. أمهلكما دقيقتين لتنصرفا من هنا قبل أن تندما على قدومكما للتهكم بي.

ــ أخبرنا ثورنستن أن في وسعك مساعدتنا، أنا عالمة آثار وفي حاجة إليك.

ــ آسف، ما عدت أهتم بالعاديات منذ وقت طويل، فتجارة المواد الأولية أكثر دراً للكسب. وإذا قمتما بهذه الرحلة على أمل أن تشتريا مني شيئاً ما، فقد سافرتما في غير طائل. إن ثورنستن سخر منكما مثلما سخر مني أيضاً. خذا مجدداً هذه الورقة النقدية واغربا عن وجهي.

ــ لا أفهم عداءك تجاهه، مع أنه كان يتحدث عنك بعبارات تنمّ عن الاحترام وبدا أنه يضمر لك نوعاً من الإعجاب.

سأل إيغوروف، وقد زها بإطراء كيرا: حسناً إذاً.

أضافت كيرا: لماذا كان مديناً لك بالمال؟ مائة دولار، كان هذا يمثّل مبلغاً لا بأس به في هذه المنطقة، قبل ثلاثين سنة.

ــ لم يكن ثورنستن إلا وسيطاً يعمل لحساب شارٍ في باريس، كان يرغب في الحصول على مخطوطة قديمة.

ــ أي نوع من المخطوطات؟

ــ حجر منحوت عُثر عليه في مقبرة مجلدة في سيبيريا، ولا بد أنكما تعلمان مثلي أن العديد من هذه القبور تم اكتشافها في الخمسينات من القرن الماضي، وكانت كلها زاخرة بكنوز حفظتها الثلوج في حالة كاملة.

ــ وكلها تعرضت بدقة للسطو.

أجاب إيغوروف، متنهداً: للأسف، نعم. إن جشع الناس رهيب، أليس كذلك؟ ما إن يتعلق الأمر بالمال حتى ينتفي كل احترام وتقدير لروائع الماضي.

أردفت كيرا: وكنت، بالطبع، تصرف وقتك في تعقب نهّابي القبور، أليس كذلك؟

ــ لك عجز جميل، آنستي، وسحر أكيد، ولكن لا تبالغي في استغَلال ضيافتي.

ــ وهل بعتَ هذا الحجر من ثورنستن؟

ــ لقد صنعت له نسخة، لم يرَ فيها مموّله الموصي شيئاً! ولما كنت أعلم أنه لن يدفع لي اكتفيت بتسليمه

تقليداً للحجر، ولكن ذا نوعية جيدة جداً. خذا هذا المال، وامنحا نفسيكما وجبة لذيذة وقولا لثورنستن إننا تخالصنا.

سألت كيرا، مبتسمة: وهل العمل الأصلي في حوزتك دائماً؟

نظر إيغوروف إليها بازدراء متوقفاً عند انحناءات تكوينها الجسدي، ثم ابتسم بدوره ونهض.

ــ ما دمتما أتيتما حتى هنا، اتبعاني سأريكما بما كان الأمر يتعلق.

ذهب حتى المكتبة التي كانت تزين جدران قاعة استقباله. تناول منها علبة من جلد ناعم، فتحها ثم أعادها إلى موضعها.

ــ ليس داخل هذه العلبة، ولكن أين أمكنني وضعه؟

تفحّص ثلاثة صناديق صغيرة أخرى من النوع ذاته، ثم صندوقاً رابعاً وخامساً أخرج منه مادة مغلّفة في حجاب قطني. حلّ الخيط المحيط به وعرض علينا حجراً طوله عشرون سنتيمتراً في عشرين وضعه برفق فوق مكتبه قبل أن يدعونا إلى الاقتراب منه. كان سطحه مرصعاً بكتابات شبيهة بالهيروغليفية.

ـ إنها باللغة السومرية، هذا الحجر عمره يربو على ستة آلاف سنة. كان ممّول ثورنستن الموصي أحسن صنيعاً بدفع ثمنه لي في تلك الآونة، وكان ثمنه لا يزال مقبولاً كلياً. كنت، لثلاثين عاماً مضت، بعت تابوت سرجون ببضع مئات من الدولارات، أما اليوم فهذا الحجر لا يقدر بثمن وغير قابل للبيع بصورة غير معقولة، إلا لفرد خاص يحافظ عليه سراً. هذا النوع من المادة لا يمكن أن ينتقل بحرية، فالأزمنة تبدلت وغدت تجارة العاديات نشاطاً محفوفاً بمخاطر شديدة. لقد أخبرتك أن تجارة المواد الأولية تعود علي بمكاسب أوفر وبأقل كثيراً من المخاطر.

سألت كيرا، مفتونة بجمال الحجر: ما هو مدلول هذه النقوش؟

ـ لا يعني شيئاً كثيراً ولعله يتعلق بقصيدة أو بأسطورة قديمة، لكن الذي رغب في شرائه يبدو أنه علّق عليه أهمية كبرى. ولا بد أن عندي له ترجمة. ها هو إذاً، قال وهو يفتش الصندوق الصغير.

ناول كيرا قطعة ورقة قرأتها لي بصوت عال:

«ثمة أسطورة تحكي أن الطفل في أحشاء أمه يعرف كل شيء يمت بصلة إلى سر الخلق، من بداية العالم حتى آخر الأزمنة. عند ولادته، يمر رسول فوق مهده واضعاً إصبعه

على شفتيه كي لا يكشف أبداً السر الذي أفضى به إليه، سر الحياة...».

كيف لي أن أكتم دهشتي لدى سماعي هذه الكلمات التي كان صداها يتردد في رأسي وتذكرني بالذكريات الأخيرة لرحلة فاشلة؟ هذه الكلمات الأخيرة التي قرأتها وأنا على متن طائرة متوجهة إلى الصين، قبل أن أفقد الوعي وترجع على أعقابها. أوقفت كيرا قراءتها قلقة من أن تراني مضطرباً إلى هذه الدرجة. تناولتُ محفظة نقودي من جيبي، أخرجت منها قطعة ورقة بسطتها أمامها، وقرأت بدوري بصوت عالٍ خاتمة هذا النص الغريب.

«...هذه الإصبع الموضوعة التي تمحو إلى أبد الدهر ذاكرة الطفل، تترك علامة. هذه العلامة نملكها جميعاً فوق شفتنا العليا، ما عداي أنا. يوم وُلدت، نسي الرسول أن يزورني، لذا فأنا أتذكر كل شيء».

تناوبت كيرا وإيغوروف على النظر إلي وهما مذهولان مثلي. فشرحت لهما في أي مناسبة وردني هذا النص.

ــ إنه صديقك الأستاذ إيفوري هو الذي عمل على تسليمه لي، قبل أن أخرج بالضبط للبحث عنك في الصين.

سألت كيرا: إيفوري؟ وما دخله في هذا كله؟

هتف إيغوروف: لكنه اسم هذا الشخص الوغد الذي لم يدفع لي قط! كذلك هو كنت أظنه ميتاً منذ زمن بعيد.

أجابت كيرا: أهو هوس عندك أن ترغب في دفن جميع البشر؟ أشك كثيراً أن تكون هناك صلة ما لتجارتك التعسة بعمليات نهب القبور.

ــ أقول لك إن أستاذك، الذي يمكن الاشتباه به على حد زعمك، هو بالضبط الرجل الذي اشتراه مني، وأرجوك ألا تناقضيني، فليس من عادتي أن ترتاب فتاة صغيرة بلهاء في كلامي. إني لأنتظر اعتذارك!

شبكت كيرا ذراعيها مديرة ظهرها له، فأمسكتُ بها من كتفها وأمرتها بالتنفيذ فوراً! ندّدت بي بنظرها وغمغمت: «آسفة» (لمضيفنا الذي بدا لحسن الحظ راضياً وقبِلَ إطلاعنا على مزيد من المعلومات).

ــ عُثر على هذا الحجر في شمال غرب سيبيريا، أثناء بعثة للتنقيب في قبور مجلدة تزخر بها المنطقة. كانت القبور التي حماها البرد منذ آلاف السنين قد بقيت سالمة على نحو لافت. يجب وضع الأمور في نصابها، في تلك الحقبة كانت كل برامج البحث والتنقيب عائدة إلى سلطة المجلس المركزي للحزب. وكان علماء الآثار يتقاضون رواتب زهيدة للعمل في ظروف صعبة للغاية.

ـ لسنا أحسن حظاً في الغرب لكن أماكن التنقيب لا تتعرض مع ذلك للسرقة والنهب!

كنتُ فضلت لو أن كيرا احتفظت بهذا النوع من الملاحظة لنفسها.

ثم استأنف كلامه: الجميع يتاجرون من أجل تأمين حاجاتهم. وإذ كنتُ أتبوأ مركزاً عالياً قليلاً في نظام مراتب الحزب الإدارية، كانت التقارير والإجازات وتعويضات الموارد تتم بواسطتي، وكنتُ مكلفاً بفرز ما يمثّل بين الاكتشافات أهمية كافية لنقله إلى موسكو وما يمكن بقاؤه في المنطقة. وكان الحزب في طليعة نهّابي كنوز جمهوريات الاتحاد التي تعود إليها قانوناً، ولم نكن نقبض إلا نوعاً من العمولة الطفيفة لدى مرورها. ما كانت بعض المواد تبلغ موسكو بل يؤول أمرها إلى إغناء مجموعات الشارين الغربيين، وهكذا تعرّفت ذات يوم إلى صديقكما ثورنستن. كان يعمل لحساب الأستاذ إيفوري، هذا المولّع بكل ما يمّت بصلة إلى الحضارتين السيتية والسومرية. وكنت على علم بأنه لن يدفع لي أبداً، وكان في فرقنا عالم موهوب بالكتابات المنقوشة، فطلبتُ منه أن يصنع لي نسخة مقلدة من الحجر في كتلة من الغرانيت. والآن لو أخبرتماني عما حملكما على المجيء عندي، لافترضت

أنكما لم تجتازا الأورال لإعادة مائة دولار إلي.

ـ أنا أقتفي آثار البدو الرّحل الذين قاموا بهذه الرحلة الطويلة قبل أربعة آلاف سنة قبل الميلاد.

ـ للانتقال من أين وإلى أين؟

ـ إنهم بلغوا الصين منطلقين من إفريقيا، ولدي البرهان على ذلك، ثم ليس كل هذا سوى محض فرضيات. وأفترض أنهم انعطفوا باتجاه منغوليا وعبروا سيبيريا صعوداً إلى نهر يانسّاي وحتى بحر كارا.

ـ يا لها من رحلة مقدسة! ولأي غرض أقدم بدوك الرحل على اجتياز كل هذه المساحات؟

ـ لعبور طريق القطب والوصول إلى القارة الأميركية.

ـ هذا لا يجيب في الحقيقة عن سؤالي.

ـ لحمل رسالة.

ـ وهل فكرتما أنه يسعني أن أساعدكما على التدليل على وجود مثل هذه المغامرة؟ من غرس هذه الفكرة في رأسيكما؟

ـ ثورنستن، فهو يزعم أنك اختصاصي في الحضارة

السومرية، وأفترض أن الحجر الذي قمتَ بتبيانه لنا يؤكد ما قاله لنا.

سأل إيغوروف بلهجة ماكرة: كيف التقيتما ثورنستن؟

ــ بوساطة صديق أوصانا بالذهاب للقائه.

ــ إنه لمسلٍّ جداً.

ــ لا أرى ما هو مسلٍّ إلى هذا الحد في كل ذلك.

ــ وصديقكما، ألا يعرف إيفوري؟

ــ على حد علمي، لا.

ــ هل أنتِ مستعدة لأن تقسمي اليمين بأنهما لم يلتقيا قط؟

مدّ إيغوروف الهاتف لكيرا متحدياً إياها بنظره.

ــ إما أنك بلهاء أو أنكما كليكما تقسمان بسذاجة محيرة. اتصلي بهذا الصديق واطرحي عليه السؤال!

كنا أنا وكيرا ننظر إلى إيغوروف من دون أن نفهم إلى أين يريد الوصول. أخذت كيرا الجهاز وألفّت رقم ماكس مبتعدة ــ وهو ما أزعجني إلى أقصى حد، ولا بد لي أن أعترف بذلك. ثم عادت بعد لحظات ممتقعة الوجه.

قلت لها: تعرفين إذاً رقمه على ظهر قلب...

ــ ليس هذا هو الأوان إطلاقاً.

ــ هل سألك عن أخباري؟

ــ لقد كذب علي، فطرحتُ عليه السؤال دون مواربة فأقسم أنه لا يعرف إيفوري، لكني شعرت أنه كذب علي.

توجّه إيغوروف ناحية مكتبته، أجال بصره في الرفوف وأخرج منها كتاباً ضخماً. وأردف يقول:

ــ لئن أحسنت الفهم، فإن أستاذكما العجوز أوقعكما تحت سلطة صديق وجّهكما إلى ثورنستن، الذي أرسلكما بدوره إلي. كان إيفوري نفسه حاول، قبل ثلاثين عاماً ومن غير قصد، الحصول على هذا الحجر الذي أملكه، وقد نُقش عليه نص بالسومرية، سبق أن سلّمكما عنه نسخة جديدة. كل هذا لا يعدو كونه، بكل تأكيد، محض مصادفة.

فسألته: ماذا تعني إذاً؟

ــ إنكما دميتان من دمى العرائس يشد إيفوري خيوطكما على هواه، فيدفعكما إلى التوجه من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب، وفقاً لرغباته الطيبة. إن لم تستوعبا بعد أنه يتخذكما وسيلة للاستغلال، فإنكما إذاً

أشد غباء مما كنت أفترضه.

قاطعته كيرا، صافرة: أعتقد أننا فهمنا تماماً أنك تعتبرنا غبيين، لقد كنتَ في هذا الخصوص واضحاً كل الوضوح. ولكن لماذا يقوم بمثل هذا العمل؟ ماذا سيكسب من ذلك؟

ـ لا أدري عما تبحثون بالضبط، لكني أفترض أن النتيجة لا بد أن يكون موضع اهتمامه إلى أبعد الحدود. إنكما على وشك متابعة عمل لم ينجزه. أخيراً، لا ينبغي أن يتحلى المرء بذكاء خارق ليدرك أنكما تعملان من أجله من دون أن تلاحظا ذلك.

فتح إيغوروف الكتاب الضخم وبسط خريطة قديمة لآسيا، مستأنفاً حديثه: هذا الدليل الذي كنتما تأملان في العثور عليه هو تحت أنظاركما، إنه الحجر الذي يظهر عليه هذا النص باللغة السومرية. كان صاحبكما إيفوري يحدوه الأمل بأني ما زلت أملكه، وقد تدّبر أمره ليجعلكما تصلان إلي.

جلس إيغوروف خلف مكتبه ودعانا إلى أخذ مكانينا في متكأين ضخمين متقابلين.

ـ بدأ التنقيب عن الآثار القديمة في سيبيريا في القرن الثامن عشر، بناء على مبادرة من بطرس الأكبر. لم يكن

الروس، قبل ذلك، قد أولوا ماضيهم أي اهتمام. عندما كنت أدير الفرع السيبيري للأكاديمية، كنت أستنفد جميع الوسائل لإقناع السلطات بصيانة كنوز لا تقدر بثمن، فأنا لست التاجر السوقي الذي تتصورانه. بالطبع، كانت لي شبكاتي، لكني أنقذت بفضلها آلاف القطع ورممّت منها بالقدر نفسه. فلولاي لكان محكوماً عليها بالفناء. أو تعتقدان أن هذا الحجر السومري كان له وجود لو لم أكن هناك؟ كان سيستخدم على الأرجح، بين المئات من مثيلاته، في تدعيم حائط ثكنة عسكرية أو في ردم طريق. لا أدّعي أني ما حظيت ببعض الفوائد من هذه التجارة المتواضعة، لكني تصرفت دوماً وأنا مدرك لما كنت أفعله. لم أكن أبيع آثار سيبيريا العزيزة لأي شخص كان. حسناً، في كل حال، ما كان هذا الأستاذ ليضيّع عليكما وقتكما. أنا في الواقع درست، أكثر من أي شخص آخر في روسيا، الحضارة السومرية، وكنت دائماً مقتنعاً بأنهم قاموا برحلات أبعد بكثير من المسافات المفترضة. لم يكن أي منهم يولي نظرياتي أدنى ثقة، وقد نعتوني بمدّعي الرؤى وبالعاجز أيضاً. الشيء الاصطناعي الذي تبحثان عنه، والذي يشهد أن بدوكم الرحل بلغوا بالفعل أقصى الشمال، هو تحت أعينكما. هل تعلمان إلى أي زمن يعود النص المنقوش عليه؟ إلى العام 4004 قبل الميلاد. ثم قال

مشيراً إلى خط أصغر من سائر الخطوط في أعلى الحجر: هيا، تأكدا بنفسيكما، إنه تأريخ صريح. والآن، أبوسعكما أن تشاطراني الأسباب التي من أجلها حاولوا، بحسب اعتقادكما، بلوغ القارة الأميركية؟ إذ إني أتصور أنكما، ما دمتما هنا، تعرفانها.

كررت كيرا قولها: لقد قلته لك، لحمل رسالة.

ــ شكراً، فأنا لست أصم، ولكن أي رسالة؟

ــ لا أدري، إنها موجهة إلى سلطات الحضارات القديمة.

ــ وهل تعتقدان أن رسلكما بلغوا هدفهم؟

انحنت كيرا على الخريطة مشيرة بإصبعها إلى ممر «مضيق بيرنغ» الدقيق، ثم زلقت سبابتها على امتداد الساحل السيبيري، وقالت بصوت خفيض:

ــ لا أعلم، لهذا أنا بأمسّ الحاجة إلى اقتفاء آثارهم.

أمسك إيغوروف بيد كيرا ونقّلها ببطء على الخريطة، وقال واضعاً إياها إلى شرق سلسلة أورال، فوق نقطة تقع إلى شمال جمهورية «كومي»: مان ــ يويو ــ نيور، موقع عمالقة الأورال السبعة، هنالك حط رسل

سلطاتكم رحالهم للمرة الأخيرة.

فسألت كيرا: وكيف تعرف ذلك؟

ــ لأن الحجر تم العثور عليه في هذا الموقع بالضبط من سيبيريا الغربية. ولم يكن بدوكم يهبطون «نهر بانسّاي» وإنما «نهر أوب»، ولا كانوا متوجهين صوب بحر كارا، بل نحو البحر «الأبيض». للوصول إلى وجهتهم المقصودة، كان طريق النروج أقصر مسافة وأسهل منالاً.

ــ لماذا قلت: «حطّوا رحالهم للمرة الأخيرة»؟

ــ لأن لدي حججاً دامغة بأن رحلتهم توقفت هنالك. ما سأبوح به لكما لم يسبق أن كشفنا اللثام عنه. كنا، لثلاثين سنة خلت، نقوم بحملة تنقيبات في هذه المنطقة. كان في مان ــ يويو ــ نيور تنتصب سبعة أعمدة حجرية فوق هضبة شاسعة تقع على قمة جبل تعصف بها الرياح، كل واحد منها يتراوح ارتفاعه بين ثلاثين واثنين وأربعين متراً، يبدو شكلها أشبه بأنصبة عمودية ضخمة (منهير). تشكل ستة منها نصف دائرة، أما السابع فيظهر أنه يحدّق إلى الأعمدة الستة الأخرى. يمثّل عمالقة الأورال السبعة لغزاً لم يُفضِ بسره قط. لا أحد يعلم لماذا هي هناك، ولا يمكن أن تكوَن عوامل الحتّ المسؤولة الوحيدة عن مثل هذه الهندسة المعمارية. هذا الموقع هو المعادل الروسي

لموقعكم في «سستون هنغ»، باستثناء أن الصخور هي ذات حجم لا مثيل له.

ــ لماذا لم تكشف شيئاً؟

مهما بدا ذلك غريباً عليكما، فإننا غطينا كل شيء من جديد وأعدنا الموقع إلى حالته التي وجدناه فيها، وطمسنا كل أثر لعبورنا. في تلك الحقبة، كان الحزب لا يأبه لأعمالنا، فما قمنا بإخراجه إلى النور تجاهله موظفو موسكو غير الأكفّاء. وفي أحسن الاحوال، كان ينبغي أن تحفظ اكتشافاتنا في الأرشيف من دون أي تحليل، ومن دون أي عناية بالحفاظ عليها. وانتهى بها الأمر إلى التعفن في صناديق عادية منسية في طبقات تحت الأرض لمبنى ما.

عندها سألت كيرا: وماذا وجدتم؟

ــ كمية من بقايا بشرية يرقى تاريخها إلى الألف الرابع، وقرابة خمسين جثة محفوظة بأكلمها تحت الثلوج. وبينها وُجد الحجر السومري مطموراً في قبرهم. الرجال الذين تتأثرون خطاهم حاصرهم الشتاء والثلج، فماتوا جميعاً من الجوع.

التفتت كيرا نحوي وهي في ذروة الهياج.

ــ لكن هذا اكتشاف عظيم! لم يتمكن أحد من أن يبرهن على أن السومريين ارتحلوا إلى مسافات بعيدة كهذه؛ لو نشرتَ أعمالك مدعومة ببراهين مماثلة، لكانت الجماعة العلمية الدولية هلّلت لك.

ــ أنت لطيفة لكنك شابة دون السن لتعلمي عما تتحدثين. لنفترض أن تأثير هذا الاكتشاف أثار صدى لدى رؤسائنا، فإنهم كانوا أمروا بترحيلنا على الفور إلى أحد معسكرات الأشغال الشاقة، ونسبت أعمالنا إلى أعضاء جهاز الحزب. فلفظة «دولي» لم يكن لها وجود في الاتحاد السوفياتي.

ــ ألهذا السبب عاودت طمر كل شيء؟

ــ ماذا كنتِ فعلت لو كنت مكاننا؟

هتفتُ قائلاً: كنت عاودت طمر كل شيء تقريباً... لو أتيح لي ذلك. أتصور أن هذا الحجر ليس الأداة الوحيدة التي حملتها بين أمتعتك...

رشقتني إيغوروف بنظرة شزرة.

ــ كان هناك بعض الأمتعة الشخصية لهؤلاء المسافرين، لم نحتفظ منها إلا بالنزر اليسير، كان حيوياً بالنسبة إلى كل منا أن نظل محترسين ما أمكننا ذلك.

قالت لي كيرا: أدريان، إذا كانت رحلة السومريين آلت إلى نهايتها في ظروف كهذه، فمن المرجح آنذاك أن تكون القطعة في مكان ما على «هضبة ما ــ يويوــ نيور».

صحّح إيغوروف: مان ــ يويو ــ نيور، ولكن يمكنكما أن تقولا عنهما «بوبونير»، هذه هي الطريقة التي يلفظها بها الغربيون. عن أية قطعة تتكلمان؟

رمقتني كيرا، ثم من دون انتظار ردت على سؤال لم يوجهه إلي، نزعت عقدها وأرت إيغوروف قلادتها، ساردة له كل شيء تقريباً عن البحث الذي أقدمنا عليه.

أبقانا إيغوروف، وقد أولع بما شرحناه له، للعشاء، وإذ طالت السهرة، وضع تحت تصرفنا غرفة، وهو ما جاء في أوانه، فنسينا كلياً التفكير في مكان يأوينا.

أثناء وجبة الطعام ــ التي قُدّمت إلينا في غرفة جعلنا حجمها نفكر في ملعب رياضة «بدمنتون» أكثر منه في صالة طعام ــ انقضّ إيغوروف علينا بأسئلته. عندما انتهيت من الكشف عما كان يحدث لدى جمع الأداتين، توسل إلينا أن ندعه يعاين الظاهرة، وكان من الصعب أن نرفض له طلباً. قرّبنا أنا وكيرا قطعتينا وللتو اتخذتا لونهما الضارب قليلاً إلى الزرقة، حتى لكأن هذا اللون أشد خفوتاً من المرة الأخيرة. حملق إيغوروف وبدا وجهه أنه

استعاد نضارته، وكان، هو الهادئ للغاية حتى تلك الآونة، مهتاجاً كأنه صبي عشية ليلة الميلاد.

ــ ماذا يحدث، في رأيكما، لو تم جمع القطع كافة؟

أجبت، مستبقاً كيرا: ليس لدي أدنى فكرة.

ــ وهل أنتما متأكدان أن هاتين القطعتين عمرهما أربعة ملايين سنة؟

أجابت كيرا: إنهما ليستا حجرين، أجل نحن متأكدان من قدمهما.

تابعت، قائلاً: إن سطحهما مسامّي مرصّع بملايين الثقوب المتناهية الصغر. وحينما تتعرض القطعتان لمصدر نور قوي جداً، تنشران خريطة للنجوم يطابق موقعها بالضبط الموقع الذي كانت عليه السماء في تلك الحقبة. لو كان تحت تصرفنا ليزر قوي كفاية لكنت برهنت ذلك.

ــ وددت كثيراً رؤية ذلك، ولكن للأسف، لا أملك مثل هذا الجهاز.

أفضيتُ إليه: لربما كان العكس أقلقني.

بعد الفراغ من تناول الحلوى ــ وهي من النوع الهش المضافة إليه الكحول بوفرة ــ غادر إيغوروف المائدة

وشرع يذرع الغرفة جيئة وذهاباً. ثم ما لبث أن قال:

ـ وهل تعتقدان أن إحدى القطع الناقصة يمكن العثور عليها في موقع عمالقة الأورال السبعة؟ أجل، بكل تأكيد هذا ما تعتقدانه، يا للسؤال!

ردت كيرا: وددتُ كثيراً لو أتمكن من إجابتك!

أنتِ ساذجة ومتفائلة! وفي الحقيقة لطيفة أيضاً.

ـ وأنتَ...

سددتُ إليها ضربة خفيفة بركبتي من تحت المائدة قبل أن تنتهي من عبارتها.

أردف إيغوروف: نحن في فصل الشتاء، و«هضبة مان ـ يويو ـ نيور» تجتاحها رياح باردة جداً وجافة، بحيث يكاد الثلج يبقى على الأرض المجلّدة. هل تنويان القيام بتنقيباتكما مستعينين بمجرفتين صغيرتين وموقد معدني؟

ردت قائلة: كفَّ عن هذه اللهجة المتنازلة، إنها لمغيظة. ثم لاستكمال معلوماتك، ليست القطعتان من معدن.

ردّ إيغوروف: أنا لا أقترح عليكما كاشفة معادن للهواة بحثاً عن قطع ضائعة تحت سطح الشاطئ، بل مشروعاً أكثر طموحاً بكثير...

انتقل بنا إيغوروف إلى قاعة الاستقبال، ولم تكن لتقلّ شأناً من غرفة الطعام. فقد كانت الأرض الرخامية تخلّت عن مكانها لأرضية من خشب السنديان، فيما الأثاث تم استيراده من إيطاليا وفرنسا. جلسنا على أريكتين مريحتين قبالة مدفأة بالغة الضخامة، حيث كانت نار كثيفة تلعلع. كانت ألسنة اللهيب تلحس عمق الموقد، متصاعدة إلى علو شاهق.

عرض علينا إيغوروف وضع حوالي عشرين رجلاً تحت تصرفنا وتأمين كل العتاد الذي ستحتاج إليه كيرا من أجل القيام بتنقيباتها. لقد وعدها بتوفير وسائل أكثر مما أتيح لها حتى حينه. أما البدل الوحيد لهذه المساعدة غير المتوقعة فكان إشراكه في جميع اكتشافاتها.

بيّنت كيرا له أنْ ليس في الأمر أي كسب مالي يرتجى. ما كنا نتوق إلى اكتشافه خالٍ من كل قيمة تجارية، إنما يتمتع فقط بأهمية علمية. امتعَض إيغوروف من ذلك قائلاً، وقد تملكه الغضب:

ــ من حدثكما عن مال؟ أنتما وحدكما جرت هذه الكلمة على لسانكما. هل كلّمتكما أنا عن مال؟

أجابت كيرا، مرتبكة: كلا ــ وكنتُ أظنها صادقة ــ ثم قالت، وكأنها تعتذر، لكننا نعرف كلانا أن الوسائل التي

تقدمها إلي تمثّل تمويلاً ضخماً، وحتى يومنا هذا لم أصادف طيلة مزاولة مهنتي إلا قلة من محبي البشر.

فتح إيغوروف علبة سيكار وقدّمها لنا. أوشكتُ أن أستسلم للتجربة، لكن نظرة كيرا السوداء أقنعتني بالعدول عن ذلك.

تابع إيغوروف كلامه: لقد كرّست الجزء الأكبر من حياتي لأعمال التنقيب عن الآثار القديمة، وذلك في ظروف أقسى بكثير من تلك التي قد تعرفينها على الإطلاق. فجازفت بحياتي، جسدياً كان أم سياسياً، وأنقذت العديد من الكنوز، وسبق أن شرحت لكما الظروف، وعرفان الجميل الذي قدمه لي هؤلاء الأشخاص القذرون في أكاديمية العلوم هو اكتفاؤهم باعتباري تاجراً سوقياً. لكأن الأمور تغيرت اليوم كثيراً! يا لهم من منافقين! ها قد يكون انقضى عما قريب ثلاثة عقود وهم ما انفكوا يلطخون سمعتي. لئن نجح مشروعكما أكون قد ربحت أكثر من المال بكثير، فزمن دفن الموتى مع ممتلكاتهم قد ولّى، وأنا لن أحمل إلى قبري هذه السجاجيد العجمية ولا لوحات القرن التاسع عشر التي تزين جدران منزلي. أتحدث إليكما لكي أضمن لنفسي نوعاً من الاحترام. فلو لم نخف، منذ ثلاثين عاماً، من رؤسائنا، لكان نشْر أعمالنا، كما قلتما بحق، جعل مني

باحثاً علمياً مشهوراً ومحترماً. لن أمر مرتين بجانب الحظ الذي سنح لي ماضياً. كما سنقوم بهذه الحملة سوياً إن كنتما موافقين، وإذا وجدنا ما يعزز نظرياتك وابتسم لنا الحظ السعيد. عندها سنقدّم إلى جمعية العلماء حصيلة اكتشافاتنا. هذه الصفقة الصغيرة، هل تناسبكما، نعم أو لا؟

ترددت كيرا، وقد كان من الصعب في الوضع الذي كنا فيه أن ندير ظهرنا لحليف من هذا القبيل. قدُّرت الحماية التي ستؤمنها لنا هذه الشراكة حق قدرها. ولو شاء إيغوروف أن يستصحب كذلك الحارسين المرافقين المسلحين اللذين قاما باستقبالنا في بيته، سيكون لنا من يكفلنا في حال رغب أحدهم في محاولة اغتيالنا. بادلتني كيرا مزيداً من النظرات، إذ أن القرار كان منوطاً بنا كلينا، لكني أردت، وللشهامة أحكامها، أن تفصح عن رأيها أولاً.

أبدى إيغوروف لكيرا ابتسامة عريضة. ثم قال لها بلهجة في منتهى الجدية:

ــ أعيدي إلي المائة دولار هذه.

أخرجت كيرا الورقة النقدية، فدسها إيغوروف في جيبه تواً.

ــ هكذا إذاً، أسهمتما في تمويل الرحلة، نحن شركاء

من الآن فصاعداً، والآن وقد سوّيت المشاكل المالية التي بدت أنها تشغل بالكما كثيراً، هل في وسعنا، بصفة رجال علم، أن نركّز اهتمامنا في تفاصيل تنظيمنا كعلماء كي ننجح في القيام بحملة التنقيبات هذه؟

جلسا حول الطاولة الواطئة، وأعدّا خلال ساعة من الزمن، قائمة بكل المعدات التي سوف يحتاجان هما إليها. قلت «هما» لأني شعرت بأني استُثنيتُ من محادثتهما. ومن ناحية ثانية، انتهزت فرصة تجاهلهما لي لأنصرف إلى دراسة رفوف المكتبة عن قرب. وجدتُ العديد من كتب الآثار، وموجزاً قديماً لخيمياء القرن السابع عشر، وموجزاً آخر لعلم التشريح في مثل قدمه، والأعمال الكاملة لألكسندر دوما، وطبعة أصلية لرواية «الأحمر والأسود». إن مجموعة الكتب التي أجلت بصري فيها لا بد أن تعادل قيمتها ثروة حقيقية. وقد شغلت بالي رسالة مدهشة في علم الفلك يعود تاريخها إلى القرن الرابع عشر، في الوقت الذي كانت فيه كيرا وإيغوروف يضطلعان بمهنتهما.

أخيراً، عندما لاحظا غيابي، كانت الساعة تقارب الواحدة صباحاً، فجاءت كيرا تبحث عني، وبدت وقحة وهي تسألني ماذا أنا فاعل. فاستخلصتُ أن للسؤال قيمة تقريعية ولحقت بها أمام المدفأة.

ـ إنه يكاد لا يُصدّق، أدريان، ستؤمِّن لنا كل المعدات الضرورية وسنتمكن من القيام بتنقيبات على نطاق واسع. لا أدري كم من الوقت سيستغرق ذلك، ولكن بفضل مثل هذه التجهيزات لدينا حظوظ كبيرة للعثور على القطعة، إذا كانت موجودة حقاً في موضع ما بين هذه الأنصاب الصخرية.

طفتُ ببصري في القائمة التي كانت قد أعددتها مع إيغوروف، وتحوي موالج، مساوط، شواقيل، فراشي، جهاز«جي بي آس»، أمتاراً للقياس، أوتاداً للتربيع، حواجز مشبكة، مناخل، موازين، أجهزة لقياس أجزاء جسم الإنسان، آلات ضاغطة، مكانس تمتص الغبار، محطة توليد كهرباء ومصابيح للعمل ليلاً، خياماً، عدادات، آلات تصوير فوتوغرافي، ما بدا أن شيئاً كان ينقص هذا الجرد الباذخ بالموجودات، الجدير بمخزن اختصاصي. رفع إيغوروف السماعة الموضوعة فوق طاولة، وبعد لحظات دخل رجلان إلى غرفة استقباله، فسلمهما القائمة وانسحبا على الفور.

قال إيغوروف، متمطياً: كل شيء سيكون معدّاً قبل ظهر غد.

أما أنا فجرؤت على سؤاله: كيف سترسل كل ذلك؟

دارت كيرا ناحية إيغوروف الذي رمقني بنظرة تنم عن

الظفر:

ـ إنها مفاجأة، وفي انتظارها، لقد تأخر الوقت ونحن في حاجة إلى النوم، سأراكما أوان الفطور. كونا على أهبّة الاستعداد، سوف ننطلق في آخر الضحوة.

رافقتنا أحد الحراس حتى شقتنا. كان لغرفة الضيوف شكل قصر. ما كنتُ تردّدت قط على مثيل لها، لكني أشك أن في الإمكان بناء غرفة أوسع من تلك التي سننام فيها هذه الليلة. كان السرير كبيراً جداً بحيث يمكنك أن تستلقي عليه بالطول كما بالعرض. وَثَبت كيرا على الفراش السميك والوثير ودعتني إلى اللحاق بها. لم أكن شاهدتها في مثل هذه البهجة منذ...

لقد كنت جازفت بحياتي مراراً، وجزت آلاف الكيلومترات للعثور عليها. لو علمتُ لاكتفيت بأن أهدي إليها رفشاً ومنخلاً! في مطلق الأحوال، يتوقف الأمر علي وحدي أن أقدّر الحظ الذي واتاني، إذ كان أقل شيء كافياً لأغمر المرأة التي أحبها. فتمطت بكل طولها، خلعت كنزتها وحلّت حمالة صدرها مشيرة إلي بشكل مثير بألا أتباطأ. ما كانت لي النية في ذلك.

كنت

كانت سيارة الجاكوار تجري بسرعة متزايدة على الطريق الصغيرة المؤدية إلى المسكن الريفي، وسير آشتون، الجالس في المقعد الخلفي، يتصفّح ملفاً في ضوء فانوس السقف، فأطبقه متثائباً. رنّ الهاتف وأعلن سائقه عن اتصال مصدره موسكو، فحوّله إليه. شرح موسكو:

ـ لم نوفّق في اعتراض سبيل صديقك في محطة اركوتسك، لا أعلم كيف تصرفا، إلا أنهما أفلتا من رقابة رجالنا.

انزعج آشتون: إنه لخبر مكدّر!

أردف موسكو: إنهما على بحيرة بايكال في منزل تاجر عاديات.

ـ إذاً، ماذا تنتظرون لاستجوابهما؟

ـ فليخرجا منه أولاً، لأن إيغوروف له من يسانده في المنطقة، وبيته الريفي ينعم بحماية جيش صغير، ولا أتمنى أن يستحيل مجرد توقيف إلى حمام دم.

ـ عرفتك أقل احتراساً من المفاجآت.

ـ أعلم أنه يشق عليك التعود على ذلك. فإذا تدخّل رجالي وقام رجال إيغوروف بالرد عليهم، عندها سيكون

من الصعب أن نشرح للسلطات الاتحادية أسباب مثل هذا الهجوم تحت جنح الظلام، وبخاصة من دون طلب القيام بذلك مسبقاً. في كل الأحوال، لا شيء يخوّلنا، من الناحية القانونية، توجيه أي لوم بحق هذين العالمين.

ــ ألا يكفي وجودهما في بيت تاجر عاديات؟

ــ كلا، لا يعد هذا جريمة. كن صبوراً فنحن، ما إن يخرجا من جحرهما حتى نتلقاهما من غير أن يثير ذاك أدنى ضجيج. أعدك بإرسالهما إليك بالطائرة مساء غد.

انحرفت سيارة الجاكوار بصورة جادة ومفاجئة، فتزحلق آشتون على المقعد وأوشك أن يرخي الجهاز من يده، لكنه تمسك بالمرتفق، ثم اعتدل في جلسته مرتطماً بالحاجز الزجاجي وأعرب عن استيائه لسائقه.

تابع موسكو كلامه، متسائلاً: ألم تحاول القيام بعمل ما دون إخطاري، مصادفة؟

ــ إلام تلمّح؟

ــ إلى حادث صغير وقع في القطار العابر سيبيريا. لقد تعرضت موظفة الشركة لضرب عنيف على رأسها. ما زالت في المستشفى تشكو من رضّ جدّي في الجمجمة.

ــ يؤسفني الاطلاع على ذلك، يا عزيزي. ضرب امرأة يعدّ عملاً شنيعاً.

ــ لو لم تكن عالمة الآثار وصديقها في القطار، لما ارتبت في صدقك، ولكن يظهر أن هذا الاعتداء المشين وقع في العربة التي كانا يشغلانها. هل لي أن أرى في ذلك مجرد مصادفة، ولا شيء غير مصادفة؟ وأنت، ما كان ليُسمح لك بالعمل من وراء ظهري، ولا سيما في منطقتي، أليس كذلك؟

أجاب آشتون: طبعاً لا، إن مجرد إشارتك إلي يهينني.

ترجّحت السيارة بعنف مجدداً. أصلح آشتون ربطة عنقه الفراشية وارتطم مرة جديدة بالزجاج قبالته. وعندما أخْذ الهاتف بيده، كان موسكو قد علّق الخط.

ضغط آشتون على زر، فانخفض الحاجز الزجاجي وراء مقعد سائقه.

ــ هل انتهيت من خضي على هذا النحو؟ ثم لماذا تقود بمثل هذه السرعة؟ لسنا، على ما أعلم، في ميدان سباق للسيارات!

ــ كلا، يا سيدي، لكننا ننزل منحدراً لا يُستهان بانحداره، والمكابح أفلتت! إني أبذل ما في وسعي، لكني

أدعوك لتبكيل حزامك، أخشى أن نضطر إلى تحمّل حفرة ما إن يكون ذلك ممكناً، إذا ما رغبت في إيقاف هذه العربة الشيطانية المغلقة.

رفع آشتون عينيه إلى السماء ونفّذ ما طلبه منه سائقه. نجح هذا الأخير في التصدي للمنعطف التالي بطريقة ملائمة، غير أنه لم يكن لديه خيار آخر سوى مغادرة الطريق والغوص في حقل لتجنب الشاحنة القادمة تجاهه.

تجمدت السيارة في مكانها، فتح السائق باب سير آشتون واعتذر للإزعاج. لم يكن يعي شيئاً مما يجري، فالسيارة خضعت حديثاً لمعاينة محركها، وقد ذهب لطلبها من المرآب قبل سلوك الطريق بالضبط. سأله سير آشتون إن كان في حوزته مصباح جيب في السيارة. فتح السائق صندوق عدة التصليح وناوله واحداً على الفور.

أمره آشتون: تباً لك! هيا إذاً، أنظر تحت الهيكل ما الذي حدث.

خلع السائق سترته ونفذ الطلب. لم يكن هيّناً أن يندسّ تحت المركبة لكنه توصل إلى ذلك عبر مروره من الخلف. بعد لحظات، ظهر مجدداً وقد تلوّث بالطين من رأسه حتى قدميه، وأعلن ببالغ الارتباك أن حوض المكبح مثقوب.

للوهلة الأولى ارتاب آشتون، إذ بدا من غير المعقول أن يحقد أحدهم عليه بطريقة متعمدة وفظّة. ثم عاود التفكير في الصورة الفوتوغرافية التي عرضها عليه مديره المسؤول عن الأمن. بدا إيفوري يركّز، وهو جالس في مقعده، على الهدف، وكان إلى ذلك يبتسم.

باريس

كان إيفوري يطّلع للمرة الألف على الكتاب الذي أهداه إليه المرحوم شريكه في لعبة الشطرنج. توقف مجدداً عند صفحة الوقاية (صفحة يبضاء يكتب عليها الإهداء) ليقرأ الإهداء أيضاً وأيضاً:

«أعرف أن هذا الكتاب سينال إعجابك، فلا شيء ينقصه لأن كل شيء موجود فيه، حتى عربون صداقتنا».

شريكك المخلص في لعبة الشطرنج

فاكيرز

لم يستوعب من الأمر شيئاً، بل نظر إلى ساعته مبتسماً. ارتدى معطفه، عقد وشاحاً حول عنقه ونزل ليقوم بنزهته الليلية على امتداد حواف السين. حين بلغ «جسر ماري»، نادى والتر.

ــ هل حاولتَ الالتحاق بي؟

ــ مرات عدة، ولكن بلا طائل. كنت يائساً من مخاطبتك. لقد اتصل بي أدريان من اركوتسك، يبدو أنهما تعرضا لمضايقات في الطريق.

ـ أي نوع من المضايقات؟

ـ مزعجة على الأرجح، فهناك من حاول اغتيالهما.

نظر إيفوري ناحية النهر، ساعياً بكل ما أوتي من جهد أن يحافظ على هدوئه.

أردف والتر: لا بد من إعادتهما إلى هنا، فقد ينتهي الأمر بهما إلى التعرض لمكروه وأنا لن أسامح نفسي على هذا.

ـ وكذلك أنا، يا والتر، لن أغفر ذلك لنفسي. هل تعلم إن كانا قابلا إيغوروف؟

ـ أفترض ذلك، إذ كانا ماضيين للبحث عنه، عندما علقنا الهاتف. كان أدريان يبدو قلقاً جداً. ولو لم تكن كيرا مصممة إلى هذا الحد، لعاد أدراجه بكل تأكيد.

ـ هل أبلغك نيته هذه؟

ـ أجل، لقد أشار إلى أمنيته هذه مراراً، وصعب عليّ فعلاً أني لم أحثّه في هذا الاتجاه.

ـ والتر، ليس ذلك سوى مسألة أيام أو بضعة أسابيع على الأكثر. لا يسعنا أن نتراجع الآن خصوصاً.

ـ ألا تملك أي وسيلة لحمايتهما؟

ـ سأتصل بمدريد اعتباراً من الغد، وحدها هي يمكنها التأثير في آشتون. وأنا لا أشك لحظة أنه هو وراء هذا العمل البربري الجديد. لقد اتخذت التدابير اللازمة لتمرير رسالة موجزة إليها هذا المساء، ولكن لا أعتقد أن ذلك يفي بالغرض.

ـ دعني إذاً أقول لأدريان بالعودة إلى إنكلترا، ولا ننتظرنَّ فوات الأوان.

ـ لقد تأخر الوقت كثيراً الآن، يا والتر، وسبق أن قلت لك ذلك، لا يمكننا التراجع.

علّق إيفوري الهاتف ووضعه ـ وهو مستغرق في أفكاره ـ في جيب معطفه، وقفل راجعاً إلى بيته.

روسيا

دخل أحد الخدم غرفتنا وأسدل الستار، فيما كان الطقس جميلاً ونور النهار ساطعاً يبهرنا.

أخفت كيرا رأسها تحت اللحاف. وضع الخادم صينية الفطور قرب السرير مشيراً إلينا أن الساعة كادت تناهز الحادية عشرة، وأنهم بانتظارنا ظهراً في القاعة، والأمتعة جاهزة، ثم انصرف.

رأيت جبين كيرا يعود ثانية إلى الظهور، وتنظر بمؤخر عينيها إلى سلة المعجنات، فمدّت يدها وتناولت فطيرة هلالية الشكل والتهمتها في ثلاث لقمات.

ثم أنّت، وهي ترشف الشاي الذي قدمته لها تواً: ألا يمكننا البقاء هنا يوماً أو اثنين.

ـ لنعد إلى لندن، أدعوك لأسبوع في فندق فخم... ولن نخرج من الغرفة.

قالت، منقضّة على قطعة «بريوش»: ألا ترغب في البقاء هنا؟ نحن هنا في أمان مع إيغوروف.

ـ أرى أنك تسرّعت في إيلاء ثقتك لهذا الرجل. أمسِ

كنا لا نعرفه، وها نحن اليوم شريكاه، أجهل إلى أين نحن ذاهبان، وما الذي ينتظرنا.

ـ كذلك أنا، لكني أشعر بأننا نقترب من الهدف.

ـ من أي هدف كيرا، من القبور السومرية أم قبرينا نحن؟

قالت مزيحة عنها اللحاف، وناهضة بوثبة واحدة: حسناً، لنعد! سأشرح لإيغوروف أننا نرفض عرضه. وسنقفز، إن سمح لنا حراسه بالخروج، في سيارة تاكسي متوجهة إلى المطار، ثم نركب أول طائرة مقلعة إلى لندن. سأعرّج قليلاً على باريس لأسجل اسمي أني عاطلة عن العمل. في الواقع... هل لك الحق في الاستفادة من تعويض البطالة في انكلترا؟

ـ لا داعي لأن تكوني وقحة! موافق، لنستمر، ولكن عديني أولاً: إذا ما تَهدَّدنا أدنى خطر من جديد، نوقف كل شيء.

قالت، وهي تجلس ثانية على السرير: عرّف لي ما تقصده بخطر.

ضممتُ وجهها بين يدي وأجبتها: عندما يحاول أحدهم أن يغتالك، فأنت في خطر! أعلم أن شهيتك إلى الاكتشاف

أقوى من كل شيء، ولكن ينبغي أن تعي المخاطر التي نتعرض لها قبل فوات الأوان.

كان إيغوروف ينتظرنا في قاعة المنزل، مرتدياً كساء طويلاً وواسعاً من الفرو الأبيض وقبعة على رأسه. لو حلمت بلقاء «ميشال ستروغوف» لتحققت أمنيتي. وسلَّمنا طاقيتين وقفازين وقبعتين ومعطفين قصيرين محشوين لا يخترقهما المطر، لا نظير لهما مقارنة بمعطفينا.

ـ الحقيقة أن الطقس قارس جداً حيث نذهب، فتجهّزا جيداً، سننطلق في غضون عشر دقائق، فيما سيهتم رجالي بأمتعتكما. إتبعاني ولننزل إلى الموقف.

توقف المصعد في المستوى الثاني حيث كانت مجموعة من السيارات بدءاً بالسيارة الـ «كوبيه» الرياضية إلى «الليموزين» الرئاسية الكبيرة مصفوفة في نظام تام.

قلت لإيغوروف: أرى أنك لا تعمل إلا في الحاجات القديمة.

أجابني، وهو يفتح باب السيارة: في الواقع، لا.

كانت سيارتان مغلقتان تتقدماننا، وسيارتان أخريان تسيران في المؤخرة. خرجنا كالإعصار إلى الشارع وسلك الموكب الطريق المحاذي للبحيرة.

بعد قليل سألته: إن سيبيريا الغربية، إن لم أكن مخطئاً، على مسافة ثلاثة آلاف كيلومتر من هنا، فهل تحسّبت لتوقف من أجل التبويل أم أننا نمضي إليها دفعة واحدة؟

أشار إيغوروف إلى سائقه، فتوقفت السيارة فجأة، واستدار نحوي.

ــ هل قرّرت مضايقتي مطولاً؟ إن كانت هذه الرحلة مدعاة إزعاج لك، فما زال في استطاعتك النزول.

رشقتني كيرا بنظرة أشد سواداً من مياه البحيرة، فقدمت اعتذاري لإيغوروف الذي مدّ يده إلي. كيف السبيل إلى رفض مصافحة عندما تتم بين شرفاء؟ عاودت السيارة انطلاقها، ولم ينبس أي منا بكلمة أثناء نصف الساعة التالي. وتوغل الطريق في غابة مكسوّة بالثلوج. بعد قليل، بلغنا «كوتي»، وهي قرية صغيرة فتانة. أبطأ الموكب سالكاً درباً مختصراً، اكتشفنا في نهايته عنبرين غير مرئيين من الطريق. دعانا إيغوروف، حين ركنت السيارات إلى متابعته. داخل المبنيين، كانت مروحيتان من طراز تلك الضخمة التي يستعملها الجيش الروسي لنقل الجنود والمعدات متوقفتين. وسبق أن شاهدت مثيلات لها في تحقيقات صحفية حول الحرب التي خاضها الاتحاد السوفياتي في أفغانستان، ولكن لم أشاهدها قط عن قرب.

قال إيغوروف، متقدماً باتجاه المروحية الأولى: لن تصدقني كذلك، لكني كسبتها في لعب القمار.

رمقتني كيرا لاهية، وبادرت إلى السلم الذي يتسلق نحو المقصورة.

سألتُ إيغوروف: أي نوع من الأشخاص أنت حقاً؟

قال، مربتاً على ظهري: أنا حليف، ولن أيأس من إقناعكما في نهاية المطاف. أتصعدان أم تفضّلان البقاء في هذا العنبر؟

كانت حجرة الطيار، نظراً لسعتها، تذكرني بحجرة طائرة تعمل على الخط. كانت عربات رافعة تتسلق من خلال الباب الخلفي منزلة صناديق كبيرة في الأنبار الذي كان رجال إيغوروف يرتبونها فيه بإحكام. كان باستطاعة القسم المزوَّد بمقاعد أن يستقبل خمسة وعشرين راكباً. بدا أن الميغ 26 المجهَّز بمحرك قوته أحد عشر ألف ومائتان وأربعون حصاناً هو محط افتخار صاحبه، كأن الأمر يتعلق بتربية خيول. سنتوقف في أربع محطات للتزود بالوقود. كان مدى عمل المروحية، بحمولتنا المقدّرة، ستة آلاف كيلومتر، وتفصلنا ثلاثة آلاف كيلومتر من «مان ــ يويو ــ نيور»، التي سنصلها بعد إحدى عشرة ساعة. تراجعت الرافعات وتحقق رجال إيغوروف

للمرة الأخيرة من الأحزمة التي تشد صناديق المعدات، ثم ارتفع مجدداً باب الأنبار وجَّرت المروحية إلى خارج العنبر.

بدأت العنفة (التوربين) بالصفير، وصار الضجيج في حجرة الطيار مصمّاً للآذان عندما أخذت شفرات الدوّار الثماني في الدوران.

صرّح إيغوروف: سوف تعتادان على الضجيج، استفيدا من المشهد، ستكتشفان روسيا كما قلة من الناس شاهدوها.

استدار الطيار ليلوح لنا بيده وراحت الآلة الثقيلة ترتفع. على علو خمسة أمتار من الأرض، مال مقدّمها والتصقت كيرا بالكوة.

في أعقاب ساعة من الطيران، دلّنا إيغوروف، في البعيد إلى يسارنا، على مدينة إيلانسكي ثم على كانسك وكرسنويارك التي مكثنا بعيداً منها تجنباً للدخول في مجال تغطية رادارات المراقبين الجويين. بدا طيارنا ملمّاً بشؤون مهمته، فلم نكن نحلق إلا فوق مساحات بيضاء تراءت لنا كأنما لا حدود لها. وكان نهر متجمد يحزّ ـ بين الحين ـ والآخر، وجه الأرض كأنه سلك فضي أو شطحة قلم خُط فوق قطعة ورقة.

كان التزوّد الأول بالوقود على امتداد نهر أودا، على بعد بضعة كيلومترات من مدينة أطاغامي حيث حطّت مروحيتنا. من هناك، انطلقت سيارتا الصهريج اللتان ملأتا خزاناتنا.

قال لنا إيغوروف، شاخصاً ببصره إلى رجاله وهم يتحركون حول المروحية:

ــ كل شيء مسألة تنظيم، ولا مكان للارتجال عندما تكون درجة الحرارة في الخارج عشرين تحت الصفر. لو لم نتزوّد بالوقود في الموعد المحدد ولبثنا مجمدين في الأرض، لمتنا هنا خلال بضع ساعات.

اغتنمنا فرصة توقفنا لنزيل خدر أرجلنا. كان إيغوروف على حق، فالبرد لا يطاق.

صعدنا مجدداً على متن المروحية، بينما كانت الشاحنتان ابتعدتا على مدرج يمتد باتجاه الغابة. بدأت العنفة بالصفير ثانية فارتفعنا في الجو مخلّفين تحت حجرة الطيار آثار مررونا التي ستمحوها الريح قريباً.

كنت قد أحسست باضطرابات داخل الطائرة، لكني لم أكن البتة شعرت بها في مروحية. ما كان هذا الإحساس «معمودية الهواء» بالنسبة إلي في مثل هذا النوع من

الآليات. لقد اتفق لي، في أطاكاما، أن أستقلَّ المروحية مراراً لأصل إلى الوادي، ولكن ليس في ظروف مماثلة. كانت عاصفة ثلجية قادمة باتجاهنا، فتعرّضنا للاهتزاز طويلاً، فيما كانت الطائرة تتأرجح في كل الاتجاهات، غير أني لم ألحظ على وجه إيغوروف أي بادرة للقلق فاستخلصت أننا بمنأى عن الخطر. ثم، بعد قليل، لما تعرضت الطائرة لهزة أعنف، تساءلت ما إذا كان إيغوروف يرضى، في مواجهة الموت، بإظهار خوفه. عندما عاد الهدوء مجدداً عقب التزود بالوقود للمرة الثانية، غفت كيرا مستندة إلى كتفي، فحضنتها بين ذراعيّ علّها تكون في وضع أكثر راحة، واكتشفت في نظرة إيغوروف مسحة عطف أثارت دهشتي. فوجهتُ إليه ابتسامة لكنه استدار ناحية الكوة وتظاهر بعدم رؤيتي.

وكان هبوط المروحية الثالث ــ هذه المرة ــ ليس وارداً أن ننزل، لأن العاصفة عاودت العربدة وتعذرت علينا الرؤية، فكان من المخاطرة الابتعاد عن المروحية حتى لبضعة أمتار. ساور القلق إيغوروف فنهض متوجهاً إلى مقصورة القيادة، انحنى على زجاج مقعد الطيار وخاطبه بالروسية. جرى تبادل كلمات لم أفهم معانيها. رجع بعد لحظات وجلس قبالتنا.

قلقت كيرا، فسألْتُه: هل من مشكلة؟

ــ إن لم تصل الشاحنات لانتشالنا من هذا المأزق، فسوف نتعرض لمشكلة جدية.

ملتُ بدوري إلى الكوة، كانت الرؤية في أسوأ حالاتها، والريح تعصف عصفاً قوياً متقطعاً، وكل عصفة جديدة تثير كتلاً من الثلج.

فسألته: ألا تتعرض المروحية لخطر تكوّن الجليد عليها؟

أجاب إيغوروف: كلاّ، فمنافذ هواء المحركات مزودة بمسخنات لتأمين إزالة الجليد عنها لدى القيام بمهام في درجات حرارية متدنية جداً.

شعاع أصفر عبَرَ المقصورة، عاود إيغوروف النهوض ولاحظ بارتياح أن الأمر يتعلق بمصابيح شاحنات التموين القوية. واقتضى ملء الخزانات بالوقود استنفار جميع الرجال. وما إن امتلأت الخزانات حتى سيّر الطيار آلته، ولكن كان لا بد من الانتظار ريثما ترتفع الحرارة قبل البدء بالإقلاع. واستمرت العاصفة ساعتين أيضاً. لم تكن كيرا على ما يرام، فطمأنتها ما وسعني ذلك، لكننا كنا سجينين في علبة السردين هذه، وأكثر رجّاً مما لو كنا على متن

مركب صيد في يوم بحره هائج. أخيراً، انقشعت السماء.

قال لنا إيغوروف: لطالما يكون الطقس هكذا عندما نحلّق فوق سيبيريا في هذا الفصل، لكن الأسوأ أصبح وراءنا. استريحا، فما زال أمامنا أربع ساعات من الطيران، وفور وصولنا سنحتاج إلى كل الإرادات الحسنة لنصب المخيم.

كانوا قد اقترحوا علينا وجبة طعام، لكن معداتنا المتعرضة لسوء المعاملة ما كانت لتتقبل أقل ما يمكن من الطعام. وضعت كيرا رأسها فوق ركبتي وعاودت النوم. وكان هذا خير ما يفعله المرء لتزجية الوقت. فانحنيت من جديد ناحية الكوة.

قال لنا إيغوروف، مشيراً إلى جهة الشمال: لسنا إلا على مسافة ستمائة كيلومتر من بحر كارا. لكن صدّقاني أن السومريين استغرق وصولهم إلى هنالك زمناً طويلاً أطول مما فعلنا نحن!

استوت كيرا واقفة محاولة بدورها أن تلمح شيئاً ما. دعاها إيغوروف إلى التوجهِ إلى مقصورة القيادة، فتخلى الطيار المساعد لها عن مكانه وأجلسها في مقعده. لحقتُ بها واقفاً خلفها تماماً. كانت مسحورة، مبهورة وسعيدة، وكانت رؤيتي إياها في هذه الحال تزيل كل تحفظاتي عن

متابعة الرحلة. هذه المغامرة التي عشناها سوياً قد تترك فينا ذكريات خارقة، وقلت في نفسي إن المخاطرات في سبيل ذلك قد تستحق أخيراً ما نبذله من جهود.

صرختُ، قائلاً لكيرا: لو رويتِ هذه الأمور يوماً لأولادك، فإنهم لن يصدقوك!

لم تلتفت إلي، لكنها أجابتني بهذا الصوت الخافت الذي عهدتُه لها:

ــ أهي طريقتك في أن تقول لي أنك ترغب في إنجاب أطفال لك؟

فندق بالتشوغ كمبنسكي

كان موسكو، في الجانب الآخر من الجسر الذي يعلو نهر موسكوفا ويمتد حتى الساحة الحمراء، يتناول الشاي في صحبة امرأة شابة لم تكن زوجته. وكانت قاعة الفندق الفخم غاصة بالنزلاء. والخدم ببزاتهم الموحدة يمرون بين المتكآت حاملين الشاي وقطعاً من الحلوى إلى السّياح أو إلى رجال الأعمال الذين يخالطون بعضهم بعضاً في هذا المكان الأنيق والمشتهى من المدينة.

جلس رجل حول منضدة الشرب وحدّق إلى موسكو، منتظراً أن تتلاقى نظراتهما. عندما لمحه هذا الأخير اعتذر إلى ضيفته ولحق به إلى البار.

سأله، متخذاً مكاناً له حول الطاولة المستديرة: ماذا أنت فاعل هنا؟

ــ أنا آسف لإزعاجك، سيدي، إذ كان من المستحيل التدخل هذا الصباح.

ــ إنكم شلّة من العاجزين، لقد وعدتُ لندن بأن المسألة سوف تتم تسويتها هذا المساء، وظننت أنكم قادمون لإبلاغي أنهما على متن طائرة متوجهة إلى

إنكلترا.

ــ لم نتمكن من العمل لأنهما خرجا من أملاك إيغوروف تحت حماية مشددة قبل الإقلاع معه في المروحية.

كان موسكو غاضباً لشعوره بالعجز إلى هذا الحد. فقد كان يستحيل عليه ــ ما دام إيغوروف ورجاله يؤمّنون الحماية لنا ــ أن يتدخل دون إراقة دماء.

ــ إلى أين يذهبون بهذه المروحية؟

ــ وضع إيغوروف خطة للطيران هذا الصباح، كان يتوجب عليه أن يحط رحاله في ليسوسيبيرسك، لكن الطائرة حادت عن طريقها مختفية بعد قليل عن شاشات الرادارات.

ــ لو أنها تحطمت على الأقل!

ــ ليس ذلك بمستحيل، فقد هبّت عاصفة ثلجية عاتية.

ــ لقد تمكنوا من الهبوط ريثما تبتعد عاصفتك.

ــ إنها ابتعدت فعلاً، لكن المروحية لم تعاود الظهور على الشاشات.

ـ هذا يعني أن الطيار تدبّر أمره ليحلّق تحت تغطية الرادارات وفقدنا أثرهم.

ـ ليس تماماً، يا سيدي. فقد فكرت في هذه الإمكانية لأن شاحنتي صهريج تحملان اثني عشر ألف ليتر من الوقود غادرتا «بيت ـ لاخ» في مطلع الظهيرة ولم تعودا إلى قاعدتهما إلا بعد أربع ساعات. فإذا قامتا بتزويد مروحية إيغوروف بالوقود، فإن ذلك وجب أن يتم في منتصف الطريق إلى «خانتي ـ مانسييك»، أي على مسافة ساعتين من الطريق من «بيت ـ لاخ».

ـ هذا لا يطلعنا على أي وجهة كانت المروحية تطير إليها.

ـ كلا، لكني واصلت حساباتي، فإن مدى عمل الميغ 26 هو في حدود ستمائة كيلومتر، وهذا يعتبر الحد الأقصى مع الرياح المعاكسة التي واجهتها في الطريق، منذ رحيلهم. لا بد أنهم تبعوا خطاً مستقيماً للوصول إلى الموقع الذي حطوا فيه خلال هذه المهل. وإن واصلوا بالسرعة الموجهة نفسها، ونظراً لمدى عملهم، فإنهم سيبلغون «جمهورية كومي» قبل الليل، في مكان ما حول «فوكتيل».

ـ هل لديك أي فكرة عما يدفعهم إلى التوجه إلى

هناك؟

ــ ليس بعد، سيدي، ولكن بما أنهم اجتازوا حوالي ثلاثة آلاف كيلومتر وقاموا بإحدى عشرة ساعة طيران، فلا بد أن لهم أسباباً جدية تحفّزهم. سنتمكن صباح غد من إرسال طائرة سيكوسكي من «ياكاترينا بورغ»، للقيام بجولات اعتباراً من الظهيرة لتحديد موقعهم.

ــ لا، لنتصرف بطريقة مغايرة، إذ يجب ألا يكتشفونا وإلا هربوا منا في الحال. إبحث عن المكان الذي استطاعوا الهبوط فيه، وحاول استجواب أبناء المنطقة عبر دوائر الشرطة، لمعرفة ما إذا كان أحدهم رأى أو سمع هذه الطائرة المروحية. في حال عرفتَ المزيد، اتصل بي على هاتفي الخلوي حتى لو كان في منتصف الليل. كذلك قُم بإعداد فريق تدخل، إن كان هؤلاء في ركن منعزل كفاية، عندها سيسعنا التدخل بلا رادع.

موقع مان ــ يويو ــ نيور

أعلن الطيار أننا على وشك الوصول، فعدنا إلى مقاعدنا وعاد مساعده إلى حجرة القيادة لكن إيغوروف دعانا إلى النهوض لنكتشف عبر مقعد الطيار ما راح يرتسم في المدى البعيد.

شمال الأورال، تنتصب فوق هضبة عالية تختلط مع خط الأفق، سبعة حجارة عملاقة يبدو أن لها هيئة جبابرة جمدوا أثناء مسيرهم. يقال إن الطبيعة شكّلتهم خلال مائتي مليون سنة، مانحة إياها أحد أروع أنواع التراث الجيولوجي على وجه البسيطة. فالحجارة السبعة العملاقة لا تؤثر فقط بأحجامها وإنما بوضعياتها المحددة أيضاً. ستة طواطم متجهة في شكل نصف دائري نحو الطوطم السابع الذي يقابلها. في هذا الفصل، ترتدي معطفاً أبيض سميكاً يبدو أنه يحميها من الصقيع.

استدرت ناحية إيغوروف، كان منفعلاً بصورة ظاهرة.

همس قائلاً: ما كنت لأفكر في العودة إلى هنا ذات يوم، فلي فيها ذكريات كثيرة.

كانت المروحية آخذة في الهبوط، وتلافيف ضخمة من

الثلج تهبّ كلما اقتربنا من الأرض.

تابع إيغوروف حديثه: في «اللغة المانسية»، تعني مان ـ يويو ـ نيور «جبل الآلهة الصغير». قديماً، كان الدخول إلى هذا الموقع مخصصاً حصراً لشامانيي الشعب المانسي. وثمة الكثير من الأساطير المتعلقة بعمالقة الأورال السبعة. وتروي الأسطورة الأكثر رواجاً أن نزاعاً تفجّر بين شامان وستة حجارة جبارة انبثقت من جوف الجحيم لتعبر سلسلة جبال. فأحالها الشامان إلى كائنات خرافية من الحجر، لكن مصيره أيضاً أثّر فيه، فبات سجيناً داخل كتلة الحجر السابعة، التي تواجه الكتل الأخرى. في الشتاء، يتعذر بلوغ الهضبة من دون تدرب على مستوى عال، إلا إذا تمّ الوصول جواً.

حطّت المروحية على الأرض، فأوقف الطيار العنفات ولم نعد نسمع إلا صفير الريح التي تلطم هيكل الطائرة.

أمر إيغوروف: هيا نذهب، فليس لدينا وقت نبدده.

حلّ رجاله الأحزمة من حول الصناديق الكبيرة المرتبة في الأنبار وشرعوا يفكّون الألواح. كان الصندوقان الأولان يحويان ست زلاجات نارية للانطلاق على الثلج، باستطاعة كل منها نقل ثلاثة ركاب. وكانت بعض الصناديق الأخرى تضم عربات مغطاة بأقمشة مشمعة سميكة. عندما تأرجح

باب المروحية الخلفي إلى الوراء، تغلغلت ريح ثلجية في حجرة الطيار فأشار علينا إيغوروف بالإسراع، إذ لا بد أن يكون كل واحد منا في مكانه، إن أُريد نصب المخيم قبل حلول الليل.

سألني: هل تجيد قيادة هذه الآلات؟

كنت قد جزْتُ لندن على الدراجة النارية طبعاً... عائداً إلى الوراء. ولا يمكن، مستعيناً بزلاجة وسلسلة، إلا تعزيز التوازن. فأجبت نعم بإيماءة من رأسي. إرتاب إيغوروف في قدراتي، فرفع عينيه إلى السماء بينما كنت أفتش عن جهاز التشغيل لإطلاق المحرك وأراني أين يوجد المشغّل الكهربائي.

ــ ما من وضع محايد في هذه الآلات ولا وجود لواصل «دبرياج»، ولا تعجيل لسرعة بإدارة المقبض بل بالضغط على الزناد القائم تحت المكبح. هل أنت واثق من أنك تجيد القيادة؟

هززتُ رأسي إيجاباً داعياً كيرا إلى تسلّق المقعد. وبينما كنت أتزلج على الثلج ــ ريثما أعتاد على الآلة الجديدة ــ كانت فرق إيغوروف قد نصبت منصات الإنارة محددة نطاق مخيمنا. وعندما أداروا المجموعتين المولدتين للكهرباء، أُنير قسم كبير من الهضبة كما لو كنا

في وضح النهار. كان ثلاثة رجال يحملون على ظهورهم قوارير موصولة بقضبان تنضح حزماً كبيرة من النار. كنت عددتها، في زمن الحرب، قاذفات لهب، أما إيغوروف فكان يسميها «سخانات». كنس الرجال الأرض بواسطة هذه الشمعدانات ذات الأثر القوي. فما إن لانَ الثلج حتى نُصبت قرابة عشر خيام من القماش في خط منسّق تمام التنسيق. وقد جرى تلبيسها بمادة حافظة للحرارة ضارب لونها إلى الرمادي، ما لبثت المجموعة السكنية أن اتخذت شكل قاعدة قمرية. كانت كيرا في محيط غريب كل الغرابة بالنسبة إليها، مع ذلك استعادت ردود فعلها بوصفها عالمة آثار، مستخدمة أحد الملاجئ بمثابة مختبر لها. وكانت قد نظمت فعلاً ترتيب مجموعة آلاتها، بينما كان الرجلان اللذان عُيّنا مساعدين لها يفرغان صناديق تحتوي على معدات أكثر مما رأته البتة في حياتها. أما أنا فكلّفت بالفرز، وكنت أتدبر أمري جهد المستطاع، على الرغم من كون الكتابات بالأحرف الروسية، ولم أكترث إطلاقاً للتوبيخات الموجهة إلي حينما كنت أرتب مالجاً في درج مخصص للمساويط.

في التاسعة مساء، ظهر إيغوروف في مخيمنا ودعانا إلى المطعم. لقد تلّقى اعتزازي بنفسي ضربة عندما لاحظت أن الطاهي نجح، أثناء ترتيبي محتوى حوالي

عشرة صناديق، في نصب مطبخ ريفي جدير بثكنة عسكرية.

قُدّمت لنا وجبة ساخنة، بينما كان رجال إيغوروف يتجاذبون أطراف الحديث من دون إيلائنا أي انتباه. تعشينا على مائدة رب العمل، المائدة الوحيدة التي استعيض فيها عن الجعة بنبيذ أحمر من صنف فاخر. في العاشرة مساء، استؤنف العمل، فرسم نحو عشرة رجال ــ بناء على تعليمات كيرا ــ المربعات على أرض الحفريات. وفي منتصف الليل، رن جرس معلناً نهاية العمليات الأولى، بات المخيم عمليّانيّاً، فأوى كل منا إلى فراشه.

كنتُ أنا وكيرا ننعم بسريرين ميدانيين قائمين على انفراد في عمق ملاذ يُأوي عشرة أشخاص آخرين. وحده إيغوروف، كان له الحق في خيمة فردية.

ران الصمت، لكنْ قطعَه شخير الرجال الذين ما لبثوا أن استسلموا للنوم. وشاهدتُ كيرا تنهض مقبلة نحوي.

همست، وهي تندس في كيس منامتي: زح قليلاً، ينبغي أن نتدفأ.

لقد غفت، بعدما أنهكتها الأمسية التي أمضيناها للتو. كانت الريح تعصف بقوة متزايدة، فينفتح قماش خيمتنا بين

حين وحين.

ومض بصيص نور أزرق فوق منضدة السرير. فالتقط موسكو هاتفه الخلوي وأزاح غطاءه.

ــ لقد حدّدنا موقعهما.

تقلّبت المرأة الشابة الراقدة بجانبه في السرير واستقرّت يدها على وجه موسكو، فنحّاها عنه، ونهض قاصداً غرفة الاستقبال في الجناح الذي يشغله مع عشيقته.

أردف محدثه: كيف تود أن تتصرف؟

تناول موسكو علبة سجائر ملقاة على الأريكة وأشعل واحدة منها مقترباً من النافذة. من المحتمل أن تكون مياه النهر متجمدة، لكن الشتاء لم يكن قد عقل نهر موسكوفا عن الجريان.

أجاب موسكو: قم بتنظيم عملية إنقاذ. ستقول لرجالك إن الغربيين الاثنين اللذين ينبغي أن يحرروهما هما عالمان عظيما الشأن، وإن مهمتهما تقضي باسترجاعهما سالمين تماماً، وأن يعاملوا محتجزي الرهينتين بلا شفقة.

ــ إنك لماهر. وماذا في شأن إيغوروف؟

ـ إذا نجا من الاقتحام فنعم الأمر له، أما في حال العكس فليُدفن مع أزلامه. سألتحق بك حالما تكون حياتهما في أمان. عاملهما باحترام، ولكن لا تدع أحداً يقابلهما قبل وصولي، وأنا ألحّ على كلامي هذا.

ـ إن المنطقة التي سنتدخّل فيها معادية لنا على وجه الخصوص. وأنا أحتاج إلى وقت لإعداد عملية كهذه واسعة النطاق.

ـ قسِّم الوقت إلى قسمين واتصل بي عندما ينتهي كل شيء.

مان ــ يويو ــ نيور

كنا أول طلوع الشمس، وقد سكنت العاصفة وسط الليل، واكتست الأرض بالثلج. خرجنا أنا وكيرا من خيمتنا مرتديين على شاكلة اثنين من رجال الأسكيمو راحا يتنزهان. بضعة أمتار فقط كانت تفصلنا عن المطعم، ولكن خيّل إلي عند وصولي أني حرقت كل الحريرات التي جمعتّها أثناء الليل. كان الطقس أشبه بالقطبي. طمأننا إيغوروف أن الهواء سيغدو، في غضون ساعات، أشد جفافاً والحرق الناجم عن البرد ستخف وطأته. ما إن التهمت كيرا فطورها حتى باشرت العمل بمشاركتي. كان عليها أن تتكيف مع هذه الظروف. كان أحد رجال إيغوروف يقوم بوظيفة رئيس مخيم ومترجم، إذ كان يتكلم الإنكليزية بطريقة سليمة نسبياً. لقد تم تحديد موقع التنقيبات، ثم قامت كيرا بجولة أفق وأمعنت النظر في كتل الحجارة العملاقة. صحيح أن هذه الكتل الجبارة محركة للمشاعر. وتساءلت ما إذا كانت الطبيعة وحدها المسؤولة عن الأشكال التي اتخذتها. مائتا مليون سنة لم تكّف الأمطار والرياح عن نحتها.

سألتني كيرا، مقتربة من الطوطم المتوحد: أو تعتقد أن

شاماناً هو سجين في الداخل؟

أجبتها: من يدري...؟ ما زال المرء يجهل ما هي حصة الحقيقة في الأساطير.

ــ لدي انطباع بأنهم يراقبوننا.

ــ الجبابرة؟

ــ لا، رجال إيغوروف! يبدو أن مظهرهم يدل على أنهم لا يعيروننا انتباهاً، لكني أرى تماماً أنهم يتناوبون على مراقبتنا. إنه لعمل أبله، أين يريدون أن نذهب؟

ــ وهذا بالفعل ما يقلقني، إننا نتمتع بحرية مشروطة وسط هذا المشهد المعادي، نحن تابعان كلياً لصديقك الجديد. فإذا عثرنا على قطعتك، من يضمن لنا أنه لن يستولي عليها ويتركنا هنا؟

ــ ليس له مصلحة في القيام بذلك، إنه في حاجة إلى ضمانتنا العلمية.

ــ بشرط أن تكون حوافزه تلك التي عرضها علينا حقيقية.

غيّرنا مجرى الحديث، لأن إيغوروف كان قادماً للقائنا.

قال، مشيراً إلى الفسحة المحصورة بين الكتلتين الحجريتين الجبارتين: لقد قرأت دفاتري العائدة إلى ذلك العهد، لا بد أن نجد القبور الأولى في هذه المنطقة. فلنبدأ الحفر، لأن الوقت يدهمنا.

كانت ذاكرة إيغوروف حادة للغاية، أو على الأقل مذكراته القديمة محفوظة حفظاً رائعاً. فمنذ الظهيرة، أسفرت الحفريات عن اكتشاف أوّلي أثار دهشتنا.

كنّا قد أمضينا الفترة الصباحية في تقليب الأرض وإزالة العوائق على عمق ثمانين سنتيمتراً تقريباً، وإذا بآثار قبر برزت إلى النور. كشطت كيرا التربة كاشفة عن جزء من قماش أسود. وانتزعت بعضاً من الألياف بواسطة ملقط صغير ووضعتها في ثلاثة أنابيب زجاجية وسدّتها فوراً من جديد. ثم واصلت عملها مبعدة الجليد بدقة وعلى مسافة غير بعيدة. كان رجال إيغوروف يكررون الحركات نفسها أسوة بها.

هتفت منتصبة على قدميها: إذا كانوا فعلاً من السومريين، فهذا بكل بساطة حدث خارق! مجموعة كاملة من السومريين في شمال غرب الأورال، هل تلاحظ، أدريان، أهمية هذا الاكتشاف؟ وفي حال من الحفظ ممتازة. سنتمكن من دراسة طريقة لباسهم وما كانوا يأكلون.

ـ كنتُ أعتقد أنهم ماتوا جرّاء الجوع!

ـ ستكشف لنا أعضاؤهم المتيبّسة آثار البكتيريا المتعلقة بغذائهم وعظامهم وسمات الأمراض التي أصيبوا بها.

تجنبتُ شروح كيرا غير المشهية ومضيت أبحث عن «ترموس» للقهوة. دفأت كيرا أصابعها ممسكة بالفنجان، فقد انقضت ساعتان وهي تعمل على الجليد. كان ظهرها يؤلمها لكنها عاودت الركوع مستأنفة العمل.

في آخر النهار، كان قد تم إخلاء أحد عشر قبراً، والجثث الموجودة بداخلها متحولة إلى مومياءات بفعل الصقيع، وقد طُرحت مسألة حفظها بين كيرا وإيغوروف أثناء وجبة الطعام:

ـ ما الذي تنوي عمله للحفاظ عليها؟

ـ نظراً لدرجة الحرارة السائدة، إنها لا تخشى شيئاً في الوقت الراهن. سنودعها داخل خيمة غير مدفأة. وفي غضون يومين، سأنقل بالمروحيات مستوعبات عازلة للرطوبة وسنرسل جثتين حتى «بيتشورا». وأظن أنه من الأهمية بمكان أن تبقيا في «جمهورية كومي». فما من داعٍ لكي يستولي عليها أعضاء أكاديمية موسكو، أما إذا

رغبوا في معاينتهما فما عليهم إلا أن يقوموا بالسفر.

ـ وماذا سنفعل بسائر الجثث؟ لقد تكلمت على خمسين قبراً، ولكن لا شيء يثبت ألا تضم هذه الهضبة المزيد من القبور.

ـ سوف نصور على فيلم تلك التي فتحناها وسنعاود ردمها حتى نعلن لجماعة العلماء، ببراهين مؤيدة، نتائج اكتشافاتنا المذهلة. عندها سنسوّي وضع الحفريات لدى السلطات المختصة ونتخذ معها الإجراءات الضرورية، لا أريد أن يشتبهوا فيّ أني جئت لأنهب أي شيء كان. لكن أذكّرك أنه ليس الشيء الوحيد الذي أتينا نبحث عنه هنا، فليس عدد القبور المتجلدة هو الذي يستأثر باهتمامنا، بل العثور على القبر الذي يضم قطعتك. يجب تمضية وقت أقل على كل جثة، فما هو موجود حولها ينبغي أن يثير اهتمامك.

رأيت كيرا حالمة ـ أبعدت عنها صحنها ـ ونظرها تائه في اللاشيء. فسألتها:

ـ ما الأمر؟

ـ لقد مات الرجال بفعل الصقيع والجوع، إن الطبيعة هي التي دفنتهم. لم تعد لهم بالتأكيد قوة لحفر قبور الذين

ماتوا قبلهم. ثم لا بد أنهم ماتوا جميعاً باستثناء الأطفال والمسنين في فاصل زمني قصير.

سأل إيغوروف: ماذا تقصدين من وراء ذلك؟

ـ فكّرا ملياً... لقد جزتما آلاف الكيلومترات لتحملا رسالة ـ سفر أنجز طوال أجيال عدة. تخيلا الآن أنكما آخر الناجين من هذه المغامرة غير القابلة للتصديق... ثم تعيان أنكما عالقان في الشرك ولن تصلا إلى نهاية المطاف. ماذا تفعلان؟

نظر إلي إيغوروف كأنني أملك الجواب... كانت هذه بالفعل المرة الأولى التي أسترعي اهتمامه! سكبت حصة من اليخنة، كانت في كل الأحوال مقززة كفاية، لكنها أكسبتني بعض الوقت.

قلت وفمي ملآن، وأنا أفكر ملياً: إذاً، في كل الأحوال...

قاطعتني كيرا، قائلة: لو جزتَ آلاف الكيلومترات لحمل رسالة، ولو ضحيت بحياتك، أما كنت تبذل قصارى جهدك كي تصل الرسالة إلى المرسل إليهم؟

قلت، رامقاً إيغوروف بزهو وافتخار: في هذه الحال، لن تتسم فكرة دفنها بالحكمة كثيراً.

هتفت كيرا: بالضبط! ولذلك ستستخدم قواك المتبقية لعرضها في موضع يمكن اكتشافه.

نهض إيغوروف وكيرا بوثبة واحدة، ارتديا معطفيهما القصيرين مندفعين إلى الخارج، فتتبعت خطواتهما وأنا فريسة الشك.

كانت الفرق قد عاودت العمل. سأل إيغوروف وهو يجول ببصره في المشهد: ولكن أين؟

قلتُ بتواضع تام: أنا لست اختصاصياً في علم الآثار مثلكما، لكني لو كنت على وشك الموت من البرد، كما هي الحال الآن، ولو أردت أن أَحُول دون دفن أداة... فإن الموضع الوحيد لا بد أن يكون أمامنا بصورة واضحة على الأرجح.

قالت كيرا: جبابرة الحجر. لا بد أن تكون القطعة مرصعة في أحد الطواطم!

ـ لا أود ـ خصوصا ـ أن ألعب دور شخص حزين يعكر أفراح الناس، لكن الارتفاع الوسطي لهذه الكتل الحجرية هو في حدود خمسين متراً وقطرها عشرة أمتار، أي 10 ـ 50، وبذلك تبلغ مساحة الطوطم الواحد 1571 متراً مربعاً ينبغي استكشافها بغض النظر عن التجاويف،

وشرط النجاح مسبقاً في إذابة الثلج الذي يغطيها وإيجاد وسيلة للارتفاع إلى مستواها بغية تنفيذ هذا المشروع الذي أنعته بالغريب العجيب.

رمقتني كيرا بغرابة.

ــ ما الأمر، ماذا قلتُ؟

ــ إنك شخص حزين يعكّر أفراح الناس!

أردف إيغوروف: إنه ليس على خطأ. نحن لا نملك الوسائل لتحرير الجبابرة من معطفهم الجليدي، ينبغي تركيب صقالات جبارة وسنحتاج إلى عشرة أضعاف من الرجال. إنه مستحيل...

تدخلت كيرا: إنتظرا، ولنفكر أيضاً.

وراحت تمشي على امتداد المربعات المرسومة.

قالت بصوت عال: أنا التي تحمل القطعة. أنا ورفاقي محتجزون فوق هذهً الهضبة حيث أخذنا قراراً غير حكيم بالتسلق لنرى في البعيد الاتجاه الواجب اتباعه. لقد تجلّدت جدران الجبل ولم يعد في وسعنا النزول. ما من طرائد، ولا نباتات، ولا وجود لأي نوع من الغذاء، أفهم أننا سنقضي من الجوع. أولئك الذين فارقوا الحياة قد غطتهم الثلوج.

أدرك أن دوري سيحين قريباً، لذا أقرر استخدام القليل من الطاقة المتبقية لي لتسلق إحدى هذه الكتل العملاقة وترصيع القطعة التي أنا مسؤولة عنها في الحجر. ويحدوني الأمل بأن أحدهم سوف يعثر عليها ذات يوم ويواصل رحلته.

قلتُ لكيرا: إن كلامك نابض بالحياة كوصف، فقد أصبحتُ قادراً على التجاوب وجدانياً مع هذا البطل الذي ضحى بحياته، لكن هذا لا يبيّن لنا أيّاً من الجبابرة اختار، ولا من أي جهة بدأ التسلق.

ــ يجب وقف الحفريات وسط الهضبة وتكريس كل جهودنا للحفر أسفل الكتل العملاقة، فإذا عثرنا على جثة، فذلك يعني أننا أصبنا الهدف.

سأل إيغوروف: ما الذي يحملكِ على هذا التفكير؟

ردت كيرا: أنا أيضاً كلني تجاوب وجداني مع هذا الرجل، ولو كنت قمت بمهمتي حتى حدود صمودي الجسدي لسمحتُ لنفسي ــ ما إن رصّعت القطعة في الحجر وشاهدت أصدقائي يموتون ــ بالسقوط في الفراغ لأختصر آلامي.

عوّل إيغوروف على غريزة كيرا، فأمر رجاله بالكف

عن تحرياتهم والتجمع سوياً فلديه تعليمات جديدة يبلغها إليهم.

سأل إيغوروف كيرا: أين تتمنين أن نباشر العمل؟

أجابت كيرا: هل تعرف أسطورة الحكماء السبعة؟

ـ الأبطال؟ هؤلاء الحكماء السبعة هم كائنات نصفها بشر ونصفها سمك، نجدها في العديد من الحضارات القديمة في هيئة آلهة مساهمة في التمدين. إنها مجموعة من سبعة حراس للسماء والأرض يحملون المعرفة إلى الكائنات البشرية. هل تودين اختبار معلوماتي عن السومريين؟

ـ لا، ولكن بحسب رأيك، إذا اعتقد السومريون أنهم تعرّفوا في هذه الكتل العملاقة إلى الأبطال السبعة...

فقطع الحديث: إذاً، لاختاروا حتماً الأول من بينهم، ذلك الذي يقود مسيرتهم.

عندئذ سألتُ: أهي الكتلة العملاقة التي تواجه الكتل الست الأخرى؟

أجاب إيغوروف: أجل، إنهم كانوا يدعونها «أدايا».

أمر إيغوروف رجاله بالتجمع عند أسفل الطوطم الجبار

وبمباشرة الحفر. رحت آمل أن يحطم «السومري» البطل الذي تسلق الكتلة العملاقة وجهه فيسقط أرضاً والقطعة في يده. لم يكن لهذه الفرضية أي أساس علمي، لكنها إذا صحّت، نكون قد كسبنا الكثير من الوقت، ثم ليس المرء في مأمن من ضربة حظ! وظننتُ أن تكون كيرا مثلي قد راودتها هذه الفكرة، لأنها توسلت إلى رجال إيغوروف بعدم الاستعجال وباستكشاف الأرض بمنتهى الدقة.

ما زال علينا أن نصبر، فقد كان الثلج يتساقط أكثر مما في وسعنا أن نزيله، وكانت الأحوال الجوية تسوء ساعة تلو ساعة. إذ هبّت عاصفة جديدة أشد إثارة للخوف من سابقتها مرغمة إيانا على وقف التحريات. كنتُ منهوك القوى مرهقاً، لا أحلم إلا بحمام ماء ساخن وفراش وثير. سمح إيغوروف لكل منا بتناول قسط من الراحة، وما إن يهدأ الطقس حتى ينفخ في البوق للتجمع ثانية، ولو كان ذلك في عزّ الليل. وكانت كيرا في حالة من الهيجان نادرة، تستشيط غضباً على هذه العاصفة التي منعتها من مواصلة أعمالها. أرادت أن تغادر خيمتنا للالتحاق بالمختبر ودراسة العّينات الأولى، فاضطررت إلى استخدام المزيد من الخبرة النفسية لأقنعها بالعدول عن رأيها. لم تكن الرؤية ممكنة على مسافة خمسة أمتار، والمجازفة بالخروج في مثل هذه الظروف تعتبر نوعاً من عدم الإدراك. وانتهى بها الأمر

إلى الامتثال لكلامي فقدمت للاستلقاء بجانبي.

قالت: أعتقد أني ضحية لعنة.

ـ إنها مجرد عاصفة ثلجية في عز الشتاء، ووسط سيبيريا، ولا أظن أنه يمكن الكلام على لعنة. إني واثق من أن الطقس سيتحسن غداً.

تذمرت كيرا، قائلة: لقد أفهمني إيغوروف أن الحالة قد تستمر لبضعة أيام.

ـ يبدو وجهك شاحباً، ينبغي أن ترتاحي، حتى لو استمر الطقس على هذا المنوال ثماني وأربعين ساعة، لن يكون هذا نهاية العالم. إن الاكتشافات التي حققتها لا تقدر بثمن.

ـ لماذا تلومين نفسك على الدوام؟ لولاك لما كنا نحن هنا، ولا شيء مما عشناه كان ليحدث.

عدتُ بالفكر إلى أحداث الأسابيع الأخيرة، وهذه الملاحظة السخية مع ذلك، تركتني حائراً. احتمت كيرا بي، فيما مكثت أنا أيضاً يقظاً أستمع إليها تتنفس. في الخارج، كانت هجمات الريح تزداد شدة، وكنت أبارك في سري هذا الطقس الرديء للراحة التي وفّرها لنا ولهذه اللحظات القليلة من الحميمية.

كاد اليوم التالي يكون أسود كالليل. فتضاعفت العاصفة حدة، ولم تعد المسألة تتعلق بترك الخيمة من غير ربطها بحبل. وكان لا بد للوصول إلى المطعم من السير بالاسترشاد بمصباح قوي النور، وبمكافحة زوبعة عنيفة لا مثيل لها. في نهاية العصر، أبلغنا إيغوروف أن الأسوأ ولّى، وأن المنخفض الجوي لم يكن ممتداً إلى أبعد من المنطقة التي كنا متواجدين فيها، وأن رياح الشمال لن تلبث أن تطرده. أمل أن نستأنف العمل منذ صباح اليوم التالي. وحاولنا أنا وكيرا تقدير كميات الثلج التي ينبغي لنا أن نزيلها قبل المضي قدماً من جديد. لم يكن لدينا ما نفعله لتمضية الوقت سوى اللعب بالورق. غادرت كيرا اللعب لتتحقق من تطور العاصفة، وكنت في كل مرة أراها تعود قلقة البال.

في السادسة صباحاً، استيقظتُ على ضجيج خطوات كادت تلامس خيمتنا. نهضت بهدوء، أنزلت برفق سحّاب القماش المزدوج وأخرجت رأسي عبر الفرجة. كانت العاصفة قد أخلت مكانها لثلج ناعم ينهمر من سماء رمادية. اتجه نظري ناحية الكتل الحجرية العملاقة التي ظهرت ملامحها أخيراً عند الفجر. لكن شيئاً آخر استرعى انتباهي، كنت آثرت ألا أكون شاهداً عليه أبداً. كانت جثة أحد معاصرينا عند أسفل قاعدة الجبار الحجري الوحيد ـــ

المفروض فيه أن يضم جثة أحد الشامانيين القدامى ــ تضطجع في بركة دم تلطخ الثلج.

كان نحو ثلاثين عنصراً ببزاتهم البيضاء يتقدمون باتجاهنا، وقد انبثقوا من بين جدار الجبل بخفة مذهلة. خرج أحد حراسنا، فرأيته يتجمد فجأة مكانه بفعل طلقة نارية أصابته في وسط صدره. لم يتسع الوقت له إلا لإطلاق رصاصة واحدة قبل أن ينهار.

لقد تم الإنذار بالخطر، ورجال إيغوروف الذين وثبوا خارج خيمتهم حصدتهم طلقات نارية ذات دقة شبه عسكرية. إنها مجزرة. أما أولئك الذين مكثوا في الملجأ فاتخذوا مواقع لهم وردوا على النيران بأسلحة بدا أن مداها قليل الفعالية. استمرت المعركة وأحرز المهاجمون تقدماً واقتربوا منا زحفاً. غير أن اثنين منهم تعرضا للإصابة.

كانت الطلقات النارية أيقظت كيرا فاعتدلت جالسة بوثبة فوق سريرها وشاهدت شحوب وجهي، فأمرتها أن تلبس ثيابها فوراً. وبينما كانت تنتعل حذاءها، كنت أقيّم الوضع: لا أمل في الهرب، ومستحيل التسلل من المؤخرة، كان قماش خيمتنا مرسخاً بقوة. تناولتُ، مستكيناً للخوف، رفشاً وشرعت في الحفر. اقتربت كيرا من الفرجة التي

تركتها مكشوفة، استدرتُ وأعدتها بعنف إلى الداخل.

إنهم يطلقون النار عن قرب على كل شيء يتحرك. إبقي بعيدة عن الجدران وساعديني!

ــ أدريان، الجليد قاس كالخشب، وأنت تضيع وقتك. من هم هؤلاء الأشخاص؟

ــ لا أدري شيئاً، لم يتحلّوا بالتهذيب في التعريف بهويتهم قبل رمينا بالرشاشات!

سلسلة جديدة من الطلقات هذه المرة، ولكن برشقات متقطعة. ما عدت قادراً على البقاء عاجزاً، ففعلتُ ما كنت قد منعت كيرا من القيام به بالضبط. أخرجت رأسي مجدداً، وكنت شاهداً على مجزرة حقيقية. فقد دنا الرجال المتشحون بالأبيض من خيمة، أزلقوا على وجه الأرض حبلاً من الأسلاك أتاح لهم رؤية الداخل، ثم بعد ثوان أفرغوا أمشاط بنادقهم على القماش منتقلين إلى المسكن التالي.

أطبقت السحّاب، اقتربت من كيرا منحنياً عليها وذلك بغية حمايتها بأحسن ما أوتيت من جهد. فرفعت رأسها وابتسمت حزينة وهي تطبع قبلة على شفتي.

قالت لي، وهي تعاود تقبيلي: إنه لتصرف فروسي

بامتياز من جانبك، يا حبيبي، ولكن أخشى ألا يُجدي نفعاً، أحبك ولست نادمة على شيء.

لم يكن لدينا ما نفعله سوى انتظار دورنا. فضممتها بين ذراعي وهمست قائلاً: كذلك أنا لست نادماً على شيء. توقفت مناجاتنا الغرامية عند دخول رجلين مسلحين ببندقيتي اقتحام وبطريقة وحشية خيمتنا. شددت العناق حول كيرا وأغمضت عيني.

جسر لوزهكف

كانت قناة «فودو» تقودني متجلداً، يجتازها صعداً نحو عشرة متزلجين، يتزحلقون بسرعة على طبقة الجليد السميكة. كان موسكو يقصد، سيراً على قدميه، مكتبه، فيما كانت سيارة مرسيدس سوداء تتبعه عن بعد. أمسك بهاتفه الخلوي ونادى لندن.

قال: لقد انتهى التدخل.

ــ صوتك غريب، هل سارت الأمور كما كنا نأمل؟

ــ ليس حقاً، فالظروف كانت مختلفة.

حبس آشتون أنفاسه، منتظراً أن يطلعه محدثه على تتمة الأحداث.

أردف موسكو: أخشى أن أقدم حساباً في وقت أبكر مما هو متوقع، ففرق إيغوروف دافعت عن نفسها ببسالة، وفقدنا نحن بعض الرجال.

ردّ آشتون: لا آبه لرجالك، أخبرني ماذا جرى لعالِمينا!

أقفل موسكو الهاتف منادياً سائقه، فوصلت السيارة بمحاذاته، ثم نزل حارسه الشخصي وفتح الباب له. جلس

موسكو على مقعد العربة الخلفي، التي انطلقت بأقصى السرعة. رن هاتف السيارة مراراً لكنه أبى أن يستلم المخابرة.

بعد توقف قصير في مكتبه، طلب التوجه إلى مطار «شيريمتيافو»، حيث كانت طائرة خاصة في انتظاره أمام نهاية حلبة طيران رجال الأعمال. عبرت السيارة المدنية، وصفارة الإنذار تلعلع مندسّة في زحمة السير. تنهد مستطلعاً ساعته، إنه لن يصل إلى «ياكاترينا بورغ» إلا بعد ثلاث ساعات.

مان ــ يويو ــ نيور

كان الرجال الذين اقتحموا خيمتنا قد اقتادونا بسرعة إلى الخارج، وهضبة جبابرة الأورال السبعة مغطاة بجثث مدمّاة. وحده إيغوروف بدا أنه ظل على قيد الحياة بعد الهجوم، فكان منبطحاً على بطنه، معصماه وكاحلاه مقيدة بالأصفاد. ستة رجال مزودين بأسلحة مواربة على صدورهم كانوا يؤمّنون حراسته. رفع رأسه ليوجه إلينا نظرة أخيرة، لكنه تلقى في الحال رفسة عنيفة على عنقه. سمعنا ضجة صماء لمحرك آلي، فارتفع الثلج قليلاً أمام أعيننا، ولاح عند سفح الجبل هيكل طائرة مروحية مهيبة، ترتفع عمودياً من صوب الجدار، وجاءت لتستقر على بعد أمتار منا، بينما ربّت المهاجمان اللذان كانا يراقباننا بمودة على ظهرينا، واقتادانا بخطى متسارعة ناحية الطائرة. وفيما كانا يصعداننا على متنها، أومأ أحدهما إلينا رافعاً إبهامه نحو السماء كأنه يريد تهدئتنا. أغلق الباب فأقلعت المروحية للتو. قام الطيار بدورة فوق المخيم، في حين انحنت كيرا باتجاه الكوة لإلقاء نظرة أخيرة.

قالت وهي تعاود الجلوس، وقد بدت عليها سيماء التفكك: إنهم على وشك تحطيم كل شيء.

نظرتُ بدوري وتحققت من المشهد الرهيب، حيث كان ما يقرب من عشرة رجال مرتدين بزات بيضاء يوصدون القبور السومرية بإزلاق جثث رجال إيغوروف الهامدة فيها، بينما باشر آخرون فكّ الخيام. لم تكن أية عبارة قادرة على مواساة كيرا.

كان على متن الطائرة المروحية ستة أعضاء من طاقم الملاحين، ولم يوجه أي منهم الكلام إلينا، بل قدموا لنا مشروبات ساخنة وسندويشات، لكننا ما كنا شاعرين بالجوع ولا بالعطش. أمسكتُ بيد كيرا واحتفظت بها بحزم في يدي.

قالت لي: لا أعرف إلى أين يقتادوننا، غير أني أعتقد تماماً أن هذه المرة هي خاتمة أبحاثنا.

أمسكتُ بها من كتفها وضممتها إلى صدري، مذكّراً إياها أننا ما زلنا على قيد الحياة.

بعد ساعتين من الطيران، رجانا الرجل الجالس أمامنا أن نضع حزامَي أماننا، فقد كانت الطائرة تهم بالهبوط. وما إن لامست العجلات الأرض حتى انفتح الباب. كنا إزاء عنبر بعيداً عن مطار متوسط الحجم، حيث كانت طائرة ذات محركين نفاثين ترفع علماً روسياً تتلاعب به الريح، وخالية من كل تسجيل، متوقفة فيه. وبينما كنّا نتقدم، هبط

سلّم للركاب. كان داخل المقصورة ينتظرنا رجلان في بدلة زرقاء فاتحة. قام أقلّهما بدانة واستقبلنا بابتسامة عريضة.

قال لنا في انكليزية متقنة تماماً: إني سعيد لوجودكما سالمين. لا بد أنكما مرهقان، نقلع حالاً.

بدأ المحركان النفاثان يسيران على الطريق، وبعد لحظات اتخذت الطائرة وضعيتها على المدرج مقلعة.

قال لنا الرجل، بينما كانت الطائرة ترتفع في الجو: «ياكاترينا بورغ» مدينة جميلة جداً. في غضون ساعة ونصف سنحط في موسكو، وهنالك سنضعكما في طائرة تعمل على خط لندن. لقد تم حجز مقعدين لكما في درجة رجال الأعمال. لا تتوجها إلي بالشكر مع كل المحن التي قاسيتماها خلال هذه الأيام الأخيرة، إنها كانت أيسر الأمور. فعالمان في منزلتكما يستحقان خير المراعاة والاحترام. وفي انتظار ذلك، سأطلب منكما أن تتكرما بتسليمي جوازي سفركما.

وضعهما الرجل في جيب سترته وفتح مقسماً يشمل باراً صغيراً، وقدم لنا فودكا. أفرغت كيرا كأسها بجرعة واحدة ومدّتها من جديد ليعاود ملأَها. احتست الكأس الثانية بالطريقة نفسها، دون أن تنبس بكلمة.

سألت مضيفي: أبوسعك أن تزوّدنا ببعض الشروح؟

ملأ كأسينا رافعاً كأسه لتبادل الأنخاب.

ــ يسعدنا أننا تمكنّا من إنقاذكما من أيدي خاطفيكما.

بصقت كيرا الفودكا التي همت بابتلاعها.

ــ خاطفونا؟ أي خاطفين؟

أردف مضيفنا، قائلاً: كنتما محظوظين، فالرجال الذين احتجزوكما عُرفوا بكونهم خطرين للغاية، إلا أننا تدخلنا في الوقت المناسب، فأنتما مدينان بفضل كبير لفرقتنا التي أسرفت في المجازفة بنفسها من أجلكما. إننا نتحسر على الخسائر الضخمة التي تكبدناها في صفوفنا. اثنان من خيرة عملائنا ضحّيا بحياتهما لإنقاذ حياتكما.

غضبت كيرا: ولكن لم يكن أحد يحتجزنا، لقد كنا هناك بملء إرادتنا ونقوم بحفريات مدهشة دمّرها رجالك، إننا شهدنا مجزرة حقيقية وحشية لا تسمية لها، كيف تجرؤ...؟

ــ نحن نعلم أنكما تشاركان في حفريات غير مشروعة، أقدم عليها أشرار لا يحدوهم إليها سوى السطو على كنوز سيبيريا بلا خجل. فإيغوروف ينتمي إلى المافيا الروسية،

آنستي، أكنت جاهلة ذلك؟ ولم يكن في وسع عالمين يتمتعان بصيَت مشرف أن يعتبرا شريكين في مثل هذه الأعمال الإجرامية من دون أن يضطرا إلى ذلك بالقوة، ومن دون أن يهددهما خاطفوهما بإعدامهما عند أول محاولة تمرد تبدر منهما. هذا وتؤكد تأشيرتاكما أنكما دخلتما روسيا بصفة سائحين لا غير، ونغبط أنفسنا لاختياركما بلادنا من أجل الترفيه عنكما. وأنا على يقين من أنكما لو نويتما العمل على أراضينا لتصرفتما طبعاً ضمن إطار شرعي، وهذا أمر بديهي، أليس كذلك؟ وأنتما تعرفان أحسن من أي امرئ آخر المخاطر التي يتعرض لها النهّابون الذين يتنازعون تراثنا الوطني، وبالتالي تتراوح العقوبة بين عشرة وعشرين عاماً من السجن، بحسب خطورة الأحداث. هل نحن الآن متفقون على الرواية التي عرضتها عليكما؟

أكُّدت له، من غير انتظار، أنه لا اعتراض لنا على الإطلاق، في وقت لزمت كيرا الصمت لمدة وجيزة فقط، ثم لم تتمالك نفسها عن القلق في شأن المصير الذي ينتظر إيغوروف، وهو ما دفع مضيفنا إلى التبسّم.

ـ هذا يتعلق، آنستي، برغبته أو عدمها في التعاون مع التحقيق الذي سيجري لاحقاً، ولكن كونا مرتاحين في

شأنه، فبوسعي أن أؤكد لكما أنه شخصية غير جديرة بالاحترام.

اعتذر الرجل لكونه عاجزاً عن مناقشتنا لأمد أطول، فلديه عمل ينجزه. تناول من حقيبته ملفاً واستغرق فيه حتى أوان وصولنا.

باشرت الطائرة هبوطها نحو المدينة. وما إن ترجلنا منها، حتى اقتادنا على متن سيارة إلى سلم ركاب مركون على طائرة تابعة للخطوط الجوية البريطانية.

ـ لدي ملاحظتان قبل رحيلكما. لا تعودا ثانية إلى روسيا، إذ لن نتمكن من تأمين الحماية لكما، والآن اسمعا جيداً ما أرغب في قوله لكما، فأنا بذلك أخالف قانوناً، لكنكما مستحبان عندي، وذاك الذي أخونه هو أقل تعاطفاً معي. إنهم يرتقبون وصولكما إلى لندن، وأخشى ألا يكون نوع النزهة الذي سيقترحونه عليكما شبيهاً على الإطلاق بالرحلة التي قمنا بها للتو معاً. وهكذا، لو كنت مكانكما، لامتنعتُ عن التسكع في «هيثرو»، وانطلقت بأسرع ما يمكن فور تخطي مقر الجمارك. ومن ناحية ثانية، إذا وجدتما وسيلة لعدم المرور بالجمارك، فسيكون الأمر أفضل أيضاً.

أعاد الرجل جوازي سفرنا إلينا ودعانا إلى سلوك سلّم

الركاب. أجلستنا مضيفة طيران في المكانين العائدين لنا. كانت لهجتها الإنكليزية الكاملة في آية الروعة، فشكرت لها لطفها في استقبالنا.

سألتني كيرا وهي تبكّل حزامها: أو تريد رقم هاتفها؟

ــ كلا، ولكن لو استطعت أنت أن تقنعي الشخص الجالس في الجهة الأخرى منَ الفرجة أن يعيرك هاتفه الخلوي، لكان ذلك مدهشاً.

رمقتني كيرا مذهولة، ثم استدارت ناحية جارها الذي كان يحرر رسالة نصية على ملامس هاتفه. لقد خلبته بحركة غير محتشمة ومدّت إلي بعد دقيقتين الجهاز الخلوي موضوع البحث.

لندن

حطّت طائرة البوينغ في مطار هيثرو بعد أربع ساعات على انطلاقتنا من موسكو. كانت الساعة العاشرة والنصف مساء بحسب التوقيت المحلي، وقد يكون الليل حليفنا. اصطفت الطائرة في ساحة للهبوط بعيداً عن مؤخر المدرج. رأيت عبر الكوة سيارتين لنقل الركاب تنتظران عند أسفل السلم، رجوت كيرا بالتمهل، فسننزل مع الدفعة الثانية من المسافرين.

تسلّقنا متن السيارة داعياً كيرا إلى البقاء على مقربة من الباب، وأزلقت حذائي بين المنفاخين للحؤول دون انغلاق فرضة الأمان. كانت السيارة تجري في الموضع المخصص للطائرات، فدخلت في نفق يمر تحت المدرجات، واضطر السائق إلى التوقف ليسمح لآلة تقطر عربات للأمتعة بالمرور. هذا كان الأوان المناسب وإلا خاب المسعى. دفعتُ الباب، الذي في هيئة «أكورديون» وسحبت كيرا من يدها. ما إن أصبحنا في الخارج، حتى ركضنا في شبه عتمة النفق باتجاه الموكب الذي كان يتباعد وقفزنا على أحد المستوعبات. ألفت كيرا نفسها مسندة ظهرها إلى حقيبتين كبيرتين فيما ألفيتني ممدداً فوق أكياس. بقي

الركاب داخل الباص الذين شاهدوا فرارنا مشدوهين، وأفترض أنهم حاولوا تنبيه السائق، لكن قطارنا كان قد توغل في الاتجاه المعاكس وولج بعد لحظات قليلة الأقسام الباطنية من مؤخر المحطة. في هذه الساعة المتأخرة، لم يعد هناك كثير من الناس في منطقة التفريغ؛ فقط فريقان اثنان كانا يعملان، إلا أنهما كانا بعيدين منا ولم يتمكنا من رؤيتنا. كان الجرار يتلوى بين درابزين تحميل الأمتعة.

لمحت مصعداً للحمولة على بعد أمتار منا، فاخترت هذه اللحظة لمغادرة مخبئنا. عند وصولنا أمام المصعد، لاحظت، للأسف، أن زر النداء كان مقفلاً بغال، ومن المستحيل تشغيله بلا مفتاح.

سألتُ كيرا: هل لديك فكرة عن كيفية الخروج من هنا؟

جلتُ بنظري حول الأماكن المجاورة وما رأيت إلا مجموعة متشابكة من البُسُط الكهربائية النقالة، كان معظمها متوقفاً.

هتفت كيرا، مشيرة إلى باب: هناك، إنه مخرج نجاة.

خفتُ أن يكون مسدوداً، لكن الحظ واتانا، فوجدنا نفسينا في أسفل سلّم.

قلت لكيرا: لا تواصلي الركض. ولنخرج من هنا،

متظاهرين بأن كل شيء طبيعي.

إلا أنها لفتت انتباهي، قائلة: ليس في حوزتنا مستند تعريف للخروج، فلو صادفْنا أحداً لما بدت هيئتنا طبيعية.

نظرت إلى ساعتي، كانت سيارة الركاب قد بلغت، بلا ريب، نهاية محطة المطار. وفي الحادية عشرة ليلاً، لن يكون في الجمارك أناس كثيرون، ولن يلبث المسافر الأخير من رحلة طيراننا أن يتقدم من مركز مراقبة الهجرة. فأمهلتُ نفسينا قليلاً من الوقت قبل أن يدرك الذين ينتظروننا أننا أفلتنا منهم.

كان باب آخر، في أعلى الدرج، يسدّ علينا الطريق. دفعت كيرا القضيب المعترض، وإذا بصفارة إنذار زعقت.

نفذنا في مؤخر المطار بين بساطين نقالين لتسليم الأمتعة، أحدهما يدور بُطْلا. لمحنا ناقل ومفرغ أمتعة فعقلت الدهشة لسانه. ما إن أنذر بالخطر، حتى كنت ممسكاً بيد كيرا ننطلق بأقصى سرعة. سمعنا صوت صفارة، فلم نلتفت وراءنا خاصة، بل تابعنا الركض. إذ يجب الوصول إلى الأبواب الجرّارة المطلّة على الرصيف. تعثرت كيرا صارخة، فأعنتها على النهوض وجررتها. لا بد من الإسراع أكثر، ففي أعقابنا زمرة من المطاردين، وصفارات الإنذار تقترب منا باطراد. لا ينبغي التوقف، لا

ينبغي الاستسلام للخوف، فالحرية ليست إلا على بعد بضعة أمتار. كيرا تلهث. خرجنا من مؤخر المطار، حيث كانت سيارة متوقفة، تسلقناها متوسلين إلى السائق بالانطلاق.

سألنا، مستديراً صوبنا: إلى أين ذاهبان؟

توسلت كيرا لاهثة: هيا اندفع بسرعة، لقد تأخرنا.

انطلق السائق. وامتنعتُ عن الالتفات إلى الوراء متخيلاً مطاردينا وقد استشاطوا غضباً فوق الرصيف لدى رؤيتهم سيارتنا السوداء تبتعد.

همست في أذن كيرا: ما زالت أمامنا صعوبات يتعين علينا تخطيها.

قلت للسائق: توجه إلى مؤخر المطار رقم 2.

رمقتني كيرا مشدوهة.

ـ ثقي بي، فأنا أعرف ماذا أفعل.

عند المستديرة الثانية، طلبت من السائق أن يتفضل بالوقوف. فتذرّعت بأن امرأتي حامل وتشعر بغثيان فظيع، فرمل في الحال، فناولته قطعة نقدية من فئة العشرين ليرة استرلينية وقلت له إننا سنتفسّح في الممر الجانبي على حافة الطريق. من العبث البقاء في انتظارنا، وأنا معتاد

على هذا النوع من التوعك، ومن الممكن أن يستمر طويلاً، لذا سننهي جولتنا سيراً على الأقدام.

قال لنا: من الخطر التنزه هنا، انتبها للشاحنات، فإنها تأتي من كل الجهات.

ابتعد ملوّحاً بإيماءة صغيرة من يده، وقد غلبت عليه نشوة السرور جراء المبلغ الذي تقاضاه لقاء هذا «المشوار» الصغير.

هتفت كيرا فيّ: الآن وقد أنجبت طفلي، ماذا نفعل؟

أجبتها: ننتظر!

ــ ننتظر ماذا؟

ــ سترين!

ــ لقد أفلتا منك، كيف حدث ذلك؟ ألم يكن رجالك بانتظارهما عند الخروج من هذه الطائرة؟

ــ بلى، سيدي، إن عالميك هما اللذان لم يكونا بداخلها.

ــ ماذا تخبرني، لقد أكّد لي اتصالي به أنه أصعدهما هو بنفسه على متن رحلة الطيران تلك.

ــ ما كنت أنوي إطلاقاً التشكيك في كلامه، لكن العنصرين اللذين كان علينا استجوابهما لم يحضرا عملية تفتيش الشرطة الجوية. كنا ستة أشخاص نترصّدهما وكان يستحيل عليهما المرور من خلال أعين الشبكة.

زعق سير آشتون عبر الجهاز: ألعلك تريد أن تشرح لي أنهما قفزا بمظلة فوق المانش؟

ــ كلا، سيدي، كان لا بد أن تلتصق الطائرة بسلم الهبوط، لكنها وُجّهت في اللحظة الأخيرة إلى ساحة للتوقف، من غير أن يتم إبلاغنا. لقد فرّ العنصران من سيارة الركاب التي كانت تؤمن الاتصال بمؤخر المطار حيث كنا في انتظارهما. ليس لنا في القضية يد في

الحقيقة، لقد لاذا بالفرار عبر الأقسام تحت الأرضية.

ــ بإمكانك أن تبلّغ منذ الآن مسؤولي الأمن في «هيثرو» أن رؤوساً كثيرة ستتدحرج!

ــ لا أشك في ذلك، سيدي.

ــ يا لكم من حمقى مثيري الشفقة! هيا اندفع فوراً باتجاه منزلهما عوضاً عن الثرثرة، مشّط لي المدينة، دقّق في الفنادق كافة، تدبّر الأمور كما تشاء لكن ألقِ القبض عليهما هذه الليلة إن كنت لا تزال حريصاً بعض الحرص على وظيفتك. أمهلك حتى الصباح كي تعثر عليهما، أتسمعني؟

كرر محدث سير آشتون اعتذاره، واعداً بالتعويض عن فشل العملية الذريع التي كان مسؤولاً عنها، وذلك في أقرب فرصة ممكنة.

مستديرة الكونكورد، هيثرو

ركنت سيارة الفيات 500 على امتداد الرصيف. انحنى السائق ليفتح الباب. تذمّر والتر طاوياً المقعد كي أتمكن من الانزلاق إلى الوراء وقال: لقد مضت ساعة وأنا أدور.

ــ ألم تكن لديك سيارة أصغر من هذه؟

ــ إذاً، لا تنقصك الوقاحة، إذ تطلب مني أن آتي للبحث عنك في مستديرة وسط مكان ما، وفي ساعة غير ملائمة، وفوق ذلك تتذمر؟

ــ كنت أقول بالضبط إنه سعيد لعدم حمل أمتعة معنا.

ــ أتصور لو كانت لكما أمتعة، لكنت ضربت موعداً لي أمام محطة المطار على غرار الناس العاديين بدلاً من إرغامي على الدوران عشر مرات وأنا في انتظاركما.

قاطعته كيرا: هل ستتشاجران طويلاً؟

أجابها والتر، ماداً يده إليها: أنا سعيد لرؤيتك مجدداً. كيف كان سفرك الصغير؟

أجابت: سيئ! هل ننطلق؟

ـ بطيب خاطر، ولكن إلى أين؟

كنت أهمّ بالطلب من والتر أن يوصلنا إلى منزلي، لكن سيارتين للشرطة تجاوزتانا وصفارات الإنذار تزعق، وقدّرت أخيراً أن الفكرة ليست سديدة. أياً كان أعداؤنا، كانت لي أسبابي الوجيهة للتفكير بأنهم يعرفون عنوان بيتي.

سأل والتر: إذاً، أين نذهب؟

ـ ليست لدي أي فكرة.

سلك والتر الأوتوستراد، قائلاً:

ـ أريد فعلاً أن أقود طوال الليل، ولكن لا بد من التفكير في ملء الخزان بالوقود.

سألتْه كيرا: أهي لك هذه السيارة؟ إنها ظريفة.

ـ إني سعيد جداً أن تنال إعجابك، لقد اشتريتها تواً.

سألت والتر: وما المناسبة؟ كنت أعتقد أنك مفلس.

ـ إنها بالضبط مناسبة، ثم إن خالتك تصل يوم الجمعة، لذا ضحيت بمالي المقتصد لأتمكن من أخذها إلى نزهة في المدينة كما تقضي الأصول.

ـ هل تأتي إيلينا في نهاية هذا الأسبوع لزيارتك؟

ـ أجل، وقد حدّثتك بهذا الخصوص، أنسيت ذلك؟

أجبته: كان أسبوعنا حافلاً بالعمل، فلا تعاتبني إن بدوت شارد الذهن.

قالت كيرا: أعرف أين يمكننا الذهاب، والتر، من الأفضل أن تتوقف عند محطة بنزين لتملأ الخزان وقوداً.

عندها سأل: هل لي أن أعرف الاتجاه الذي ينبغي أن أسلكه؟ وإني أُعلمكما سلفاً بأني أريد العودة غداً على أبعد تقدير، فلدي موعد مع الحلاق!

ألقت كيرا نظرة على جمجمة والتر الخالية من الشعر.

قال رافعاً عينيه إلى السماء: أجل، أعرف ذلك. ولكن ينبغي أن أتخلّص من هذه الخصلة المضحكة، ثم إني قرأت مقالاً في مجلة «التايمز» هذا الصباح يقول إن الرجال الصُلع يتمتعون بقوة جنسية أكثر من المعتاد!

فاقترحت كيرا: إذا كان لديك مقص، فأنا أستطيع الاهتمام بذلك على الفور.

ـ هذا لا جدال فيه، لكني لا أضحّي بآخر شعر لي إلا على يد محترف. هل قلتما لي إلى أين أوصلكما؟

أجابت كيرا: إلى «سانت ماوز»، في منطقة «كورنواي»، هناك سنكون في أمان.

سأل والتر: عند من؟

لزمت كيرا الصمت. فعرفتُ الجواب عن السؤال الذي طرحه وسألتُه إن كان يرضى أن يسلّمني مقود السيارة.

اغتنمت مسافة ساعات المسيرة الست، فسردت لوالتر حكاية مغامراتنا في روسيا. لقد صُعق عندما علم بما جرى لنا في القطار العابر سيبيريا وعلى هضبة مان ــ يويو ــ نيور. وسألني مراراً عن هوية الذين أرادوا قتلنا، لكني ما استطعت أن أفيده كثيراً بهذا الشأن، لأني لم أكن أعرف شيئاً. وكان يقيني الوحيد هو أن رغبتهم في الإساءة إلينا كان سببها الموجب المادة التي نبحث عنها.

لم تنبس كيرا بكلمة أثناء السفر، لكن حين بلغنا «سانت ماوز» مع طلوع النهار، أوقفتنا في زقاق يتسلّق ناحية المقبرة، أمام مطعم صغير.

قالت: هناك.

حيّت والتر وترجلت من السيارة مبتعدة.

سألني والتر: متى نعاود اللقاء؟

ــ استمتع بنهاية الأسبوع مع إيلينا ولا ينشغل بالك علينا. أعتقد أن بضعة أيام من الراحة ستعود علينا بفائدة جمّة.

قال والتر، شاخصاً ببصره إلى واجهة الـ «فيكتوري»: إنه مكان هادئ، سيطيب لك المقام هنا، إني لمتأكد من ذلك.

ــ آمل ذلك.

قال لي والتر، مشيراً إلى كيرا التي تصعد الزقاق سيراً على قدميها: لقد أصيبت إصابة فادحة...

ــ نعم، كانت هذه الأيام الأخيرة مؤلمة بوجه خاص، ثم إنها متأثرة جداً لوقف التنقيبات المفاجئ. كنا على قاب قوسين من الهدف.

ــ لكنكما ما زلتما على قيد الحياة، وهذا هو الأهم. لعن الله هذه القطع، يجب الكف عن كل ذلك، فقد عرضّتما نفسيكما للكثير من المخاطر. إنها لأعجوبة أن تخرجا منها سالمين.

ــ لو لم يكن الأمر إلا بحثاً عن كنز، يا والتر، لكان كل شيء أسهل بكثير، لكن المسألة ليست مجرد لعبة مراهقين، لو وُفقنا في جمع كل القطع لكنّا توصلنا على

الأرجح إلى اكتشاف لا سابق له.

ــ هل ستعاود الحديث لي عن نجمك الأصلي؟ إذاً، فليبق هو في أعالي السماء وأنت على الأرض، هذا كل ما أتمناه.

ــ إنه لكرم منك، يا والتر، لكننا ربما كنا وجدنا وسيلة لاستكشاف اللحظات الأولى لولادة الكون، وعلمنا أخيراً من أين جئنا، ومن أوائل الرجال الذين سكنوا كوكبنا. لقد اغتذت كيرا بهذا الأمل طيلة حياتها. واليوم، فإن خيبتها عظيمة.

ــ إذاً، هيا اندفع بسرعة للحاق بها بدلاً من البقاء معي لتناقشني. إذا كانت الأمور مثلما وصفتها لي، فإنها في حاجة إليك. اهتمَّ بها وانسَ أبحاثك الخرقاء.

ضمني والتر بين ذراعيه وأعاد دفع محرك الفيات 500.

فسألته، وأنا منحنٍ على الباب: ألستَ متعباً جداً لسلوك الطريق من جديد؟

ــ ممَّ أنا متعب؟ لقد نمت أثناء الذهاب.

نظرتُ إلى السيارة تبتعد على الكورنيش الذي يحاذي

شاطئ البحر، اختفت أنوارها الخلفية وراء منزل في الطرف الآخر من القرية.

لم تكن كيرا هناك، ففتشت عنها متوقّلاً المنحدر. في أعلى الزقاق، حاجز مقبرة مشبّك مفتوح قليلاً، دخلت وجلت في الممر الوسطي. ليس المكان كبيراً جداً، فنحو مائة نفس على الأكثر ترقد في مقبرة «سانت ماوز». كانت كيرا راكعة في نهاية فسحة، على مقربة من حائط تتسلقه أغصان نبتة ستارية متشابكة.

قالت كيرا من غير أن ترفع رأسها: في الربيع، تخرج أزهار جميلة خبازية اللون.

نظرتُ إلى القبر، كان طلاء «الرقيقة الذهبية» أوشك أن ينمحي، لكن اسم «وليم بيركنز» ما زال بادياً للعيان.

ـ ستعاتبني جان لأني أتيت بك إلى هنا من دون الحديث إليها مسبقاً.

أمررت ذراعي حول خصرها لائذاً بالصمت.

ـ لقد طفت العالم لأبرهن له على ما يمكنني إنجازه، ولم أتوصل إلا إلى الرجوع ثانية إلى هنا، خالية اليدين، مفعمة القلب غماً. أعتقد أنه هو الذي أبحث عنه منذ البدء.

ــ أنا واثق من أنه فخور بك.

ــ لم يقله لي قط.

نفضت كيرا الغبار عن الحجر وأمسكت بيدي.

ــ لكَمْ وددتُ لو تعرَّفت إليه، كان رجلاً محتشماً جداً ومنعزلاً جداً في نهاية حياته. حينما كنت صغيرة، كنت أنهال عليه بأسئلة يحاول دوماً الإجابة عنها، ولكن عندما كانت المسألة صعبة للغاية، كان يكتفي بالابتسام ويذهب بي للتنزه على الشاطئ الرملي. وفي المساء، كنت أقف على أصابع رجليّ فأجده جالساً حول مائدة المطبخ مستغرقاً في موسوعته. في اليوم التالي، كان يقبل نحوي عند الفطور ليقول لي متظاهراً باللامبالاة: «لقد طرحت عليّ البارحة سؤالاً، لكننا اضطررنا إلى تغيير الحديثَ، ونسيت أن أعطيك الجواب، ها هو...».

ارتعدت كيرا من البرد، فخلعتُ معطفي وألبستها إياه.

ــ أنت لم تخبرني شيئاً عن طفولتك، أدريان.

ــ لأني محتشم شأن والدك، ثم أنا لا أحب كثيراً الكلام على نفسي.

قالت لي كيرا: ينبغي أن تبذل جهداً. إذا كُتب علينا أن

نسير مسافة من الطريق سوياً، فلا أريد أن يخيم الصمت بيننا.

اقتادتني كيرا حتى المطعم. كانت قاعة طعام فيكتوري لا تزال مقفرة، فطلب منا صاحب المؤسسة الجلوس حول مائدة بجوار كوة زجاجية وقدّم لنا فطوراً وافراً. ظننتُ أني كشفتُ تواطؤاً بينه وبين كيرا. ثم اصطحبنا إلى غرفة الطابق الأعلى، المشرفة على ميناء «سانت ماوز» الصغير. كنا الزبونين الوحيدين داخل مؤسسته، حتى في الشتاء كان للمكان سحره الفتان. دنوت من النافذة والجزر في أدنى حالاته ومراكب الصيادين ترتاح على جنبها، فيما يمشي رجل على الشاطئ ممسكاً بولده الصغير من يده. أقبلت كيرا تتكئ بمرفقها على الدرابزين إلى جانبي تماماً.

قلت لها: وكذلك أنا مشتاق إلى والدي، وقد كنت مشتاقاً إليه حتى وهو على قيد الحياة. لم نكن قادرين على التواصل، لأنه كان ذا شخصية بارزة، يتفانى في العمل ليدرك أن له ابناً. كنت، يوم فطن ذلك، قد غادرت المنزل. لقد مرّ كل منا بجانب الآخر من دون أن ننجح حقيقة في رؤية بعضنا بعضاً. غير أني لا أستطيع التشكي، لأن أمي وهبتني كل حنان وحب الدنيا.

رمقتني كيرا طويلاً، وسألتني لماذا أردت أن أصبح

عالم فيزياء فلكية.

ـ في عهد طفولتي، عندما كنا في «هيدرا»، تكونت لدينا أنا وأمي عادة تقيّدنا بها قبل أوان النوم. كنا نستقر إزاء النافذة جنباً إلى جنب، كما هي الحال بيننا نحن في هذه اللحظة، وننظر معاً إلى السماء، وأمي تخترع أسماء للنجوم. سألتها، ذات مساء، كيف كانت ولادة العالم، ولماذ يبزغ النهار كل صباح، إذا كان الليل سيعقبه على الدوام. رمقتني أمي قائلة: هناك العديد من العوالم المختلفة مثلما هناك العديد من أنواع الحياة في الكون. لقد بدأ عالمي أنا يوم ولدتَ أنت. وفي اللحظة التي حملتك بين ذراعيّ. منذ طفولتي أحلم بمعرفة أين يبدأ الفجر.

استدارت كيرا ناحيتي، واضعة ذراعيها حول عنقي:

ـ إنك ستصبح أباً مثيراً للإعجاب.

لندن

سأبيع سيارتي منذ يوم الاثنين، وسأسدد لك ديني وأشتري زوج جزمة، واللعنة على سقف مكتبي، لن أذهب أبعد من ذلك. لن أفعل المزيد لإقناعهم بالاستمرار، ولا تعتمد علي بعد الآن لمساعدتك. كل صباح، عندما أنظر إلى نفسي في المرآة، أشعر بالقذارة لخيانتي ثقة أدريان. لا داعي للإلحاح، لا شيء مما سيسعك قوله لي سيدفعني إلى تغيير رأيي. كان علي أن أصرفك بخشونة منذ أمد بعيد. وإذا تعهدت القيام بأي شيء لحثهما على سلوك الطريق من جديد، سأبوح لهما بكل شيء، حتى لو أني أخيراً لا أكاد أعرف شيئاً عنك.

سألت الخالة إيلينا: هل تتكلم وحدك، يا والتر؟

ــ لا، لماذا؟

ــ أؤكد لك أنك كنت تبدو وكأنك تتمتم شيئاً ما، وشفتاك تتحركان من تلقائهما. تحوّل الضوء إلى الأحمر. فرمل والتر واستدار نحو إيلينا.

ــ ينبغي أن أوجّه نداء مهماً هذا المساء وكنت أكرر النص.

ـ أليس من أمر خطر؟

ـ لا، لا، أؤكد لك ذلك، بل العكس تماماً.

ـ ألا تخفي علي شيئاً؟ إذا كان لك في حياتك شخص آخر، شخص أصغر مني سناً، أريد أن أقول، إني أستطيع أن أتفهم ذلك لكني أفضل معرفته، هذا كل ما يهمني.

اقترب والتر من إيلينا.

ـ لا أخفي عليك شيئاً إطلاقاً، ولن أسمح لنفسي بالقيام بعمل كهذا، وليس من امرأة أجدها أكثر مدعاة للرغبة منك.

إثر هذا البوح بالحب، احمّر خدا والتر وأصبح أحمر بلون «زهرة الفاوانيا» وأخذ يتعتع في الكلام.

أجابت الخالة إيلينا: تعجبني كثيراً قصة شعرك الجديدة. يخيل إلي أن الضوء صار أخضر وأنهم يطلقون أبواق سياراتهم وراءنا، عليك أن تنطلق. إني لسعيدة جداً لتوجهي إلى زيارة قصر بكنغهام. أوَ تعتقد أننا سنحظى برؤية الملكة؟

أجاب والتر: ربما إذا خرجت من قصرها، من يدري...

سانت ماوز

نمنا القسم الأكبر من النهار، ولما أزحت الستائر كانت السماء مصطبغة بألوان الشفق.

كنا جائعين، وكيرا تعرف صالة للشاي على مسافة بضعة شوارع من المطعم، فانتهزتْ الفرصة لتجعلني أكتشف القرية. حين نظرتُ إلى البيوت الصغيرة البيضاء المعلقة بالتلة حلمت بأن أسكن أحدها ذات يوم. هل من الممكن أنا الذي أمضيت عمري متجولاً على كوكب الأرض، أن يؤول الأمر بي إلى أن أحطّ رحالي في هذه القرية الصغيرة من قرى «كورنواي»؟ أسفت على البعد الذي حلّ بيني وبين مارتن، كان بلا شك أدرك أهمية أن يأتيني زائراً بين حين وحين. لكننا انطلقنا لاحتساء كأس جعة في المرفأ، ونحن نستذكر بعض الذكريات السعيدة.

سألتني كيرا: فيم تفكر؟

أجبت: لا أفكر في شيء بوجه خاص.

ـ تبدو عليك سيماء الشرود بعيداً، لقد اتفقنا «ما من فترات صمت بيننا».

ـ إن كنت راغبة في معرفة كل شيء، كنت أتساءل

حول ما سنفعله الأسبوع القادم وفي الأسابيع التالية.

ــ الآن لديك فكرة عما سنفعله الأسبوع القادم؟

ــ ليست لدي أي فكرة!

ــ أنا بلى، لدي!

وقفت كيرا في وجهي، ثم أمالت رأسها جانباً. عندما تقوم بذلك فيعني أن لديها شيئاً مهماً تقوله لي. ثمة أشخاص يتخذون لهجة احتفالية ليعلنوا لك أنباء عظيمة، أما كيرا فتميل برأسها جانباً.

ــ أريد أن أستفسر إيفوري عن مسلكه، لكني في حاجة أن تكون شريكي في كذبة صغيرة...

ــ أي نوع من الكذب؟

ــ أريد أن أوهمه أننا نجحنا في مغادرة روسيا وفي حوزتنا القطعة الثالثة.

ــ وما الغرض من ذلك؟ وأي فائدة لنا منه؟

ــ لحمله على الاعتراف بالمكان الذي عثر فيه على القطعة المكتشفة في منطقة الأمازون.

ــ أقرّ بأنه يجهله.

ـ لقد قال لنا أموراً كثيرة، كما أخفى علينا خاصة أموراً كثيرة غيرها، لم يكن إيغوروف، هذا الرجل الطيب القلب على خطأ تماماً عندما اتهم إيفوري بأنه دفعنا إلى التصرف كأننا دميتان. فإذا أوهمناه بأننا بتنا نملك ثلاث قطع، فلن يصبر على رغبته في إتمام اللغز. إنني متيقنة من أنه يعرف أكثر مما يريد الإقرار به فعلاً.

ـ إني لأتساءل ما إذا كنتِ أنت أشد استغلالاً للآخرين منه هو.

ـ هو في الواقع أكثر موهبة مني ولن أستاء من أخذ بعض ثأري منه.

ـ ليكن ما تقولين، ولنتصور أننا نجحنا في إقناعه بهذه الكذبة، ولنفترض أن يقرّ لنا أين توجد القطعة الرابعة، فستنقص دائماً القطعة التي تقوم في مكان ما على هضبة مان ـ يويوـ نيور، وبذلك تظل خريطة النجوم غير مكتملة. ما الجدوى إذاً من تعريض النفس لكل هذه الأذية؟

ـ ليس لأن إحدى القطع تنقص اللغز، لا يمكن تمثّل الصورة كاملة. حين نكتشف بقايا متحجرة، نادراً ما تكون كاملة لكي لا أقول أبداً. ولكن انطلاقاً من عدد كاف من عظام ميت نعرف ما هي العناصر الناقصة ونفلح في إعادة

تركيب العمود الفقري، لا بل مجمل الجسم. إذاً، زد قطعة إيفوري إلى القطعتين اللتين نملكهما، وسنتمكن ربما من تفهّم ما يفترض أن تكشفه لنا هذه الخريطة. في كل الأحوال، إن لم تبلغني أنك تريد تمضية بقية حياتك في هذه القرية الصغيرة وتكرّس أيامك لصيد السمك، فلا أرى حلولاً أخرى.

ـ يا لها من فكرة غريبة!

لدى عودتنا إلى الفندق، بدأت كيرا تتصل بأختها، فأمضتا فترة طويلة على الهاتف. لكن كيرا لم تخبرها شيئاً عن مغامرتنا في روسيا، بل اكتفت بالقول لها إننا كلينا في «سانت ماوز» وإنها ربما تأتي سريعاً إلى باريس. فضلت أن أتركهما تتناقشان وحدهما. ونزلت ثانية إلى مقصف المطعم وطلبت كأس جعة أثناء انتظارها. وجدتْني بعد ساعة، فوضعتُ صحيفتي جانباً وسألتها إن كانت قد تمكنت من الحديث إلى إيفوري.

ـ أنكرَ جملةً أن يكون مارس أي تأثير في أبحاثنا، وكاد يمتعض عندما أومأت أنه يلهو بي منذ اليوم الأول الذي صادفته فيه داخل المتحف. كان مظهره يشي بإخلاصه لكني لست واثقة مع ذلك.

ـ هل أخبرته أننا حملنا معنا قطعة ثالثة من روسيا؟

تناولت كيرا كأس جعتي وهزت رأسها إيجاباً محتسية إياها دفعة واحدة.

ــ هل صدِّقك؟

ــ ما لبث أن توقف عن توجيه اللوم إلي وكان على أحرّ من الجمر للقائنا.

ــ كيف ستتصرفين للإبقاء على الكذب حينما نلتقيه؟

ــ قلت له إننا أودعنا الأداة مكاناً آمناً وإنني لن أريه إياها إلا عندما يطلعنا على مزيد من المعلومات حول القطعة المكتشفة في «الأمازونيا».

ــ وبماذا أجابك؟

ــ أن لديه فكرة عن الموضع الذي توجد فيه، لكنه لا يدري كيف يصل إليه. واقترح علي أن نساعده على حل لغز.

ــ أي نوعٍ من اللغز؟

ــ ما كان يرغب في الحديث عنه عبر الهاتف.

ــ أقادم هو إلى هنا؟

ــ كلا، بل حدد لنا موعداً في أمستردام خلال ثمانٍ

وأربعين ساعة.

ــ كيف تريدين أن نقصد أمستردام؟ لست على عجلة للعودة إلى «هيثرو»، فنحن إذا اجتزنا الحدود، هناك احتمالات قوية لتعريض نفسينا للاعتقال.

ــ أعرف ذلك، وقد رويت له ماذا جرى لنا، فنصحنا بركوب معدّية (زورق عبور) متوجهة إلى هولندا. إنه يزعم أن الاستعانة بالباخرة أثناء السفر من انكلترا، أقل تعرضاً لمخاطر الرقابة.

ــ وأين يمكن الصعود على معدية للتوجه إلى أمستردام؟

ــ في «بلايموث». على مسافة ساعة ونصف بالسيارة.

ــ ولكن ليس لدينا سيارة.

ــ هناك اتصال عبر سيارات الركاب. لماذا أنت متردد هكذا؟

ــ وكم من الوقت يستغرق عبور البحر؟

ــ اثنتي عشرة ساعة.

ــ هذا ما كنت أخشاه.

بدت كيرا بمظهر يدل على الندم وربتت برقة على يدي.

سألتها: ما الأمر؟

قالت، مرتبكة: الواقع أنها ليست معديات تماماً، بل بالأحرى سفن شحن. وتقبل غالبيتها نقل ركاب، ولكن سواء أكانت سفينة أم معدّية فالأمر سيان عندنا، أليس كذلك؟

ــ ما دام هنالك جسر في القسم الأمامي حيث يمكنني الموت جراء دوار البحر خلال ساعات العبور الاثنتي عشرة، فلا أبالي بالأمر في الحقيقة.

كانت سيارة الركاب تنطلق في السابعة صباحاً. وقد أعد صاحب المطعم لنا بعض السندويشات للرحلة. قبل أن يفارقنا، وعد كيرا بأن ينظّف قبر والدها ما إن يعود الربيع. كان يأمل أن يلتقينا مرة ثانية ويحجز لنا الغرفة نفسها إن أخطرناه بذلك قبل الموعد بوقت كاف.

في مرفأ «بلايموث»، قصدنا مركز القبطان. أوضح لنا ضابط المرفأ أن سفينة ترفع علماً انكليزياً وتنقل سلعاً تستعد للإبحار إلى أمستردام في غضون ساعة، وكانت حمولتها على وشك الانتهاء، فأرشدنا إلى الرصيف رقم 5.

طلب قائد السفينة مائة ليرة استرلينية لكل منا ندفعها له نقداً. عقب تسديد المبلغ دعانا إلى سلوك الممر الخارجي حتى المربع. وُضعت مقصورة تحت تصرفنا في مقر الطاقم. شرحتُ له أني أفضّل الاستقرار على الجسر، في المقدمة أو المؤخرة، حيث أسبّب أقل ما يمكن من الإزعاج.

ـ كما تشاء، ولكن البرد سيكون قارساً حينما نبحر في عرض البحر، وسيستغرق العبور عشرين ساعة.

استدرتُ ناحية كيرا:

ـ لقد حدثتني عن اثنتي عشرة ساعة على أبعد تقدير؟

أردف القائد، مغرقاً في الضحك: ربما على سفينة سريعة جداً، ولكن على هذا النوع من المراكب القديمة والرديئة، فمن النادر تجاوز العشرين عقدة بحرية، وذلك عندما تكون الريح مؤاتية. إن كنت تعاني دوار البحر فابقَ في الخارج. لا داعي لتوسيخ سفينتي! وتغطَّ جيداً.

قالت لي كيرا، شابكة أصابعها وراء ظهرها: أقسم لك أني لم أكن على علم بذلك إطلاقاً.

أقلعت السفينة. كان التموّج قليلاً في المانش، لكن المطر رافق السفر، ولازمتني كيرا خلال أكثر من ساعة

قبل أن تعود أدراجها إلى داخل السفينة. في الحقيقة، كان الطقس بارداً جداً. أشفق القبطان المساعد علي، فأرسل نقيب معبره ليحمل إلي معطفاً واقياً من المطر وزوج قفاز. اغتنم الرجل الفرصة ليدخن سيكارة فوق الجسر، وشرع في الحديث علّه يغير أفكاري.

كان ثلاثون رجلاً يعملون على ظهر السفينة من ضباط ميكانيكيين، رئيس طاقم، طهاة وبحارة. شرح لي الضابط أن تحميل السفن بسلع البيع بالمفرق عملية بالغة التعقيد تتعلق بها سلامة السفر. في الثمانينات، مائة سفينة شبيهة بهذه غرقت سريعاً بحيث لم يتمكن أي بحار من النجاة. هكذا هلك ستمائة وخمسون رجلاً في البحر. وأكبر خطر ترصّدنا كان أن الحمولة تعرضت للانزلاق. حينها جنحت السفينة راقدة على جنبها وانقلبت. كانت الآلات الرفّاشة ــ التي أراها تقوم بجرف الحبوب في العنابر ــ تعمل للحيلولة دون حدوث ذلك. لم يكن ذلك الخطر الوحيد الذي يتهددنا، أضاف وهو يسحب مجّة من سيكارته. وإذا تغلغل الماء من خلال الفتحات في السطح بسبب موجة عالية بعض الشيء، كان بإمكان النقل المضاف في العنابر أن يحطم الهيكل قسمين. المخطط نفسه والسفينة تغرق في لحظات. كانت المانش، هذه الليلة، هادئة، لم نكن لنتعرض لأي خطر من هذا القبيل، اللهم إلا إذا هبت عصفة ريح

غير مرتقبة. ألقى ضابط المعبر عقب سيكارته من فوق الجسر ورجع إلى عمله، وقد تركني وحدي حالماً.

جاءت كيرا تزورني مراراً، راجية إياي اللحاق بها في مقصورتها. وحملت إلي سندويشات رفضتها و«ترموساً مليئاً» بالشاي. عند انتصاف الليل، أوت إلى فراشها بعد أن ردّدت على مسمعي أني، بمكوثي هنا، سأغدو مدعاة للسخرية وسأفقد حياتي كذلك. ظللت مشدوداً في معطفي الواقي، منكمشاً على نفسي تحت الصارية حيث يمضُ النور في أعلاه، وغفوت يهدهدني ضجيج الحيزوم (مقَدمة السفينة) الذي يشق عباب البحر.

في الساعات الأولى من الصباح، أيقظتني كيرا. كنت ممدداً وذراعاي على شكل صليب فوق الجسر الأمامي. كنت، مع ذلك، أشعر بشيء من الجوع، لكن شهيتي زايلتني فور دخولي بيت المؤونة. كانت رائحة سمك مقلي زنخ تمتزج برائحة القهوة. أحسست بالغثيان فهرعت مندفعاً إلى الخارج.

قالت لي كيرا، منضمة إلي: إنها الشواطئ الهولندية تلك التي تلمحها في البعيد، عذابك شارف النهاية.

هذا التخمين بدا نسبياً برمته، وكان لا بد من الصبر أربع ساعات أخرى قبل أن يدوّي البوق المنبه وأحس

بإبطاء سير الآلات. اتجهت السفينة صوب اليابسة ودخلت بعد وقت قصير في القناة الصاعدة حتى مرفأ أمستردام.

حالما ركنت السفينة إلى الرصيف، غادرنا متنها. كان ضابط للجمارك في انتظارنا عند أسفل السلم، تفحّص سريعاً جوازي سفرنا، فتش حقيبتينا اللتين لم تحويا إلا بعض الحوائج المشتراة في حانوت من حوانيت «سانت ماوز»، وسمح لنا بالمرور.

ـ سألت كيرا: إلى أين نذهب؟

ـ إلى الاستحمام!

ـ وفي ما بعد؟

نظرت إلى ساعتها

ـ لدينا موعد مع إيفوري في أحد المقاهي...

أخرجت ورقة من جيبها قائلة:

ـ... في ساحة «قصر دام».

أمستردام

كنا قد حجزنا غرفة في فندق «كراسنابولسكي» الكبير. لم يكن المؤسسة الأرخص في المدينة، لكن كان له الفضل في قيامه على مسافة خمسين متراً من الموقع الذي يجري فيه لقاؤنا. في نهاية بعد الظهر، اقتادتني كيرا إلى الساحة الكبرى حيث اختلطنا بالجمهور. كان خط انتظار طويل يمتد أمام متحف «مدام توسو»، وبعض السياح يستردون قواهم على رصيف «أورويوب» تحت مدافئ تعمل على الغاز، إلا أن إيفوري لم يكن بينهم. وكنتُ أول من لمحه، فالتحق بنا على الطاولة التي كنا جالسين حولها، وراء الواجهة بالضبط.

قال، وهو يجلس: أنا سعيد جداً لرؤيتكما، يا له من سفر!عاملته كيرا ببرود، وأحس الأستاذ العجوز للتو أنه ليس في وضع يؤهله للتحكم فيه.

قال لها بلهجة تنطوي على قدر من السخرية: أ أنت حاقدة علي؟

ــ لماذا أحقد عليك، وقد كدنا نقع في مأزق وكدت أنا أغرق في نهر، وقضيت بعض الأسابيع على نفقة الدولة

في سجن صيني، وأطلقوا النار علينا في قطار، وأخرجتنا من روسيا فرقة كومندس عسكرية قتلت نحو عشرين رجلاً على مرأى منا؟ إني أسامحك للظروف البالغة القسوة التي سافرنا فيها خلال هذه الأشهر الأخيرة، طائرات مهترئة، سيارات مخلوعة، باصات ركاب مهزوزة، ناهيك بالجرار الصغير لنقل الأمتعة حيث وجدت نفسي محصورة بين حقيبتي (سامسونايت). وبينما كنت تأخذنا إلى نزهة كما تريد، هل أفترض أنك كنت تنتظر بهدوء في شقتك المريحة الدافئة أن تكلّفنا القيام بكل الأعمال القذرة. لقد بدأت تهزأ بي يوم استقبلتني في مكتبك بالمتحف، أم حدث الأمر بُعيد ذلك؟

قال إيفوري بلهجة مفخّمة: كيرا، سبق أن تبادلنا هذا الحديث قبل البارحة عبر الهاتف. أنت تخطئين، لربما لم تسنح الفرصة لي بعد لأشرح لك كل شَيء، لكني لم أعمد قط إلى استغلالك. إنما العكس، ما توقفت يوماً عن حمايتك. أنت التي قررت القيام بهذه الأبحاث. أنا لم أسعَ إلى إقناعك بل اكتفيت بلفت نظرك إلى بعض الأمور. أما في خصوص المخاطر التي تعرضتما كلاكما لها... فليكن معلوماً أنني، لإعادة أدريان من الصين إلى الوطن، كما لإخراجك من السجن، تعرضت أنا بنفسي للعديد من المخاطر. وخسرت في هذا السبيل صديقاً عزيزاً جداً دفع

حياته ثمناً لتحريرك.

سألت كيرا: أي صديق؟

أجاب إيفوري بصوت ملؤه الحزن: كان مكتبه في القصر الذي يقوم قبالتنا. لهذا السبب طلبت منكما أن تلقياني هنا... هل أتيتما حقاً بقطعة ثالثة من روسيا؟

أردفت كيرا: واحدة بواحدة. لقد قلت لك إني سأريك إياها عندما تخبرنا بكل شيء عن تلك التي تم العثور عليها في «أمازونيا». أعرف أنك تعلم أين هي ولا تحاول إقناعي بالعكس.

تنهد إيفوري وقال: إنها أمامكما.

ــ كفَّ عن ألغازك، أستاذ، فقد لعبتُ كثيراً، وأنت لعبت كثيراً معي. لا أرى أي قطعة فوق الطاولة.

ــ لا تكوني بلهاء، ارفعي عينيك وانظري قبالتك.

اتجهت أنظارنا ناحية القصر الذي يرتفع في الجهة الأخرى من الساحة.

سألت كيرا: هل هي داخل هذا المبنى؟

ــ أجل، لدي كل الأسباب التي تحملني على اعتقاد

ذلك، لكن لا أدري أين بالضبط.

هذا الصديق الذي لقي حتفه كان مؤتمناً على حفظها، إلا أنه حمل معه إلى القبر مفاتيح اللغز التي كانت ستسمح لنا بوضع اليد عليه.

سألته بدوري: كيف لك أن تتأكد من ذلك إلى هذه الدرجة؟

انحنى إيفوري على الحقيبة الموضوعة عند قدميه، فتح ثنيتها وأخرج كتاباً ضخماً وضعه على الطاولة. استرعى الغلاف انتباهي على الفور، كان الأمر يتعلق بمؤلف قديم في علم الفلك. تناولته بين يدي وتصفحته.

ــ إنه مؤلف رائع.

أجاب إيفوري: أجل، إنها الطبعة الأصلية. والكتاب هدية من هذا الصديق، وأنا شديد الحرص عليه، ولكن أنظرا خصوصاً إلى الإهداء الذي تركه لي.

انتقلتُ إلى مطلع الكتاب وقرأت بصوت عال النص المكتوب بالريشة على الصفحة البيضاء:

«أعرف أن هذا المؤلف سينال إعجابك، إذ لا ينقصه شيء لأن كل شيء موجود فيه، حتى عربون صداقتنا».

شريكك المخلص في لعبة الشطرنج.

فاكيرز

ــ إن حل اللغز مخبوء في هذه الكلمات القليلة. وأعرف أن فاكيرز يحاول أن يقول لي شيئاً، إذ لا يتعلق الأمر في مطلق الأحوال بعبارة تافهة لا قيمة لها، ولكن ما معنى كل هذا، إني لأجهله.

ــ كيف باستطاعتنا أن نساعدك، ونحن لم نلتقه البتة؟

ــ وصدّقاني أني متأسف لما جرى له، كنتما قدّرتماه كل التقدير، لأنه كان رجلاً يندر وجود مثل ذكائه. ولما كان هذا الكتاب مؤلفاً في علم الفلك، قلت لنفسي إنك، أدريان، ربما يسعك أن تستوعب منه شيئاً.

لفتُّ نظره، قائلاً: إنه يحتوي على ستمائة صفحة. إن كان لا بد من أن أجد فيه شيئاً، فلن يكون الأمر مسألة بضع ساعات، إذ أن دراسة أولية لهذا الكتاب تتطلب مني أياماً عدة. أليس عندك قرينة أخرى، أو أي شيء آخر قد يمكنه إرشادنا؟ فنحن لا ندري حتى عما نفتش في هذا الكتاب.

قال إيفوري، واقفاً على رجليه: اتبعاني، فسأقودكما إلى

مكان لم يدخله أحد، لا أحد تقريباً إلا فاكيرز وأمين سره الخاص وأنا بالذات نعرف وجوده. كان فاكيرز يعلم أني اكتشفت مخبأه، لكنه كان يتظاهر بتجاهل ذلك، ورفاهة الشعور هذه دليل صداقة من قبله، على ما أفترض.

سألت كيرا: أليس هذا ما يعبّر لك عنه في هذا الإهداء؟

تنهد إيفوري: بلى، ولهذا بالفعل نحن هنا.

سدّد الحساب، وتبعناه إلى الساحة الكبرى. لم تكن كيرا لتعير حركة السير أي انتباه، حتى أنّ قطاراً قرع جرسه ــ مرات عدة ــ أوشك أن يطرحها أرضاً، لكني أدركتها بالكاد.

أدخلنا إيفوري في الكنيسة عبر الباب الجانبي، فاجتزنا الصحن الفخم حتى «الجناح المصالب». كنتُ أتأمل ضريح الأميرال دو رويتر عندما لحق بنا إلى صدر الكنيسة الصغير رجل يرتدي بذلة داكنة.

همس إيفوري كي لا يسبب إزعاجاً لبعض الأشخاص الذين كانوا مستغرقين في التأمل: شكراً على وصولك في الموعد.

ــ لقد كنتَ صديقه الوحيد، وأعلم أن السيد فاكيرز كان يرغب في الاستجابة لطلبك. أعتمدُ على رصانتك وإلا

سأواجه متاعب جدية إن تم اكتشافي.

أجابه إيفوري، مربّتاً على كتفه بمودة: لا تخف. كان فاكيرز يخصك ببالغ التقدير ويرفع من شأنك عالياً، حين كان يحدثني عنك، كنت أحس في كلامه... كيف أعبّر لك... بالصداقة، أجل هذه بالضبط الكلمة الصحيحة، لقد محضك فاكيرز صداقته.

فسأل الرجل بلهجة صادقة مؤثرة: أحقاً ما تقول؟

أخرج من جيبه مفتاحاً، أدار مزلاج باب صغير يقوم في مؤخر المعبد ونزلنا سلّماً كان وراءه بالضبط. وتوغلنا إلى أسفل خمسين درجاً، في ممر طويل.

قال لنا الرجل: هذا السرداب يمر تحت الساحة الكبرى ويتصل مباشرة بقصر «دام». المكان معتم جداً وتتفاقم الظلمة كلما مضينا قدماً، فلا تبتعدوا عني.

لم نسمع سوى صدى خطواتنا، وكلما أوغلنا في السير تخلخل النور حتى احتوتنا للتو ظلمة كاملة.

أضاف دليلنا: خمسون خطوة ونرى النور ثانية، اتبعوا مجرى الماء المركزي تداركاً لأي عثرة. أعلم أن المكان ليس كثير الإمتاع، واستفظع سلوكه.

ثم طالعنا سلم جديد.

ـ خذوا حذركم، فالدرج زلق، تمسكوا بحبل نبات القنب المحاذي للحائط.

ألفينا أنفسنا، أعلى سطح الدرج، أمام باب خشبي مجهز بقضبان حديدية ثقيلة. عالج مساعد فاكيرز بيده مسكتين ضخمتين، فحرّرت آلية لسان القفل. وصلنا إلى غرفة انتظار في الطابق الأرضي من القصر. ثلاث خرائط عملاقة كانت محفورة على رخام القاعة الكبرى الأبيض. تمثل إحداها نصف الكرة الغربي، والثانية النصف الشرقي، والثالثة خريطة للنجوم ذات دقة مدهشة. تقدّمت لأشاهدها عن قرب، إذ لم تسنح لي فرصة الانتقال فشخة واحدة من نجمة «كاسيوبه» إلى نجمة «المرأة المسلسلة»، وكان القفز من كوكبة إلى كوكبة أمراً مسلياً للغاية. تنحنحت كيرا لتنبهني إلى التقيد بالنظام، بينما كان إيفوري ودليله يرمقاني بارتياع.

ـ من هنا، قال لنا الرجل ذو البدلة الداكنة.

فتح باباً آخر وهبطنا مجدداً سلماً يفضي إلى طوابق القصر تحت الأرضية. واحتجنا إلى بضع لحظات لنتكيف من جديد مع شبه العتمة. كانت أمامنا شبكة من الجسور الصغيرة تطل على مياه قناة جوفية.

أشار الرجل: نحن الآن في وضع عمودي مع القاعة الكبرى، انتبهوا لمواطئ أرجلكم، فماء القناة بارد كالثلج وأجهل مدى عمقه.

دنا من بلاطة وضغط على مفتاح دعم من حديد مشغول، فدار لوحان خشبيان على محورهما فاتحين طريقاً يسمح بالوصول إلى الحائط في مؤخرة البناء. عندها لم نستطع، إلا باقترابنا أكثر ما يمكن، أن نلمح باباً سرياً في الحجر وغير مرئي في العتمة. أدخلنا الرجل إلى غرفة، أشعل النور وإذا بطاولة معدنية ومتكأهما كل ما يتألف منه الأثاث. وكانت شاشة مسطحة معلقة على الجدار وحلقة لمفاتيح حاسوب موضوعة فوق الطاولة.

قال أمين سر فاكيرز: ها قد وصلنا، لا يسعني أن أساعدكم أكثر مما فعلت. وكما يمكنكم أن تلاحظوا، ما من شيء يذكر في هذا المكان.

أشعلت كيرا الحاسوب فأضاءت الشاشة. ثم أضافت: الدخول إليه مؤمن.

أخرج إيفوري ورقة من جيبه وقدّمها لها.

ـ جرّبي هذا الرمز، فقد انتهزتُ فرصة دق شطرنج في منزله لاختلاسه منه.

نقرت كيرا على حلقة المفاتيح وضغطت على زر التثبيت، فسُمح لنا بالدخول إلى حاسوب فاكيرز. ثم قالت:

ــ ما العمل الآن؟

أجاب إيفوري: الآن لا أعلم شيئاً. أنظري ماذا يحوي القرص الجامد، فقد نجد ما من شأنه أن يهدينا إلى القطعة.

ــ القرص الجامد فارغ، ولا أرى فيه إلا برنامج اتصال. كان هذا الحاسوب يستخدم فقط لمحاضرات الفيديو. هناك جهاز تصوير صغير فوق الشاشة.

ردّ إيفوري: كلا، مستحيل، إستمري في البحث، إني على يقين من أن مفتاح اللغز موجود فيه.

ــ متأسفة لمخالفة رأيك، لكن لا شيء فيه، لا وجود لأي مُعطى!

ــ تحولي إلى الأصل وانسخي الإهداء: «أعرف أن هذا المؤلف سينال إعجابك، إذ لا ينقصه شيء لأن كل شيء موجود فيه، حتى عربون صداقتنا. شريكك المخلص في لعبة الشطرنج، فاكيرز».

أظهرت الشاشة: «طلب مجهول».

قالت كيرا: ثمة عيب ما، أنظر القرص فارغ وبالرغم من ذلك فإن الحجم ملآن نصفه. هنالك مجموعة أقسام مخفية. هل لديك أدنى فكرة عن كلمة سر أخرى؟

أجاب إيفوري: كلا، لا يخطر ببالي شيء إطلاقاً.

نظرت كيرا إلى الأستاذ العجوز، وانحنت على حلقة المفاتيح وطبعت «إيفوري». فانفتحت على الشاشة نافذة جديدة.

ــ أعتقد أني وجدت عربون الصداقة الذي يحدثك عنه، ولكن ما زال ينقصنا رمز.

تنهد إيفوري: لا أملكه.

ــ أمعنِ التفكير، فكّر في شيء كان يربطكما بعضكما ببعض.

ــ لا أظن، لقد كانت بيننا أمور كثيرة مشتركة، كيف لي أن أقوم بفرزها من بين كل تلك الذكريات؟ لا أعرف، جربي «شطرنج».

وانطبع على الشاشة من جديد عبارة «طلب مجهول».

قالت كيرا: جرّب أيضاً، فكّر في شيء أكثر تطوراً، في شيء كنتما وحدكما قادرين على التفكير فيه.

شرع إيفوري يذرع الغرفة، ويداه وراء ظهره، متمتماً بصوت خافت:

ـ جرت بالفعل تلك المباراة التي لعبناها مئات المرات...

سألته: أية مباراة؟

مبارزة شهيرة تقابل فيها لاعبان كبيران من لاعبي القرن الثامن عشر، «فرانسوا أندريه دانيكان فيليدور» والقائد «سميث». كان فيليدور معلماً كبيراً جداً من معلمي الشطرنج، وهو على الأرجح أعظم لاعبي زمانه. نشر كتاباً تحت عنوان «تحليل لعب الشطرنج»، اعتُبر لأمد طويل مرجعاً في الموضوع. حاولي أن تطبعي اسمه.

بقي الولوج إلى حاسوب فاكيرز ممتنعاً علينا.

سألت كيرا: حدثني عن دانيكان فيليدور هذا.

أردف إيفوري: قبل أن يأتي ويحطّ رحاله في انكلترا، كان يلعب في فرنسا في مقهى «ريجانس»، المكان الذي يلتقي فيه مشاهير لاعبي الشطرنج.

طبعت كيرا «ريجانس» و«مقهى ريجانس»... لكن شيئاً لم يحدث.

تابع إيفوري: كان تلميذ السيد كارمير.

فطبعت كيرا «كارمير»، ولكن بلا جدوى.

مرة جديدة، رفضت الشاشة الاستجابة. فجأة رفع إيفوري رأسه.

ــ أضحى فيليدور ذائع الصيت بتغلبه على السوري «فيليب ستاما». لا، انتظري، ثبتت شهرته نهائياً لما فاز في مباراة لعب خلالها على ثلاث رقع للشطرنج في آن واحد، وضد ثلاثة خصوم مختلفين، وعيناه معصوبتان. لقد حقق هذا النصر في نادي «سانت جيمس ستريت» للشطرنج بلندن.

ــ أ لعلنا لا نتبع الطريق الصحيح، أم لعله يتوجب علينا الاهتمام بالقائد سميث هذا، أو لا أدري ماذا... ما هما تاريخا ولادة ووفاة فيليدور المشار إليه؟

ــ ما عدت أذكر ذلك بطبيعة الحال، فقط مهنته كلاعب شطرنج هي التي كانت تستأثر باهتمامنا أنا وفاكيرز.

سألت: ومتى جرت بالضبط تلك المباراة بين الضابط سميث ورفيقه فيليدور؟

ــ في 13 آذار 1790.

طبعت كيرا مجموعة الأرقام 13031790.

تولتّنا الدهشة إذ ظهرت على الشاشة خريطة قديمة للسماء. كان تاريخها يعود ــ بالحكم عليها من خلال درجة الدقة والأخطاء التي تشوبها ــ إلى القرن السابع عشر أو الثامن عشر.

هتف إيفوري: غير معقول إطلاقاً.

أردفت كيرا: إنها صورة محفورة رائعة، لكنها لا تدلنا أبداً أين يوجد ما نبحث عنه.

رفع الرجل ذو البدلة الداكنة رأسه، وقال مقترباً من الشاشة: إنها الخريطة المرصّعة في بهو القصر في الطابق الأرضي. أخيراً، إنها بالغة الشبه بها، باستثناء بعض التفاصيل القليلة.

سألته: وهل أنت واثق من ذلك؟

ــ لقد اضطررت إلى المرور فوقها آلاف المرات، منذ حوالي عشرة أعوام وأنا في خدمة السيد فاكيرز، وكان يحدد لي دائماً موعداً في مكتبه بالطابق الأول.

سألت كيرا: وفيمَ هي مختلفة عنها؟

قال لنا: ليست بالضبط الرسوم نفسها، فالخطوط التي

تربط النجوم بعضها ببعض ليست متموضعة بالطريقة ذاتها.

سألت: متى بني هذا القصر؟

أجاب الرجل ذو البدلة الداكنة: أُنجز بناؤه في العام 1655.

وللتو طبعت كيرا الأرقام الأربعة، فبدأت الخريطة التي ظهرت على الشاشة تدور وسمعنا ضجيجاً أصم بدا أنه منبعث من السقف.

سألت كيرا: ماذا يوجد فوقنا؟

أجاب الرجل: الـ «برغرزال»، القاعة الكبرى حيث الخرائط المرصعة في البلاطة الرخامية.

اندفعنا أربعتنا مسرعين ناحية الباب. دعا الرجل ذو البدلة الداكنة إلى اتخاذ جانب الحذر بينما كنا نركض فوق متاهة الجسور القائمة على بعد بضعة سنتيمترات من القناة الباطنية. بعد خمس دقائق، وصلنا إلى بهو «قصر دام». اندفعت كيرا نحو الخريطة المنحوتة على الأرض التي تمثل قبة السماء، ثم قامت بدوران بطيء بعكس اتجاه عقربي الساعة. وبعد أن أتمت نصف دائرة جمدت مكانها. فجأة ارتفع قسمها الوسطي بضعة سنتيمترات فوق

البلاطة، فأدخلت كيرا يدها في الفجوة البارزة وأخرجت منها القطعة الثالثة الشبيهة بالقطعتين اللتين في حوزتنا.

قال الرجل ذو البدلة الداكنة: أتوسل إليكم بضرورة إعادة الوضع إلى سابق عهده فإذا اكتُشفت القاعة غداً، عند فتح أبواب القصر، في هذه الحال من الفوضى، سيكون الأمر مأسوياً بالنسبة إلي!

لكن دليلنا لم يضطرب باله طويلاً. فما إن أنهى كلامه حتى هبط غطاء هذه الفجوة السرية إلى موقعه ثانية. ومضت الخريطة تدور في الاتجاه المعاكس لتتخذ وضعيتها الأصلية.

ـ والآن، قال إيفوري، أين القطعة الرابعة التي أتيتما بها من روسيا؟

تبادلنا أنا وكيرا النظرات، وكنا كلانا في غاية الارتباك.

ألحّ الرجل ذو البدلة الداكنة: لا أريد أن أعكر صفو فرحتكم، ولكن ماذا لو استطعتم مناقشة كل هذه الأمور خارج حرم القصر، فهذا يلائمني جداً. كما علي الذهاب لإغلاق مكتب السيد فاكيرز لأن دورية الحرس ستبدأ عما قليل، ولا بد في الحقيقة من أن تنصرفوا.

ـ إنه على حق، دعونا نخرج من هنا، أمامنا الليل

بطوله للنقاش.

طلب منا إيفوري، لدى عودتنا إلى «فندق كرسنابولسكي»، أن نتّبع خطاه حتى الوصول إلى غرفته.

قال، وهو يغلق الباب: لقد كذبتَ علي؟ أوه، أرجوك لا تعتبرني أبله. فأنا رأيت قبل قليل ما كانت عليه سيماؤكما من الخيبة والعجز. إنكما لم تتمكنا من إحضار القطعة الرابعة من روسيا.

قلت، وقد انتابني الغضب: لا، في الحقيقة. غير أننا كنا، مع ذلك، نعلم أين هي، وكنا حتى على مسافة أمتار منها، لكن بما أن أحداً لم يخطرنا بما كان يتربص بنا، وبما أنك تحاشيت فعلاً تحذيرنا من ضراوة الذين تعقبونا منذ انطلاقنا في أثر هذه القطع، فقد كدنا نتعرض للقتل، وفوق ذلك لا تريد منا أن نقدم لك اعتذارنا!

ـ أنتما كلاكما عديما المسؤولية! إذ اضطررتماني، بمجيئكما هنا، إلى تحريك بيدق ما كان ليتقدم إلا في نهاية المطاف. أو تعتقدان أن زيارتنا ستمر من دون أن ينتبه إليها أحد؟ إن الحاسوب الذي ولجنا فيه ينتمي إلى شبكة من أكثر الشبكات تطوراً. في الوقت الراهن، أبلغ عشرات المعلوماتيين مسؤولي فروعهم أن جهاز فاكيرز قد اشتغل وحده وسط الليل، وأشك أن يقبل أحدهم بتصديق شبحه!

صرختُ في وجه إيفوري: تباً لك، من هم هؤلاء الناس؟

تدخّلت كيرا: هدّئا من روعكما، ليس الأوان تصفية حساباتكما. صراخكما لن يفيدنا في شيء. نحن لم نكذب عليك تماماً، فأنا من أقنع أدريان بتدبير هذه الحيلة لك، على أمل أن ثلاث قطع ستكشف لنا العديد من الأمور للتقدم في أبحاثنا، لذا بدلاً من أن تتشاجرا، ما رأيكما في جمعها معاً؟

نزعت كيرا قلادتها وتناولتُ أنا القطعة الموجودة في جيبي، بسطت المنديل الذي كنت حفظتها فيه وجمعناهما مع القطعة التي عثرنا عليها تحت بلاطة قصر دام.

كانت بالنسبة إلينا خيبة أمل كبيرة، إذ لا شيء حدث إطلاقاً. فالنور الضارب قليلاً إلى الزرقة لم ينبثق منها. والأنكى من ذلك أن التجاذب المغناطيسي الذي كان حتى ذلك الحين يقرّب بين العنصرين الأولين، بدا كأنه اختفى أثره، وما بقيت متلاحمة في ما يبنها. كانت الأدوات خامدة هامدة.

دمدم إيفوري: ها قد حققنا تقدماً ملموساً!

فيما سألت كيرا: كيف يمكن ذلك؟

أجبت: أظن أننا من فرط استعمالها، انتهى بنا الأمر إلى استنزاف الطاقة في داخلها.

انزوى إيفوري في غرفته صافقاً الباب وراءه، وقد تركنا وحدنا في قاعة الاستقبال الصغيرة.

التقطت كيرا القطع واقتادتني خارج الجناح، قائلة في الممشى:

ــ أنا جائعة، أنقصد مطعماً لنأكل أو نطلب الخدمة في الفندق؟

أجبتها دون تردد: الخدمة في الفندق.

كانت كيرا تروّح عن نفسها في الاستحمام، فيما كنت أنا رتبتُ القطع فوق مكتب غرفتنا الصغير ورحت أمعن النظر فيها طارحاً على نفسي العديد من الأسئلة. هل ينبغي تعريضها لمصدر نور ساطع لإعادة تعبئتها من جديد؟ أي طاقة قادرة على تزويدها ثانية بالقوة التي كانت تجتذب الواحدة باتجاه الأخرى؟ شعرت بالفعل أن شيئاً ما يغرب عن تفكيري المنطقي. تفحصتُ عن كثب القطعة التي اكتشفناها للتو، كان شكلها المثلثي شبيهاً بالقطعتين الأخريين، وسماكتها مماثلة تمام المماثلة. قلّبت المادة في يدي وإذ بتفصيل عليها استرعى انتباهي. كان ثمة حزّ في

محيطها كأنه ثلم مرسوم، نوع من فُرضة أفقية ودائرية. من غير الممكن أن يكون الانتظام عرضياً. قرّبت القطع الثلاث فوق الطاولة وتفحصتُ من مسافة أقرب المقطع. كان حزّها يتواصل بصورة كاملة. عندها خطرت ببالي فكرة، ففتحت درج المكتب ووجدت فيه ما كنت أبحث عنه؛ قلماً أسود وإضمامة ورق. نزعت ورقة منها، ووضعت عليها قطعي جامعاً بينها. ثم شرعت تتبع حافتها الخارجية بقلم رصاص. حين رفعتُ القطع ونظرت إلى الرسم المخطوط على الورقة، اكتشفت ثلاثة أرباع محيط دائرة كاملة.

اندفعت مسرعاً إلى غرفة الحمام.

ــ إرتدي لباس الحمام والحقي بي.

سألت كيرا: ما الأمر؟

ــ هيا اسرعي.

وصلت بعد لحظات قليلة ومنشفة تحيط بخصرها، وأخرى تلّف شعرها.

قلتُ لها، عارضاً عليها رسمي: انظري!

ــ بالكاد توصلت إلى رسم دائرة، إنه لشيء رائع،

ألهذا حملتني على الخروج من الحمام؟

أخذت القطع ووضعتها في مكانها على الورقة.

ــ ألا ترين شيئاً؟

ــ بلى تنقصها دائماً قطعة واحدة!

ــ إنها تشكّل الآن معلومة بالغة الأهمية! حتى هذه الآونة، لم نعرف البتة من كم قطعة تتألف هذه الخريطة، لكننا إذا ألقينا نظرة على هذه الورقة يبدو أن المسألة واضحة جداً، على ما بيّنت أنت بنفسك، إذ لا تنقصها إلا قطعة واحدة لا قطعتان كما افترضنا ذلك لزمن طويل.

ــ لكن هناك، مع ذلك، قطعة ناقصة، أدريان، ولم تعد للقطع التي نملكها أي قوة، هل أستطيع إذاً العودة إلى حمامي قبل أن يبرد الماء؟

ــ ألا ترين شيئاً آخر؟

ــ هل تستمر مطولاً في لعبة الألغاز؟ كلا، لا أرى إلا جرة قلم، أخبرني إذاً بما خفي عن ذكائي الذي يظهر بوضوح أنه دون مستوى ذكائك!

ــ المهم في محلّقة (آلة فلكية قديمة) ليس في الواقع ما تبينه لنا بل ما لا تبينه، ونكتشفه بالرغم من ذلك!

ــ وماذا يعني هذا بالفرنسية؟

ــ إن لم تعد المواد تتفاعل، فهذا يعني أنه ينقصها موصِّل، القطعة الخامسة من اللغز! كانت هذه القطع مرصوصة بحلقة أو بسلك يفترض أنه ناقل للتيار.

ــ ولكن لماذا كانت القطعتان الأوليان تضيئان من قبل؟

ــ لأنهما جمعتا الطاقة بفضل الصاعقة، ولكثرة ما جمعناهما معاً، استنزفنا احتياطيهما. إن اشتغالهما بدائي يخضع لمبدأ ينطبق على كل نوع من أنواع التيار، عبر تبادل ايونات موجبة وايونات سالبة لا بد أن تتمكن من الجريان.

قالت كيرا، وهي تجلس بجانبي: ينبغي أن تنوّرني أكثر قليلاً، فأنا لا أعرف حتى تغيير مصباح إنارة.

ــ التيار الكهربائي هو انتقال الكترونات وسط مادة موصلة، من التيار الأقوى إلى ذلك الأدنى قوة، مثل الذي يسري في جهازك العصبي، إذ ليس كل شيء سوى انتقال. وإذا كانت ثمة مواد لم تعد تتفاعل، فذلك لأن هذا الموصل الشهير غائب. والموصل هو بالضبط القطعة الخامسة الناقصة التي حدثتك عنها، حلقة كان لا بد أن تحيط بالمادة عندما كانت في هيئَتها الكاملة. أما الذين فصلوا قطعها فقد

اضطروا إلى تحطيمها. إذاً يجب إيجاد وسيلة لصنع حلقة جديدة، بحيث يمكنها أن تتلاءم مع محيط القطع، حينذاك سأكون متأكداً من أنها ستستعيد مجدداً قدرتها على الإضاءة.

ــ وأين تُصنَع حلقتك هذه؟

ــ عند مصلح محلقات! وقد تم صنع أجملها في «آنفير» وأنا أعرف شخصاً في باريس يمكنه أن يعلمنا ذلك.

سألتني كيرا: هل نتحدث في هذا الخصوص إلى إيفوري؟

ــ بلا تردد، إذ لا ينبغي خاصة قطع الصلة بشخص رافقنا إلى «قصر دام»، وباستطاعته أن يؤدي لنا خدمات جلّى، فأنا لا أتكلم كلمة واحدة هولندية!

كان لا بد من إقناع كيرا بمحاولة القيام بالخطوة الأولى. فاتصلت بإيفوري معلنة له أن لدينا شيئاً مثيراً ومهماً نكشفه له. كان الأستاذ العجوز قد أوى إلى فراشه، لكنه قَبِل أن ينهض راجياً إيانا اللحاق به في جناحه.

عرضتُ عليه تفكيري، فكان من نتيجة ذلك أنه بدّد على الأقل مزاجه السيئ. وفضّل أن أتجنب استدعاء تاجر

عاديات منطقة الـ «ماريه» الذي سبق وفكرت فيه. كان الوقت يزحمنا وهو في خشية من أن تتكرر متاعبنا مجدداً بأسرع ما يمكن. وقد قبل إيجاباً فكرة الذهاب إلى «آنفير»، فكلما أسرعنا في العمل بتنا في أمان. فاتصل في عزّ الليل بأمين سر فاكيرز وطلب منه أن يجد لنا الحرفي القادر على إصلاح آلة فلكية قديمة جداً. وعد أمين سر فاكيرز بإجراء تحريات واقترح الاتصال بنا في الغد.

سألت كيرا: لا أريد أن أكون متطفلة، ولكن هل لهذا الشخص اسم وكنية؟ إذا كان علينا أن نلتقيه غداً أود فعلاً أن أعرف إلى من أتوجه.

ـ اكتفيا الآن بندائه «ويم». وبعد أيام سيدعى على الأرجح «أمستردام»، ولكن بإمكاننا بعد من الاعتماد عليه.

التقينا في اليوم الثاني من كان ينبغي إذاً أن ندعوه «ويم». كان يرتدي البدلة نفسها وربطة العنق ذاتها كما في البارحة. وبينما كنا نحتسي القهوة في الفندق، أعلمنا أنه لا حاجة بنا إلى التوجه إلى «آنفير». ففي أمستردام مشغل قديم للساعات، اشتهر صاحبه بأنه متحدر مباشرة من ذرية «ايراسموس هابرميل».

سألت كيرا: ومن يكون ايراسموس هابرميل هذا؟

أجاب إيفوري: أشهر صانع آلات علمية في القرن السادس عشر.

سألته بدوري: وكيف تعرف ذلك؟

ــ أنا أستاذ، إن كان فاتكم ذلك، واسمحوا لي بأن أقول إني مثقف.

أردفت كيرا: أنا سعيدة لمقاربتك هذا الموضوع، ولكن كنتَ أستاذ أي مادة بالضبط؟ فقد طرحنا، أنا وأدريان، المسألة على نفسينا.

ــ إني لسعيد أن أعلم أن مهنتي تستأثر باهتمامكما، ولكن قولا لي هل نحن جادون في البحث عن مصلّح لآلات فلكية قديمة أم تفضلان تمضية النهار حول سيرتي الذاتية؟ حسناً... ماذا كنا نقول إذاً في موضوع ايراسموس هابرميل؟ بما إن أدريانٍ يبدو منذهلاً من سعة علمي، فلندعه يتكلم، وسنرى فعلاً إن كان يجيد أمثولته!

تابعتُ كلامي، مطلقاً نظرة نارية إلى إيفوري: إن الآلات المصنوعة في مصانع «هابرميل» تظلّ منقطعة النظير إن من حيث نوعية صنعها وإن من حيث جمالها. والمحلَّقة الوحيدة التي عثر عليها ونُسبت إليها هي الآن في باريس ضمن مجموعات المجلس الوطني، ما لم أكن مخطئاً. وكان

يُفترض أن يكون «هابرميل» على صلة وثيقة بكبار فلكيي عصره، ومنهم «تيشو براهيه» ومساعده «يوهانس كيلر»، كما الساعاتي السويسري الكبير «جوست برجي». ويقال إنه اشتغل كذلك مع «كوالتيروس أرسانيوس» الذي كان مشغله يقوم في «لوثان». وقد لاذا بالفرار من المدينة معاً إبان وباء الطاعون الأسود الكبير في 1580. إن التشابه في طرق الصناعة بين آلات «هابرميل وأرسانيوس» واضحة جلية بحيث أن...

قاطعني إيفوري بجفاء: حسناً، لم يرتكب التلميذ أدريان أي خطأ، لكننا مع ذلك لسنا هنا لنسمعه يعرض علينا علمه. ما يهمنا هو هذا الارتباط الوثيق بين هابرميل وأرسانيوس. استطعت إذاً أن أعرف بفضل ويم أن أحد المتحدرين مباشرة من صلبه يقيم بالضبط في أمستردام. لذا أقترح عليكما، إن لم تريا عائقاً في ذلك، أن نقفل حجرة الصف قاصدين زيارته على جناح السرعة. هيا فتّشا عن معطفيكما ودعونا نلتقي في القاعة في غضون عشر دقائق!

تركنا أنا وكيرا إيفوري للالتحاق بغرفتنا. في المصعد سألتني كيرا:

ــ كيف كنت على علم بكل ذلك في شأن هابرميل؟

ــ لقد درستُ بجد كتاباً اشتريته من أحد تجار العاديات في منطقة الــ «ماريه».

ــ ومتى كان ذلك؟

ــ يوم تركتني بكل لباقتك لتمضية السهرة مع عزيزك ماكس ونمت أنا في الفندق، هل تذكرين؟ فأمضيت الليل بأسره وأنا أقرأه!

أوصلتنا سيارة تاكسي نحن الأربعة إلى زقاق من أزقة المدينة القديمة. كان في مؤخر طريق غير نافذ مخزن للساعات... وكانت نافذة زجاج كبيرة تحيط بالمشغل. استطعنا، من خلال الباحة، أن نشاهد رجلاً مسناً منحنياً في محترفه يهمّ بإصلاح ساعة دقّاقة. كانت الآلية التي يجمعها بدقة متناهية تتألف من مجموعة مؤثرة من القطع الصغيرة جداً، والمرتبة ترتيباً تاماً أمامه. عندما دفعنا الباب رنّ جرس صغير، فرفع الرجل رأسه. كان يحمل نظارتين مذهلتين تضخّمان عينيه وتضفيان عليه هيئة حيوان غريب. كان المكان تفوح منه رائحة خشب عتيق وغبار.

سألنا: كيف لي أن أخدمكم؟

شرح ويم أننا نحاول تصنيع قطعة لإكمال جهاز قديم

جداً.

سأل الرجل، خالعاً نظارتيه الغريبتين: وأي نوع من القطع؟

أجبت: طوق من شُبُهان أو نحاس.

استدار الرجل ناحيتي وتوجه إلي بلغة إنكليزية مشوبة بنبرة ألمانية:

ــ ما قطره؟

ــ لا يسعني أن أجيبك بدقة؟

ــ هل يمكنك أن تريني هذا الجهاز القديم الذي تتمنى إصلاحه؟

تقدمت كيرا صوب المحرقة، فرفع الرجل ذراعيه إلى السماء هاتفاً:

ــ ليس من تلك الناحية، أيتها المنكودة، إنك ستخلّين بترتيب الأمور كلها، اتبعيني إلى جوار هذه الطاولة، من هنا، قال مشيراً إلى وسط المشغل.

لم أرَ قط عدداً هائلاً من الآلات الفلكية. لربما كان تاجر العاديات في الــ «ماريه» شحب لونه من الحسد. كانت

ثمة اسطرلابات، محلَّقات، مزوايات (آلات لقياس الزوايا) وسدسيات (آلات بصرية لمعرفة خطوط الطول والعرض وبُعد الكواكب)، مستقرة على الرفوف في انتظار استعادة شبابها الغابر.

وضعت كيرا القطع الثلاث فوق الطاولة التي أشار إليها الحرفي العجوز، ثم جمعتها مبتعدة مسافة خطوة.

قال العجوز: يا له من جهاز قديم! ما الفائدة منه؟

قلت، متقدماً نحوه: إنه نوع من الأسطرلاب.

ــ بهذا اللون وبهذه المادة؟ ما رأيت مثله قط. قد يقال إنه من الجزع (ضرْب من العقيق)، لكنه ليس منه ظاهرياً. من قام بصنعه؟

ــ لا ندري صانعه.

ــ إنكم زبائن غرباء، لا تعرفون من صنعه ولا تعرفون مما هو مصنوع، وتجهلون حتى وجه استعماله، لكنكم تريدون إصلاحه... كيف السبيل إلى إصلاح شيء إذا كان المرء لا يعلم طريقة عمله؟

قالت كيرا: نريد إكماله وأنت إن نظرت إليه عن قرب فستلاحظ أن هناك حزّاً على مقطع كل قطعة منه، نحن

واثقون أن طوقاً كان يدخل فيه، والأرجح سبيكة موصّلة كانت ترص مجمله.

قال الرجل، الذي بدا فضولياً جداً: لربما، دعونا نرى، دعونا نرى. ردّد رافعاً رأسه.

كان عدد كبير من الآلات يتأرجح على أطراف خيطان طويلة معلّقة في أعلى السقف.

ــ ما عدتُ أعرف أين أضع الأشياء هنا، لا بد إذاً من التجديد، ها هو بالضبط ما كنت أبحث عنه!

تناول الحرفي فرجاراً طويلاً ذا ساقين دقيقتين متصلتين بواسطة قوس مرقّمة. وضع نظارتيه ثانية وانحنى مجدداً على قطعنا قائلاً:

ــ كم هو مسلٍّ!

سألت كيرا: ماذا إذاً؟

قطره 3.14775.

سألت كيرا: ما هو الشيء المسلّي فيه إلى هذه الدرجة؟

إنها بالضبط قيمة الــ (بي اليونانية) مضروبة بعشرة. سأل الساعاتي العجوز: إن الــ (بي اليونانية) عدد خارق،

أكنتم تجهلون هذا الأمر؟ إنها النسبة الثابتة بين الدائرة ونصف قطرها، أو، إذا شئتم، بين مساحة دائرة وقطرها.

أقرّت كيرا: اضطررتُ أن أتغيب عن الدروس يوم علّمونا ذلك.

قال الساعاتي: ليس الأمر بخطير جداً، لكني لم أرَ قط آلة تبلغ هذا القطر بالضبط. إنه لشيء بارع. أليست لديكم أي فكرة عن فائدتها؟

ــ كلا، أجبت رغبة مني في لجم وَثبات الصدق التي عودتني عليها كيرا.

ــ إن صنع طوق ليس بالأمر المعقد، عليّ التمكن من إنجاز هذا العمل لنقل مقابل مائتي فلورين (وحدة النقد في هولندا)، أي ما يعادل...

فتح الرجل دُرجاً وأخرج آلة حاسبة.

ــ ... تسعون أورو، المعذرة لا أتوصل دوماً إلى التعود على هذه العملة الجديدة.

سألته: ومتى يكون جاهزاً؟

ــ يجب أن أنتهي من تركيب الساعة التي كنت أعمل عليها عند وصولكم. ينبغي أن تجد مكانها ثانية في واجهة

كنيسة، وكاهن الطائفة يتصل بي يومياً ليعلم أين وصلت. كما عندي ثلاث ساعات قديمة لا بد من إصلاحها، أستطيع أن أعكف على مادتكم آخر الشهر. أيوافقكم هذا؟

قال إيفوري: ألف فلورين إن عكفت على العمل فوراً!

سأل الحرفي: هل أنت على عجل إلى هذا الحد؟

أجاب إيفوري: أكثر مما تتصور، وإني لأضاعف المبلغ إذا أُنجز الطوق هذا المساء!

ردّ الساعاتي: لا، تكفيني الألف فلورين وزيادة، ثم إني متأخر في شغلي بحيث أن يوماً زائداً أو يوماً ناقصاً... عودوا إلي في السادسة مساء.

ــ نفضل الانتظار هنا، هل ترى مانعاً لذلك؟

ــ لعمري، إن لم تزعجوني في عملي، لِمَ لا؟ ثم إن قليلاً من الرفقة لا يعود عليّ بضرر.

باشر الحرفي العجوز العمل لتوه. فتح أدراجه واحداً تلو الآخر واختار قضيباً من الشبهان (نحاس أصفر) بدا أنه يناسبه، تفحّصه ملياً، قارن عرضه بسماكة مقطع القطع وأخبرنا أنه سيفي بالغرض. وضع القضيب فوق محرفته وبدأ العمل عليه. وحفر مستعيناً بدحروجة ثلماً

على أحد الوجهين، ولما قلّب القضيب عرض علينا الحزّ الذي تشكّل من الجهة الأخرى. لقد كنا ثلاثتنا مذهولين ببراعته. تحقق الحرفي من أنه يتلاءم تمام الملاءمة مع حزّ القطع، ومرّ ثانية بالدحروجة ذهاباً وإياباً ليعمّق خطه، وانتزع مقياساً متدلياً في طرف سلسلة. ثم شرع، بالاستعانة بمطرقة صغيرة جداً، يلوي قضيب الشُبُهان حول المحيط.

سألت كيرا: هل أنت، في الحقيقة، حفيد هابرميل؟

رفع الرجل رأسه وابتسم لكيرا متسائلاً: هل يبدل ذلك شيئاً؟

ــ كلا، لكن جميع هذه الآلات القديمة في مشغلك...

ــ عليك أن تدعيني أشتغل إن شئت أن أفرغ من تثبيت طوقكم. وسيكون لدينا متسع من الوقتَ للكلام على أسلافي في ما بعد.

انتحينا جانباً من غير أن ننبس بكلمة، مكتفين بمراقبة هذا الحرفي الذي كانت مهارته مثار إعجابنا. مكث طيلة ساعتين منحنياً على محرفته، فيما كانت الآلات تتحرك بين يديه بالكثير من الدقة كأنها آلة جراحة. وبغتة أدار الحرفي كرسيه واستدار ناحيتنا.

قال: أعتقد أننا بلغنا النهاية. هل تريدون أن تقتربوا؟

انحنينا على محرفته، كانت الدائرة كاملة، فصقلها بفرشاة معدنية، كانت مخرطة مزوّدة بمحرك صغير يحركها ثم جففها بخرقة ناعمة.

قال، ملتقطاً القطعة الأولى: لنرَ إن كانت موادنا تتلاءم معها. ثم وضع القطعة الثانية في مكانها، وأخيرا الثالثة.

ــ بطبيعة الحال، تنقص قطعة واحدة، لكني ضغطت بشكل كاف على عملية التطويق، كي تظل هذه القطع الثلاث متماسكة، بشرط عدم التصرف بها بخشونة بكل تأكيد.

أجبته، وأنا يصعب علي إخفاء خيبتي: أجل، تنقصها قطعة.

وخلافاً لما كنت آمله، لم تحدث أي ظاهرة كهربائية.

أردف الحرفيٍ: يا للأسف، لوددت في الحقيقة لو أرى هذا الجهاز كاملاً، إنه فعلاً ضرب من الأسطرلاب، أليس كذلك؟

أجاب إيفوري، وهو يكذب بطريقة وقحة: إنه لكذلك تماماً.

وضع الأستاذ العجوز خمسمائة أورو فوق محرفته شاكراً إياه.

سأل الحرفي: من هو الذي صنعه، بحسب رأيك؟ لا أذكر أني رأيت مثيلاً له.

أجاب إيفوري: لقد قمت بعمل رائع، لك يدان من ذهب، ولن أغفل عن التوصية بك لدى أصدقائي الذين قد تكون عندهم بعض المواد الثمينة الواجب إصلاحها.

أجاب الحرفي، وهو يشيّعنا إلى باب مشغله: ما لم يكونوا نافذي الصبر مثلك، سيأتون على الرحب والسعة.

عندما أصبحنا في الشارع، خاطبنا إيفوري قائلاً: والآن، هل لديكما فكرة أخرى لإنفاق أموالي؟ لم أرَ شيئاً خارقاً بالفعل حتى الآن!

أعلنت له: إننا بحاجة إلى ليزر، ليزر قوي كفاية في وسعه أن يحمل معه طاقة كافية لشحن مجموعة القطع ثم سنحصل على عرض جديد للخريطة. من يدري ما إذا كان الذي سيظهر عبر القطعة الثالثة لن يكشف لنا شيئاً مهماً.

سأل إيفوري، مغتاظاً: ليزر ذو طاقة قوية... وليس شيئاً آخر، أين تريد أن نعثر عليه؟

ويم، الذي لم ينبس بحرف واحد طيلة بعد الظهر، خطا خطوة إلى الأمام.

ــ هنالك جهاز واحد في «جامعة فريج»، في «جامعة فريج» لليزر، تتقاسمه دوائر الفيزياء والكيمياء والفلك.

سأل إيفوري: مركز جامعة فريج لليزر؟

أجاب ويم: أجل، لقد أنشأه الأستاذ «هوغر فورست». أكملت دراستي في تلك الكلية وعرفت «هوغر فروست» تمام المعرفة. لقد أُحيل على التقاعد، ولكن أستطيع الاتصال به والطلب إليه لكي يتدخل في صالحنا حتى نتمكن من الولوج إلى منشآت حرم الجامعة.

سأل إيفوري: حسناً، ماذا ننتظر إذاً؟

تناول ويم دفتراً صغيراً من جيبه وقلّب صفحاته بعصبية.

ــ لا أملك رقمه، لكني سأتصل بالجامعة، وأنا على يقين من أنهم يعرفون كيفية الاتصال به.

بقي ويم نصف ساعة على الهاتف، أجرى العديد من المخابرات بحثاً عن الأستاذ هوغر فورست، غير أنه عاد أدراجه نحونا ممتقع الوجه.

ـــ وفُّقت في الحصول على رقم منزله ولم يكن ذلك بالأمر اليسير، لكن للأسف ما استطاع مساعده أن يصلني به، لأن هوغر فورست في الأرجنتين وقد دعي للمشاركة في مؤتمر ولن يرجع إلا في مطلع الأسبوع القادم.

ما كُتب له النجاح ذات مرة تتوافر له كل أسباب النجاح مرة ثانية. تذكّرت حيلة والتر عندما أردنا الوصول إلى معدات من النوع ذاته في كريت. كان قد تشّفع بتوصية الأكاديمية. تناولت هاتف إيفوري الخلوي واتصلت بصديقي على الفور. حيّاني بصوت حزين، فسألته:

ـــ ماذا يحدث؟

ـــ لا شيء!

ـــ بلى، أسمع بالفعل شيئاً غير سوي، والتر، ما الأمر؟

قلت لك: لا شيء.

ـــ أسمح لنفسي بالإصرار، فأنت منحرف المزاج.

ـــ هل تتصل بي لتحدّثني عن أواني المائدة؟

ـــ والتر، لا تتظاهر بالسذاجة، فأنت لست في حالتك الطبيعية. هل شربت؟

ـ وماذا بعد، لي الحق في عمل ما أشاء، أليس كذلك؟

ـ ما زالت الساعة السابعة مساء، أين أنت؟

ـ في مكتبي!

ـ وأفرطتَ في الشراب داخل مكتبك؟

ـ لم أفرط في الشراب، إنما أنا نشوان قليلاً، أوه! ثم لا تباشر بدروسك الأخلاقية، لست في وضع يؤهلني لسماعها.

ـ ما كنت أنوي أن أعظك مؤنباً، ولن أنهي المكالمة قبل أن تشرح لي ما يزعجك.

ساد الصمت، سمعت تنفس والتر عبر الجهاز وأحسست فجأة بنشيج مخفوق.

ـ والتر، هل تبكي؟

ـ وما أهمية ذلك بالنسبة إليك؟ لوددت لو أني لم أقابلك البتة.

كنت أجهل السبب الذي دفع بوالتر إلى مثل هذه الحالة، لكن ملاحظته أثّرت فيّ تأثيراً عميقاً. صمت جديد، نشيج جديد. هذه المرة، تمخط والتر بصخب.

ــ آسف، لم يكن ذلك ما كنت أريد قوله.

ــ لكنك قلته. وماذا فعلت بك لتحقد عليّ إلى هذه الدرجة؟

ــ أنت، أنت، أنت، لا وجود لك إلا لنفسك! والتر هنا، والتر هناك، لأني واثق من أنك إذا اتصلت بي هاتفياً فذلك لأنك بحاجة إلى خدمة. لا تقل لي إنك كنت تريد الاطلاع على أخباري وحسب؟

ــ هذا ما أحاول، بالرغم من ذلك، القيام به سدى، مذ بدأت هذه المحادثة بيننا.

صمت ثالث، كان والتر يفكر ملياً، ثم أطلق تنهيدة:

ــ هذا صحيح.

ــ هل تخبرني بما يؤثر فيك إلى هذا الحد؟

عيل صبر إيفوري، فراح يومئ إلي بحركات واسعة. ابتعدت عنه تاركاً إياه برفقة كيرا وويم.

أسرّ إلي والتر وقد تجدد نشيجه: قفلت خالتك راجعة إلى هيدرا، ولم أشعر قط بمثل هذه الوحدة طيلة حياتي.

سألته، آملاً أن يكون الأمر على هذا النحو: هل انقضت

نهاية أسبوعك على ما يرام؟

ــ أحسن من ذلك أيضاً، إذ كانت كل لحظة مفعمة بالغزل، وساد بيننا وئام تام.

ــ عليك إذاً أن تكون في منتهى السعادة، إني لا إفهم ما بك.

ــ أنا مشتاق إليها، أدريان، لا تتصور كم أنا مشتاق إليها، ما عشت أوقاتاً مماثلة من قبل. كانت حياتي العاطفية، حتى لقائي إيلينا، صحراء تتناثر فيها بعض الواحات التي تبين أنها محض سراب، لكن معها كان كل شيء حقيقياً، كان كل شيء موجوداً.

ــ أعدك بألا أكرر على مسمع إيلينا أنك تشبّهها ببستان نخيل. سيظل ذلك طي الكتمان بيننا.

دفعت هذه الدعابة صديقي إلى التبسم، وأحسست أن مزاجه قد تغير.

ــ متى ينبغي أن تلتقيا؟

ــ لم نحدد تاريخاً ما، فخالتك كانت مضطربة اضطراباً مريعاً حين أوصلتها ثانية إلى المطار. أظن أنها كانت تبكي على امتداد الطريق وأنت تفهم حياءها، ونظرت إلى

المشهد خلال المسار كله. مع ذلك، أدركت فعلاً أن قلبها كان مفعماً غمّاً.

ــ ولم تحدد موعداً للقائكما من جديد؟

ــ لا، قبل أن تستقل الطائرة قالت لي إن قصتنا ليست معقولة. وأضافت أن حياتها هي في هيدرا بجوار أمك، حيث لها تجارتها، أما أنا فحياتي في لندن، في هذا المكتب المشؤوم التابع للأكاديمية. إذاً، تفصلنا ألفان وخمسمائة كيلومتر.

ــ هيا، والتر، وكنتَ تعاملني معاملة إنسان غير حاذق! لم تفهم إذاً ما يعنيه كلامها؟

قال والتر، وقد انتابه النشيج: إنها تفضّل وضع نهاية لحكايتنا ولعدم رؤيتي أبداً.

تركتُ العاصفة تمضي وانتظرت أن يهدأ روعه لأواصل حديثي معه. واضطررت أن أصرخ تقريباً في الجهاز علّه يسمعني، فقلت: لا إطلاقاً!

ــ كيف ذلك، لا إطلاقاً؟

ــ إنه نقيض ذلك تماماً. كانت هذه الكلمات تعني «هيا، أسرع في اللحاق بي إلى جزيرتي، سوف أترصّدك كل

صباح عند وصول أول سفينة إلى المرفأ».

صمت رابع، إن صحّت حساباتي.

سأل والتر: هل أنت متأكد من ذلك؟

ــ متأكد.

ــ كيف ذلك؟

ــ إنها خالتي وليست خالتك أنت، على ما أعلم!

ــ الحمد لله! حتى لو كنت مفعماً بالحب، لن أستطيع أبداً مغازلة خالتي، سيُعدّ ذلك عملاً فاحشاً كل الفحش.

ــ هذا غنّي عن القول!

ــ أدريان، ماذا ينبغي أن أفعل؟

ــ بع سيارتك واشترِ بطاقة سفر بالطائرة إلى هيدرا!

هتف والتر وقد استرد الصوت الذي أعهده به: يا لها من فكرة عبقرية!

ــ شكراً، والتر.

ــ أنهي المكالمة عائداً إلى بيتي، وآوي إلى فراشي معيّراً المنبه على الساعة السابعة، وغداً أتوجه إلى

صاحب مرآب، وبعد ذلك توّاً إلى وكالة سفريات.

ــ قبل هذا، لا بد من معروف صغير أطلبه منك، يا والتر.

ــ أطلب كل ما تشاء.

ــ هل تذكر هربنا القصير في كريت.

ــ تتكلم إن كنتُ أذكره، يا له من سباق جميل! عندما أعاود التفكير في ذلك ينتابني الضحك من جديد، لو رأيتَ وجهك حين صرعتُ بضربة واحدة ذلك الحارس...

ــ أنا في أمستردام، وأحتاج إلى الدخول إلى النوع ذاته من المنشآت التي في «كريت»، وما يهمني منها موجود في حرم «جامعة فريج». هل تعتقد أن في وسعك مساعدتي على الولوج إليه؟

صمت أخير... ما زال والتر مستغرقاً في التفكير.

ــ اطلبني ثانية خلال نصف ساعة، سأرى ما يسعني عمله.

عدت عند كيرا، فاقترح إيفوري علينا أن نذهب للعشاء في الفندق. شكر لــ ويم مساعدته لنا وأعفاه من السهرة. سألتني كيرا عن أخبار والتر، فأجبتها بأنه في حال جيدة،

لا بل جيدة جداً. أثناء الطعام، تركتهما لأصعد إلى غرفتنا. كان خط والتر مشغولاً، فعاودت الاتصال برقمه مرات عدة، أخيراً رفع السماعة:

ــ في التاسعة والنصف صــباح غد، أنت على موعــد مع الرقم 1081 لــ بيليلان في أمستردام. لا تتأخر عن الموعد. في وسعك استخدام الليزر خلال ساعة كاملة، لا دقيقة أكثر.

ــ كيف نجحت في اجتراح هذه الأعجوبة؟

ــ لن تصدقني!

ــ هيا، باشر الكلام!

ــ اتصلت بــ «جامعة فريج»، وطلبت الحديث إلى المسؤول الدائم معتبراً نفسي رئيس الأكاديمية. قلت له إني مضطر للكلام على وجه السرعة مع مديرهم العام. وليتصل به في منزله، وليطلبني هذا الأخير بأسرع وقت. وأعطيته رقم الأكاديمية بغية التحقق من أن الأمر لا يحتمل مزاحاً، ورقم مركزي كي يحظى بي مباشرة. ثم كانت البقية لعب أولاد صغار. بعد ربع ساعة، اتصل بي مدير «كلية أمستردام»، المدعو الأستاذ أوباخ. شكرته بحرارة على طلبه لي في هذه الساعة المتأخرة وأحطته علماً بأن

اثنين من ألمع علمائنا هما حالياً في هولندا، على وشك إعداد أعمال جديرة بجائزة نوبل، وأنهما يحتاجان إلى ليزره للتحقق من بعض المعالم المتغيرة القيّمة.

ــ وهل قَبِل استقبالنا؟

ــ أجل، وأضفت أن الأكاديمية ستضاعف، لقاء هذه الخدمة الصغيرة، حصة قبول الطلاب الهولنديين. لا تنسَ أنه، مع ذلك، كان يتوجه بكلامه إلى رئيس أكاديمية العلوم! لقد لهوتُ كثيراً!

ــ كيف السبيل إلى شكرك، والتر؟

ــ أشكرْ بشكل خاص زجاجة النبيذ التي أنزلتها هذا المساء، لولاها لما استطعت قط أن أؤدي دوري أداءً حسناً! أدريان، اعتنِ بنفسك وعد سريعاً، لقد اشتقت كثيراً إليك أيضاً.

ــ إن الشوق متبادل تماماً، يا والتر. وفي كل الأحوال، سألعب غداً ورقتي الأخيرة، فإذا لم يكتب النجاح لفكرتي فلن يبقى لنا خيار سوى التخلي عن كل الأمور.

ــ ليس هذا ما أتمناه لك، حتى ولو لا أخفي عليك أنه يتفق لي أن آمله.

بعد تعليق السماعة، رجعت أعلن النبأ السعيد لكيرا وإيفوري.

لندن

خرج آشتون من حول الطاولة لأخذ المكالمة التي جاء كبير خدمه يعلمه بها. اعتذر لضيوفه وانزوى في مكتبه.

سأل قائلاً: أين وصلنا؟

ـ إنهم ثلاثتهم يمضون السهرة سوياً في الفندق. عيّنت رجلاً يراقبهم، في حال خرجوا هذه الليلة، لكني أشك في ذلك. سأتعقبهم صباح غد وأتصل بك ما إن أعرف المزيد عنهم.

ـ لا تغفل بالأخص أمرهم.

ـ يمكنك الاعتماد عليّ.

ـ لست نادماً على تفضيل ترشيحك، لقد بلوت بلاءً حسناً خلال اليوم الأول لممارسة صلاحياتك.

ـ شكراً، سير آشتون.

ـ عفواً، أمستردام، أتمنى أن تمضي سهرة سعيدة.

أعاد آشتون الجهاز إلى قاعدته وأغلق باب مكتبه عائداً

إلى ضيوفه.

جامعة فريج، أمستردام

التقانا ويم من جديد أمام باب مركز الليزر بجامعة فريج في الساعة التاسعة وخمس وعشرين دقيقة. حتى لو كان جميع الناس هنا يتكلمون الإنكليزية بطلاقة، فإنه سيقوم لنا بوظيفة مترجم، إذا دعت الحاجة. لقد استقبلنا مدير جامعة الأبحاث شخصياً. وتولتني الدهشة في شأن الأستاذ أوباخ، الذي بدا أنه بالكاد في الأربعين من عمره. إن مصافحته الصادقة وبساطته جعلتاني أثق به على الفور. منذ بداية هذه المغامرة، لم تسنح لي الفرصة غالباً في لقاء شخص يتميز بالطيبة، فقرّرت أن أسرّ له بالهدف من الاختبارات التي آمل إجراءها بفضل منشآته. شرحت له بدون مواربة كيف كنت أتمنى مباشرة العمل لبلوغ النتيجة المرجوة.

سألني مذهولاً: هل أنت جاد في عملك؟ لو لم يوصني خيراً رئيس أكاديميتك شخصياً، لتوجب عليّ أن أعترف لك بأني كنت حسبتك إنساناً مستنيراً. ولئن تحقق ما تقوله، عندها أدرك بصورة أفضل لماذا حدثني عن جائزة نوبل! اتبعني، فالليزر الخاص بنا قائم في مؤخر البناء.

نظرت إلي كيرا نظرة حائرة، فأومأت إليها بألا تنبس بكلمة. وسلكنا ممراً طويلاً، كان المدير يتنقل في جامعته

من دون أن يسترعي انتباهاً خاصاً بين الباحثين والطلبة الذين يلاقونه.

قال لنا، وهو يطبع رمز الولوج على حلقة للمفاتيح كائنة على مقربة من باب مزدوج: هذا هو المكان. وأنا أفضّل، مع الأخذ بعين الاعتبار ما رويته لي تواً، أن نعمل كفريق محدود وأُشغّل الليزر أنا بنفسي.

كان المختبر ذا حداثة يثير الحسد لدى جميع مراكز الأبحاث الأوروبية، وكان الجهاز الموضوع تحت تصرفنا جباراً. فرحت أتخيل قدرته وأنا أنتظر بفارغ الصبر أن أراه يعمل.

كان قضيب من حديد يتمدد في محور قناة الليزر. ساعدتني كيرا على تثبيت الطوق الذي يحصر القطع فوق قطعة نحاسية.

سأل أوباخ: ما عرض الحزمة التي أنت في حاجة إليه؟

أجبته: مضروبة بعشرة.

انحنى الأستاذ على منضدته وأدخل القيمة التي قمت بتبليغه بها. كان إيفوري واقفاً بقربه. أخذ الليزر في الدوران ببطء.

ــ ما درجة الشدة المطلوبة؟

ــ أقصى ما يمكن من الشدة!

ــ إن مادتكم ستنصهر في طرفة عين، فأنا لا أعرف مادة قادرة على الصمود حيال شحنة قصوى.

ــ ثق بي!

وشوشتني كيرا: هل أنت مدرك ما تفعله؟

ــ آمل ذلك!

أمر أوباخ: سأطلب منك أن تأتي وتأخذ مكانك وراء زجاج الحماية.

بدأ الليزر يئز، وكانت الطاقة المنبعثة من الالكترونات تحفّز ذرات الغاز المحتواة داخل الأنبوب الزجاجي. وتفاعلت الضويآت (وحدة الكم الضوئي) برنينها مع المرآتين القائمتين في كل نهاية للأنبوب. واتسعت الآلية ولم يكن ما جرى سوى مسألة ثوانٍ قبل أن تصبح الحزمة قوية بحيث تخترق جدار المرآة الشفاف، وأخيراً ما عرفت إن كنت وقعت في خطأ.

سأل أوباخ، وقد نفد صبره: هل أنتم مستعدون؟

أجاب إيفوري: نعم، نحن أكثر استعداداً من أي وقت مضى. وأنت ليست لديك فكرة عن الزمن الذي انتظرناه لمشاهدة هذه اللحظة.

صرختُ: قف! هل عندك جهاز تصوير؟

أجاب أوباخ: عندنا ما هو أفضل بكثير، عندنا ست آلات تصوير تسجل على مائة وثمانين درجة ما يحدث أمام الليزر حالما يتم تشغيله. هل بإمكاننا الانطلاق؟

دفع أوباخ عتلة، فانبثقت من الجهاز حزمة ذات شدة خارقة صدمت القطع الثلاث مباشرة. بدأ الطوق ينصهر، واصطبغت القطع بلون أزرق أكثر سطوعاً مما شاهدناه أنا وكيرا حتى ذلك الحين. وأخذ سطحها يتلألأ، وكان إشعاعها الضوئي يزداد ثانية إثر ثانية، وفجأة انطبعت مليارات النقاط على الجدار قبالة الليزر. وأدرك كل من كان في المختبر اتساع قبة السماء غير المحدود الذي بهرنا.

مضى الكون البادي أمام أنظارنا ـ خلافاً للعرض الأول الذي شهدناه بأنفسنا ـ يدور بشكل لولبي منطوياً على ذاته. كذلك كانت القطع تدور فوق قاعدتها بأقصى سرعة داخل الحلقة.

همس أوباخ: إنه لأمر مدهش عجيب!

أجابه إيفوري، والدموع تترقرق في عينيه: إنه لأكثر من ذلك بكثير.

سأل مدير الجامعة: ما هذا الذي أراه؟

أجبته: إنه اكتشاف اللحظات الأولى للكون.

لم نكن قد بلغنا منتهى مفاجآتنا، إذ تضاعفت حدة القطع الضوئية، وما انفكت سرعة الدوران تزداد، وراحت قبة السماء تلتف حول نفسها فجمدت هنيهة، فيما كنت آمل أنها ستمضي إلى نهاية مسيرتها مطْلعة إيانا على صورة عن أول تلألؤ نجمة، والزمن الصفرِ الذي طالما توقعته، لكن ما شاهدته كان ذا طبيعة مختلفة، فالصورة المرتسمة تضخمت الآن بلمحة نظر. كانت بعض النجوم تختفي، كأنما تم إبعادها إلى جانبي الجدار كلما مضينا قدماً. وكان التأثير البصري أخّاذاً، إذ تكوّن لدينا انطباع بأننا نسافر عبر المجرات، ونقترب من إحداها، فعرفتها.

قلت لجيراني: لقد دخلنا في مجال درب تبانتنا، والسفر مستمر.

سألت كيرا مذهولة: إلى أين؟

ـــ لم أعد أدري شيئاً.

كانت القطع تدور على قاعدتها بسرعة أكبر دائماً، مطلقة صفيراً حاداً. وكانت النجمة التي يتركز عليها العرض تتضخم أيضاً وأيضاً. وظهرت شمسنا تحتل المركز، يليها عُطارد.

إن السرعة التي تطورت بها القطع كانت مؤثرة، والطوق الذي يحفظها قد انصهر منذ وقت طويل، لكن بدا أن لا شيء بإمكانه أن يفصلها عن بعض. وتغير لونها فمال من الأزرق إلى النيلي. وعاد نظري يستقر مجدداً على الجدار. كنا نتقدم بعزم نحو الأرض وقد تمكّنا الآن من التعرف إلى المحيطات وإلى ثلاث من قاراتها. تركز العرض على إفريقيا التي أخذت تتضخم بلمح البصر. وكان الهبوط ناحية شرق القارة الإفريقية مدوّخاً. وكان الضجيج المنبعث جراء دوران القطع لا يمكن احتماله. فسدّ إيفوري أذنيه، وأبقى أوباخ يديه فوق دعامة الجهاز وهو على أهبّة الاستعداد لوقف كل شيء. اختفت كينيا، أوغندا، السودان، إيريتريا والصومال من مجال رؤيتنا بينما كنا نتقدم باتجاه أثيوبيا. عندها تباطأ دوران القطع وازدادت الصورة وضوحاً.

توسل أوباخ، قائلاً: لا يسعني ترك الليزر يعمل بهذه القوة، يجب إيقافه!

زعقت كيرا، لا، أنظر!

ظهرت نقطة حمراء صغيرة جداً في وسط الصورة، كلما اقتربنا منها ازدادت حمرتها شدة.

فسألت: هل كل ما نشاهده يتم تصويره؟

أجاب أوباخ: كل شيء. هل باستطاعتي قطع البث.

رجت كيرا: انتظر بعد.

توقف الصفير وجمدت القطع، وأمست النقطة ذات الاحمرار الساطع ثابتة على الجدار. لم يطلب أوباخ رأينا، بل خفّض عتلة التشغيل فانطفأت حزمة الليزر. استمر البث على الجدار بضع دقائق ثم اختفى.

تملكتنا الدهشة، وأولنا أوباخ، فيما لم يعد إيفوري ينبس ببنت شفة. وتكوّن لدي انطباع، وأنا أرمقه على هذا النحو، أنه تقدم فجأة في السن، هذا لا يعني أن وجهه الذي اعتدت عليه كان يتمتع بالشباب، لكن ملامحه قد تغيرت.

قال لي: منذ ثلاثين سنة وأنا أحلم بهذه اللحظة، هل لاحظت ذلك؟ لو تعلم كل التضحيات التي قمت بها من أجل هذه المواد، إني ضحيت حتى بصديقي الوحيد في سبيلها.

إنه لأمر غريب، لا بد أن أشعر بالارتياح، وكأني حُرّرت من عبء ثقيل، ومع ذلك فليس هذا حالي. لطالما تمنيت أن أكون أصغر سناً بأعوام، وأن أحيا كذلك زمناً طويلاً جداً لأبلغ نهاية هذه المغامرة، ومعرفة ما تمثله هذه النقطة الحمراء التي شهدناها وما تكشفه لنا. إنها المرة الأولى في حياتي يراودني الخوف من الموت، هل تفهموني؟

وذهب ليجلس مطلقاً تنهيدة من غير أن ينتظر جوابي. استدرت ناحية كيرا، كانت واقفة باتجاه الجدار محدّقة في المساحة التي غدت بيضاء من جديد.

سألتها: ماذا تفعلين؟

قالت: أحاول أن أتذكر، أحاول تذكّر اللحظات التي عشناها لتونا. إنها إثيوبيا فعلاً هي التي ظهرت. وأنا لم أتعرّف إلى تضاريس هذه المنطقة التي أعرفها تماماً، لكني لم أستسلم للحلم، كانت أثيوبيا. هل رأيت مثلي الشيء نفسه، أليس كذلك؟

ــ أجل، فالصورة الأخيرة كانت مركّزة على القرن الإفريقي. هل استطعت تحديد المكان الذي كانت هذه النقطة تشير إليه؟

ـ لا، بصورة أكيدة، لدي فكرة عنه في ذهني، ولكن لا أدري إن كانت رغباتي هي التي تفصح عن نفسها أم هو الواقع.

قلت، ملتفتاً إلى أوباخ: سنتمكن من الكشف عنه عاجلاً.

سألت كيرا: أين ويم؟

ـ أظن أن انفعاله كان قوياً جداً، لم يكن على ما يرام فخرج يتنشق الهواء.

سألتُ أوباخ: أبمقدورك أن تبثّ علينا الصور الأخيرة التي سجلتها آلات تصويرك؟

أجاب هذا الأخير، وهو ينهض: نعم، بكل تأكيد، ينبغي أن أشعل الكشاف الضوئي وهذا الجهاز السيئ يشق طريقه متى يشاء.

لندن

ــ أين وصلنا؟

أجاب ويم: ما شاهدته هنا لتوي هو، بكل بساطة، غير قابل للتصديق.

لقد قدم أمستردام وصفاً مستفيضاً لسير آشتون عن الأحداث التي جرت في قاعة الليزر داخل حرم جامعة فريج. روى المشهد بتفاصيله.

أردف آشتون: سأوفد إليك بعض الرجال، إذ من الضروري والملّح وضع حد لذلك قبل فوات الأوان.

ــ لا، آسف، ما داموا في الأراضي الهولندية، فهم تحت مسؤوليتي أنا وحدي. وأنا من سيتدخل عندما يحين الوقت.

إنك مبتدئ في مهامك بعض الشيء لتتوجه إليّ بهذه اللهجة، يا أمستردام.

ــ أرجوك، سير آشتون، أنا أنوي تأدية دوري بشكل كامل، وذلك من دون أي تدخل من قبل بلد صديق أو أحد ممثليه. أنت تعرف القاعدة: متّحدون ولكن مستقلون! كل

واحد منا يتصرف بأموره في منطقته كما يحلو له.

ـ إني أخطرك، دعهم يغادرون حدودك، وأنا أتخذ كل التدابير التي في حوزتي لإيقافهم.

ـ أتصور أنك ستتحاشى فعلاً إحاطة المجلس علماً بذلك. أنا مدين لك، ولن أُقدم على الوشاية بك، كما أني لن أغطيك. أنا، مثلما بينتَه لي، حديث العهد في مهامي الجديدة لأجازف بتعريض نفسي للمخاطر.

أجاب آشتون بجفاء: ما كنت لأطلب منك كل هذا. ولا تمثّل مع رجال العلم هؤلاء دور الساحر التلميذ العاجز عن السيطرة على الوضع، يا أمستردام، فأنت لا تتحسب للنتائج في حال توصلوا إلى هدفهم، وقد قطعوا شوطاً بعيداً جداً. ماذا تفكر أن تفعل بهم ما داموا في متناول يدك؟

ـ سأصادر معدّاتهم وأعمل على إبعادهم إلى بلادهم بالذات.

ـ وإيفوري معهم، أليس كذلك؟

ـ أجل، وقد سبق أن قلته لك، وماذا تريدني أن أفعل، لا حرج عليه إطلاقاً، وهو حر في أن يتنقل كما يطيب له.

ـ لي خدمة أطلبها منك، تقبّلها على أنها أسلوب في

شكري على المنصب الذي يبدو أنك سعيد لتولّيه...

جامعة فريج

أشعل أوباخ الكشاف الضوئي المعلّق في السقف. كانت الصور ـــ الملتقطة بوضوح تام على شريط سينمائي ضمن النظام المعلوماتي ـــ قد خزنت في بنك الجامعة للمعطيات. ولكن لا بد من انتظار ساعات عدة قبل أن ينتهي برنامج تخفيف الضغط من معالجتها. طلبنا أنا وكيرا أن تركز الحاسبات جهودها على السلسلة الأخيرة من المشاهد التي حضرناها. نقر أوباخ على حلقة مفاتيحه وأرسل مجموعة من التعليمات إلى الحاسوب المركزي. أجرى قسم الحاسوب التخطيطي عملياته التنظيمية بينما كنا نحن ننتظر.

قال لنا أوباخ: تحلّيا بالصبر فالعملية لن تستغرق وقتاً، النظام بطيء قليلاً في الصباح لأننا لسنا الوحيدين الذين نلتمس مساعدته.

أخيراً، بدأت الحياة تدبّ في عدسة الكشاف الضوئي، فبثّت على الجدار الثواني السبع الأخيرة للعرض التي كانت القطع كشفتها لنا.

طلبت كيرا من أوباخ: قف هنا، من فضلك.

تجمد البث على الجدار، وكنت أتوقع أن يفقد نقاءه، كما يحصل في كل مرة نقف عند صورة ما، ولكن لم يحدث شيء من هذا إطلاقاً. وأدركت بشكل أفضل لماذا كان علينا التحلي بالصبر طويلاً لمشاهدة الثواني السبع الأخيرة. كان التحليل على هذا النحو لأن كمية المعلومات الواجبة معالجتها بالنسبة إلى كل صورة كانت هائلة. كيرا، التي لم تكن تشاطرني همومي التقنية، دنت من لوحة البث وراقبتها بانتباه.

قالت: أعرف هذه التلافيف، هذا المعْلَم المعرّج، هذا الشكل الشبيه برأس إنسان، هذا الخط المستقيم، ثم هذه المنعطفات الأربعة، إنها جزء من نهر أومو، وأنا شبه واثقة من ذلك، لكنّ ثمة شيئاً ما ينطوي على خلل، قالت مشيرة إلى الموضع الذي كانت تلمع فيه النقطة الحمراء.

سأل أوباخ: ما الذي ينطوي على خلل؟

ــ إذا كان هذا فعلاً الجزء من أومو الذي أفكر فيه، كان لا بد أن نرى هنا بحيرة، إلى اليمين على هذه الصورة.

سألتُ كيرا: هل تعرفين هذا المكان؟

ــ طبعاً أعرفه، فقد أمضيت فيه ثلاثة أعوام من

حياتي! فالمكان الذي تشير إليه هذه المنطقة يطابق سهلاً صغيراً جداً، محاطاً بأعشاب تنبت تحت الأشجار عند حافة نهر أومو. وقد كنا على وشك القيام بتنقيبات فيه، لكن موقعه كان بعيداً إلى الشمال، بعيداً جداً عن مثلث «إيلامي». ما أقوله لك خالٍ من أي معنى، إذا كان فعلاً هذا المكان الذي أفكر فيه، ولا بد أن تظهر بحيرة «ديبا».

ــ كيرا، إن القطع التي عثرنا عليها لا تشكّل وحدها خريطة، إنما تؤلف معاً قرصاً يحوي على الأرجح مليارات المعلومات، حتى ولو كانت القطعة الناقصة ــ لسوء الحظ بالنسبة إلينا ــ تضم سلسلة المشاهد التي تهمني أكثر من غيرها، ولكن ما الجدوى من ذلك حالياً؟ هذا القرص الذاكرة بث علينا تصوراً لتطور الكون منذ لحظاته الأولى حتى الزمن الذي تم تسجيله فيه. في تلك الأزمنة الغابرة، ربما لم يكن لـ «بحيرة ديبا» وجود بعد.

انضم إلينا إيفوري ودنا من الجدار، متفحصاً الصورة بانتباه.

ــ أدريان على حق، يجب الآن الحصول على إحداثيات دقيقة. أفي نظامكم المعلوماتي خريطة مفصّلة لأثيوبيا؟ سأل أوباخ.

ــ أفترض أنّ عليّ أن أجد ذلك في الإنترنت وأشحنه

عن بُعد.

ـ هيا قُم بذلك من فضلك وحاول أن ترى إن كان في إمكانك تركيبه فوق هذه الصورة.

عاد أوباخ إلى وراء منضدته، شحن خريطة القرن الإفريقي ونفذ ما طلب إيفوري منه.

قال: باستثناء انحراف بسيط لمجرى النهر، تكاد المطابقة تكون كاملة! ما هي إحداثيات هذه النقطة؟

ـ 67 2 10 5 شمال خط العرض و 74 1 10 36 شرق خط الطول.

استدار إيفوري صوبنا، قائلاً لنا:

ـ أتعلمان ما يبقى عليكما عمله...

قال لنا أوباخ: عليّ أن أخلي هذا المختبر، فقد سبق وغيرتُ توقيت أعمال باحثين رغبة في إرضائكم. لست نادماً على ذلك، لكني لا أستطيع التنازل عن هذه القاعة لأمد أطول.

دخل ويم الغرفة في الوقت نفسه الذي كان فيه أوباخ قد أطفأ كل شيء.

ــ هل فاتني شيء؟

أجاب إيفوري: كلا، كنا نهمّ بالانصراف.

وبينما كان أوباخ يتوجه بنا إلى مكتبه، شعر إيفوري أنه ليس على ما يرام. فقد أصابه نوع من الدوار. أراد أوباخ استدعاء طبيب غير أن إيفوري رجاه ألا يقوم بعمل ما. فما من داعٍ للقلق، إنه متعب ليس أكثر، كما أكّد ذلك. وطلب منا أن نتلطف بمرافقته إلى فندقه، حيث يخلد إلى الراحة فيتحسّن الأمر كلياً. وسرعان ما اقترح ويم إيصالنا إليه.

شكره إيفوري لدى عودته إلى «فندق كراسنابولسكِي» ودعاه للقائنا حول حفلة شاي عند نهاية بعد الظهر. قبِل ويم الدعوة وغادرنا، أما نحن فسندنا إيفوري حتى غرفتهَ. بسطت كيرا غطاء السرير وساعدته أنا على التمدد عليه. شبك إيفوري يديه فوق صدره وتنهّد.

قال: شكراً.

ــ دعني أستدعي طبيباً، إنه لأمر غريب.

سأل إيفوري: لا، ولكن هل في وسعكما أن تؤديا لي خدمة صغيرة أخرى؟

أجابت كيرا: نعم، بكل تأكيد.

ــ اذهبا وانظرا عبر النافذة، أزيحا الستار بحذر وأخبراني إن كان هذا الأبله ويم قد غادر فعلاً.

نظرت إلي كيرا نظرة قلق ونفذت الطلب.

ــ أجل، أخيراً ما من أحد أمام الفندق.

ــ هل المرسيدس السوداء وفي داخلها المخبولان، ما زالت هنالك مركونة قبالته بالضبط؟

ردّ إيفوري وقد نهض متوثباً: إنها هنالك، صدّقاني.

ــ كان عليك أن تظل ممدداً...

ــ لم أصدّق لحظة وعكة ويم قبل قليل وأشك أن يكون صدّق وعكتي، هذا يتيح لنا القليل من الوقت.

قلت مذهولاً: ولكن كنت أظن أن ويم هو حليف لنا؟

ــ كان كذلك حتى تمت ترقيته. هذا الصباح، لم تكونا تتكلمان إلى مساعد فاكيرز القديم، بل إلى الرجل الذي حلّ محله. ويم هو «أمستردام» الجديد. لا يتسع لي الوقت لأشرح لكما كل هذه الأمور. انصرفا إلى غرفتكما واحزما متاعكما بينما أهتم أنا ببطاقتي سفركما. لاقياني هنا حالما

تكونان جاهزين وأسرعا، يجب أن تبارحا المدينة قبل أن يطبق الفخ عليكما، هذا إن لم يكن قد فات الأوان.

سألته: وأين نذهب؟

ـ أين تريدان أن تذهبا؟ إلى أثيوبيا طبعاً!

ـ لا خلاف حول ذلك! الوضع خطير جداً، ما دام هؤلاء الرجال، الذين لا تريد أبداً أن تقول لنا شيئاً عنهم، يطاردوننا، فلن أعرّض حياة كيرا للخطر، ولا تحاول إقناعي بالنقيض!

سألت كيرا إيفوري: ومتى تقلع الطائرة؟

ألححتُ قائلاً: لن نذهب إلى هنالك!

ـ الوعد هو وعد، إن كنتَ تأمل أني نسيت ذلك، فأنت على خطأ، هيا، لنسرع!

بعد نصف ساعة، أخرجنا إيفوري عبر مطابخ الفندق.

ـ لا تتسكعا في المطار، بل ما إن تتجاوزا مكتب مراقبة الجوازات، تنزّها أمام الحوانيت كلّ على انفراد. لا أعتقد أن ويم من الذكاء بمكان حتى يكتشف الحيلة التي دبرناها له، ولكن من يدري. وعِداني بأنكما ستبلّغاني أخباركما في أقرب وقت ممكن.

سلّمني إيفوري مغلّفاً وحلّفني بألا أفضّه قبل الإقلاع، ووجّه إلينا إيماءة ودية بسيطة بينما كانت سيارة التاكسي تبتعد بنا.

تمّ الركوب في مطار شيبهول دون عائق. لم نلتزم بنصائح إيفوري، إنما جلسنا حول طاولة في الكافيتريا لتمضية فترة من الوقت معاً. كنت اغتنمت هذه الفرصة لأخبر كيرا بحديثي المقتضب مع الأستاذ أوباخ. عند أوان رحيلنا، طلبتُ منه خدمة أخيرة. كان قد رضي ــ لقاء الوعد بإعلامه بتقدم أبحاثنا ــ أن يلزم الصمت المطبق إلى أن ننشر تقريراً عن أعمالنا. فهو سيحتفظ بالتسجيلات التي أُجريت في مختبره ويرسل نسخة عنها على قرص إلى والتر. وكنت، قبل أن تقلع الطائرة، أخطرت والتر أن يحفظ طي الكتمان طرداً بريدياً مرسلاً له من أمستردام، سيستلمه عما قليل، وألا يفتحه خصوصاً قبل عودتنا من أثيوبيا. وأضفت أنه سيتمتع بصلاحية مطلقة في حال تعرّضنا لأي مكروه، وتالياً يمكنه التصرف به كما يشاء. رفض والتر الاستماع إلى تنبيهاتي الأخيرة، إذ من غير الوارد أن يصيبنا حادث ما، كما قال لي وهو يقفل الخط في وجهي.

أثناء الطيران، ساور كيرا تأنيب الضمير، لأنها لم تحط

أختها علماً بأخبارها، فوعدتها بأننا سوف نتصل بها سوياً ما أن تحط بنا الطائرة.

أديس أبابا

كان مطار أديس أبابا يعجّ بالناس. فور الانتهاء من معاملات الجمارك، فتشت عن مظلة حارس الشركة الخاصة الصغيرة التي سبق واستفدت من خدماتها. وافق طيار على نقلنا إلى «جنكا» مقابل ستمائة دولار. رمقتني كيرا بذهول:

ــ إنه لأشبه بالجنون، لنذهب إليها من طريق البر، إنك مفلس، يا أدريان.

ــ بينما كان «أوسكار وايلد» يلفظ أنفاسه الأخيرة في غرفة فندق باريسي، صرّح: «أموت فوق إمكانياتي». ولما كنّا نحن نواجه أسوأ المضايقات، دعيني أكون في مثل جدارته!

أخرجت من جيبي مغلفاً يحوي رزمة صغيرة من الأوراق الخضراء.

سألت كيرا: ما مصدر هذا المال؟

ــ هدية من إيفوري، فقد سلّمني هذا المغلف قبل أن نفارقه بالضبط.

ـ وقبلْتَه؟

ـ طلب مني أن أعده بألا أفضّه إلا بعد أن تقلع الطائرة، وما كنت لأرميه من النافذة على علو عشرة آلاف متر.

غادرنا أديس أبابا على متن طائرة خفيفة لم تكن تحلّق عالياً جداً. لفت الطيار نظرنا إلى قطيع فيلة يهجر منطقة الشمال، فيما كانت زرافات تقفز غير بعيد وسط مرج فسيح. بعد ساعة، بدأت الطائرة تستعد للهبوط. خرجت العجلات من بدن الطائرة واثبة على الأرض، ثم تجمدت ودارت نصف دورة في نهاية المدرج. لمحتُ من خلال الكوة زمرة من الصبيان يندفعون باتجاهنا. وكان فتى يافع، أكبر سناً من الآخرين، ينظر وهو جالس على جذع شجرة قديم إلى الطائرة تجري نحو كوخ القش الذي يقوم بمثابة محطة نهائية للمطار.

قلتُ لكيرا، مشيراً بإصبعي إلى الصبي الصغير: لدي انطباع بأني أعرفه، فهو الذي ساعدني في العثور عليك يوم جئت أبحث عنك هنا.

انحنت كيرا باتجاه الكوة، ورأيت في لحظة عينيها تغرورقان بالدموع.

قالت: أنا واثقة من أني أعرفه.

أوقف الطيار المراوح، ترجلت كيرا أولاً وشقت طريقاً لها عبر حشد من الصبيان كانوا يصرخون ويقفزون حولها، حائلين دون تقدمها. ترك الصبي اليافع برميله وانصرف.

زعقت كيرا: هاري، هاري، أنا هي!

استدار هاري وجمد مكانه. اندفعت كيرا نحوه، أمرّت يدها في شعره المشعث، وضمته إليها.

قالت، وهي تنشج: أترى، لقد وفيتُ بوعدي.

رفع هاري رأسه: لكنك تأخرتِ كثيراً!

أجابت: بذلت ما في وسعي، إلا أني الآن هنا.

ــ أصدقاؤك أعادوا بناء كل شيء، فهو أكبر مما كان عليه قبل العاصفة، هل ستمكثين هنا هذه المرة؟

ــ لا أدري، هاري، لا أدري شيئاً.

ــ إذاً، متى تعاودين الرحيل؟

ــ لقد وصلت لتوي وتريدني أن أذهب من الآن؟

تحرّر الصبي اليافع من عناق كيرا وابتعد. تردُّدت

لحظة ثم ركضتُ خلفه وأمسكتُ به.

ــ إسمعني، يا فتى، ما مضى يوم من دون الحديث عنك، ولا نامت ليلة من غير التفكير فيك، ألا تعتقد أن هذا يستحق منك أن تستقبلها بمزيد من اللطف؟

ــ إنها في صحبتك، فلماذا رجعتْ إذاً؟ من أجلي أم من أجل التنقيب في الأرض أيضاً؟ عودا إلى دياركما، لدي أعمال ينبغي أن أنجزها.

ــ باستطاعتك، يا هاري، ألا تصدّق، لكن كيرا تحبك، هذا هو الواقع. إنها تحبك، ولو تعلم إلى أي حد هي مشتاقة إليك، لا تُدر لها ظهرك. أسألك ذلك من رجل إلى رجل، لا تصدَّها.

تمتمت كيرا، منضمة إلينا: دعه وشأنه. إفعل ما تريد، هاري، إني أتفهم الوضع. وسواء حقدت عليّ أم لا، فلن يغير هذا شيئاً من الحب الذي أكنّه لك.

التقطت كيرا حقيبتها وتقدمت باتجاه كوخ القش من دون أن تلوي على شيء. تردد هاري للحظات واندفع مسرعاً أمامها.

ــ إلى أين تذهبين؟

ــ لا أدري، يا عزيزي، لا بد من محاولة الالتحاق بــ إريك والآخرين، إني أحتاج إلى مساعدتهم.

دسّ الفتى اليافع يديه في جيبيه ورفس برجله حصاة.

قال: ويه، أرى ذلك.

ــ ماذا ترى؟

ــ إنك لا تستطيعين الاستغناء عني.

ــ هذا، يا عزيزي، أعرفه منذ اليوم الأول الذي التقيتك فيه.

ــ أو تريدين أن أساعدك على الوصول إلى هناك، هل هذا قصدك؟

جثت كيرا محدّقة في عينيه. قالت وهي تفتح له ذراعيها:

ــ أود أولاً لو نعقد الصلح بيننا.

تردد هاري لحظة ومد يده، لكن كيرا خبأت يدها وراء ظهرها.

ــ كلا، أريدك أن تقبلني.

قال بلهجة بالغة الجدية: لقد كبرت جداً للقيام بهذا الآن.

ـ أجل، أما أنا فلا. هل تضمني بين ذراعيك، نعم أو لا؟

ـ يجب أن أفكر ملياً. وبانتظار ذلك، اتبعيني، عليك أن ترقدي في مكان ما، ثم غداً أعطيك جوابي.

قالت كيرا: اتفقنا.

رشقني هاري بنظرة تحدٍّ وسار في المقدمة. أخذنا حقيبتينا وتبعناه في الطريق المؤدية إلى القرية.

كان رجل، يرتدي قميصاً نسلت خيوطه، واقفاً أمام كوخه الصغير، لقد تذكّرني ملوّحاً لي بإشارات واسعة.

قالت لي كيرا، هازئة بي: ما كنت أعرفك تتمتع بمثل هذه الشعبية في الجوار.

ـ لعل ذلك لأني حينما أتيت للمرة الأولى، عرّفت نفسي بأني أحد أصدقائك...

قدّم لنا الرجل ـ الذي استقبلنا في بيته ـ حصيرتين لننام عليهما، وقوتاً نسترّد به قوانا.

بقي هاري، أثناء وجبة الطعام، قبالتنا من دون أن يزيح عينيه عن كيرا، ثم نهض بغتة متجهاً ناحية الباب.

قال، وهو يخرج من البيت: سأعود غداً.

اندفعت كيرا إلى الخارج فتبعتُها، لكن الفتى اليافع ابتعد الآن عن الدرب.

قلت لكيرا: أمهليه قليلاً من الوقت.

أجابتني، راجعة إلى الكوخ ثانية: لا يتسع لنا الوقت كثيراً.

استفقتُ عند الفجر على ضجيج محرّك يقترب منا. خرجت إلى عتبة الباب، فشاهدت سحابة غبار تتقدم سيارة رباعية الدفع. توقفت السيارة الصالحة لكل أنواع الطرقات بمحاذاتي وتعرفت في الحال إلى الايطاليين اللذين قدّما العون لي أثناء إقامتي الأولى.

سألني أكثرهما قوة وقد ترجل من السيارة: يا للمفاجأة! ما الذي أتى بك إلى هنا؟

أثارت لهجته الودية زوراً بعضاً من الشكوك، فأجبته:

ـ حبي للبلد. شأني شأنك. عندما يأتي المرء إلى هنا مرة واحدة، فمن الصعب أن يقاوم رغبته في العودة ثانية.

التحقت بي كيرا عند سقيفة البيت وأحاطتني بذراعها.

قال الإيطالي الثاني، متقدماً في اتجاهنا: أرى أنك وجدت صديقتك، وإني نظراً لجمالها، أتفهم أن تكون أجهدت نفسك في العثور عليها.

وشوشتني كيرا: من هما هذان الشخصان، هل تعرفهما؟

ــ لن أدّعي ذلك ــ إنما التقيتهما عندما كنت أبحث عن مخيمك ــ وقد مدا لي يد المساعدة.

ــ أفي الجوار أحد لم يساعدك على العثور علي؟

ــ لا تعتدي عليهما، هذا كل ما أطلبه منك.

اقترب الإيطاليان، فسأل أكثرهما قوة:

ــ ألا تدعواننا إلى الدخول؟ الوقت مبكر ولكن الطقس حار بشكل غير مألوف.

أجابت كيرا: لسنا في بيتنا وأنتما لم تعرّفا بنفسيكما.

ــ هو جيوفنني وأنا ماركو، هل يسعنا الدخول الآن؟

أصرت كيرا بلهجة تفتقر إلى اللطف: لقد قلته لكما لسنا في بيتنا.

ــ هيا، هيا، أردف ذاك الذي سمّى نفسه جيوفنني،

والضيافة الإفريقية ماذا تفعلان بها؟ بإمكانكما أن تقدما لنا قليلاً من الظل وشيئاً نشربه، إني أموت عطشاً.

برز الرجل الذي استقبلنا في كوخه على عتبة بابه ودعانا جميعاً إلى دخول بيته. وضع أربعة أكواب فوق صندوق وقدم لنا القهوة ثم انكفأ متوجهاً إلى حقله.

كان المدعو ماركو، يرمق كيرا بصورة تسبب لي الإزعاج بشدة، فسألها:

ــ أنتِ عالمة آثار، إن لم تخني ذاكرتي؟

أجابت: معلوماتك جيدة، ولكن من ناحية ثانية لدينا عمل، وعلينا الانصراف.

ــ في الحقيقة، لست حسنة الاستقبال، في مقدورك أن تكوني أشد لطافة. على كل حال، نحن اللذان أعنّا صديقك ليتمكن من العثور عليك لبضعة أشهر مضت، ألم يخبرك بذلك؟

ــ بلى، جميع أهل الجوار ساعدوه للعثور علي، ومع ذلك ما كنت ضائعة. والآن المعذرة إن كنت صريحة جداً، فلا بد أن ننطلق. قالت بجفاء وهي تهمّ بالنهوض.

قام جيوفنني واثباً وسدّ طريقها، فتوسُّطت بينهما في

الحال.

ـ أخيراً، ماذا تريد منا؟

ـ لا شيء إطلاقاً، إنما مناقشتكما، هذا كل ما نبتغيه، إذ لا تسنح لنا الفرصة غالباً لملاقاة أوروبيين في هذه البقاع.

ألحت كيرا: الآن وقد تبادلنا بعض الكلمات، دعني أمّر.

قال ماركو بلهجة آمرة: عاودي الجلوس!

أجابت كيرا: ليس من عادتي تلقي الأوامر.

ـ أخشى ألا تضطري إلى تغيير عاداتك. ستجلسين وتسكتين.

تخطت فظاظة هذا الشخص هذه المرة كل الحدود، فكنت على أهبّة الاستعداد للتشابك معه بالأيدي، وإذ به أخرج من جيبه مسدساً وصوّبه إلى كيرا.

قال، وهو ينزع مسمار الأمان في سلاحه: لا تلعبا دور الطفل الصغير بل حافظا على هدوئكما وسيمضي كل شيء على ما يرام. ستصل، في غضون ثلاث ساعات، طائرة فنخرج أربعتنا من هذا الكوخ وترافقاني حتى الطائرة من غير ارتكاب حماقات. ستركبان الطائرة بلطف وتكونان في

مواكبة جيوفنني. أرأيتما، ما من شيء بالغ التعقيد في ذلك.

سألته: وأين ستنطلق هذه الطائرة؟

ـ ستريان ذلك في الوقت المحدد. أما الآن، وبما أن لدينا متسعاً من الوقت، فما رأيكما في ما لو أخبرتمانا عن السبب الذي حملكما على المجيء إلى هنا؟

أجابت كيرا: أن نواجه رجلين مزعجين يهدّداننا بمسدس!

ضحك جيوفنني، مستهزئاً: إن لها طبعاً قوياً.

أجبته: إنها تدعى كيرا، ولا داعي لأن تكون فّظاً.

مكثنا ساعتين ينظر كل منا إلى الآخر. يسوّك جيوفنني أسنانه بعود كبريت، فيما يحدّق ماركو بارد الأعصاب في كيرا. سمع ضجيج محرّك في المدى البعيد، فنهض ماركو ومضى إلى درج المدخل للتحقق من الأمر.

قال، عائداً إلى مكانه: سيارتا دفع رباعي قادمتان إلى هنا. لا بدّ من الحفاظ على الهدوء في الداخل وانتظار مرور القافلة وعدم نباح الكلب. هل الكلام مفهوم؟

كانت الرغبة في العمل قوية، لكن ماركو كان لا يزال

يصوّب أنظاره إلى كيرا. اقتربت السيارتان وسُمع أزيز الكوابح على بعد أمتار من البيت المتواضع. ثم توقفت المحركات وتلته سلسلة من صفق الأبواب. دنا جيوفنني من النافذة.

ـ تبّاً، هنالك حوالي عشرة أشخاص يتوجهون ناحيتنا.

نهض ماركو وانضم إلى جيوفنني، من غير أن يكف، مع ذلك، عن النظر إلى كيرا. وفجأة انفتح باب الكوخ، فهمست كيرا:

ـ إريك، لم أشعر بمثل هذه السعادة لرؤيتك!

سأل زميله: هل من مشكلة؟

عهدي بـ إريك أنه لم يكن قوي البنية لكني سررت لأني أخطأتُ في التقدير. فانتهزت فرصة استدارة ماركو لأسدّد إليه رفسة جدية بين فخذيه. أنا لست عنيفاً، ولكن حين أفقد السيطرة على نفسي، لا أقوم بعملي بشكل ناقص.

أفلت ماركو ـ وقد انقطعت أنفاسه ـ مسدسه فأرسلته كيرا إلى الطرف الآخر من الغرفة. لم يسنح الأوان لجيوفنني كي يقاوم، فأعدت له الكّرة بلكمة في وسط وجهه، فكانت اللكمة مؤلمة لمعصمي كما لفكّه أيضاً. كان

ماركو يهمّ بالوقوف، لكن إريك أمسك به من خناقه مسنداً ظهره إلى الحائط.

صرخ إريك: ما اللعبة التي تلعبانها هنا؟ وما هذا السلاح الناري؟

شقّ على ماركو أن يجيب إريك ما دام هذا الأخير لم يخفف الضغط حول عنقه. ازداد لونه شحوباً، فاقترحت عليٍ إريك أن يكّف عن هزه هزاً عنيفاً، وأن يتركه يتنفس قليلاً علّه يستعيد لونه.

توسل إليه جيوفنني: توقّفْ، سأشرح لك. نحن نعمل لحساب الحكومة الإيطالية. وتقضي مهمتنا بإعادة هذين الممسوسين إلى الحدود مجدداً، ولم نكن لنلحق بهما أي أذى.

سألت كيرا مذهولة: وما علاقتنا بالحكومة الإيطالية؟

ــ ليس لدينا أي فكرة عن هذا، آنستي، وهذا لا يعنيني، لقد تلقينا تعليمات مساء البارحة، ولا نعرف شيئاً آخر غير ما قلته لك لتوي.

سألنا إريك، ملتفتاً حولنا: هل ارتكبتما حماقات في إيطاليا؟

ـ لكننا لم نذهب إلى إيطاليا، هذان الشخصان يقولان أي شيء كائناً ما كان. وما الذي يثبت أنهما حقاً ما يدّعيان كونه؟

أردف ماركو، قائلاً بين نوبتي سعال: هل أسأنا معاملتكما؟ أم تعتقدان أننا كنا مكثنا هنا ننتظر لو شئنا قتلكما؟

عندها سألتُ: مثلما فعلتماه مع زعيم القبيلة في بحيرة توركانا؟

نظر إريك إلينا كلاًّ بدوره بدءاً بجيوفنني، فماركو، فكيرا ثم بي أيضاً. وجّه كلامه إلى أحد أعضاء فريقه وطلب منه البحث عن حبال في السيارة.

نفّذ الشاب الأمر وعاد حاملاً معه بعض الأحزمة.

أمر إريك: قيدوا هذين الشخصين، ودعوننا ننسحب من هنا.

عارض أحد زملائه: إسمع، إريك، نحن علماء آثار ولسنا رجال أمن، إن كان هذان الرجلان شخصين رسميين إيطاليين حقاً، فلماذا نجلب المتاعب لأنفسنا؟

قلتُ: لا ينشغل بالكم، فأنا أتولى مسؤولية ذلك.

حاول ماركو أن يقاوم المصير الذي كان ينتظره، لكن كيرا التقطت سلاحه وصوّبته باتجاه بطنه، قائلة له:

ــ إني غير حاذقة في هذا النوع من الأمور، وكما ألمح إلى ذلك رفيقي، لسنا إلا علماء آثار واستعمال الأسلحة النارية ليس من براعتنا.

بينما كانت كيرا تسدّد إليهما السلاح، قيّدنا أنا وإريك المعتدين علينا، فألفيا نفسيهما ظهراً لظهر وأيديهما موثوقة. ركزت كيرا المسدس تحت حزامها، ركعت واقتربت من ماركو:

ــ أعلم أن ذلك قبيح، ومن حقكما أن تجداني جبانة، ولا يسعني أن ألومكما على ذلك، لكنها «هي» أي كيرا لديها طريقة متقنة لتقوله لكما.

وردّت إليه صفعة جعلت ماركو يتدحرج على الأرض.

ــ كفانا، في وسعنا الآن أن ننصرف.

بينما كنا نغادر الغرفة، فكرتُ في الرجل المسكين الذي استضافنا، إنه سيجد لدى عودته إلى بيته، ضيفين سيّئي المزاج جداً...

تسلقنا متن إحدى السيارتين الرباعيتي الدفع. كان

هاري ينتظرها على المقعد الخلفي.

قال لكيرا: هل رأيت أنك في حاجة إلي؟

ــ بإمكانك أن تشكريه، فهو الذي جاء يخطرنا أنكما تعرضتما لمتاَعب.

سألت كيرا هاري: ولكن كيف عرفت ذلك؟

ــ لقد تعرّفت إلى السيارة، لا أحد في القرية يحب هذين الرجلين. دنوت من النافذة وشاهدت ما كان يحدث، لذا مضيت أبحث عن أصدقائك.

ــ وماذا فعلتَ للمضي حتى منطقة التنقيبات في وقت قليل كهذا؟

أجاب إريك: ليس المخيم بعيداً من هنا، يا كيرا. نقلنا، بعد رحيلك، نطاق تنقيباتنا، إذ لم يعد مرحّباً بنا حقاً في وادي أومو عقب وفاة زعيم القبيلة، إن استوعبت ما أريد أن أقوله لك. ثم لم نجد، في كل الأحوال، شيئاً فَي الموقع الذي كنت تنقّبين فيه، فتوجّهنا، مدفوعين بعدم الأمان المحيط بنا وتفاقم المضايقات، أكثر شمالاً.

قالت كيرا: آه، أرى أنك استعدت حقاً مراقبة العمليات.

ــ هل تعلمين كم من الوقت بقيتِ من دون إبلاغنا

أخبارك؟ لن تعمدي إلى إلقاء درس علي.

ــ أرجوك، يا إريك، لا تعتبرني حمقاء، فأنت بنقلك موقع التنقيبات طمست كل أثر لأعمالي، ناسباً إلى نفسك أبوة الاكتشافات التي كان يمكنك أن تحقّقها.

ــ ما كانت هذه الفكرة لتخطر في بالي، إنما أعتقد أنك أنت من تعاني من مشكلة الأنا، يا كيرا، ولست أنا. والآن هلَ لك أن تشرحي لنا لماذا هذان الإيطاليان يتعقبانك؟

في الطريق، قصّت كيرا حكاية مغامراتنا منذ رحيلها من أثيوبيا، فأخبرتْه بجولتنا في الصين، وما اكتشفناه في «جزيرة نركوندام» وعدم أخذ فترة إقامتها في سجن غارتهر بعين الاعتبار، وحدثته عن الأبحاث التي قمنا بها على هضبة مان ــ يويو ــ نيور وعن النتائج التي توصلت إليها بالنسبة إلى ملحمة السومريين، ولم تتوقف عند الحادث الأليم لرحيلنا من روسيا ولا عند مضايقات ليلتنا الأخيرة على متن القطار العابر سيبيريا، بل وصفتْ له بأدق التفاصيل المشهد الأخّاذ الذي شهدناه في قاعة الليزر بجامعة فريج.

أوقف إريك السيارة واستدار ناحية كيرا:

ــ لكن ماذا تروين؟ تسجيل لحظات الكون الأولى التي

يرقى تاريخها إلى أربعمائة مليون سنة؟ ثم ماذا أيضاً؟ كيف يمكن لشخص في مثل ثقافتك أن يتقدم بمثل هذه السخافات؟ هل رباعيّو الأرجل في العصر الديفوني (عصر جيولوجي) هم الذين سجّلوا قرصك؟ إنه لأمر مثير للضحك.

لم تحاول كيرا أن تحاجّ إريك، وأقنعتني بنظرها بالعدول عن التدخل، وكنا في غضون ذلك قد بلغنا المخيم.

كنت أتوقع أن يحتفي بها أعضاء فريقها وأن يُسرّوا بلقائها ثانية، لكن لم يحدث شيء من ذلك، كما لو كانوا لا يزالون حاقدين عليها بسبب ما جرى إبان سفرنا إلى بحيرة توركانا. لكن كيرا كانت تمتلك القيادة في طبعها، فانتظرت بفارغ الصبر انتهاء النهار. ونهضت، لما غادر علماء الآثار أعمالهم، وطلبت من رجال فريقها القديم أن يجتمعوا، لأنها كانت تتمنى أن تبشرهم بنبأٍ مهم. اهتاج إريك جراء مبادرتها هذه، فذكّرته هامسةً في أذنه أن المنحة المالية التي سمحت للجميع بإجراء هذه التنقيبات في وادي أومو وُهبت لكيرا وليست له. ولئن علمت مؤسسة والش أنها نُحيّت عن هذه التنقيبات فإن محسني اللجنة الأسخياء سوف يتمكنون من إعادة النظر في دفع الرصيد في نهاية الشهر. فتركها إريك تعبّر عن رأيها.

انتظرت كيرا غياب الشمس وراء خط الأفق. وما إن خيّمت العتمة الحالكة حتى تناولت القطع الثلاث التي في حوزتنا وقرّبت فيٍ ما بينها، فاتخذت، فور جمعها معاً، اللون المائل قليلاً إلى الزرقة الذي أثار دهشتنا إلى حد كبير. كان الأثر الذي أحدثته لدى علماء الآثار يفوق بمراحل كل الشروح التي في إمكانها أن تقدمها لهم. حتى إريك ساوره الاضطراب، وبينما سرت همهمة في صفوف المجلس، كان هو أول المصفقين، فقال:

ــ إنها مادة جميلة جداً، مرحى لهذا العمل السحري البارع، وزميلتكم لم تقل لكم كل ما عندها، إنها تريد أن توهمكم أن هذه الألاعيب المضيئة يعود عمرها إلى أربعمائة مليون سنة. لا شيء أقل من ذلك!

بعضهم ضحكوا هازئين، وآخرون لا، فيما تسلقت كيرا صندوقاً.

ــ هل استطاع أحد بينكم أن يكتشف لدي، في الماضي، أي إشارة لتصرف غريب الأطوار؟ عندما قبلتم هذه المهمة في قلب وادي أومو، ورضيتم بترك العائلة والأصدقاء لأشهر طويلة، هل حققتم مع من كنتم تتعاقدون؟ هل بينكم من كان يرتاب في صدقيتي قبل أن يركب الطائرة؟ أو تعتقدون أني عدت أدراجي لأضيّع عليكم وقتكم وأصبح

أضحوكة لكم؟ من اختاركم، من حفزّكم إن لم أكن أنا؟

سأل ولف ماير أحد علماء الآثار: ماذا تنتظرين منا بالضبط؟

أردفت كيرا: هذه المادة ذات الخصائص المدهشة هي كذلك خريطة. أعلم أن هذا يبدو صعباً تصديقه، لكنكم إن كنتم شهوداً على ما رأيناه، فلن تتراجعوا عن ذلك. تعلمتُ، خلال بضعة أشهر، أن أشكك في كل مسلماتي اليــقينية، ويا لــها من أمثولــة تواضع! 67 2 10 5 خــط العــرض شــمالاً، و 47 1 10 36 خط الطول شرقاً، هذه هي النقطة التي تدلنا عليها. أطلب منكم أن تمحضوني ثقتكم لأسبوع على أبعد تقدير. وأقترح عليكم أن تحمّلوا كل المعدات الضرورية على متن هاتين السيارتين الرباعيتي الدفع والذهاب معي بدءاً من الغد للمباشرة بإجراء التنقيبات.

اعترض إريك: ولإيجاد ماذا؟

أقرت كيرا: ما زلت لا أعرف شيئاً.

ــ وها هي، غير راضية عن تهجيرنا جميعاً من وادي أومو، تطلب منا عالمتنا الكبيرة في الآثار أن نبعثر ثمانية أيام من العمل، والله يعلم كم أن وقتنا محدود، وذلك للتوجه

إلى موضع أجهله بحثاً عن شيء لا أعرفه! ولكن ممن تتم السخرية؟

تابع ولف ماير: انتظر قليلاً، يا إريك، ما الذي سنخسره في الحقيقة؟ نحن نحفر منذ شهور ولم نعثر على شيء مقتع حتى الآن. ثم كيرا على حق حول نقطة واحدة، وهي أننا تعهدنا بالعمل لديها، وأفترض أنها لن تجازف بجعل نفسها أضحوكة للناس تجرنا معها، من دون أسباب وجيهة.

ثار إريك، قائلاً: فلتكن، ولكن هل تعرف أسبابها؟ إنها عاجزة عن أن تخبرنا بما تأمل إيجاده. أو تعلم كم يكلّف فريقنا أسبوع عمل؟

ردّ كارفاليس، وهو زميل آخر: إن كنت تلمّح إلى رواتبنا، فهذا لا ينبغي أن يدمر أحداً. ثم إن هذا المال، هي ــ على ما أعلم ــ مسؤولة عنه. منذ رحيلها، ونحن جميعاً نتصرف كأن شيئاً لم يكن، غير أن كيرا هي البادئة بحملة التنقيبات هذه. ولا أجد مبرراً لرفض منحها بضعة أيام.

طلب نورمان، أحد الفرنسيين في الفريق، الكلام.

ــ إن الإحداثيات التي أطلعتنا كيرا عليها هي بالأحرى

دقيقة، حتى لو بسطنا التربيع على مساحة حوالي خمسين متراً مربعاً، لما اضطررنا إلى تفكيك منشآتنا هنا. ينبغي أن يكفينا القليل من المعدات، وهذا ما يحدّ كثيراً من تأثير أسبوع من الغياب عن أعمالنا الجارية.

مال إريك ناحية كيرا وطلب منها أن يجتمع بها على انفراد، وخطَوا بضع خطوات معاً.

ـ مرحى لك، أرى أنك حافظت على إحساسك بالوقت المناسب، فكدتَ تقنعيهم باَتباع رأيك. في كل حال، لمَ لا؟ لكني لم أقل بعد كلمتي الأخيرة، فباستطاعتي أن أَخاطر باستقالتي وأن أرغمهم على الاختيار بيننا نحن الاثنين أو بالعكس على دعمهم لك.

ـ قل لي إريك، ماذا تريد، فقد قطعتُ مسافة طويلة وما زلت أشعر بالتعب.

ـ أياً يكن ما نكتشفه، وعلى افتراض أننا نكتشف شيئاً ما، أريد أن أشاطرك عملية إسناد الاكتشاف. فأنا لم أدّخر جهداً خلال هذه الأشهر الطويلة التي قضيتها أنت هانئة في السفر، كما لم أقم بكل هذا العمل لأجد نفسي منزّلاً إلى مجرد مستوى مساعد. لقد حللتُ محلك لما تركتنا، فأنا منذ رحيلك أخذت على عاتقي كل شيء. إذا وجدت هذا الفريق متلاحماً وعملياتياً فإنك مدينة بذلك لي، لذا لن أدعك

تحطين رحالك في أرض أنا مسؤول عنها بعد اليوم، لكي تُحلّيني في المرتبة الثانية.

ــ هل كنت، قبل قليل، تحدثني عن الأنا؟ إنك لمدهش، إريك. ونحن، إن قمنا باكتشاف كبير فالفريق بأسره سيتقاسم الفضل في ذلك، وتكون أنت أيضاً مشاركاً فيه، إني أعدك بذلك، وأدريان كذلك لأنه، صدّقني، أسهم أكثر بكثير ممن هم هنا. هل يسعني الاعتماد على دعمك الآن وقد تمت طمأنتك؟

ــ ثمانية أيام، كيرا، أمهلك ثمانية أيام، وفي حال خاب مسعانا تحملين حقيبتك وصديقك وتنكفئان من هنا.

ــ أترك لك مهمة تكرار هذا الكلام على مسامع أدريان، وأنا على يقين من أنه سيحبه حباً جماً...

قدمت كيرا ثانية ناحيتنا وتسلقت الصندوق من جديد.

ــ إن الموقع الذي أكلمكم عنه يقع على مسافة ثلاثة كيلومترات غرب بحيرة ديبا. بإمكاننا غداً ونحن نسلك الدرب عند بزوغ النهار، أن نبلغه قبل الظهر ونباشر العمل فوراً. الذين يرغبون في اتباعي هم مرحب بهم.

همهمة جديدة سرت في صفوف المجلس. كان كارفاليس أول المنضمين ووقف أمام كيرا. لحق به ألفارو،

نورمان وولف ماير. نجحت كيرا في رهانها، إذ ما لبث أن احتشد الفريق بأسره حولها وحول إريك، الذي لم يكن يفارقها قيد أنملة.

حمّلنا المعدات قبل طلوع الشمس، وغادرت سيارتنا المخيم مع ساعات الصباح الأولى. كانت كيرا تقود إحداهما وإريك الثانية. بعد أن سرنا ثلاث ساعات على الطريق، تركنا المركبتين عند طرف مكان مشجّر ينبت فيه العشب. اضطررنا إلى عبوره حاملين معداتنا فوق أكتافنا. كان هاري يتقدم المسيرة قاطعاً بضربات ساطور قوية الأغصان التي تعيق تقدمنا. أردت مساعدته لكنه طلب مني أن أدعه يفعل ذلك متذرعاً بأنني سأعرض نفسي لأن أُجرح!

على مسافة قليلة منا، انكشفت أمامنا فرجة بين الأشجار، كانت كيرا قد حدّثتني عنها، وهي عبارة عن دائرة من الأرض قطرها ثمانمائة متر، قائمة في قعر منعطف نهر أومو، ولها شكل جمجمة بشرية.

كانَ كارفاليس ممسكاً بآلة ال GPS في يده، فهدانا إلى قلب الفُرجة المحاطة بالأشجار.

قال: لقد وصلنا. 67 2 10 5 خط العرض شمالاً، و 47 1 10 36 خط الطول شر قاً

قالت لي كيرا: يا لها من رحلة غير قابلة للتصديق، لنعود أخيراً إلى هنا مرة جديدة. لو تعرف كم أنا خائفة.

عندها أقررت لها: وكذلك أنا.

بدأ ألفارو ونورمان بتخطيط محيط التنقيبات، بينما كان الآخرون ينصبون الخيام في ظل أشجار الخلنج العملاقة. توجهت كيرا بالحديث إلى ألفارو:

ـ من غير المفيد توسيع التربيع، ركّزا على منطقة لا تتعدى العشرين متراً مربعاً، فنحن سنحفر في العمق بشكل خاص.

لفّ ألفارو خيطه على البكرة مجدداً واتبع تعليمات كيرا. كان في نهاية بعد الظهر، قد جرى استخراج ثلاثين متراً مكعباً من التراب، وكلما كانت الأعمال تتوالى، أرى حفرة تتوضح ملامحها. وبينما كانت الشمس تجنح إلى الغروب، لم نكن بعد قد عثرنا على شيء. فتوقفت التنقيبات لزوال النور، لكنها استؤنفت باكراً في اليوم التالي.

في الساعة الحادية عشرة، طفقت كيرا تلوح عليها بوادر حالة عصبية، فدنوت منها.

ـ ما زال أمامنا أسبوع.

ـ لا أعتقد أن المسألة هي مسألة أيام، أدريان، لدينا إحداثيات دقيقة جداً، وسواء أكانت صحيحة أم خاطئة، فليس ثمة تدبير ناقص. ثم لسنا مجهزين لحفر أعمق من عشرة أمتار.

ـ أين وصلنا نحن؟

ـ إلى منتصف الطريق.

ـ إذاً، لا شيء يُعتبر خاسراً حتى الآن وأنا واثق من أننا كلما حفرنا، ازدادت حظوظنا في النجاح.

تنهدت كيرا: إذا كنتُ قد أخطأت فسنكون فقدنا كل شيء.

قلت، مبتعداً: يوم غاصت سيارتنا في مياه النهر الأصفر اعتقدت أننا خسرنا كل شيء.

ولّت فترة بعد الظهر من دون تحقيق أية نتائج. كانت كيرا قد ذهبت لتأخذ قسطاً من الراحة تحت ظلال أشجار الخلنج. في الرابعة، أطلق ألفارو ـ الذي اختفى منذ وقت طويل في أعماق الثقب الذي كان يحفره بلا توقف ـ أطلق زعيقاً تردد صداه في المخيم كله. بعد لحظات قليلة، صرخ كارفاليس بدوره، نهضت كيرا وجمدت مكانها، كأنما أصيبت بمرض الكزاز.

شاهدتها تتقدم بخطوات متباطئة عبر الفرجة المحاطة بالأشجار، ولاح لي رأس ألفارو وهو يبتسم كما لم أر رجلاً تعلو الابتسامة شفتيه. أسرعت كيرا خطاها وراحت تركض إلى أن دعاها صوت ضعيف إلى مراعاة النظام.

قال هاري، آتياً لملاقاتها: كم مرة قيل بعدم الركض على أرض الحفريات؟

أمسك بها من يدها وجرّها إلى حافة الحفرة حيث كان الفريق متجمعاً. في قعر الثقب، عثر ألفارو وكارفاليس على عظام متحجرة، كان لها شكل بشري، بينما اكتشف الفريق عموداً فقرياً شبه سليم.

لاقت كيرا هنا زميليها وجثت على ركبتيها. برزت العظام المتحجرة على سطح الأرض. كان لا بد من ساعات عدة قبل التوصل إلى تحرير ذلك المضطجع هناك من الشوائب التي تحاصره. قالت كيرا وهي تلاطف برقة الجمجمة الناتئة: لقد سببتَ لنا متاعب كثيرة، لكن أخيراً عثرت عليك. ينبغي تعميدك لاحقاً، إلا أنك ستخبرنا أولاً من كنتَ، وبخاصة كم عمرك.

قال ألفارو: ثمة شيء غير واضح، فأنا لم أرَ قط عظاماً متحجرة إلى هذا الحد. وبعيداً عن التلاعب السيئ بالألفاظ، هذا العمود الفقري متطور جداً بالنسبة إلى سنه...

ـ أوَ تظنين أن ذلك الوعد الذي قطعته لك قد تحقق، وأن هذه العظام المتحجرة قديمة جداً كما نعتقد ذلك؟

ـ ما زلت أجهل كل شيء، ويبدو هذا بعيد الاحتمال كل البعد، ومع ذلك... وحدها التحاليل المتطورة ستسمح لنا بمعرفة ما إذا كان حلم مماثل بات حقيقة واقعة. لكن أستطيع أن أؤكد لك أنه، في حال تحقق ذلك، سيكون أكبر اكتشاف أُنجز عبر تاريخ البشرية.

عادت كيرا إلى الحفرة بجوار زميليها. توقفت التنقيبات عند غياب الشمس واستؤنفت غداة اليوم التالي، ولكن لم يعد أحد هنا يفكر في عدّ الأيام.

لم يكن الإرهاق قد أعيانا بعد، عندما كشف لنا اليوم الثالث عن مفاجأة أخرى هي الأكبر حتى الآن. كنت، منذ الصباح، أرى كيرا تعمل بدقة تتجاوز كل تصور. كانت، باستعمالها الفرشاة على غرار امرأة متطلّبة، تجرّد العظام المتحجرة، ملليمتراً تلو ملليمتر، مما علق بها من تراب. فجأة، توقفت حركتها بشكل قاطع. كانت كيرا على علم بهذه المقاومة في طرف أداتها، وشرحت لي أنه لا ينبغي توسّل العنف، بل الالتفاف حول الأجزاء الناتئة المفروضة للتمكن من احتواء الأشكال. لم تستطع هذه المرة أن تتحقق مما كان يلوح تحت الفرشاة الناعمة.

قالت لي: إنه لأمر غريب جداً، يبدو أنه شيء أسطواني، ربما رضفة (صابونة الركبة)، ولكن وسط القفص الصدري، إنه مع ذلك مثير للدهشة...

كان الحر لا يُطاق، وبين حين وآخر تسيل قطرة عرق من جبينها لتبّلل التراب، فيما كنت أسمعها تلجأ إلى التعنيف.

كان ألفارو قد انتهى من استراحته، فاقترح أن يحلّ محلها، وهي مرهقة. فتخلت له عن مكانها متوسلة إليه أن يعمل بمنتهى الحذر.

قالت لي: تعال، ليس النهر بعيداً، دعنا نعبر الفسحة المغطاة بالعشب تحت الأشجار، إني في حاجة إلى الاستحمام.

كانت ضفة أومو رملية، فخلعت كيرا ثيابها وغاصت في الماء من غير أن تنتظرني، أما أنا، فما إن نزعت قميصي وبنطالي، حتى لحقت بها وضممتها بين ذراعي.

قالت: إن المشهد رومنطيقي للغاية ويتلاءم بشكل مثالي مع أفعال الحب، لا تظنّن أن الرغبة زايلتني، ولكن إذا واصلتَ الهيجان على هذا النحو، فلن نلبث أن نحظى بزائر.

ـ أي نوع من الزوار؟

ـ من نوع التماسيح الجائعة. تعال، لا ينبغي التباطؤ في هذه المياه، كنت بالضبط راغبة في الانتعاش. دعنا نتجفف على اليابسة ولنعد إلى الحفريات.

ما عرفت قط إن كانت حكايتها عن التماسيح صحيحة، أم كان الأمر بمثابة ذريعة مختلقة بلباقة تسمح لها بالعودة إلى هذا العمل الذي كان يشغل بالها أكثر من أي شيء آخر. عندما رجعنا إلى مقربة من الحفرة، كان ألفارو في انتظارنا، أو بالأحرى في انتظار كيرا.

قال لكيرا بصوت خافت لئلا يسمع الآخرون: ماذا نخرج من الأرض؟ هل لديك أي فكرة عن ذلك؟

ـ لماذا أنت غاضب؟ تبدو أنك قلق.

أجاب ألفارو مادّاً لها ما يشبه كلّة كبيرة، أو كرة عقيق ضخمة: بسبب هذه.

سألت كيرا: هل هذه فعلاً ما كنت أشتغل عليها قبل التوجه إلى الاستحمام؟

ـ وجدتها على بعد عشرة سنتيمترات من فقرات الظهر.

أخذت كيرا الكرة بين أصابعها نافضة الغبار عنها. قالت متضايقة: أعطني ماء. نزع ألفارو سدادة مطرته.

ــ إنتظر، ليس هنا، لنخرج من الحفرة.

همس ألفارو: سيرانا الجميع... وثبت كيرا خارج الحفرة مخبئة الكلة في باطن يديها فتبعها ألفارو.

قالت: صبَّ بهدوء.

لم يكن أحد يعيرهما انتباهاً. وقد بدت عليهما من بعيد سيماء زميلين يغسلان أيديهما.

فركت كيرا الكلة برقة نازعة عنها ما التصق بها من شوائب كانت تغطيها.

قالت لألفارو: قليلاً من الماء بعد.

سأل عالم الآثار مضطرباً، شأنه شأن كيرا: ما هذا الشيء؟

ــ لننزل ثانية.

نظّفت كيرا سطح الكلة بعيداً عن الأنظار، وتفحصتها عن كثب.

قالت: إنها شبه شفافة، ثمة شيء ما بداخلها.

رجاها ألفارو: دعيني أرى!

تناول الكلة بين أصابعه ووضعها على امتداد محور الشمس قائلاً:

ــ هكذا يمكن رؤيتها بشكل أفضل، يبدو كأنها نوع من الراتنج(1). أو تعتقدين أنها نوع من القلادة؟ إني حائر كل الحيرة، لم أرَ قط شيئاً شبيهاً بها. تباً، ما عمر عمودنا الفقري؟

استعادت كيرا المادة وندّت عنها حركة شبيهة بحركة ألفارو، قالت وهي تبتسم لزميلها: أظن أن هذه المادة قد تحمل الإجابة عن سؤالك. هل تذكر «معبد القديس جنّارو»؟

سأل الفارو: من فضلك، أنعشي ذاكرتي.

ــ كان القديس جنّارو، أسقف «مدينة بينيفنتو»، قد مات شهيداً عام 300 وبضعة أعوام قرب «وتسوولي»، إبان اضطهاد «ديوكلسيانوس الكبير». أنا أعفيك من التفاصيل التي تغني سيرة هذا القديس. لقد حكم «تيموتاوس» حاكم كميانيا الروماني بالموت على جنّارو. وبعد خروجه سالماً معافى من المحرقة ومقاومته الأسود التي أبت افتراسه، ضُربت عنقه، إذ قطع الجلاّد رأسه

وإحدى أصابعه. وكما درجت العادة في تلك الحقبة، جمعت نسيبة له دمه وملأت الحنجورين اللذين أقيم بهما قداسه الأخير. وقد تم غالباً نقل رفات هذا القديس. في مطلع القرن الرابع، عندما نقلت ذخائر الأسقف إلى «انتينيانو»، كانت نسيبته التي احتفظت بالقارورتين الصغيرتين قد قرّبتهما من رفات الأسقف، فسال الدم الجاف الذي كانتا تحويانه. وتكررت الظاهرة في 1492 حين نقلت الجثة إلى كنيسة القديس جنّارو التي كرست لاسمه. منذ ذلك الحين، وسَيَلان دم جنّارو يشكل موضع احتفال في حضور رئيس أساقفة «نابولي». يحتفل أبناء هذه المدينة بالذكرى السنوية لاستشهاده في العالم أجمع. إن الدم الجاف المحفوظ ضمن حنجورين محكمي السد يُعرض أمام آلاف المؤمنين، فيسيل ويأخذ أحياناً حتى في الغليان.

سألتُ كيرا: كيف تعلمين ذلك؟

ــ بينما كنت تقرأ «شكسبير»، كنت أنا أقرأ «الكسندر دوما».

ــ وكما جرى للقديس جنّارو، هل تحوي هذه الكرة شبه الشفافة التي عثرت عليها في الحفرة دم الذي يرقد فيها؟

ــ من الجائز أن المادة الحمراء المتجمدة التي نراها

داخل الكلة أن تكون دماً، وإذا تأكد ذلك فقد يعتبر أعجوبة أيضاً. وهكذا سنتمكن تقريباً من معرفة كل ما يمّت بصلة إلى ذلك الرجل، عمره وخصائصه البيولوجية. لو استطعنا حمل حمضه النووي على الكلام، لما بقي أمره سراً مكنوزاً بالنسبة إلينا. لا بد الآن من نقل هذه المادة إلى مكان آمن والقيام بتحليل مضمونها في أحد المختبرات المتخصصة.

سألتها: ومن تنوين أن تكلّفيه الاضطلاع بمثل هذه المهمة؟

حدّقت فيّ كيرا تحديقاً نمّ عن نياتها.

فأجبتها، قبل أن تبادر إلى الكلام: ليس أحداً غيرك أنتِ! إنها مسألة لا جدال حولها.

ــ أدريان، لا أستطيع توكيل إريك بذلك، وإن غادرت فريقي مرة ثانية، فإنهم لن يغفروا لي ذلك.

ــ أنا لا أكترث لزملائك، لأبحاثك، لهذا العمود الفقري ولا حتى لهذه الكلة! وإن حدثت لك حادثة فلن أغفر لك ذلك أيضاً! لن أغادر هذا المكان من دونك، ولو من أجل أهم اكتشاف علمي أياً كان.

ــ أدريان، أرجوك!

ـ اسمعيني جيداً، كيرا، ما عندي لأقوله لك يتطلب مني جهوداً كبيرة ولن أعمد إلى تكراره على نفسي. لقد كرّست القسم الأكبر من حياتي في رصد المجرات والبحث عن أتفه آثار اللحظات الأولى للكون. كنتُ أظنني الأفضل في هذا المضمار، والأكثر طليعية، والأشد وقاحة. كنت أعتقد نفسي عالماً بكل المسائل وفخوراً بكوني كذلك. ولكن حين فكرت بأني فقدتك، قضيت ليالي مرفوع الرأس نحو السماء، عاجزاً عن تذكّر اسم نجمة واحدة. أنا أسخر من عمر هذا العمود الفقري، ولا أبالي بما سيُعلمنا عن الجنس البشري، أن يكون عمره مائة سنة أو أربعة ملايين سنة فالأمر كله سيّان عندي إن لم تكوني أنت هناك.

كنتُ نسيت كلياً حضور ألفارو الذي سعل، وقد أحس ببعض الانزعاج.

قال: لا أريد أن أتدخل في أموركما، ولكن بالاكتشاف الذي قدّمته لنا تواً، يمكنك أن تعودي أدراجك في غضون ستة أشهر وتطلبي مني أن نتسابق بكيس بطاطا حول «ماشو بيكشو»(1)، وأنا مستعد لأن أراهن أن الجميع سيتبعونك وأكون أنا أولهم.

شعرتُ بتردد كيرا، فنظرت إلى العظام المتحجرة في الأرض.

صرخ ألفارو: يا الهي! بعد ما أقدم هذا الرجل على قوله لك، تفضلين تمضية لياليك إلى جانب عمود فقري؟ انصرفي من هنا وارجعي مسرعة لتخبريني ما تتضمنه هذه الكلة من الراتنج!

مدّت كيرا يدها إلي كي أساعدها على الخروج من الحفرة، وشكرتْ ألفارو.

ــ هيا انطلقي، قلتُ لك! أطلبي من نورمان أن يوصلك إلى جينكا، إنك تستطيعين الوثوق به، فهو إنسان رصين. وسأشرح كل شيء للآخرين عندما تنصرفين.

بينما كنت أجمع متاعي، توجهت كيرا للحديث إلى نورمان. لحسن الحظ، كان سائر أفراد الفريق قد غادروا المخيم قاصدين النهر للانتعاش بمائه. اجتزنا نحن ثلاثتنا الفسحة المكسوة بالعشب تحت الأشجار، ولما وصلنا أمام السيارة الرباعية الدفع، كان هاري في انتظارنا مكتوف اليدين.

قال، شاخصاً ببصره إلى كيرا: هل ترحلين أيضاً من دون أن تودعيني؟

ــ كلا، هذه المرة، لن يطول غيابي إلا بضعة أسابيع، وسأعود قريباً.

أجاب هاري: لن انتظرك هذه المرة في جينكا لأنك لن ترجعي، أعرف ذلك.

ــ إني أعدك بعكس ذلك، هاري، فأنا لن أتخلى عنك أبداً؛ المرة القادمة سوف أصطحبك معي.

ــ لا شأن لي في بلدك. أنت التي تمضين وقتك بحثاً عن الموتى، يجب أن تعلمي أن مكاني هنا حيث والداي الحقيقيان مواريان في التراب، أنا أرضي هنا. اذهبي الآن.

اقتربت كيرا من هاري.

ــ هل تكرهني؟

ــ كلا، إنما أنا حزين ولا أريد أن تريني حزيناً، لذا اذهبي.

ــ أنا كذلك حزينة، يا هاري، يجب أن تصدّقني، لقد عدتُ مرة، وسأعود من جديد.

ــ إذاً قد أذهب إلى جينكا، ولكن من حين لآخر فقط.

ــ هل تقبّلني؟

ــ على فمكِ؟

أجابت كيرا، مغربة في الضحك: لا، ليس على فمي، يا

هاري.

ـ إذاً، أنا الآن شيخ عجوز، لكني أريدك أن تضميني بين ذراعيك بقوة.

احتضنت كيرا هاري بين ذراعيها طابعة قبلة على جبينه، فيما انطلق الصبي ناحية الغابة دون أن يلوي على شيء.

قال نورمان: إذا سارت الأمور على ما يرام، سنصل إلى جينكا قبل ناقلة البريد. تستطيعان الرحيل على متنها، فأنا أعرف الطيار. ينبغي أن تبلغا أديس أبابا في الوقت المناسب لكي تدركا الطائرة المتوجهة إلى باريس، وإلا فهناك دائماً رحلة الطيران إلى فرانكفورت التي تقلع أخيرا، وأنتما متأكدان من إدراكها.

بينما كنا نسير على المدرج، استدرتُ نحو كيرا، وفكرة تجول في رأسي.

ـ ماذا كنت فعلت لو لم يدافع ألفارو عني؟

ـ لماذا تسألني هذا السؤال؟

ـ لأني شاهدت نظرتك تتنقّل من هذا العمود الفقري إلي، فتساءلت أي منا نحن الاثنين يروقك أكثر.

ــ أنا داخل هذه السيارة، وهذا لا بد أن يجيب عن سؤالك.

ــ أواه، تمتمتُ ملتفتاً من جديد صوب الطريق.

ــ ما هذه الــ «اواه» ... هل كنت ترتاب في موقفي؟

ــ لا، لا.

ــ لو لم يكلّمني ألفارو، لربما كنتُ تغطرست ومكثت هناك، ولكن، بعد عشر دقائق على رحيلك، كنتُ توسلت إلى أحدهم ليوصلني إلى سيارة الدفع الرباعي الثانية من أجل اللحاق بك. هل أنت سعيد الآن؟

باريس

كان أشبه بسباق مجنون للنجاح في الصعود على متن طائرة باريس. حينما تقدّمنا من مكتب الخطوط الجوية الفرنسية، كانت عمليه إركاب المسافرين قد تمت تقريباً. لحسن الحظ كان لا يزال هناك نحو عشرة أماكن شاغرة وقبلت مضيفة لطيفة أن تعبر بنا أجهزة الأمان مخترقين رتل الركاب الطويل الذين ينتظرون دورهم. ونجحت، قبل أن تغادر الطائرة مؤخر المطار، في إجراء مكالمتين وجيزتين، واحدة مع والتر الذي أيقظته وسط الليل، وأخرى مع إيفوري الذي لم يكن نائماً. وطرحتُ عليهما، وأنا أعلن عن عودتنا إلى أوروبا، السؤال نفسه: أين يمكننا أن نجد المختبر الأكثر كفاءة لإجراء اختبارات معقدة على الحمض النووي؟

رجانا إيفوري الالتحاق بمنزله منذ وصولنا. وفي السادسة صباحاً، أوصلتنا سيارة تاكسي من مطار شارل ديغول إلى جزيرة سان لويس. فتح إيفوري لنا الباب وهو في رداء النوم.

قال لنا: ما كنت عارفاً بالضبط متى ستصلان، وقد تركت نفسي أفاجأ بالنوم مؤخراً.

انكفأ إلى المطبخ ليعدّ لنا القهوة ودعانا إلى انتظاره في قاعة الاستقبال، ثم عاد وفي يده صينية وجلس على متكأ قبالتنا.

ــ ماذا وجدتما إذاً في إفريقيا؟ إني لم أستطع النوم بسببكما، فمن المستحيل أن يطبق لي جفن بعد اتصالكما.

أخرجت كيرا الكلة من جيبها وقدمتها إلى الأستاذ العجوز. رتّب إيفوري نظارتيه وتفحص المادة ببالغ الاهتمام.

ــ أهي عنبر؟

ــ ما زلتُ أجهل كل شيء، لكن اللطخ الحمراء في الداخل هي على الأرجح دم.

ــ يا للأعجوبة! أين وجدتماها؟

أجبت: في الموقع الدقيق الذي حددته القطع.

أردفت كيرا: فوق القفص الصدري لعمود فقري أخرجناه من القبر.

هتف إيفوري: لكنه اكتشاف عظيم!

واتجه ناحية مكتبه، ففتح درجاً وأخرج منه ورقة.

ـ ها هي ذي الترجمة الأخيرة التي قمت بها للنص المكتوب باللغة الغيزية، إقرآها.

تناولتُ الوثيقة التي كان إيفوري يهزها تحت أنفي وقرأت بصوت عالٍ:

«لقد فصلتُ أسطوانة الذكريات، وأودعت معلمي المستوطنات الأجزاء التي توحّدها. لتبقَ ظلال الأبدية مخفيةً، تحت ثلاثيات الزوايا المرصعة بالنجوم،. ولا يعلم أحد أين يقوم الناووس. ليل أحدهم هو حارس الأصل. فليمتنع كل واحد من إيقاظه، عند اجتماع الأزمنة الخيالية سترتسم نهاية البيدر».

قال الأستاذ العجوز: أعتقد أن هذا اللغز يتخذ من الآن فصاعداً كل معناه، أليس كذلك؟ بفضل حرتقة أدريان في «فريج» جعلنا الاسطوانة تتكلم، الأسطوانة التي دلتنا على موقع قبر. الناووس الشهير حيث تم اكتشافه على الأرجح في الألف الرابع قبل الميلاد. أولئك الذين أدركوا أهميته فصلوا الأجزاء وحملوها إلى أقاصي الأرض.

وسألت: ما الغاية من ذلك؟ لماذا مثل هذه الرحلة؟

ـ حتى لا يعثر أحد على الجثة التي أخرجتماها إلى النور، والتي وجدتما عليها اسطوانة الذكريات. همس

إيفوري مقطّباً حاجبيه «ليل أحدهم هو حارس الأصل».

أمسى وجه الأستاذ العجوز شاحباً، وأخذ عرق ناعم يقطر من جبينه.

سألت كيرا: هل هناك ما يزعجك؟

قال، وابتسامة ساحرة علت شفتيه: لقد كرّست له كل حياتي، وتمكنتما أخيراً من العثور عليه، فيما لم يكن أحد يريد تصديقي، إنني على أحسن ما يرام، ما كنت يوماً في مثل هذه الحال من الراحة.

لكن الأستاذ العجوز وضع يده على صدره وجلس على المتكأ، وهو شاحب اللون.

قال: لا أشكو شيئاً، إنه مجرد حادث إرهاق. إذاً، كيف هو؟

سألته: من هو؟

ــ تباً لك، هذا العمود الفقري!

أجابت كيرا، وقد بدأت تقلق على حالة إيفوري: إنه متحجر كلّياً وفي وضع سليم على نحو غير مألوف.

أنَّ الأستاذ منحنياً على نفسه.

قالت كيرا: أطلب الإسعاف.

أمر الأستاذ: لا تطلبي أحداً، أؤكد أن هذا لن يدوم. اسمعيني، أمامنا وقت قليل. إن المختبر الذي تبحثان عنه موجود في لندن، وقد كتبت لكما العنوان على عجل في دفتر الملاحظات عند المدخل. ضاعفا حذركما، لأنهم لو علموا بما اكتشفتما لما تركوكما تصلان إلى هدفكما، إنهم لن يُحجموا عن شيء. وأنا آسف لتعريضكما للخطر، لكن الأوان قد فات الآن.

سألتُه: ومن هم هؤلاء الناس؟

ــ لم يعد الوقت يسنح لي لشرح ذلك، فهنالك ما هو أكثر استعجالاً.

ــ أرجوكما خذا النص الآخر من درج مكتبي الصغير.

وانهار إيفوري على السجاد.

التقطت كيرا جهاز الهاتف الموضوع فوق الطاولة الواطئة وطلبت رقم الإسعاف، لكن إيفوري شد على السلك وانتزعه.

ــ ارحلا من هنا، أرجوكما!

جثت كيرا بقربه ووضعت وسادة تحت رأسه.

ــ ليس موضوع نقاش أن نتركك وحدك، هل تسمعني؟

ــ إني معجب بك، وأنت أشد عناداً مني. ما عليك إلا أن تدعي الباب مفتوَحاً، واطلبي الإسعاف لدى انصرافكما. ثم قال شادّاً على صدره:

ــ يا إلهي، كم هو مؤلم! أرجوكما تابعا ما لم أعد قادراً على إنجازه، إنكما لامستما الهدف.

ــ أي هدف، إيفوري؟

ــ لقد حققتما، يا عزيزتي، أروع اكتشاف ممكن، الاكتشاف الذي سيحسدكما عليه جميع زملائكما. إنكِ عثرت على الرجل الصفر، الأول بيننا، وكلة الدم هذه التي في حوزتكما ستقدّم الدليل على ذلك، لكنكما ستريان ــ إن لم أكن مخطئاً ــ أنكما ما بلغتما خاتمة مفاجآتكما. النص الثاني، في مكتبي، وأدريان على علم به. لا تنسياه، سيؤول الأمر بكما إلى إدراك الحقيقة.

غاب إيفوري عن الوعي، ولم تسمع كيرا توصياته الأخيرة، بل طلبت الإسعاف عبر هاتفي الخلوي، بينما كنت أنا أفتّش خزانة المكتب.

عند خروجنا في المبنى، انتابنا شعور بالندم:

ـ لم يكن ينبغي أن نتركه وحده هناك.

ـ لقد طردنا...

ـ ليحمينا. هيا تعال نصعد ثانية.

في البعيد، تردد صوت صفارة إنذار وراح يقترب ثانية تلو أخرى.

قلت لكيرا: دعينا نصغي إليه لمرة واحدة، فلا نتخلّف في الشارع.

كانت سيارة تاكسي تصعد رصيف أورليان، فأوقفتها طالباً من سائقها أن يوصلنا إلى محطة الشمال. نظرت كيرا إلي مذهولة، فأريتها الورقة التي انتزعتها من دفتر الملاحظات عند مدخل شقة إيفوري قبل أن نغادرها. كان العنوان الذي خطّه على عجل يحيل إلى لندن «الجمعية البريطانية للبحث الوراثي، 10 هامر سميث غروف».

لندن

كنتُ قد أعلمت والتر بوصولنا، فجاء يبحث عنا في محطة «سانت بنكراس». كان ينتظرنا عند أسفل السلم المتحرك، يداه وراء معطفه الواقي من المطر.

قلت له عندما رأيته: لا يبدو أنك ذو مزاج رائق؟

ـ تصور أني نمت ليلتي قلقاً، وتتساءل من المذنب!

ـ آسف لأني أيقظتك.

قال، وهو يمعن النظر فينا: لا تبدو عليكما سيماء العافية.

ـ لقد أمضينا الليل في الطائرة ولم تكن هذه الأسابيع الأخيرة مريحة بوجه خاص. وسألت كيرا: ماذا لو نذهب الآن؟

قال والتر، متوجهاً بنا نحو رتل سيارات التاكسي: وجدتُ العنوان الذي سألتماني عنه. لن أكون على الأقل ضيعت نومي مقابل لا شيء. آمل أن يكون ذلك على جانب من الأهمية.

سألته، وأنا أتسلّق متن العربة السوداء: ألم تعد لديك

سيارتك الصغيرة؟

أجابني: خلافاً للعديد ممن لن أذكرهم بالاسم، أستمع إلى النصائح التي يوصيني بها أصدقائي. لقد قمت ببيعها وإني في صدد تهيئة مفاجأة لكما، ولكن في ما بعد. 10 هامر سميث، قال للسائق. إننا نذهب إلى الجمعية الإنكليزية للأبحاث الوراثية، إنه المكان الذي كنتم تبحثون عنه.

قررت الاحتفاظ بورقة إيفوري في قعر جيبي وبعدم ذكرها لوالتر...

فسأل: إذاً، هل لي أن أعرف ماذا سنفعله هناك، أ لعله اختبار أبوة؟

أرته كيرا الكلة، فتفحصها والتر ملياً، ثم قال:

ـــ مادة جميلة، وما هذا الشيء الأحمر في وسطه؟

أجابت كيرا: دم.

وُفّق والتر في أخذ موعد لنا مع الطبيب «بوانكرنو»، المسؤول عن وحدة الحمض النووي الخاص بالعصر الجيولوجي القديم، فقال لنا ساخراً: فتحت الأكاديمية الملكية العديد من الأبواب لماذا نحرم أنفسنا منها؟

ـ سمحتُ لنفسي برفض التعريف بصفاتكما الخاصة بكل منكما. اطمئنا، لم أتوسع حول طبيعة أعمالكما، ولكن اضطررت، للحصول على مقابلة في مهلة قصيرة كهذه، أن أبيّن أنكما قادمان من أثيوبيا وفي حوزتكما أشياء خارقة ترغبان في تحليلها. ما كان في وسعي أن أقول المزيد لأن أدريان تحاشى أن يخبرني بأي شيء!

ـ كانت أبواب طائرتنا تنغلق، وكان لدي قليل من الوقت، ثم خيّل إلي أني أيقظتك من النوم...

رمقتني والتر بنظرة محرقة.

ـ هل تخبراني بما اكتشفتماه في إفريقيا، أم أنكما ستتركاني أموت أبله؟ يحق لي مع ذلك، نظراً للجهد الذي أبذله في سبيلكما، أن أحظى بالاطلاع قليلاً. فأنا لست إلا سمساراً، سائقاً، ساعي بريد...

قالت له كيرا، مربّتة بحنان على ركبته: لقد عثرنا على عمود فقري لا يصدّق.

ـ وهذا الذي يجعلكما كليكما في مثل هذه الحال؟ عظام متحجرة؟ لا بد أنكما كنتما متقمصين في هيئة كلبين في حياة سابقة. هذا، وإن لك رأس كلب اسبانيولي، يا أدريان، ألا ترين ذلك، كيرا؟

سألته، مهددة إياه بسجل يومياتها: وأنا، لي رأس «كوكر»[1] في رأيك؟

ـ لا تقوّليني ما لم أقله!

اصطفت سيارة التاكسي أمام الجمعية الانكليزية للأبحاث الوراثية. كان المبنى ذا طراز حديث والغرف تتسم بترف مميز كفاية. وكانت ممرات طويلة تفضي إلى قاعات فحص مزودة بالعديد من التجهيزات: أنابيب امتصاص مدرّجة، آلات نابذة، مجاهر الكترونية، غرف مبّردة، بدت القائمة لا آخر لها. وحول هذه الآلات الحديثة، حشد من الباحثين يرتدون بزات حمراء ويعملون بهدوء مؤثر. اصطحبنا بوانكرنو لزيارة الغرف شارحاً لنا سير العمل في المختبر.

ـ لأعمالنا مجالات علمية واسعة. كان أرسطو يقول: «هو حي كل ما يتغذى وينمو ويهلك من تلقاء نفسه». وهذا يعني: «هو حي كل ما يحوي في ذاته برامج، أي نوعاً من الطرائق والقواعد الخاصة بالمعلوماتية». يجب أن يتمكن الجسم من التطور متجنباً الاضطراب والفوضى، ولبناء شيء متماسك لا بد من مخطط. أين تخفي الحياة مخططها؟ في الحمض النووي. افتحوا أي نواة لخلية، تجدوا خيوط الحمض النووي التي تنطوي على كل المعلومة الوراثية

لنوع ما في رسالة مرمّزة لا محدودة. الحمض النووي هو دعامة الوراثة، بشن حملات واسعة لأخذ عينات من الخلايا لدى مختلف شعوب الكرة الأرضية. أقمنا صلات قرابة لا تخطر في البال وعرضنا، عبر الأجيال، هجرات البشرية الكبرى، وقد ساعدتنا دراسة الحمض النووي عند آلاف الأفراد على توضيح آلية التطور بحسب هذه الهجرات. فالحمض النووي يقوم بنقل معلومة من جيل إلى جيل، وهكذا يتطور البرنامج ويطوّرنا. نحن جميعاً نتحدر من كائن وحيد، أليس كذلك؟ فالارتقاء إليه يؤدي إلى اكتشاف منابع الحياة. ونجد لدى «الانوويين»[2] علاقات وراثية مع شعوب شمال سيبيريا. وهكذا نبيّن لهؤلاء وأولئك من أين انطلق أجدادهم... وكذلك ندرس الحمض النووي للحشرات والنباتات. وقد أنطقنا مؤخراً أوراق «شجرة منيوليا» عمرها عشرون مليون سنة. ونعرف اليوم استخلاص الحمض النووي من حيث لا يتصور المرء أنه بقي فيه أي أثر له.

أخرجت كيرا الكرة من جيبها وقدّمتها إلى بوانكارنو.

فسأل: أهو عنبر؟

ـ لا أظن، إنه على الأرجح راتنج اصطناعي.

ـ كيف يكون ذلك اصطناعياً؟

ـ إنها حكاية طويلة، أبإمكانك دراسة ما في الداخل؟

ـ بشرط أن نتوصل إلى اختراق المادة التي تحيط بها. اتبعوني! قال بوانكرنو الذي كان ينظر إلى الكرة، وهو حائر أكثر فأكثر.

كان المختبر غارقاً في شبه عتمة ضاربة إلى الحمرة. أشعل بوانكرنو النور، بدأت أضواء النيون تئز في السقف. جلس على كرسي بلا مسند وثبّت الكرة بين فكّي ملزمة صغيرة. وحاول بشفرة مبضع أن يحزّ السطح ولكن سدى، فصفّ أداته واستعاض عنها بسن ألماسة لم تتمكن حتى هي من تحزيز الكرة. فاضطر الطبيب إلى تغيير القاعة والطريقة، لاجئاً هذه المرة إلى الليزر وانقضّ به على الكرة، لكن النتيجة ما كانت أشد إقناعاً على الإطلاق.

قال: حسناً، آخر الدواء الكي، هيا اتبعوني!

دخلنا غرفة عازلة، حيث سلّمنا الطبيب بزّات غريبة، غطّتنا من قمة الرأس إلى أسفل القدمين، ولم يكن شيء ناتئاً، لا نظارتان ولا قفازان أو قلنسوة.

سألت من وراء الكمامة الملتصقة بفمي: هل سنجري عملية جراحية لأحدهم؟

ـ لا، ولكن يجب تحاشي تلويث أخذ العينة بأي حمض نووي غريب، بحمضك النووي مثلاً، سندخل إلى غرفة معقمة.

جلس بوانكرنو على كرسي أمام حوض محكم السد. وضع الكرة في القسم الأول المستقل وأغلقه، ثم غمر يديه في قفازين من المطاط وراح يعمل من الداخل كي ينقلها إلى القسم الثاني من الحوض، بعدما تم تنظيفه. ثبت الكرة على قاعدة وأدار صماماً صغيراً، فاجتاح القسم سائل شفاف.

سألتُ: ما هذا؟

أجابت كيرا: «آزوت» سائل.

أضاف بوانكرنو: 195.79 درجة مئوية تحت الصفر. إن حرارة الآزوت السائل المتدنية جداً تحول دون تفعيل عمل الأنزيمات القادرة على إتلاف الحمض النووي، أو البروتينات المراد استخراجها. والقفازان اللذان أستعملهما عازلان نوعيان لتلافي الحروق. لن يلبث غشاء الكرة أن يتشقق.

للأسف، لم يحدث شيء، لكن بوانكرنو، الحائر باطراد إزاء الواقع، لم يكن مستعداً للاستسلام.

ـ سأخفض الحرارة جذرياً باستعمال الهليوم 3. هذا الغاز يسمح بالاقتراب من الصفر المطلق. فإذا قاومت مادتكم هذه مثل هذه الصدمة الحرارية أتخلى عن المحاولة، ولن يبقى عندي حل آخر.

أدار بوانكرنو صنبوراً صغيراً، فلم يحدث شيء ظاهر. وقال لنا:

ـ الغاز غير مرئي، لننتظر بعض الثواني.

كنا، أنا، والتر وكيرا، قد ثبتّنا أنظارنا على زجاج الحوض حابسين أنفاسنا. ما كنا قادرين على البقاء عاجزين هكذا، بعد جهود عديدة، حيال القشرة غير المنتهكة لإناء صغير بهذا الحجم. ولكن فجأة، تشكّلت إصابة طفيفة جداً على الجدار شبه الجاف. وكان كسر بسيط قد حزّز الكرة. ألصق بوانكرنو عينيه بعيني مجهره الالكتروني وعالج بيده إبرة دقيقة. وهتف مستديراً ناحيتنا:

ـ لقد نجحت بأخذ عيّنة من مادتكم! سنتمكن من مباشرة التحاليل، لكن ذلك سيستغرق بضع ساعات. سأستدعيكم حالما نحصل على نتيجة ما.

تركناه في مختبره وخرجنا عبر الغرفة العازلة بعد التخلي عن بزاتنا.

اقترحتُ على كيرا العودة إلى البيت، فذكرتني بتحذيرات إيفوري وسألتني إن كان هذا الاقتراح ينطوي فعلاً على حكمة. عرض علينا والتر إيواءنا، لكني كنت راغباً في الاستحمام وفي ثياب نظيفة. افترقنا على الرصيف، فاستقل والتر القطار الكهربائي للالتحاق بالأكاديمية فيما ركبنا أنا وكيرا سيارة تاكسي باتجاه «ساحة كريس ول».

كان المنزل مغبراً، والثلاجة فارغة قدر المستطاع، وأغطية الغرفة مثلما تركناها. كنا مرهقين، وبعدما حاولنا إضفاء شيء من الترتيب، نمنا بين ذراعي بعضنا.

أيقظنا جرس الهاتف، ففتشت على غير هدى عن الجهاز ورفعت السماعة. بدا والتر هائجاً هيجاناً شديداً.

ــ وأخيراً ماذا تفعلان؟

ــ تصوّر أننا كنا نائمين وأيقظتنا، وبذلك أصبحنا متخالصين.

ــ هل نظرتما إلى الساعة؟ أنا بانتظاركما في المختبر منذ خمس وأربعين دقيقة، أي ذنب ارتكبت إن كنت اتصلت بكما؟

ــ كان السبب عدم سماعي هاتفي الخلوي، ما الذي يستوجب العجلة؟

ـ بالضبط، رفض الطبيب بوانكرنو قوله لي في غيابكما، لكنه اتصل بي في الأكاديمية طالباً مني المثول إلى المختبر بأقصى السرعة، ارتديا ثيابكما إذاً والحقا بي.

أقفل والتر الخط في وجهي. أيقظت كيرا وأخبرتها بأنهم ينتظروننا بإلحاح في المختبر. فوثبت إلى بنطالها ولبست كنزة صوف ومضت تنتظرني في الشارع، بينما كنت أغلق نوافذ المنزل. كانت الساعة السابعة مساء عندما وصلنا إلى «هامر سميث غروف». كان بوانكرنو يذرع قاعة المختبر الخالية جيئة وذهاباً.

تمتم قائلاً: لقد تأخرتما في المجيء، اتبعاني إلى مكتبي، بجب أن نتحادث.

أجلسنا قبالة جدار أبيض، أسدل الستائر مطفئاً النور ومشعلاً ضوءاً كاشفاً.

كانت الصورة الأولى الشفافة التي عرضها علينا تشبه مستعمرة لعناكب ملتصقة بشبكتها.

ـ ما شاهدته ينمّ عن استحالة مطلقة وأنا في حاجة لأعرف إن كان هذا خداعاً ضخماً أو مقلباً سيئ النكهة. وافقتُ هذا الصباح على استقبالكما مراعاة لمزاياكما الخاصة ولتوصيات الأكاديمية الملكية، لكن هذا يتخطى

الحدود ولن أعرّض سمعتي للخطر لأشهد لمحتالين يضيّعان وقتي عبثاً.

كنا أنا وكيرا نجد صعوبة في استيعاب حدة بوانكرنو.

سألته كيرا: ماذا اكتشفت؟

ــ قبل الإجابة عن سؤالك، أخبريني أين وجدت كرة الراتنج هذه، وفي أية ظروف؟

ــ في قعر ضريح يقوم إلى شمال وادي أومو. كانت ترتكز على قص عمود فقري بشري متحجر.

ــ مستحيل، أنت كاذبة!

ــ إسمع، سيدي الطبيب، شأني شأنك أنت، ليس لدي وقت أهدره، وإذا كنتَ تعتقد أننا محتالان فأنت حرّ! أدريان عالم فيزياء فلكية شهرته مكتملة، وأنا أتمتع ببعض الحسنات التي ينبغي أن أبرزها. إذاً، لو بيّنت لنا ما تتهمنا به!

ــ آنستي، في وسعك أن تغطي جدران مكتبي بشهاداتك، فلن يغير الأمر شيئاً ما. ثم قال وهو يُظهر صورة شفافة ثانية: ماذا ترين في هذه الصورة.

هنيّات وخيوط حمض نووي دقيقة.

ـ أجل، في الواقع، هذا هو بالضبط.

فسألته: وهل يسبب هذا مشكلة لك؟

ـ لعشرين سنة خلت، تمكنا من أخذ عيّنة وتحليل الحمض النووي لسوسة محفوظة في العنبر. كانت الحشرة قادمة من لبنان، وقد اكتشفت بين «جزين» و«دار البيضاء» حيث علقت في العنبر. كانت قدمها المتحجرة حافظت على كامل هيئتها. كان عمر هذه الحشرة مائة وثلاثين مليون سنة. إنك تتصور كل ما أمكننا تعلّمه من هذا الاكتشاف الذي يشكل، حتى يومنا هذا، الشهادة الأقدم على جسم حي معقد.

قلت: أنا مغتبط من أجلكم، ولكن ما علاقة ذلك بنا؟

تدخل والتر: أدريان على حق، وأنا لا أرى أبداً أين تكمن المشكلة.

ـ المشكلة، أيها السادة، أردف بوانكرنو بجفاء، أن الحمض النووي الذي طلبتم مني دراسته هو أقدم ثلاثة أضعاف، هذا في كل حال ما بيّنه لنا علم الطيف. من المحتمل أن يرقى عمره حتى إلى أربعمائة مليون سنة!

قلت، وكلني حماس: إنه لاكتشاف خارق.

ــ وهذا أيضاً ما كنا نعتقده عند مستهل بعد الظهر، حتى ولو أبدى بعض زملائي الذين ناديتهم في الحال الريبة. إن الهنيّات التي ترونها في هذه الصورة الثالثة هي في حالة ممتازة بحيث أنها أثارت بعض التساؤلات. ولكن فليكن، ولنفترض أن هذا الراتنج الخاص الذي لم نتمكن البتة من تحديده، قد حماها طوال كل هذا الزمان، وهو ما أشك فيه تماماً. والآن، أنظروا جيداً إلى هذه الصورة الشفافة، إنها تضخيم للصورة السابقة عبر المجهر الالكتروني. اقتربوا من الحائط، أرجوكم، أوّد ألا يفوتكم هذا المشهد أيّاً كان العذر.

اقتربنا أنا وكيرا ووالتر، كما طلب مني بوانكرنو.

ــ إذاً، ماذا ترون؟

أعلنت كيرا مضطربة بصورة ظاهرة: إنها صبغية من نوع [3]x، أي أن الإنسان الأول كان امرأة!

ــ أجل، بكل تأكيد، فالعمود الفقري الذي عثرتم عليه هو لامرأة وليس لرجل، ولكن لا تظنوا أني غاضب بسبب ذلك، أنا لست كارهاً للنساء.

وشوشتني كيرا: ما زلت لا أفهم، إنه لشيء خارق، هل تلاحظ ذلك. وقالت له مبتسمة: لقد وُلدت حواء قبل آدم.

أضفتُ: سوف تتلقى أنانية الرجل صفعة فذة.

أردف بوانكرنو: يحق لكم أن تعمدوا إلى المزاح، ولكن هناك ما هو أشد غرابة! عاينوا عن قرب وقولوا لي ماذا تلاحظون.

ــ لا رغبة لي في اللعب بالألغاز، سيدي الطبيب، هذا الاكتشاف مثير، إنه بالنسبة إلي حصيلة عقد من العمل والتضحيات، إذاً قل لنا ما الذي يزعجك، سنربح كلناً وقتاً، وأظنني فهمت أن وقتك ثمين جداً.

ــ آنستي، قد يكون اكتشافكم خارقاً في ما لو سلّم التطور بعودة إلى الوراء، لكنك تعرفين جيداً مثلي أن الطبيعة تريد أن نتقدم... لا أن نتراجع. الحال أن هذه الصبغيات التي نشاهدها هنا هي أكثر تهيئة من صبغياتك وصبغياتي!

سأل والتر: وكذلك من صبغياتي!

ــ أكثر تطوراً من صبغيات جميع البشر الأحياء اليوم.

تابع والتر قوله: آه، ما الذي يدفعك إلى قول ذلك؟

ــ هذا الجزء الصغير هنا، الذي ندعوه بديلاً، هو جينات متموضعة على كل عضو بزوج من الصبغيات

المتجانسة. هذه الأخيرة تم تعديلها جينياً، وأشك أن يكون شيء مماثل أمكن تصوره قبل أربعمائة مليون سنة. فلو شرحتم لي الآن الطريقة التي لجأتم إليها لإتمام هذه المسرحية الهزلية، إلا إذا كنتم تفضلون أن أرجع مباشرة إلى مجلس إدارة الأكاديمية؟

جلست كيرا على كرسي، وقد أذهلها ما سمعت.

فسألت: لأي هدف تم تعديل هذه الصبغيات؟

ــ ليست المعالجة الجينية حديث اليوم، ولكن سأجيب عن سؤالك. نحن نختبر هذا النوع من التدخل على الصبغيات بهدف الوقاية من الأمراض الوراثية أو بعض أنواع السرطان، وإحداث تغييرات، والسماح لنا بمواجهة ظروف حياتية تتطور بوتيرة أسرع منا. التدخل في مجال الجينات هو، نوعاً ما، تصحيح لطريقة حلّ مسائل الحياة، وإصلاح بعض الاختلالات، منها تلك التي نتسبب بها. باختصار إن الفوائد الطبية غير محدودة، ولكن ليس هذا ما يهمنا هذا المساء. هذه المرأة التي اكتشفتموها في وادي أومو لا يمكنها أن تنتمي في الوقت عينه إلى ماض سحيق وتحوي في حمضها النووي آثار المستقبل. والآن قولوا لي لماذا مثل هذا الخداع؟ هل كنتم تحلمون بجائزة نوبل وتأملون كفالتي محاولين غشي بشكل فظّ على هذا

النحو؟

اعترضت كيرا: ليس في الأمر أي غشّ. أنا أتفهم شكوكك لكننا لم نخترع شيئاً، أقسم لك بذلك. وهذه الكرة التي حلّلت محتواها أخرجناها من التراب قبل البارحة، وصدّقني أن حال تحجّر العظام التي رافقتها لم يكن في الإمكان تزييفها. لو عرفتَ ما كبّدنا العثور على هذا العمود الفقري، لما ارتبت لحظة في صدقنا.

سأل الطبيب: أتدركون ما يفترض ذلك ضمناً لو صدّقتكم؟

بدّل بوانكرنو لهجته وبدا فجأة أنه مستعد لسماعنا. عاد إلى الجلوس مجدداً وراء مكتبه وأضاء النور.

أجابت كيرا: هذا يعني أن حواء وُلدت قبل آدم وأن أم البشرية هي بوجه خاص أقدم بكثير مما كنا نتصورها جميعنا فعلاً.

ـ لا، يا آنستي، ليس هذا وحسب. إن كانت هذه الهنيات الخيطية التي قمت بدراستها يرقى عمرها في الحقيقة إلى أربعمائة مليون سنة، هذا يفترض بالفعل أموراً كثيرة، يكون شريكك عالم الفيزياء الفلكية قد شرحها لك، لأني أتصور قبل قدومك إلى هنا تدرّبت على دورك

بمنتهى الاتقان.

قلت، ناهضاً: لم نفعل شيئاً من هذا القبيل إطلاقاً. وعن أية نظرية تتحدث؟

ــ هيا، لا تحسبوني جاهلاً أكثر مما لست فعلاً. إن الأبحاث التي نقوم بها في مهننا يتلاقى بعضها مع بعض أحياناً، كما تعرفون ذلك جيداً، إذ يتفق العديد من رجال العلم أن أصل الحياة على الأرض قد يكون ثمرة قصف لنيازك، أليس كذلك، سيدي عالم الفيزياء الفلكية؟ وأن هذه النظرية وجدت دعماً لها عندما تم اكتشاف آثار «غليسين» في ذيل مذنب. أظنكم لا تجهلون معرفة ذلك.

سأل والتر، مشدوهاً: هل تم العثور على نبتة في ذيل مذنب؟

ــ لا، ليست نبتة الغليسين (الوستارية) تلك، يا والتر، الغليسين هي أبسط الأحماض الآمينية، جزيء أساسي لظهور الحياة. إن المسبار «ستار داست» أخذ عيّنة منها في ذيل المذنّب «وايلد»، بينما كان يمر على مسافة ثلاثمائة وتسعين مليون كيلومتر من الأرض. والبروتينات التي تشكل الأعضاء كافة، والخلايا وأنزيمات الأجسام الحيّة، تتألف من سلاسل من أحماض آمينية.

ـ ولحسن حظ علماء الفيزياء الفلكية، جاء هذا الاكتشاف ليعزّز فكرة أن الحياة على الأرض وُجدت أصلاً في الفضاء حيث هي أكثر انتشاراً مما يعتقد البعض، ألا أبالغ بقولي هذا؟ أردف بوانكرنو مقاطعاً حديثي. ولكن يُعد من الجنون إيهامنا بأن الأرض كانت، نتيجة تداولات مشؤومة، مأهولة بكائنات معقدة مثلنا.

سألت كيرا: ماذا تقترح إذاً؟

ـ سبق وقلتُه لك، إن حواءكم لا يمكنها أن تنتمي إلى الماضي وتحمل خلايا معدّلة جينياً، إلا إذا كنتم تريدون أن نصدق أن الإنسان الأول، بل الإنسانة الأولى في هذه الحالة، قد وصلت إلى وادي أومو قادمة من كوكب آخر!

تدخل والتر، قائلاً: لا أريد أن أهتم بما لا يعنيني، لكنك لو أخبرتَ والدة جدتي أنه يمكن السفر من لندن إلى سنغافورة في خلال بضع ساعات، وعلى ارتفاع عشرة آلاف متر في علبة كونسروة تزن خمسمائة وستين طناً، لكانت وشت بك إلى طبيب قريتها وكنت صالحاً لدخول المأوى في وقت أقل مما يستلزم قوله! ولا أحدثك هنا عن رحلات طيران أسرع من الصوت، ولا عن الهبوط على سطح القمر، ولا كذلك عن المسبار الذي استطاع أن يأخذ عينة من أحماضك الآمينية من ذيل مذنّب على مسافة

ثلاثمائة وتسعين مليون كيلومتر من الأرض! لماذا ينبغي دوماً أن يفتقر أشد الناس علماً بيننا إلى مزيد من الخيال؟

كان والتر قد استشاط غضباً وراح يذرع الغرفة طولاً وعرضاً، ولم يكن أحد ليخاطر بمقاطعته. توقف فجأة مشيراً بأصبع متوترة إلى بوانكرنو:

ــ أنتم، رجال العلم، تمضون وقتكم في الانخداع. إنكم تعيدون النظر باستمرار في أخطاء أترابكم. عندما لا يكونون أترابك أنت، ولا تقولوا لي نقيض ذلك. لقد فقدتُ شعري وأنا أحاول تسوية ميزانيات لكي تحصلوا على المال الكافي لإعادة خلق كل شيء. وبالرغم من ذلك، كلما برزت فكرة مجددة، نسمع العبارة نفسها على الدوام: مستحيل، مستحيل ومستحيل! إنه، مع ذلك، أمر لا يصدّق! ألأن تعديل صبغيات كان من المحتمل تصوره لمائة سنة خلت؟ وهل كانوا أولوا أبحاثك أية أهمية حتى ولو كانت أجريت في مطلع القرن العشرين؟ ليس مديريَّ في كل الأحوال... لقد كانوا اعتبروك بصراحة مستنيراً لا غير. سيدي الطبيب في الهندسة الجينية، أعرف أدريان منذ شهور، وأنا أمنعك، هل تسمعني، أن ترتاب به في شأن أي غش. هل الرجل الجالس قبالتك يتسم باستقامة... تلامس أحياناً درجة الحماقة!

رمقنا بوانكرنو كلاً بدوره.

لقد بعدت عن مهنتك، سيدي وكيل إدارة أكاديمية العلوم، لقد كان حرّياً بك أن تكون محامياً! حسناً، لن أحيط مجلس إدارتك علماً، بل سنواصل دراستنا قدماً حول هذا الدم. سوف أثبت ما سنكتشفه، وذلك بالتحديد. وسيأتي تقريري على ذكر ما نكون قد اكتشفناه من حالات شاذة غير متماسكة، وسيتحاشى طرح أي فرضية ودعم أي نظرية. لكم أن تنشروا ما تستحسنوا نشره، لكنكم ستتحملون وحدكم المسؤولية الكاملة. وإذا ما قرأت في صياغة أعمالكم أي سطر يورّطني أو يتخذني شاهداً، سأدعوكم على الفور للمثول أمام القضاء، هل هذا واضح؟

أجابت كيرا: لم أطلب منك شيئاً مماثلاً. لئن قبلتَ أن تؤكد عمر هذه الخلايا وتثبتَّ علمياً من أنها قديمة ولها من العمر أربعمائة مليون سنة، فسيشكل ذلك منذ الآن إسهاماً عظيماً. اطمئن، إنه لسابق لأوانه أن نفكر في نشر أي شيء كان، واعلم أننا مدهوشون، على غرارك، لما اطّلعنا عليه، وما زلنا عاجزين عن استخلاص النتائج.

شيّعنا بوانكرنو حتى باب المختبر، ووعدنا بالاتصال بنا مجدداً في غضون بضعة أيام.

كان المطر ينهمر على لندن هذا المساء، ووجدنا أنفسنا

أنا ووالتر وكيرا على رصيف هامر سميث غروف المبلل. كان الوقت ليلاً وبارداً، وقد شعرنا بالإرهاق هذا النهار. اقترح علينا والتر بالذهاب إلى مطعم قريب، إذ كان من الصعب أن نتركه وحده.

جلس حول مائدة بجوار كوة مزجّجة، وراح ينهال علينا بالأسئلة المتلاحقة حول سفرنا إلى أثيوبيا، وكانت كيرا تروي له الوقائع بأدق تفاصيلها. انتفض والتر، وقد استهوته الرواية، عندما سردت له حادثة اكتشاف العمود الفقري. إزاء مثل هذا الجمهور اللطيف، لم تكن تداري كلامها، ما جعل صاحبي يرتعش مرات، إذ كان يتحلى بسذاجة طفل، وكانت هي تقدّر فيه هذه الخصلة تقديراً. ولما رأيتهما يغرقان في الضحك هكذا نسيتُ كل المضايقات التي عشناها خلال الأشهر الأخيرة.

سألت والتر ما الذي عناه قبل قليل متحدثاً إلى بوانكرنو، بعبارته الدقيقة التي تقول، إذا أسعفتني الذاكرة: «أدريان يتسم باستقامة تلامس أحياناً درجة الحماقة...».

أجاب، وهو يطلب قشدة مخفوقة بالشوكولا: إنك ستدفع الحساب هذا المساء أيضاً! وحذارِ أن تحتدّ، إنها نتيجة عملك الأخرق من أجل القضية العادلَة.

رجوت كيرا أن تسلّمني قلادتها، وأخرجت القطعتين

الأخريين من جيبي وأودعتها كلها لوالتر.

قال لي، متضايقاً: لماذا تعطيني كل ذلك؟ إنه لكما.

أجبته: لأنني أحياناً أتسم باستقامة تلامس درجة الحماقة. إذا تكللت أعمالنا بصدورها مطبوعة، فسيتم ذلك من ناحيتي باسم الأكاديمية التي أنتمي إليها، وأصّر على أن تكون شريكاً فيها. فقد يتيح لك ذلك أخيراً بترميم السقف فوق مكتبك. وفي انتظار أن تتحقق أمنيتك، إحفظها في مكان آمن.

وضعها والتر في جيبه، ورأيت من نظرته أنه تحت وطأة الانفعال.

وُلد من هذه المغامرة غير المعقولة حب ما كنت لأتصوره وصداقة حقيقية كذلك. فبعد أن قضيت القسم الأكبر من حياتي منفياً في أكثر بلدان العالم نأياً، وراصداً الكون بحثاً عن نجمة بعيدة، استمعت في مطعم قديم في هامر سميث إلى المرأة، التي أحب أن أحتفظ بها وضحكت مع أفضل صديق لي. هذا المساء، تحققتُ أن هذين الكائنين، القريبين جداً مني، قد غيّرا حياتي.

كل منا يكمن بداخله شيء من روبنسن وعالم جديد عليه أن يكتشفه، وأخيراً يوم جمعة لا بد أن يقابله.

كان المطعم يغلق أبوابه، فكنا آخر المنصرفين. مرت سيارة تاكسي من هناك تركناها لوالتر، لأن كيرا رغبت في التنزّه قليلاً.

انطفأت لافتة المحل وراءنا، وبدت هامر سميث غروف صامتة، لا أثر لهرّ في الأفق داخل هذا الطريق المسدود. كانت المحطة الحاملة الاسم نفسه على مسافة شوارع قليلة من هنا. وسنجد حقاً سيارة تاكسي في الجوار. محرك شاحنة صغيرة أخذ يقطع سكون الليل، وخرجت العربة من مكان توقفها. عندما وصلت إلى محاذاتنا، انفتح الباب الجانبي وخرج منه أربعة رجال مقنّعين. لم يتسع لدي ولا لدى كيرا الوقت لمعرفة ما الذي جرى لنا. لقد أمسكوا بنا بعنف، فأطلقت كيرا صرخة، لكن بعد فوات الأوان، وقذفوا بنا داخل «الفان»، بينما كانت هذه الأخيرة تنطلق بأقصى سرعتها.

عبثاً حاولنا التخلص ــ كنتُ قد تمكنت من صرع أحد مهاجميّ، فيما كادت كيرا تقلع عين الذي حاول إبقاءها ملتصقة بالأرض ــ لقد قيّدونا وكمّوا أفواهنا. ثم عصبوا أعيننا وأنشقونا غازاً منوّماً. كان ذلك، بالنسبة إلينا، آخر ذكرى لأمسية كانت، مع ذلك، بدأت بداية حسنة.

مكان مجهول

حين استعدتُ وعيي، كانت كيرا منحنية عليّ بابتسامتها الشاحبة.

سألتها: أين نحن؟

أجابتني: ليس لدي أدنى فكرة عن ذلك.

نظرت حولي وإذا بي بين أربعة جدران مبنية بالباطون، بلا أي فتحة سوى باب مصفّح، ونيون معلّق في السقف ينشر نوراً شاحباً.

سألتْ كيرا: ما الذي جرى؟

ــ لم نصغِ إلى توصيات إيفوري.

ــ لقد نمنا وقتاً طويلاً.

ــ ما الذي يدفعك إلى اعتقاد ذلك؟

ــ لحيتك، أدريان. كنتَ قد حلقت ذقنك للتو عندما تعشينا مع والتر.

ــ أنت على حق، لا بد أننا هنا منذ زمن بعيد، أشعر بالجوع واَلعطش.

أجابت كيرا: وأنا أيضاً عطشى.

نهضت وشرعت تدقدق على الباب.

صرخت: أعطونا على الأقل ما نشرب!

لم نسمع أي ضجيج.

ــ لا تجهدي نفسك، إنهم سيأتون في الوقت المحدد.

ــ أو لا يأتون.

ــ لا تتفوهي بسخافات، إنهم لن يتركونا نموت عطشاً وجوعاً في هذا السجن المظلم.

وطفقت تئن جالسة على الأرض: لا أود أن أزعجك، ولكن لم يكن لدي انطباع بأن الطلقات التي استهدفتنا في القطار العابر سيبيريا مطاطية. ولكن لماذا، لماذا يحقدون علينا إلى هذه الدرجة؟

ــ بسبب ما اكتشفتِهِ، يا كيرا.

ــ كيف تبرّر عظام متحجرة، مهما كانت قديمة، مثل هذه الضراوة؟

ــ إنه ليس أي نوع من عمود فقري، ولا أعتقد أنك أحسنتِ فهم سبب اضطراب بوانكرنو.

ــ هذا الأبله الذي اتهمنا بتزوير الحمض النووي الذي طلبنا منه أن يتفحّصه.

ــ هذا ما كنت أفكر فيه، إنك لم تدركي تمام أهمية اكتشافك.

ــ إنه ليس اكتشافي بل اكتشافنا!

ــ كان بوانكرنو يحاول شرح الإحراج الذي واجهته به التحاليل. كل الأجسام الحية تحوي خلايا، و«وحيدة الخلية» تعتبر أكثرها بساطة، أما الإنسان فيملك أكثر من عشرة مليارات منها. وجميع هذه الخلايا تتكون على النمط نفسه، انطلاقاً من مادتين أساسيتين هما: الأحماض النووية والبروتينات. هذه اللبنات في الكائن الحي منبثقة من اتحاد بعض العناصر اتحاداً كيميائياً في الماء، كالفحم والآزوت والهدروجين والأوكسجين. ها هي الحقائق اليقينية في شأن أصل الحياة، ولكن كيف بدأ كل شيء؟ هنا يأخذ رجال العلم في الاعتبار سيناريوين: إما الحياة ظهرت على الأرض بعد سلسلة من ردود الفعل المعقدة، وإما أن مواد قادمة من الفضاء بعثت آلية الحياة على الأرض. كل الكائنات الحية تتطور ولا تتراجع، فإذا كانت حواؤك الأثيوبية تشتمل على بدائل معدّلة جينياً، فإن جسمها ــ إذا جاز التعبير ــ هو أكثر تطوراً من جسمنا، وتالياً هو أمر

مستحيل، إلا إذا...

ــ إلا إذا ماذا؟

ــ إلا إذا ماتت حواء على الأرض من دون أن تكون، مع ذلك، قد وُلدت عليها...

ــ هذا غير معقول!

ــ لو كان والتر هنا لكنتِ أثرت غضبه.

ــ أدريان، أنا لم أُمض عشرة أعوام من حياتي باحثة عن الحلقة المفقودة لأشرح لأندادي أن أول ممثل للبشر قدم من عالم آخر.

ــ في الوقت الذي أحدثك فيه الآن، انزوى ستة من رواد الفضاء داخل صندوق كبير في مكان ما قرب موسكو، استعداداً لرحلة يقومون بها باتجاه المريخ. لا أخترع شيئاً من عندي، ما من صاروخ في الأفق، إنما الأمر يتعلق اليوم باختبار نظّمته «وكالة الفضاء الأوروبية» و«المعهد الروسي للمسائل البيولوجية الطبية»، وذلك لاختبار قدرات الإنسان على السفر في الفضاء لمسافات طويلة، إن نتيجة هذا المشروع المسمى «مارس 500» متوقعة خلال أربعين عاماً. ولكن ما هي أربعون عاماً بالنسبة إلى تاريخ البشرية؟ ستة رواد فضاء

سينطلقون نحو المريخ في العام 2050، مثلما قام بذلك قبل أقل من مائة عام الرائدان اللذان خطَوَا خطوات الإنسان الأولى على سطح القمر. والآن تخيلي السيناريو الآتي: في حال توفي أحدهم على المريخ، ما الذي سيفعله الآخرون في رأيك؟

ــ سيأكلون «عصرونيته»!

ــ كيرا، أرجوك كوني جادة ثانيتين فقط!

ــ آسفة، إن وجودي في زنزانة جعلني عصبية المزاج.

ــ هذا سبب إضافي كي تتركيني أغيّر أفكارك.

ــ لا أدري ما سوف يفعله الآخرون، أفترض أنهم سيوارونه التراب.

ــ تماماً! أشك أن يكونوا راغبين في السفر عائدين بجثة آخذة في التحلل على متن مركبتهم. إذاً، يدفنونه، لكنهم يجدون تحت غبار المريخ ثلجاً، كما كانت الحال بالنسبة إلى تلك القبور السومرية المكتشفة على هضبة مان ــ يويو ــ نيور.

صحّحت كيرا: ليس على وجه الدقة، إنهم طُمروا، ولكن

هنالك الكثير من هذه القبور الجليدية في سيبيريا.

ــ وهكذا كما في سيبيريا... آملين قدوم بعثة أخرى، دفن روّادنا الفضائيون مع جثمان رفيقهم معلماً وعيّنة من دمه.

ــ لماذا؟

ــ لسببين مختلفين: من أجل السماح بتحديد موقع الضريح، بالرغم من العواصف التي من شأنها قلْب وضع المشهد، والتمكّن من التحقق بصورة أكيدة من ذلك أو تلك التي ترقد هنالك... تماماً مثلما فعلنا نحن. ثم يعود طاقم الملاحين أدراجه، على غرار رائدي الفضاء اللذين خطَوَا خطواتهما الأولى على سطح القمر. لا شيء غريباً في ما أتيتُ على ذكره لك، إذ لم نتعلم أخيراً خلال قرن من الزمن إلا السفر إلى مسافات أبعد في الفضاء. ولكن بين طيران «آدر» الأول والخطوة الأولى لــ آرمسترونغ على أديم القمر، لم يمّر سوى ثمانين عاماً. إن التقدم التقني والمعرفة التي كان لا بد من اكتسابها للانتقال من هذا الطيران الصغير إلى إمكانية انتزاع صاروخ يزن أطناناً عدة من الجاذبية الأرضية كان أمراً يفوق التصور. حسناً، أستأنف كلامي، لقد عاد طاقم ملاحينا، إلى الأرض ورفيقهم يرقد تحت طبقة ثلج المريخ. يسخر الكون من كل

ذلك ويواصل امتداده، وتدور كواكب نظامنا الشمسي حول نجمها الذي يهبها الدفء والدفء أيضاً. في غضون بضعة ملايين من السنين ــ وهي ليست بأمد طويل في تاريخ الكون ــ سيدفأ المريخ وتبدأ الثلوج الباطنية في الذوبان. عندئذ سيأخذ جثمان رائدنا المجلّد في التحلّل. ويقال إن بضعة بذور تكفي للعمل على ولادة غابة. كم من أجزاء الحمض النووي العائد إلى جثمان حوّائك الأثيوبية قد امتزجت بالماء حين خرج كوكبنا من عصره الجليدي وبدأت آلية إخصاب الحياة على الأرض. إن البرنامج الذي اشتملت عليه كل واحدة من خلايا جثمانها كانت كافية لإنجاز المتبقي، ولم يعد في حاجة إلا إلى بضع مئات الملايين من السنين الإضافية كي ينجح التطور في التوصل إلى كائنات حية معقدة مثل حواء التي كانت في أصل وجودها... «إن ليل الواحد حارس الأصل». قوم آخرون سبقونا إلى الوجود أدركوا ما قلته لك للتو...

انطفأ النيون المعلّق فوقنا، فغرقنا في ظلمة دامسة. أمسكت بيد كيرا.

ــ أنا هنا، لا تخافي، نحن معاً.

ــ هل تؤمن في ما أتيت على روايته لي، أدريان؟

ــ لا أدري، كيرا، ولكن إن سألتِني هل مثل هذا

السيناريو ممكن، فجوابي هو نعم. وتسألينى إن كان ذلك مرجحاً؟ استناداً إلى الأدلة التي عثرنا عليها فالجواب هو لماذا لا كما هي الحال في كل تقرير أو في كل مشروع بحث، يجب الاستهلال دوماً بفرضيّة. منذ أقدم العصور، الذين حققوا أكبر الاكتشافات كانوا هم أنفسهم الذين تحلّوا بتواضع النظر إلى الأمور بشكل مغاير. كان أستاذنا لمادة العلوم في المدرسة يقول لنا: «لتحقيق اكتشاف، لا بد للمرء من الخروج من منظومته الخاصة. من الداخل لا نرى شيئاً يذكر، وفي مطلق الأحوال لا شيء مما يحدث في الخارج لو كنا أحراراً ونشرنا هذه النتائج مدعومة بالبراهين التي في حوزتنا، لأثرنا ردود أفعال مختلفة، اهتماماً كما تكذيباً، بغض النظر عن الحسد الذي سيدفع العديد من الزملاء إلى التنديد بالهرطقة. مع ذلك، هناك كثر من الناس يؤمنون بالله الواحد من دون أي برهان على وجوده. يحق لنا، بين كل ما علمتنا إياه القطع والعظام المكتشفة في ديبا وكشوف تحاليل الحمض النووري الخارقة، أن نطرح على أنفسنا كل نوع من الأسئلة حول الطريقة التي ظهرت بها الحياة على الأرض».

ــ أنا عطشى، أدريان.

ــ أنا كذلك عطشان.

ــ أو تعتقد أنهم سيتركوننا نموت على هذا النحو؟

ــ لا أدري شيئاً، بدأت الحالة تطول.

ــ يبدو أنه من المخيف أن يموت المرء من العطش، فبعد زمن محدود يبدأ اللسان بالانتفاخ ويختنق صاحبه.

ــ لا تفكري في ذلك.

ــ أ أنت نادم؟

ــ أن أكون مسجوناً هنا، أجل، ولكن ليس لأي لحظة قضيناها معاً.

تنهدت كيرا: ومع ذلك، كنت وجدتُها، أقدم ممثلة للمرأة في الإنسانية.

ــ بإمكانك أن تقولي إنكِ وجدت حتى أم جدتها، لم تسنح لي الفرصة بعد لتهنئتكَ.

ــ أحبك يا أدريان.

ضممتُ كيرا بين ذراعي مفتشاً في الظلمة عن شفتيها وقبّلتها، في حين كانت قوانا تتضاءل ساعة تلو أخرى.

ــ لا بد أن يقلق والتر.

ــ لقد اعتاد أن يرانا نختفي عن أنظاره.

ــ لم ننصرف البتة من دون إخطاره.

ــ قد يقلق، هذه المرة، على مصيرنا.

همست كيرا: لن يكون هو الوحيد، ولكن تكون جهودنا أيضاً قد ضاعت في غير طائل، أعرف ذلك. سيواصل بوانكرنو تحاليله على الحمض النووي، وسيعيد فريقي عمود حواء الفقري.

ــ هل ترغبين في تسميته بهذا الاسم؟

ــ لا، كنت أرغب أن أسميّه جان. وقد أودع والتر القطع في مكان آمن، وسيدرس فريق فريج التسجيل. أما إيفوري فشقّ طريقاً، نحن سلكناه، فيما آخرون سيتابعون المسير بمعزل عنا. إنهم، عاجلاً أم آجلاً، سيعيدون سوياً إلصاق قطع اللغز.

وتوقفت كيرا عن الكلام.

ــ ما عدتِ تقولين شيئاً؟

ــ أنا متعبة جداً، أدريان.

ــ لا تستسلمي للنوم، بل قاومي باستمرار.

ـ وما نفع ذلك؟

لم تكن مخطئة، فموت المرء غافياً قد يكون أشد نعومة.

أُضيء النيون. لم تكن لدي أي فكرة عن الوقت الذي مضى مذ فقدنا الوعي. وجدت عيناي مشقة في التكيف مع النور.

هناك أمام الباب، زجاجتا ماء وألواح شوكولا وبسكويت.

هززْتُ كيرا، رطّبت شفتيها وهدهدتها متوسلاً إليها أن تفتح عينيها. فتمتمت:

ـ هل أعددت الفطور؟

ـ أعددت شيئاً مماثلاً، نعم، ولكن لا تشربي بسرعة كبيرة.

بعد أن شفت كيرا غليلها، انقضّت على الشوكولا وتقاسمنا البسكويت. كنا قد استعدنا بعضاً من قوانا وعادت إليها نضارة وجهها.

سألتني: أو تظن أنهم غيّروا رأيهم؟

ـ لست على علم بذلك أكثر منك، دعينا ننتظر.

انفتح الباب، فدخل أولاً رجلان مقنّعان، ثم رجل ثالث، حاسر الرأس، يرتدي بدلة «تويد» حسنة التفصيل، وتقدم منا قائلاً:

ـ انهضا واتبعاني.

خرجنا من زنزانتنا وسلكنا ممراً طويلاً.

قال الرجل: هناك حمامات الموظفين، هيا اغتسلا وتزيّنا، فأنتما في حاجة إلى ذلك. وسيرافقكما رجالي إلى مكتبي ما إن تكونا جاهزين.

سألته: وهل لي أن أعرف مع من لي شرف أن أتكلم؟

أجاب الرجل: أنت متصلّف، وأنا أحب ذلك كثيراً. أُدعى إدوارد آشتون. إلى اللقاء عما قريب.

بات مظهرنا شبه لائق، فواكبنا رجال آشتون عبر مسكن فاخر في قلب الريف الإنكليزي. كان القبو الذي حُبسنا فيه يقوم في الطابق تحت الأرض بجوار مصرى (بناء من زجاج للنباتات) كبيرة. ثم اجتزنا بستاناً معتنى به عناية تلفت النظر، وصعدنا درج مدخل ثم أدخلونا قاعة فسيحة جدرانها مكسوة بألواح خشبية.

كان سير آشتون في انتظارنا جالساً وراء مكتبه.

ــ لقد سبّبتما لي متاعب كثيرة.

أجابت كيرا: والعكس بالعكس صحيح تماماً.

ــ أرى أنك أنت أيضاً لا ينقصك الظرف.

ــ لا أجد شيئاً غريباً في ما كبّدتنا من آلام.

ــ لا تلوما إلا نفسيكما، ليس ذنبنا إن كنا وجّهنا إليكما تحذيرات عدة، ولكن بدا أن لا شيء قادر على إقناعكما بالتوقف عن أبحاثكما.

سألته: لكن لماذا كان لزاماً علينا أن نصرف النظر عن محاولتنا؟

ــ لو كان الأمر بيدي وحدي، لما تسنى لك طرح السؤال علي، لكني لستُ المقرر الوحيد.

نهض سير آشتون وعاد وراء مكتبه. ضغط على مفتاح فانزاحت الستائر التي تزّين جدران الغرفة الدائرية، كاشفة عن خمس عشرة شاشة تقريباً أضيئت في آن واحد. وبرز على كل منها وجه شخص، فتعرّفت للتو إلى الرجل الذي اتصلنا به في أمستردام. وقدّم رجال وامرأة أنفسهم إلينا تحت اسم مستعار لمدينة: أثينا، برلين، بوسطن،

اسطنبول، القاهرة، مدريد، موسكو، نيودلهي، باريس، بكين، روما، ريو دي جانيرو، تل أبيب، طوكيو.

سألت كيرا: من تكونون أنتم؟

ــ ممثلون رسميون لكل بلد من بلداننا، ونحن مكلّفون بالملف الذي يعنيكم.

ــ سألت بدوري: أي ملف؟

كانت المرأة الوحيدة في المجلس أول المتحدثين، معرّفة نفسها تحت اسم إيزابيل وطرحت علينا سؤالاً غريباً:

ــ لو كان لديكما الدليل على عدم وجود الله، هل أنتما على يقين من أن الناس يريدون الاطلاع عليه؟ وهل قدّرتما نتائج بث مثل هذا النبأ؟ مليارات من الكائنات البشرية يعيشون على هذا الكوكب تحت عتبة الفقر، ونصف سكان العالم يحيون حارمين أنفسهم كل شيء. هل تساءلتما ما الذي يساعد هذا العالم المتخلخل وغير المتوازن إلى هذه الدرجة على الوقوف على قدميه؟ إنه الأمل! الأمل في وجود قوة عليا وعطوفة، الأمل في حياة أفضل بعد الموت. سميّا هذا الأمل الله أو الإيمان، كما يطيب لكما.

ــ المعذرة، سيدتي، لكن الرجال يتقاتلون باسم الله.

والإتيان بالدليل على عدم وجوده سيحررهم نهائياً من كراهية الآخر. تأملي كم أزهقت الحروب الدينية من أرواح بيننا، وكم ما زالت تفتك بضحايا كل عام، وكم من دكتاتوريات راسية على قواعد دينية.

ردّت إيزابيل: لا يحتاج الإنسان إلى الإيمان بالله ليتقاتل، بل ليستمر في البقاء، وينفّذ ما تأمره به الطبيعة ويضمن استمرارية جنسه.

ردّت كيرا: والحيوانات تفعل ذلك من دون الإيمان بالله.

ـ لكن الإنسان هو الكائن الحي الوحيد على هذه الأرض الذي يعي موته بالذات، يا آنستي، وهو الوحيد الذي يهابه. هل تعلمين إلى متى ترقى معالم العاطفة الدينية؟

أجابت كيرا: لمائة ألف سنة خلت، دفن عدد من فئة «الإنسان العاقل» بالقرب من الناصرة، جثمان امرأة في حوالي العشرين من عمرها، وذلك للمرة الأولى على الأرجح في تاريخ البشرية، وكان طفل في السادسة يرقد جثمانه بالقرب منها. كذلك وجد الذين اكتشفوا ضريحها كمية من المغرة الحمراء ومن الأدوات الطقسية حول عموديهما الفقريين. كانت الجثتان آخذتين هيئة المصلّي. ثم خلصت إلى القول، مرددة أمثولة إيفوري كلمة كلمة:

وأُضيفَ إلى الحزن المواكب لفقد قريب، الضرورة الملّحة لتكريم الموت...

أردفت إيزابيل: مائة ألف سنة تقابلها ألف قرن... لو حملت إلى العالم البرهان العلمي على أن الله لم يخلق الحياةَ على الأرض، لتقوّض هذا العالم. مليار ونصف من الكائنات البشرية يعيشون في حالة بؤس لا تطاق ولا تقبل. أي رجل أو أي امرأة أو طفل يقاسي العذاب يرضى بوضعه لو كان محروماً من الأمل؟ من يمنعه من قتل قريبه، ومن الاستيلاء على ما ينقصه لو كان ضميره متحرراً من كل نظام متعال؟ لقد ارتكب الدين القتل، لكن الإيمان أنقذ العديد من الحيواًت، ووهب أشد الناس عوزاً مزيداً من القوة. لا تستطيعين أن تطفئي نوراً كهذا. بالنسبة إليكم، أنتم العلماء، الموت ضروري، وخلايانا تموت كي تعيش خلايا أخرى، نحن نموت لنخلي المكان للذين يجب أن يخلفونا. الولادة فالتطور ثم الموت في صلب نظام الطبيعة، غير أن الموت، بالنسبة إلى السواد الأعظم من الناس، ليس سوى مرحلة لمكان آخر، لعالم أفضل حيث كل ما لا وجود له سيكون، وحيث كل الذين غابوا من الحياة ينتظرونهم. أنت لم تعرفي الجوع والعطش، ولا عرفت الفاقة والعوز، بلَ سعيت وراء أحلامك، أياً كانت أفضالك، كان لك هذا الحظ؛ لكن هل فكّرت في الذين لم يواتهم مثل هذا الحظ؟ هل

ستتحلين بالقسوة الشرسة لتقولي لهم إن آلامهم على الأرض لا غاية من ورائها إلا التطور؟

تقدّمت من الشاشات لأواجه قضاتنا، ثم قلت:

هذه الجلسة الكئيبة تذكرني بتلك التي عانى منها «غاليليو». لقد انتهى الأمر بالبشرية إلى معرفة ما كان منتقدوه يريدون حجبه، ومع ذلك لم يتوقف العالَم عن الدوران، بل العكس! عندما عقد الرجل ــ المتحرر من مخاوفه ــ العزم على المضيّ قدماً باتجاه الأفق، كان الأفق هو الذي تراجع أمامه. ماذا سيكون مصيرنا اليوم، لو أن مؤمني الأمس أفلحوا في منع الحقيقة؟ إن المعرفة تشكل جزءاً من تطور الإنسان.

ــ لو أمطت اللثام عن اكتشافاتك لأحصى اليومُ الأول مئات الآلاف منَ القتلى في العالم الرابع، والأسبوع الأول الملايين في العالم الثالث. والأسبوع التالي سيشهد بداية حركة هجرة للبشرية. سيعبر مليار من الأفراد الجائعين القارات ويركبون البحر بغية الاستيلاء على كل ما لا يملكون. وسيحاول كل منهم أن يعيش في الحاضر ما كان يدّخره للمستقبل. وسيسجل الأسبوع الخامس بداية الليلة الأولى.

ــ إن كانت اكتشافاتنا مخيفة إلى هذا الحد، فلماذا

حرّرتمونا؟

ـ لم نكن ننوي فعل ذلك إلى أن أعلمتْنا محادثتكما في زنزانتكما أنكما لستما الوحيدين اللذين تعرفان. فاختفاؤكما المفاجئ سيدفع رجال العلم الذين واكبوكما إلى إنجاز أعمالكما. لكما ملء الحرية في الانصراف وأنتما وحدكما في مواجهة القرار الذي ستتخذانه. منذ اكتشاف عملية الانشطار النووي، لم يحمل رجل وامرأة هذه المسؤولية على عاتقهما.

انطفأت الشاشات الواحدة تلو الأخرى. نهض سير آشتون وتقدم نحونا.

ـ سيارتي تحت تصرفكما وسيعيدكما سائقي إلى لندن مرة جديدة.

لندن

أمضينا بضعة أيام في البيت. لم نكن أنا وكيرا لزمنا الصمت يوماً على هذا المنوال. حين كان واحدنا يفتح فاه لينبس ببضع كلمات أو بتفاهات، لا يلبث أن يلوذ بالصمت. كان والتر قد ترك رسالة نصية على جهازي، وقد تملكه الغضب لأننا اختفينا من دون أن نطلعه على أخبارنا. كان يتصوّرنا في أمستردام أو عائدين إلى أثيوبيا من جديد.

حاولتُ الاتصال به لكنه كان عصياً على الاتصال.

كان الجو السائد في «كريس ويل بليس» خانقاً، وكنت قد ضبطت مكالمة هاتفية بين جان وكيرا؛ لم تكن، حتى مع أختها، تتمكن من الحديث براحة. فقررت السفر والتوجه بها إلى هيدرا. فقليل من الشمس قد يعود علينا بنفع عميم.

اليونان

أوصلتنا السفينة من أثينا إلى المرفأ في العاشرة صباحاً. كنت أرى من الرصيف الخالة إيلينا مرتدية مريولاً، تصبغ باللون الأزرق واجهة مخزنها بضربات فرشاة كبيرة.

وضعتُ حقيبتينا وتقدمت باتجاهها لأفاجئها، وإذ بوالتر خرج من دكانها لابساً سروالاً قصيراً جداً ذا مربعات، ومعتمراً قبعة مضحكة، وحاملاً نظارتين شمسيتين أكبر مرتين مما يناسبه. كان يقشّر، بمالج في يده، الخشب وهو يغني بصوت عال وناشز نغمة «زوربا اليوناني». فشاهدنا واستدار ناحيتنا.

قال، مندفعاً للقائنا: أين كنتما ذاهبين إذاً؟

أجابته كيرا، محتضنة إياه بين ذراعيها: كنا محتجزين

في القبو! وقد اشتقنا إليك، يا والتر.

سألته: ماذا تفعل في هيدرا وسط الأسبوع؟ ألا ينبغي أن تكون في الأكاديمية؟

ــ عندما تلاقينا في لندن قلتُ لك إني بعت سيارتي وأنا أهيئ لك مفاجأة، لكنك لا تسمعني أبداً.

اعترضت على كلامه: إني أذكر ذلك جيداً، لكنك لم تبلغني ما هي هذه المفاجأة.

ــ قررت إذاً تغيير مهنتي. أودعت إيلينا ما تبقّى من مالي القليل الذي ادخرته وكما ترى، لقد نفضنا المخزن. وسوف نوسّع مساحة الواجهات، وآمل أن أتمكن من مساعدتها على مضاعفة رقم مبيعاتها بدءاً من الموسم القادم. أترى أي عائق يحول دون ذلك؟

قلتُ، مربّتاً على كتف صديقي: أنا سعيد أن تكون خالتي وجدت مديراً للإدارة لا نظير له من أجل مساعدتها.

ــ لا بد أن تصعد لمقابلة والدتك، فقد علمت الآن بوصولك، إذ أرى إيلينا ممسكة بالهاتف...

أعارنا كاليبانوس حمارين، «سريعين»، كما قال لنا وهو يسلّمنا إياهما. واستقبلتنا أمي كما يتطلب ذلك في

الجزيرة. وفي المساء، نظّمت دون أخذ رأينا عيداً كبيراً في البيت. كان والتر وإيلينا جالسين جنباً إلى جنب، وهذا يعني على مائدة أمي أنهما أكثر من مجرّد جارين.

في نهاية وجبة الطعام، دعانا والتر أنا وكيرا إلى سطيحة البيت، ثم أخرج من جيبه صرّة صغيرة ــ عبارة عن منديل محاط بخيط ــ وسلمنا إياها.

ــ هذه القطع هي لكما، وأنا قلبت الصفحة. فأكاديمية العلوم أصبحت من الآن فصاعداً من مخلّفات الماضي، وبات مستقبلي أمامكم، قال هذا وفتح ذراعيه باتجاه البحر. إفعلا بها ما يحلو لكما، وأضاف شاخصاً ببصره إليّ: آه، هناك شيء أخير! لقد تركت رسالة في غرفتك، إنها لكَ، أدريان، لكني أفضل أن تنتظر قراءتها. لنقلْ أسبوعاً أو أسبوعين...

ثم دار على عقبيه وانضم إلى إيلينا...

تناولت كيرا الصرّة وذهبت لترتّبها داخل منضدة سريرها.

في صباح اليوم التالي، طلبت مني أن أرافقها إلى الخليج الصغير حيث قمنا بالسباحة أثناء إقامتها للمرة الأولى. جلسنا على طرف السنسول الحجري الممتد فوق

البحر. قدمت كيرا الصرة لي ورمقتني ملياً، ثم قالت وعيناها تضجان حزناً وأسى:

ــ إنها لك، وأعرف ما يمثله هذا الاكتشاف لنا كلينا، لكني أجهل إن كان هؤلاء الناس يقولون الحقيقة، وإن كانت مخاوفهم تقوم على أساس من الصحة، إني لا أملك الذكاء للحكم عليها. ما أعلمه هو أني أحبك. وإذا كان قرار الكشف عما نعرفه سيؤدي إلى موت طفل واحد، فلن يسعني أبداً النظر إليك وجهاً لوجه، ولا العيش بجوارك في وقت سأكون فيه مشتاقة إليك حتى درجة الانفجار. لقد قلت ذلك مرات عدة أثناء هذه الرحلة التي لا يمكن تصوّرها، وهو أن القرارات هي مُلك لنا كلينا. إذاً خذ هذه القطع، واصنع بها ما تشاء. أياً يكن قرارك فأنا سأحترم دائماً الإنسان الذي أنت عليه.

سلمتني الصرّة وانسحبت، وبتُّ وحيداً.

بعد انصراف كيرا، دنوتُ من القارب الراسي على رمل الخليج الصغير، دفعته نحو الماء وجذّفت باتجاه عرض البحر.

على بعد ميل من الساحل، حللت الشريط المحيط بمنديل والتر ونظرت إلى القطع مطولاً. آلاف الكيلومترات توالت أمام ناظريّ. فرأيت مجدداً بحيرة توركانا، جزيرة الوسط،

المعبد على قمة جبل هوا سهان، دير كسي آن والراهب البوذي الذي أنقذ حياتنا، وتناهي إلي هدير الطائرة المحلّقة فوق برمانيا، وحقل الأرز حيث توقّفنا لملء الخزان بالوقود، وغمرة الطيار لدى وصولنا إلى بورت بلير، والهرب بالسفينة ناحية جزيرة ناركوندام؛ وزرتُ ثانية بكين، سجن غارتهر، لندن وأمستردام، روسيا وهضبة مان ـ يويو ـ نيور العالية، وألوان وادي أومو الرائعة حيث لاح لي وجه هاري. وفي كل واحدة من هذه الذكريات، كان وجه كيرا على الدوام هو المشهد الأكثر رونقاً وجمالاً.

وبسطتُ المنديل...

بينما كنتُ أرنو إلى الشاطئ، إذا بهاتفي يرن. لقد تعرّفت إلى صوت الرجل الذي كان يتوّجه إلي.

صرّح سير آشتون: أنت اتخذت قراراً حكيماً نشكرك عليه.

ـ ولكن كيف عرفت ذلك، وأنا ما لبثت أن. ..

ـ منذ رحيلك، أنت لم تفارق قط خط تسديد بنادقنا. ربما في ذات يوم... لكن صدّقني، إنه سابق لأوانه، ما زال لدينا الكثير من التقدم ليس من إنجازه بد.

أقفلت الخط في وجه آشتون، قذفت هاتفي الخلوي بغضب في عرض البحر، عائداً إلى البيت على ظهر حمار.

كانت كيرا في انتظاري على الشرفة، فناولتها منديل والتر الخاوي.

ـ أظن أنه سيقدّر أن تكون أنت من يعيده إليه.

ثنت كيرا المنديل وقادتني ناحية غرفتنا.

الليلة الأولى

كان المنزل غارقاً في النوم، فأخذنا أنا وكيرا جميع الاحتياطات للخروج من دون إثارة أقل ضجيج. تقدمنا بخطى غير مسموعة نحو الحمارين لفكّ قيدهما. خرجت أمي إلى درَج المدخل مقبلة باتجاهنا.

ـ إن كنتما متوجهين إلى الشاطئ ـ وهو جنون مطبق في هذا الفصل ـ فخذا على الأقل هاتين المنشفتين، لأن الرمل رطب وستصابان بالبرد.

ناولتنا أيضاً مصباحَي جيب وانسحبت.

بعد وقت قصير، جلسنا على ضفة الماء. كان القمر بدراً، وأسندت كير رأسها على كتفي.

سألتني: ألا تشعر بأي ندم؟

نظرتُ إلى السماء وفكرت مجدداً في «أطاكاما».

ـ كل كائن بشري مكوّن من مليارات الخلايا، ونحن مليارت البشر نسكن هذا الكوكب، وفي كل مرة تزداد أعدادنا، والكون مأهول بمليارات مليارات النجوم. ماذا لو كان هذا الكون الذي كنت أعتقد أني أعرف حدوده لم يكن

هو نفسه إلا جزءاً صغيراً من مجموعة أكبر منه أيضاً؟ ماذا لو لم تكن أرضنا سوى خليّة في أحشاء أم؟ إن ولادة الكون شبيهة بولادة كل حياة، فالأعجوبة ذاتها تحدث من المتناهي في الكبر إلى المتناهي في الصغر. هل تتخيل السفر غير المعقول الذي يكمن في الصعود حتى إلى عين هذه الأم ورؤية ما يكون ربما عالمها من خلال قزحيتها؟ الحياة برنامج غير قابل للتصديق.

ــ ولكن من هو الذي أعدّ هذا البرنامج، يا أدريان؟

خاتمة

وُلدت إيريس بعد تسعة أشــهر. لم نعمّدها، لكــننا يوم ميلادها الأول ـ بينما كنا نحملها معنا للمرة الأولى إلى وادي أومو حيث لقيت هاري ـ أهدينا إليها أنا وأمها قلادة...

لا أدري ما الذي ستختار أن تفعله بحياتها، لكنها حين تنمو وتترعرع، وتأتي لتسألني ما الذي تمثله هذه المادة الغريبة المعلّقة حول عنقها، سأقرأ لها أسطر نص قديم أودعني إياه أستاذ عجوز:

«ثمة أسطورة تروي أن الطفل في بطن أمه يعرف كل شيء عن سر الخلق وعن أصل العالم حتى نهاية الأزمنة. عند ولادته، يمرّ رسول فوق مهده ويضع إصبعاً على شفتيه كي لا يميط اللثام عن السر الذي أُفضي إليه، سر الحياة. هذه الإصبع الموضوعة التي تمحو ذاكرة الطفل إلى الأبد تترك أثراً بيّناً. هذا الأثر نملكه جميعاً فوق الشفة العليا ما عداي أنا.

ففي يوم مولدي، نسي الرسول أن يزورني، ولذلك فأنا أتذكر كل شيء...».

كيرا، إيريس، هاري وأدريان.

---

[1] كوكر هو نوع من كلاب الصيد الإنكليزية - المترجم -

[2] الانوويين: اسم شعب - المترجم.

[3] قطعة من الخيط الصبغي في نواة الخلية - المترجم.